ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم

ترجمة

نور الدين خليل

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى: ١٩٩٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب

إلى الأستاذ الفاضل فتحي صباح
والأخت الفاضلة نجوى خميس
مع تحياتي الخالصات المخلصات
نور الدين خليل
يوليو ٢٠٠٢

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الثاني: التبشير بالحرب الصليبية

الباب الثالث: الرحلة إلى الحرب

الباب الرابع: الحرب ضد الأتراك

الباب الخامس: أرض الميعاد

ثبت الخرائط

مقدمة الطبعة الثانية

تحية وتقدير ..

أولا : للمؤلف " ستيفن رانسيمان " وهو نموذج فريد في عصره ...
كان جزاء كلمة الحق لوم اللائمين من بني جلدته أصحاب الحضارة المدعين !
وقد أشار هو نفسه إلي ذلك في تقديمه للجزء الثالث ...

وثانيا : لرفيق الحياة والدراسة أخي الأستاذ محمود آدم
الذي صاحبني في هذه الرحلة الصليبية من ألفها إلي يائها ...
وكان له من سديد الرأي ، وثاقب النظرة ، وعمق البصيرة ، ما أعان علي هذه الترجمة ومراجعتها والتقديم لها ...
وصدق أحمد فارس الشيدياق حين قال :

ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا ... ولم يصل نار الحرب إلا المحارب

وثالثاً : لأهلنا في العراق ...
وهم يواجهون الصليبيين الجدد ، أصحاب الحضارة المدعين !!!
في أحدث وأشرس الحملات الصليبية ..." **الحملة الصليبية الأمريكية** " ... !!!

ورابعا : لرجال لم يوجدوا في عالمنا بعد ...
لكنهم قادمون ... والله سوف يجيؤن !! ......
يسيرون علي درب أسلافهم ... نور الدين زنكي ، وشيركوه ، وصلاح الدين ...
وإن طال الزمان ... سيأتون !!

والله سبحانه وتعالي من وراء القصد وهو ولي التوفيق !!!

الإسكندرية في ١٠ رمضان ١٤١٩ هـ — المترجم
٢٩ ديسمبر ١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الأولى

التاريخ والتأريخ

يقصد بالتأريخ على الإجمال تلك الفروع التي تتناول منـــاهج كتابـــة التـــاريخ وطرائق البحث التاريخي التي تنتهي بنا إلى ما يتعارف على تسميته بـــ"التاريخ".

وللتاريخ تراث تطور عبر ثقافات متنوعة تسبق عالمنا الحديث. ففي اليونان وروما كانت كتابة التاريخ تعتبر فرعا من فروع الأدب، وكان تقييم الأعمال التاريخية يعتمد على أسس تولي مزاياها الدرامية والأسلوبية أهمية لا تقل عما توليه للدقة التي يفـــترض أن تتميز بها تلك الأعمال. وفي العصور الوسطى اهتم التأريخ المســـيحي في أوروبـــا بإضفاء قيمة خاصة على "التأثير الإلهـــي" في شـــؤون البشر. وتميـــز عصر النهضـــة

بشغفه بالعصور القديمة ووثنيتها، وأدى ذلك فيما بعد إلى تطور الدراسات (التاريخيـــة) القديمة والقائمة على فقه اللغة، وإلى محاولة التركيز على الأسلوب؛ ثم بدأ الوعي يتجه تدريجياً إلى عملية التغير التاريخي. وعند بداية القرن التاسع عشر ظهر التأريخ كفـــرع مستقل يتناوله الأكاديميون المحترفون.

على أن من يتطلع لما يدور حوله في عالمنا المعاصر يتيسر لــــه أن يســتخلص أن التاريخ لا يمكن بأية حال أن يكون سهل المتناول. فعالمنا الحديث، وإن غدا عالماً صغيراً يسهل فيه الاتصال، على نحو لم يكن متحققاً فيما مضى، يحار المرء فيه حيال ما يتناهى إلى أسماعه من هنا ومن هناك، ولا يكاد يستطيع أن يفرق بين غث وسمين برغـــم مـــا يتاح الآن من أداة علمية لا شك في كونها قادرة. وإن شئنا أن نمثل لذلك فإننا نشـــير إلى المدرستين اللتين تولتا التأريخ للحرب العالمية الثانية. فالمدرسة الشرقية، ونعني بهـــا المدرسة الروسية، تنحو نحواً؛ والمدرسة الغربية، ونعني بها الاتجاهين السائدين في غرب أوروبا والولايات المتحدة، تنحو نحواً آخر يغاير الاتجاه الشرقي، وذلك برغم أن الشرق والغرب اللذين نشير إليهما كانا حليفين في الحرب يستجمعان قواهما ضد قوة ثالثـــة تمثلت في دول المحور التي هُزمت في نهاية المطاف ولم يُقدّر لها أن تؤرخ لنفسها ومن ثم غابت مدرسة ثالثة كان يمكن أن تعطينا تاريخاً يغاير اتجاهه الاتجاهات الـــتي اتخذتهـــا مدرستا الشرق والغرب. ويُستخلص من ذلك أن اتفاق الهدف بين الشرق والغرب في القضاء على هتلر لم يكن ليؤثر في اختلاف المصالح من ناحية، وفي تبـــاين الانتمـــاء الأيديولوجي من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك في أن الشرق والغرب كانا يستهدفان أن يقضي كل منـــهما على الآخر بأن يحقق أيهما نصراً سياسياً يؤدي إلى تسيّد الأيديولوجية التي ينادي بها. ولعلنا نرى الغرب في هذا العقد الأخير من القرن العشرين وقد أوشك أن يحقق نجاحاً

في إزاغة المذهب الشيوعي الذي ظل أصحابه لما يناهز سبعين عاماً يدّعون أنهم أصحاب عقيدة لابد لها من أن تسيطر على أرجاء العالم كله في نهاية الأمر . و لم نكن النظر فيما سجلته من تاريخ عبر السنوات السبعين التي خلت. ومن ثم يجد المرء نفسه محيّراً إزاء "تواريخ" يكتبها الناسُ عن الناس أو يكتبها الناسُ عن أنفسهم.

وهذا يعني أن عالماً شبّت أداة بحثه عن طوقها، وبلغت قدرته رشدها، يجاوز في محاولته التأريخ الرشدَ إلى غَيّ لم يكن ينبغي له إذا التزم الإنسان الأمانة والحيدة وحاول أن ينصف نفسه وينتصف لغيره، ذلك إذا أردنا التعميم. وإن شئنا أن نضيّق النظرة فأجلْناها فيما يدور في العالم الثالث، أو ما يعن للغرب أن يسميه عالماً ثالثاً، فإننا نرى أن تعاقب أنظمة الحكم في بعض تلك الدول يتيح لنا أن نقرأ تواريخ متباينة تختلف من نظام إلى نظام في الدولة الواحدة.

والغريب في ذلك أن أبناء تلك الدولة يعيشون تاريخها في ظل نظام، وتمتد بهم الأيام ليعيشوا تاريخها في ظل نظام آخر فإذاه يعرض عليهم وعلى عقول أبنائهم تاريخاً يختلف أو يكاد يختلف تماماً عما سبق أن رأوه أو عايشوه.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن التاريخ الحقيقي على عمومه يكاد يكون مغيَّباً ولابد للباحثين، معاصرين كانوا أو لاحقين، من أن يضربوا في تلك المتاهات محاولين أن يخرجوا منها بما يقارب اليقين. وهذا بدوره قريب من المستحيل، فالإنسان هو الإنسان، لا يستطيع في أية حال أن يبلغ كمالا وإن حاول. فبغرض اكتمال قدرته واستقامة أداته تبقى حَيدته أمراً صعب المنال، فهو ابن حضارته يلتزم بعقيدته ولا يكاد يستطيع أن يغفل انتماءه بالوعي حينا وباللاوعي حينا آخر.

على أننا لا نبلغ في ذلك مبلغ اليأس كله، فالإنسانية عبر تاريخها أنجبت قلة من أولئك الأفذاذ الذين ألجأتهم عبقريتهم إلى التزام مقتضيات العقل والمنطق وما ينبغي أن يكون فيما يحاولونه من عطاء في شتى أوجه المعرفة. وهناك من المؤرخين الذين اجتهدوا

جهدهم من يصدق عليهم ذلك؛ وإن كان هذا الجانب المشرق الذي تتحقق فيه غايـــة الرحمن من خلق الإنسان ما يشوبه من مآخذ تفرضها غلبة الكثرة الضالة على القِـــلة المميِّزة. ولعلنا نذكر في هذا الصدد واحداً من أعظم المؤرخين، وهو ادوارد جيبون، الذي أرّخ للإمبراطورية الرومانية فأعطى للبشرية صورة رائعة لما يمكن أن يبلغه جهد الباحث المدقق، في حيدة وأمانة، من انجاز لا يستطيع أصحاب الهوى التصدي له مهما أوتوا من قدرة. ويكفي أن نشير إلى أنه أنفق ثلاثة وعشرين عاماً مذ بدأ يفكر في كتابة تاريخه الشهير "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" وإلى أن انتهى منه، وأن نشير إلى أن هذا "التاريخ" الذي لم يكتب جيبون سواه أقام الدنيا وأثار ثورتها ووضعته الكنيسة الكاثوليكية على رأس قائمة الكتب المحظورة، وما يزال باحثوا الغرب حتى يومنا هذا يحاولون النيل من هذا العمل دون طائل.

الحاجة الماسة إلى مدرسة تأريخ عربية

إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه في سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجـــب علـــى المسلمين أن يؤرخوا لأنفسهم، وألاّ يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قـــادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شـــتى، فـــلا ينكـــرون دور الحضارة الإسلامية في قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً يجنـــح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنـــت بانقضائـــه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفي كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع

الأيام عن الجادّة التي أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيـــه، فـآل أمرهـــم إلى غيرهم، وقصرت أداتهم وضاقت آفاقهم فأصبحـوا يعـوّلون علـى من لا يبغون إلاّ مضرتهم وإذلالهم. ولكم تستشعر العقلية العربية والإسلامية القادرة في يومنا هذا الخزي كل الخزي وهي ترى أن علماءنا قد حيل بينهم وبين ينابيع الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهي ثرّة وفيرة، فاتخذوا في غالب الأمر دروباً غربية إلى معرفة توشـك أن توردهـم موارد التهلكة. وربما يبحث المرء عن مرجع عصري في التاريخ الإسلامي على عمومه فلا يكاد يجده متكاملا، وإن وجده فهو مبتسر يعوّل في الغالب على مراجـع غربيـة فينقل عنها نقلا مباشراً رديئاً يخلو من إعمال العقل ومن أية قدرة نقدية. وتتواتر بذلك في مراجعنا العربية التي يقدّر لأبنائنا أن يدرسوها تلك الأخطاء التي تعمدها الغربيون في غيّهم أو اقترفوها في جهلهم. وينبغي لنا، وتلك هي الحال، أن نعيد تقييم وتقويم الأمر كله، فنصحح النظرة، ونَلْقَن العبرة، ونحاول العود إلى الطريق القويم، والعود إن شـاء الله أحمد.

هذه الترجمة

إن إجالة النظر فيما كتبه الغربيون ويكتبونه في تناولهم لحضارتنـا وحضـارتهم تظهر أن أداتهم البحثية، من الناحية الفنية، متكاملة ومقتدرة، وهم يسخرونها في غالب الأمر في حرب عوان ضدنا. ولكم تحولنا بأنظارنا وجهدنا إلى مراجعنا المعاصرة فلـم نجد ما يشفي غُلّة أو يهدي إلى سواء سبيل. ويصدق ذلك على التاريخ الإسلامي بعامة والتواريخ العربية بخاصة، مما دعانا في نهاية المطاف إلى أن نحاول أن ننتقي من بين مـا كتب الغربيون في ذلك ما هو أقرب إلى ما ينبغي أن يكون لننقله إلى لغتنا حتى يفيـد أبناؤنا من شهادة حق تحجّ من نطاق الغلبة فيه لغير المنصفين من الدارسين.

وليس ثمة شك في أن الحملات الصليبية، بكل ما تبينه من جوانب، لها بالغ الأثر في مسيرة الصراع بين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات تنتهي إلى ما يسمى بالحضارة الغربية الحديثة في نطاق ما يسميه ارنولد توينبي "التحدي والاستجابة"؛ومن ثم كان ينبغي أن تتوفر عنها في اللغة العربية مراجع توفيها ما هي خليقة به من اكتمال الصورة والشمول. بيد أن ذلك لم يتحقق . وبيْنا نحن نجول في الساحة الغربية وقعنا على مرجع شامل يتناول تلك الحملات مذ بدأت وإلى أن انتهت، ويجاوز ذلك إلى تناول دقيق لما سبق تلك الحملات من ظروف ومقدمات. وما كنا لنقف طويلا إزاء هذا المرجع إن اقتصر أمره على ذلك، فالشمول والاكتمال يستطيع الباحث أن نتهي إليهما من مراجع متعددة أو حتى من شذرات متفرقة، وإن استحال ذلك على القارئ العام. غير أن أبين ما يمتاز به هذا المرجع، وهو "الحملات الصليبية" الذي كتبه ستيفن رانسيمان، يتمثل في قدرة فريدة على إضفاء "نبض الحياة" على السرد التاريخي الذي يحيل الصفحات المكتوبة إلى واقع يكاد يكون معاشا بما فيه من تفصيل يبين اتجاهه ويظهر مغازيه. ويضاف إلى ذلك أننا نجد أنفسنا إزاء عقلية قادرة محققة ومتحققة تلتزم جانب الإنصاف والحيدة التي لا تتأتى إلا لتلك القلة من الأفذاذ الذين يتميزون رحابة الأفق وعمق النظرة ونفاذ البصيرة، فضلا عن حس إنساني يتعاطف مع الإنسان، ويرجو له أن يتأثر القيمة العليا، على اختلاف المكان والزمان.

ولتنظر معنا أيها القارئ إلى ما يقوله رانسيمان وهو يصف دخول الصليبيين بيت المقدس في شهر يولية ١٠٩٩ ميلادية: "...إن الصليبيين وقد جنوا بما أحرزوه من نصر كبير بعد المعاناة، اندفعوا عبر الطرقات والمنازل والمساجد يقتلون كل من صادفهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طيلة عصر ذلك اليوم وتلك الليلة . و لم تسبغ راية تانكريد أية حماية على أولئك الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، ففي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اقتحمت عصبة من الصليبيين المسجد وقتلت كل من فيه. وعندما طاف ريموند أوف أجيليه بالمنطقة التي يقع فيها

المسجد كان عليه أن ينقل الخطى ليجد طريقا بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه". ويقــول في موضع آخر: "..وكان الجيش في معرة النعمان يعاني الجوع بعد أن نفدت المؤن التي استولى عليها من الجوار، ولم يكن له من سبيل سوى أن يأكل لحوم البشر".

ويظهر رانسيمان ذلك المدى البشع الذي وصل إليه الصليبيون في تقتيلــهم المســلمين المسالمين في المسجــد الأقصى من ناحية، ويبين من ناحية أخرى حقيقة كــان لابــد لمؤرخ مسيحي أن يواريها، وهي أكلهم لحوم البشر، وهذا دَرْك لا ينحدر إليه الحيوان، ويواصل رانسيمان سرده ليظهر كيف أن صليبياً واحداً، من الذين صــاحبوا الحملــة وأرخوا لها، هو الذي أنكر على المسيحيين ذلك بعد أن لاحظ كيف ارتاع الأتـــراك المسلمون من مشاهد أكل لحوم البشر.

وهذان الاستشهادان، على ما فيهما من بشاعة لا يكاد يجلوها بيان، لا يعطيـــان إلاّ صورة محدودة للغاية لما نرمي إليه. وتتجلى حيدة رانسيمان في أنه لا يكـــاد يجــد مأخــذاً واحداً على خاصة المسلمين أو عامتهم؛ بل يتجاوز ذلــك إلى القــول وهــو يوضح واحداً من مواقف الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس: "...وكان ألكسيوس علــى حق في أن يرى أن رعاياه المسيحيين الأرثوذوكس سيكونون أحســن حــالا في ظــل الحكم الفاطمي المتسامح الذي يتيح لهم ما لم يتحه حكم الفرنجة الذين أظهروا في واقع الحال عداوة واضحة للمسيحية السائدة في أنطاكيــة". ويقــول في موضــع آخــر: "...ووجدت كنائس الهراطقة أن الغزو اللاتيني يؤذن بفترة أفول لها بعد أن كانت تنعم بالتسامــح في ظل الحكم الإسلامي". وتتواتر أمثال هذه الصورة في الأجزاء الثلاثــة التي أرخ فيها للحملات الصليبية، ونقدم في هذا المجلد جزءها الأول، والتي بين فيــها البواعث الحقيقية لتلك الحملات، وتظهر دون مراء أن الصليبيين لم يكونوا أصحــاب دين يحركهم بقدر ما كانوا طلاب دنيا تجعلهم يذهبون كل مذهب مدفوعين بأهوائهم ومطامعهم؛ ويجلوا ذلك ما يورده رانسيمان في مختلف المواضع من تفاصيل لا يكــاد يقف عندها غيره ممن أرخوا لأبناء دينهم وعشيرتهم، مثــل قوله: "... إن الصليبيــين

وهم يحاصرون أنطاكية تركوا المسلمين يتسللون في الليل من المدينة المحاصَرة ليدفنوا في المقابر المجاورة موتاهم الذين قتلوا في معركة ذلك اليوم، ولكن الصليبيين نبشوا القبور في صباح اليوم التالي وأخرجوا جثث الموتى لينتزعوا منها حلى الذهب والفضة". ولنتأمل معاً قول رانسيمان: "...من الموكد أن يتضح أن الأمراء الصليبيين لم يكونوا على استعداد للتعاون من أجل صالح العالم المسيحي عندما تسنح لهم فرصة الاستحواذ على غنائم شخصية؛ وسرعان ما أدرك المسيحيون من أهل البلاد أن مخلصيهم الفرنجة لم تكن تحدوهم عاطفة إيثار حقيقي، وعرفوا أن أحسن ما يمكن أن يستفيدوا به من أولئك الأمراء الصليبيين يتمثل في السعي بالوقيعة بينهم، وتلك لعبة يسيرة".

وأمثال تلك الوقائع عديدة عند رانسيمان، ويسترعي النظر فيها أنها تحكم الصلة بين الأحداث التاريخية، حلقة إثر حلقة، وتنتهي إلى بلوغ غاية تجلو اتجاها عاما يميز الحملات الصليبية ويضعها في منظور عام متكامل بين حركة التاريخ وسماته عبر القرون التي وقعت فيها تلك الحملات.

ولعله لا يفوت عيني القارئ وخياله لمسات يضفيها رانسيمان بريشة فنان بارع إلى اللوحة التي يصور فيها جوانب في الحملات الصليبية تضفي على واقعها ألوانا تجلو منظورها وتعين المتلقي على استيعابها واستخلاص مراميها، وإن كانت اللمسات رقيقة رفيقة فهي تنبئ وتعلق دون أن تفصح وتقرر؛ فليس من قبيل خفة الظل، على سبيل المثال، أن يقول رانسيمان في تقديمه للدور البارز الذي قام به بطرس الناسك في التهيئة والإعداد لحملة الشعب: "كان بطرس الناسك رجلا قصير القامة، قاتم اللون، ذا وجه طويل نحيل يشبه في صورة مفزعة حماره الذي لا يفارقه والذي كان الناس يولونه من التبجيل ما يقارب تبجيلهم لراكبه". ولا شك أن مثل هذه اللمسة البارعة، التي ربما يظن أن لا موضع لها عند مؤرخ حاد كرانسيمان، توحي بتقييم

يكاد يكون شاملا يعكس ما اصطبغت به تلك الحملات الصليبية من قتامة وجهالـــة. ولسوف يجد القارئ من أمثال هذه اللمسة الشيئ الكثير في رحلته مع رانسيمان مـــن الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة.

ويرتب رانسيمان تاريخه ترتيبا عاما يتسق مع ما تهتم به المدرسة الغربية من إيجاد صلة بين الحدث والهدف . فنراه بعد أن استفاض في التقديم للحملات الصليبية يأخذ بما جرى عليه الغربيون من تقسيم للحملات الصليبية فيجعل حملة أمراء الصليبيين الـــتي استطاعت أن تبلغ بيت المقدس الحملة الصليبية الأولى في حين أن تلك الحملة ســبقتها حملتـــان: الأولى هي حملة الشعب التي بدأت في أعقاب الخطاب الذي ألقـــاه البابـــا إيربـــان الثاني في مدينة كليرمونت الفرنسية في يوم الثلاثاء السابع والعشريـــن مـــن نوفمبر ١٠٩٥ ميلادية، والثانية هي الحملة الصليبية الألمانيـــة، و لم يقـــدر لكلتيـــهما الوصول إلى فلسطين.

ويلاحظ أن المؤرخين العرب، وهم يتأثرون خطى المؤرخين الغربيين، يتجاهلون أول حملة صليبية، وهي التي تعرف بحملة الشعب بقيادة بطرس الناسك التي احتشد فيهـــا الكثيرون من أبنـــاء الدول الأوروبية على اختلافها نتيجة لمساعي البابا إيربان والجـــولة الواسعة التي قام بها في أرجـــاء فرنسا وإيطاليا سنة ١٠٩٥ ميلادية . وتمثل أحـــداث تلك الحملـــــة أشكال الفوضى العارمة والوحشية المروعة التي سادت بين المشتركـــين فيها من المسيحيين على نحو لم يسبـــق إليه البرابرة، والتي تظهر أن العقيدة الدينيـــة وحـــدها لم تكن هي الدافع وراء تلك الحملة التي جمعت شذاذ الآفاق والقتلة والمجرمين إلى أبناء الأسر الأوروبية النبيلة الذين كانوا يسعون إلى تعويض ما فاتهم نتيجة تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر وحده في الميراث على حساب المسلمين في الشرق . وليس ثمة شك في أن الهزيمة الماحقة التي ألحقها السلاجقة بصليبيي تلك الحملة والفشل الذي انتهت إليه الحملـــة الصليبية الألمانيـــة كانا العامل الهام الذي أدى إلى الحملة الصليبية الثالثـــة والتي يصنفها المؤرخون على أنها الحملة الأولى، في حين أنه لولا حملة الشعب

والحملـــة الصليبية الألمانية لما كانت هناك حملات أخرى، إذ من الواضح أن الجهود الهائلة التي بذلتها الكنيسة في سبيل القيام بهاتين الحملتين لم تكن لتؤدي إلى شيئ مالم يجد الصليبيون في الهزيمة النكراء التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الصليبيين تعلّة قوية تؤازرهم في دعواهم إلى الحملة التالية التي يقول مؤرخوا الغرب والمؤرخون العرب إنها الأولى ونقـــول نحن إنها الثالثة . ويستطيع كل من يرجع إلى المنصفين من مؤرخي الغرب أمثال رانسيمان أن يتبين في جلاء لا تشوبه أدنى ريبة حقيقـــة ذلـــك. ومـــن الطريف أن الغربيين ينظرون إلـــى هرقل الذي حارب الفرس سنة ٦٢٢ ميلادية علـــى أنه أول صليبي برغم أن حربه مع الفرس بدأت قبل الحملات الصليبية بخمسة قـــرون، ولا يفوت مؤرخهم وليم الصوري ذكر ذلك في كتابه عن الحملات الصليبية الـــذي سماه "كتاب هرقل".

وإذ أحمد العلي القدير على ما وفقني إليه، أرجو أن يفيد من هذا العمل القارئ العام الذي ينبغي له أن يلم بحلقات بالغة الأهمية من تاريخ حضارته، والباحث الذي لا يجد سبيلا ميسورا إلى ما يكتب في هذا المجال في لغة غير لغته، والله الموفق.

جنيف ١٩٩٣ **نور الدين خليل**

مقدمة المؤلف

هذا هو المجلد الأول من ثلاثة مجلدات تستهدف تغطية تاريخ الحركة التي نطلق عليها الحروب الصليبية - من بدايتها في القرن الحادي عشر إلى نهايتها في القرن الرابع عشر - وتاريخ الدول التي أوجدتها تلك الحروب في الأراضي المقدسة والبلدان المجاورة. وأرجو أن أعطي في المجلد الثاني تاريخ ووصف مملكة القدس وعلاقتها بشعوب الشرق الأدنى وبالحروب الصليبية في القرن الثاني عشر؛ ثم أعطي في المجلد الثالث تاريخ مملكة عكا والحروب الصليبية وما تلاها.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها أكثر المغامرات المسيحية جسامة ورومانسية ، أو على أنها آخر الغزوات البربرية ، فإنها تشكل حقيقة مركزية في

تاريخ القرون الوسطى. فقبل ابتدائها كان مركز حضارتنا يتخذ مكانه في بيزنطة وأراضي الخلافة العربية، وقبل انقضائها انتقلت الهيمنة على الحضارة إلى أوروبا الغربية، ومن خلال هذا التحول وُلد التاريخ الحديث. غير أنه لا ينبغي لنا، كي نفهم هذا التاريخ، أن نقف عند الظروف التي كانت سائدة في أوروبا الغربية والتي أدت إلى الاندفاع الصليبي، بل علينا أن نجاوز ذلك، على نحو ربما يتطلب مزيدًا من الإفاضة، إلى ظروف الشرق التي أتاحت للصليبيين فرصتهم وترتب عليها تقدمهم ثم انسحابهم. ولابد لنا من أن نُنقّل النظرة من الأطلنتي إلى منغوليا. فمغزى القصة يضيع إذا رويت من وجهة نظر الفرنجة وحدهم، أو من وجهة نظر العرب وحدهم، أو كما يراها ضحاياها الرئيسيون ـــ مسيحيو الشرق ذلك أن هذه القصة، كما يرى جيبون، مناظرة عالمية.

وقصة الحروب الصليبية لم ترو في غالب الأمر على إجمالها في اللغة الإنجليزية، ولا توجد في هذا البلد مدرسة فعّالة تُعنى بالتأريخ الصليبي. والفصول التي كتبها جيبون في كتابه إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـــ برغم تحامله والتاريخ الذي كان يكتب فيه ـــ جديرة بالدراسة. ثم يأتينا بعد جيبون ذلك الموجز الحاذق الذي كتبه سير ارنست باركر عن الحركة الصليبية ونشر في البداية في دائرة المعارف البريطانية، ونضيف إليه تاريخ الممالك الصليبية الذي يثير الإعجاب على ما فيه من اقتضاب والذي كتبهى. ب. ستيفنسون. بيد أنّ الإسهام البريطاني في هذا المجال يتشكل في غالبه من مقالات كتبها العلماء، ومن النقل عن المصادر الشرقية ومن عدد قليل من التواريخ التي كتبها غير المتخصصين. أما فرنسا وألمانيا فلهما في ذلك تراث يجاوز ما لبريطانيا من حيث الكم والمدى. وتبدأ التواريخ الألمانية العظيمة المتعلقة بالحروب الصليبية بالتاريخ الذي كتبه ويلكين ونشره في مطلع القرن التاسع عشر، ولا يزال تاريخ فون سيبيل الذي نشر أول مره سنة ١٨١٤ يحظى بأهمية بالغة؛ ويعقب ذلك في نفس القرن ما قام به اثنان من الدارسين المبرزين ـــ هما روهريشت، هاجنماير ـــ من

عمل بالغ القيمة لا يقتصر على جمع المادة التاريخية من مصادرها ونقدها وحسب، وإنما يجاوز ذلك إلى قيامهما بكتابة تواريخ شاملة. ويتواصل التراث الألماني في السنوات الأخيرة عبر ما قام به اردمان في دراسته الجامعة للحركات الدينية في الغرب التي أدت إلى الحروب الصليبية. وفي فرنسا التي جاء منها في البداية أكبر عدد من الصليبيين، يظهر اهتمام الدارسين بنشر أهم المصادر الغربية والإغريقية والشرقية في العمل الفرنسي الضخم مجموعة تواريخ الحملات الصليبية في منتصف القرن التاسع عشر. وكان تاريخ ميشو المستفيض قد ظهر بالفعل في السنوات التي تلت سنة ١٨١٧؛ وفي أواخر ذلك القرن أخرج ريانت وأعوانه في جمعية الشرق اللاتيني كثيرًا من الأعمال القيمة. وفي القرن الحالي اهتم اثنان من الدارسين المتميزين في الدراسات البيزنطية هما شالاندون، وبريهير بالحروب الصليبية؛ وقبل الحرب العالمية بقليل أخرج م. جروسيت تاريخه عن الحروب الصليبية في ثلاثة مجلدات، وهو تاريخ يجمع في التراث الفرنسي ما بين العلم الواسع وحسن الكتابة ولمسة من الوطنية الغالّية. على أن أكثر مدارس مؤرخي الحروب الصليبية نشاطًا توجد في الولايات المتحدة، وهي مدرسة بدأها د. س. مونرو الذي كان لإنتاجه الأدبي المقل على نحو مؤسف أثره السلبي على أهميته كمعلم. ولايزال المؤرخون الأمريكيون يركزون حتى الآن على الجوانب التفصيلية، ولم يحاول أيهم بعد أن يضطلع بتقديم تاريخ شامل كامل؛ وإن كانوا قد وعدوا بتقديم عمل جامع يشترك في القيام به بعض الدارسين الأجانب كي يغطوا مجال التاريخ الصليبي بأكمله؛ ويؤسفني أن هذا العمل لم يصدر في وقت يسمح لي بالإفادة منه في كتابة هذا المجلد.

وربما يبدو أن إقدام "قلم" بريطاني واحد على منافسة "أكداس الآلات الكاتبة الأمريكية" عمل لا يتسم بالحكمة، وواقع الحال أنّ الأمر لا ينطوي على منافسة. ذلك أنه لا يتأتى لكاتب واحد أن يتحدث بمثل ما لجماعة من الخبراء من سلطان كبير، وإن كان يستطيع أن يضفي على عمله صفات تكاملية وملحمية لا يتأتى بلوغها لمجلد

يشترك عديدون في وضعه. فهوميروس شأنه في ذلك شأن هيرودوت، كان أبا التاريخ، وهذا أمر وعاه جيبون أعظم مؤرخينا؛ وإنــه لمن الصعــب، وإن رغــم النقــاد، أن نعتقد أن هوميروس لم يكن كاتبًا واحدًا وإنما مجموعة من الكتاب. وكتابة التــاريخ في أيامنا هذه عادت بنا إلى عصر الإسكندرية الذي تفوق فيه النقد على الإبداع. والمؤرخ الحديث ـــ الذي تواجهه أكداس هائلة من دقائق المعرفة والذي يرهبه تشدد زملائـــه الذين يترصدون له ـــ غالبًا ما يلوذ بكتابة المقـــالات العلميـــة أو الأبحـــاث ضيقـــة التخصص، وهى قلاع صغيرة يسهل الدفاع عنها عند مهاجمتها. ويمكن لعمـــل هـــذا المؤرخ أن يتسم بأعلى قيمة، بيد أنه لا يشكل الغاية المرجوة في حد ذاته. وأحسب أن أسمى واجب للمؤرخ هو أن يتصدى لكتابة التاريخ، أيّ أن يحاول أن يسجل في تتابع متلاحق كبريات الأحداث والحركات التي وجهت أقدار الإنسان. والكاتب الذي تبلغ به المجازفة محاولة ذلك لا ينبغي أن ينتقد لطموحـــه، وإن استحق كثيرًا مـــــن اللـــوم لقصور أداته أو خواء نتائجه.

وأورد في حواشي الصفحات المراجع التي اعتمدت عليها فيما خلصت إليه، كما أورد في مسرد مراجعي قائمة بالأعمال التي رجعت إليها. وأنا مدين لكثير منها بفضل كبير، حتى وإن لم أكن قد استشهدت بها في الحواشي. والأصدقـــاء الذيـــن أعـــانوني بنقدهم ونصحهم عديدون بحيث لا يتأتى ذكرهم.

ولايفوتني أن أبدي ملاحظة عن كيفية نقل الأسماء من لغة إلى أخرى. فحيـــث ترد أسماء مسيحية لها شكل إنجليزي مقبول مثل ـــ جون أو جودفـــري أو ريمونـــد ـــ فإنني آخذ به اجتنابا للحذلقة؛ ولقد حاولت دائما أن استخدم الشكل الشـــائع الـــذي يلقى قبول القارئ الإنجليزي العادي. واستخدمت الحروف اللاتينية في نقـــل حـــروف الكلمات الإغريقية وهو النهج المتبع الوحيد الذي يلائم ذلك. وتتمثـــل في الحـــروف العربية صعوبة أكبر فالنقط وعلامات نطق الحروف الحلقية التي يوصي بها المتخصصون تجعل القـــراءة صعبة. ومن ثم حذفتها، وإن كنت آمل أن يكون النسق الذي اتبعتـــه

واضحا. وفي الأرمينية حيث يصح أن تحل K محل G و B محل P بحسب المكان أو الفترة الذي أو التي استخدمت فيه الكلمات، فإنني التزمت بما استعمل في القديم منها. وتشكل الأداة الفرنسية de مشكلة دائمة، وقد ترجمتها في جميع الحالات التي لم تكن فيها جزءًا من كنية محددة.

وأود في النهاية أن أشكر مسئولي وأمين مطبعة جامعة كمبريدج لفضلهم وعونهم الدائبين.

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٠

البـــاب الأول :

أماكن العالم المسيحي المقدسة

الفصل الأول :

رجســـــة الخـــراب

رجســة الخــراب

"فَمَتَى نَظَرْتُم رِجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيــآلُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ."

(إِنْجِيلُ مَتَّى ٢٤ ــ ١٥)

دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس في أحد أيام فبراير (شبـــاط) ســنة ٦٣٨ ميلادية على ناقة بيضاء، مرتديًا ثيابًا رثة بالية، والجيش من خلفه أشعث أغـــبر وإن كان نظامه في ذروة الكمال. وكان بجانبه البطريق سوفرونيوس كبير القضـــاة في المدينة المستسلمة ، ومضى عمر مباشرة إلى معبد سليمان الذي عرج منه النبي محمد إلى

السماء، وتمتم البطريق وعبراته تفيض — وهو يرى عمرا واقفا هناك — مرددا: "أنظروا رحسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي".

وأبدى الخليفة رغبته في مشاهدة مزارات المسيحيين فصحبه البطريق إلى كنيسة القبر المقدس وأراه كل ما كان هنالك. وعندما حانت ساعة الصلاة استفسر الخليفة عن الموضع الذي يمكن أن يبسط فيه سجادة الصلاة، فرجاه سوفرونيوس أن يبقى حيث هو، لكن عمر خرج إلى رواق الاستشهاد خشية أن يدعي أتباعه الغير حقا للإسلام فيه، كما حدث بعد ذلك إذ استولى المسلمون على الرواق وبقيت الكنيسة كما كانت أقدس حرمات العالم المسيحي. (١)

وتم ذلك طبقا لشروط استسلام المدينة؛ فبينما قضى النبي نفسه بتخيير عباد الأوثان بين الدخول في الإسلام أو الموت، سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود (الذين ألحق بهم الزرادشتيين تلطفا) (٢) بالاحتفاظ بدور عباداتهم يمارسون فيها شعائرهم دون قيد، و لم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يحملوا سلاحا أو يعتلوا جوادا وعليهم أن يدفعوا نوعا من ضريبة الرأس تعرف بالجزية. (٣) و لم يكن سوفرونيوس ليرجو شروطا أفضل من تلك وهو يخرج راكبا حماره — بعد أن منح الأمان — ليقابل الخليفة على جبل الزيتون، إذ رفض أن يسلم المدينة لأي شخص دون الخليفة منزلة. ومضى على حصار القدس مدة تجاوز العام، فلم يكن

---

(١) Theophanes, ad ann. 6127, p. 333 ; Eutychius, *Annals,* col. 1099; Michael the Syrian,vol. ii, pp. 425-6; Nisibin,p.64. An excellent summary of the sources is given in Vincent and Abel, *Jérusalem* Elias of *.Nouvelle,* vol.ii,pp.930-2

(٢) (المترجم) : ليس هذا صحيحا وإنما يرجع ذلك إلى أباطيل المورخين والمستشرقين الذين خلطوا بين أهل الكتاب وغيرهم .

(٣) See the article " Djizya " by Becker in the *Encyclopaedia of Islam,* and Brown, *The Eclipse of .Christianity in Asia,* p.29-31

العرب على خبرة بحروب الحصار و لم يكونوا مجهزين لها كما ينبغي، فوقفوا عـــاجزين أمام التحصينات التي حددت مؤخرا. وأخذت المؤن تتناقص داخل المدينـــة وتبـــددت الآمـــال في إنهاء الحصار، فالبلاد كلها في قبضة العرب وقد تـــوالى ســـقوط المـــدن الســـورية والفلسطينية واحدة تلو الأخرى، وكان أقرب جيش مسيحي إليـــهم هـــو الذي في مصر، باستثناء حامية صامدة في قيسارية على الســـاحل تحميـــها البحريـــة الإمبراطورية. وكل ما استطاع أن يحصل عليه سوفرونيوس من الفاتحين بالإضافـــة إلى الشروط المعتادة هو السماح لمسئولي الإمبراطورية في المدينة بأن ينسحبوا إلى ســـاحل قيسارية في أمان ومعهم عائلاتهم ومايمكن أن يحملوه من متاع.

وكان هذا آخر إنجاز عام قام به البطريق. وتلك نهاية مأسوية لحياة طويلة قضاها في دأب كي يستقيم العالم المسيحي ويتحد؛ فمنذ أيام شبابه التي أمضاها في تطـــواف بأديرة الشرق مع صديقه جون موسكاس، يجمعان غذاءهما الروحي من أقوال القديسين وأقاصيصهم، وإلى آخر أيامه، وبعد أن عينه الإمبراطور بطريقا لأسقفية القدس الكبرى برغم معارضته لسياسته، وهو يكافح في صلابة الهرطقات والقومية الوليدة التي كـــان يرى أنها ستقطع أوصال الإمبراطورية. بيد أن ما دعا إليه وقام به هذا البطريق الـــذي عرف "بالمدافع عن الدين معسول اللسان" ذهب سدى. فالفتح العربي برهـــن علـــى فشله، ومات كسير القلب بعد وقوعه بأسابيع قليلة. (١)

---

(١) أنظر: . Mansi, *Concilia Nova Collectio,* vol. X, col. 607

ومن المؤكد الآن أن سوفرونيوس البطريق هو نفسه سوفرونيوس صديق **Moschus**.

أنظر: . Usener, *Der Heilige Tychon,* pp. 85-104

بقاء الإمبراطورية في الشرق

ولم يكن بوسع بشر، في واقع الحال، أن يوقف حركات التمزق في المقاطعات الشرقية لروما، فعبر تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان الصراع كامنا بين الشرق والغرب. وإن كان الغرب قد انتصر في أكتيوم فإن الشرق تغلب على غزاته؛ ومصر وسوريا كانتا أغنى أقاليم الإمبراطورية وأكثرها سكانا وفيهما أهم مراكز الصناعة في الإمبراطورية، وتسيطر سفنهما وقوافلهما على تجارة الشرق، وتفوق ثقافتهما الروحية والمادية ثقافة الغرب بكثير، ولا تقتصر علة ذلك التفوق على تراثيهما العريقين وحسب وإنما تنصرف كذلك إلى قربهما من مملكة الساسانيين الفارسية التي كانت تمثل حافزا لهما والتي كانت الند الحضاري الوحيد لروما، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أن يتعاظم نفوذ الشرق، وظل الأمر كذلك إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين العظيم في نهاية الأمر دينا شرقيا ونقل عاصمته إلى الشرق في بيزنطة على البسفور. وعندما ضعفت الإمبراطورية، في القرن الثاني، لما أصابها من تآكل في الداخل، كان عليها أن تواجه هجمة البرابرة، فهلك الغرب وبقي الشرق، بفضل سياسة قسطنطين في غالب الأمر. وبينما أخذت الممالك البربرية تنشأ في الغال وإسبانيا وأفريقيا وبريطانيا النائية وأخيرا في إيطاليا، كان الإمبراطور الروماني يحكم المقاطعات الشرقية من القسطنطينية. ونادرا ما كانت حكومة روما تحظى بشعبية في مصر وسوريا، وسرعان ما أثارت حكومة القسطنطينية تبرما مريرا أخذ في التزايد، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ظروف خارجية. فالفقر الذي حل بالغرب كان يعني ضياع أسواق للتاجر السوري والصانع المصري، كما أن الحروب المتصلة مع فارس عرقلت طريق التجارة الذي كان يمضي خلال الصحراء إلى أنطاكية والمدن اللبنانية. وبعد فترة وجيزة سقطت إمبراطورية الحبشة وتفشى الاضطراب في الجزيرة العربية، وأغلق نتيجة لذلك طريق تجارة البحر الأحمر الذي كان يسيطر عليه بحارو مصر وأصحاب القوافل في البتراء والأردن جنوب فلسطين . وأصبحت القسطنطينية السوق الرئيسية للإمبراطورية، وكانت تجارة

الشرق الأقصى، التي شجعتها دبلوماسية الإمبراطور تبحث لها عن طريق مباشر يتجه إلى الشمال عبر سهول أواسط آسيا، فتولدت المرارة بين أبناء الإسكندرية وأنطاكيـــة، وتملكتهم الغيرة من تلك المدينة حديثة النعمة التي كانت تنذر بالسيطرة عليهم. وزادت مرارة السوريين والمصريين من مركزية الحكومة الجديدة، ومن تقلص الحقوق المحليـــة وحقوق الأقليات على نحو مطرد؛ وكان جابي الضرائب أكثر صرامة وإلحاحا منـــه في أيام روما القديمة، فتفشى السخط وأضاف قوة جديدة إلى قومية الشرق التي لا يغلبها النعاس أبدا لوقت طويل.

النساطرة والوحديطبعيون (١)

وتفجر الصراع حول القضايا الدينية علانية. ولا شك في أن الأباطرة الوثنيـــين كانوا متسامحين حيال العبادات المحلية، إذ يمكن للآلهة المحلية أن تجد في يسر مكانا لهـــا بين الآلهة الرومان، وأما المعاندون من الوحديطبعيين، كالمسيحيين واليهود، فكانوا هم الفئة الوحيدة التي عانت من نوبات اضطهاد بين الحين والآخر. ولم يستطع الأبـــاطرة المسيحيون أن يتحلوا بمثل ذلك التسامح، فالمسيحية لا تقبل آلهـــة آخريـــن، وأرادوا استغلالها كقوة موحدة لربط كل رعاياهم بالحكومة. وكان قسطنطين، الذي التبست عليه أمور اللاهـــوت بعض الشيء، قـــد سعى من قبل إلى توحيد الكنيسة التي مزقها

(١) (المترجم) : علينا أن نلاحظ الفارق بين Monophysite التى تعنى الوحد يطبعى فى العقيدة المسيحية أى القائـــل بالطبيعـــة الواحـــدة للرب ولا يرى أنه ذو طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى بشرية ، وبين Monotheist أى التوحيدى والتى تعنى القائل بالتوحيد أى الذى يؤمن بأن الله واحد لا شريك لـــه وليس له ثلاثة أقانيم .

الجدل الأريوسي (١) . وبعد مضى نصف قرن جعل ثيودسيوس العظيم الامتثال لأعراف الكنيسة أمرًا ينبغي أن يأخذ به الأباطرة. بيد أن ذلك الامتثال لم يكن سهل المنال . فالشرق كان قد أقبل على المسيحية في تلهف، وتناول اليونانيون مشكلاتها بما يستهويهم من الجدل الحاذق الذي أضاف إليه أهل الشرق المتأثرون بالاتجاه اليوناني حدة عاطفية جائحة سرعان ما ولدت تعصبًا وكراهية. وكان الموضوع الرئيسي الذي اختلفوا حوله هو طبيعة المسيح التي تتمثل فيها المشكلة المحورية بالغة الصعوبة في اللاهوت المسيحي كله. ولإن كان هذا الجدل لاهوتيًا، فإنه كان يستهوي في تلك الأيام رجل الشارع الذي نظر إليه على أنه ضرب من ضروب التسرية التي لا يفوقها متعة سوى ألعاب السيرك. بيد أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فالسوريون والمصريون بعامة كانوا يريدون طقوسا أبسط من تلك التي تمارسها الكنيسة الأرثوذوكسية بما فيها من أبهة يؤذيهم بذخها وهم يعانون من فقر متزايد وينظرون إلى أحبار الكنيسة وقساوستها على أنهم عملاء لحكومة القسطنطينية؛ وانتهى ذلك بكبار رجال الكنيسة إلى معداة مماثلة للسوريين والمصريين. وكان بطارقة الكراسي الأسقفية القديمة في الإسكندرية وأنطاكية يتميزون غيظا من إخوانهم حديثي النعمة في القسطنطينية الذين يجاوزونهم في الأسبقية، فليس ثمة بد إذن من أن تظهر الهرطقة وتتخذ شكل حركة قومية انشقاقية.

وسرعان ماخبت جذوة الأريوسية في الشرق، باستثناء الحبشة، بينما بقيت هرطقات القرن الخامس عشر بعد ذلك. ففي بداية القرن أعلن نسطور — بطريق القسطنطينية السوري المولد — عن مذهب يركز تركيزا مفرطا على بشرية المسيح، وجذب ذلك الاتجاه قلوب لاهوتيي المدرسة الأنطاكية، وتبع نسطور أشياع كثيرون في

---

(١) الأريوسية : مذهب ينسب إلى الكاهن أريوس السكندرى المتوفى عام ٣٣٦ ميلادية ، قال أن المسيح الابن يختلف فى الجوهر عن الإله الأب .

شمال سوريا، بيد أن المجلس المسكوني الذي عُقد في أفسوس سنة ٤٣١ ميلادية أنكر مذهبه هذا وأعلن أنه هرطقة، فانشقت مجامع سورية عديدة، وطُرد النساطرة من الإمبراطورية، وأقاموا في المنطقة التابعة لملك فارس في أرض ما بين النهرين، وسرعان ما تحول انتباههم إلى التبشير في أقصى الشرق، في الهند وتركستان بل والصين، إلا أنهم في القرنين السادس والسابع كانوا ما يزالون يحتفظون بكنائس لهم في سوريا ومصر يرتادها في الغالب تجار الشرق الأقصى.

ولم يتوقف الجدل النسطوري عند هذا الحد وإنّما أثار جدلاً آخر أشد مرارة، ذلك أن لاهوتيّي الإسكندرية، الفرحين بفوزهم المزدوج على المبادئ الأنطاكية وعلى بطريق القسطنطينية، تخطوا حدود الأرثوذوكسية في اتجاه مضاد ووضعوا مذهبًا يبدوا أنه يتضمن إنكارا لبشرية المسيح، ويطلق على هذه الهرطقة أحيانًا (إيوتيكيانية) نسبة إلى قسيس مغمور يدعى إيوتيكيوس كان أول من طرحها، وتشيع تسميتها على نطاق أوسع الوَحْديْطَبَعيّة، لكن المجلس المسكوني الرابع المنعقد في سنة ٤٥١ ميلادية في خلقدونية أنكر تلك الهرطقة، فاغتاظ الوَحْديْطَبَعيّون وانشقوا على الهيئة الرئيسية للعالم المسيحي آخذين معهم أغلب مسيحيي مصر وعددا من المجامع السورية. على أن وفد الكنيسة الأرمينية وصل إلى خلقدونية متأخرا ولم يشهد الحوار ورفض قبول ما توصل إليه المجلس وانضمت الكنيسة الأرمينية إلى الوحديطبعيين. وسعى الأباطرة المتأخرون سعيا حثيثا كي يوجدوا صيغة توفيقية ترأب الصدع ويقرها المجلس المسكوني ويمكن أن تقبل على أنها أقرب إلى العقيدة الصحيحة، غير أن تلك المساعي عاقها عاملان ذلك أن الهراطقة لم يكونوا ليعودوا إلى الحظيرة إلا بشروطهم غير المقبولة، فضلا عن أن موقف روما والكنيسة الغربية كان معاديا لأي حل وسط عداء لا هوادة فيه فالبابا ليو الأول استقر على رأى مؤداه أن خليفة القديس بطرس، وليس أي مجمع كنسي، هو صاحب الحق في تحديد المذهب، وكان يضيق ذرعا بخفايا الجدل التي لا يفهمها، وأصدر بيانا يحدد فيه الرأي الصحيح في المسألة، ويجيء ذكر ذلك البيان في

التاريخ باسم (توماس أوف بوب ليو) ورغم أن ذلك البيان تجاهل دقائق الجدل فقــد قبلته سلطات مجلس خلقدونية وأضافت صيغته إلى ما توصل إليه المجلس مــن نتــائج. وكانت صيغة بيان البابا ليو الأول محددة ومباشرة لا تقبل تمويها ولا تعديلا، وكان أي حل وسط يسترضي الهراطقة يعتبر إنكارا للبيان ومن ثم يعد صدعا في العلاقة مع روما وهذا ما لم يجرؤ على الإقدام عليه أي إمبراطور له مصالح أو مطامع في إيطاليا والغرب. وهكذا وجدت الحكومة الإمبراطورية نفسها واقعة في هذا المأزق فلم تحــاول مطلقــا الأخذ بسياسة ثابتة وإنما تذبذبت بين اضطهاد الهراطقة وتمدنتهم، وفي نفس الوقــت ازدادت قــوه الهراطقة في المقاطعات الشرقية، تشد من أزرهم قومية الشــرق الــتي كانت تنفض عن نفسها غبار سباتها. (١)

وبخلاف الوحديطبعيين والنساطرة كانت هناك طائفة في المقاطعــات الشرقيــة تعارض الحكومة الإمبراطورية دائما، هي طائفة اليهود، التي كانت تستقر بأعداد كبيرة في مدن الشرق الكبرى كلها، وتخضع لأوجه من عدم الأهلية القانونيــة في النواحــي المدنية، وتتعــرض هي وممتلكاتها بين الحين والآخر للضرر الذي يترتب على ما يثــور من شغب، وإزاء ذلك كانت تنتهز كل فرصة لإيذاء المسيحيين، وجعلت منها مواردها المالية واتصالاتها الواسعة خطرا كامنا يتهدد الحكومة. (٢)

---

(١) أحسن ما كتب عن التاريخ المبكر لكنائس النساطرة والوحد يطبعيين يرد في :

Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique,* articles on "Nestorians" , by Amann, and "Monophysitisme" , by Jugie, and in the chapters by Bardy in vol. iv, and by Bréhier in vols. iv and v, of the *Histoire de l'Eglise,* ed. by Fliche and Martin .

(٢) For the arbitrary but not very oppressive imperial legislation against the Jews, see Bury, Later Roman Empire (A.D.395-565), vol.ii,p. 366, and Krauss, *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichten,* pp. 1-36 .

تصدع في سوريا

وساءت الأمور في القرن السادس عشر، إذ استمرت حروب جستينيان في الغرب وأنفق فيها أموالا كثيرة وزاد الضرائب على رعاياه الشرقيين دون أن يمنحهم مزايا تعوضهم، وغدت سياسته في وضع حرج. وعانت سوريا أسوأ معاناة، فبخلاف عبء الضرائب ابتليت بسيل من غارات الجيوش الفارسية، وسلسلة من الزلازل المدمرة. و لم يزدهر سوى الهراطقة؛ إذ قام يعقوب الأورفي (١) بتنظيم الوحديطبعيين في سوريا وجعل منهم قوة لها شأنها يدفعه في ذلك عطف الإمبراطورة ثيودورا، ومنذ ذلك الحين أصبحت كنيستهم تعرف عادة (بالكنيسة اليعقوبية). وأما الوحديطبعيون في مصر، ويسمون الآن الأقباط، فكانوا يشملون كل أبناء مصر تقريبا، وأما النساطرة الآمنون المتحصنون عبر الحدود الفارسية فقد توسعوا توسعا سريعا باتجاه الشرق وعززوا موقفهم مع الإمبراطورية ، وأما الأرثوذوكس الذين كانوا يمثلون أقلية في غير مدن فلسطين فقد أطلق عليهم اسم "الملكيين" (٢) من قبيل الازدراء ، وهى تسمية

---

(١) (المترجم) : نسبة إلي مدينة أورفا – وتسمى أيضا الرها – في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الملكيون Melchites أو Melkites : تسمية تطلق علي من أخذوا من ميسحيي سوريا ومصر بما انتهي إليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ميلادية من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية واصطلح علي إطلاق هذه التسمية عليهم من قبيل الازدراء لأنهم أخذو في ذلك بالموقف اللاهوتي الذي كان يدين به الإمبراطور البيزنطي ومن ثم أصبحوا ملكيين ، أو رجال الإمبراطور اشتقاقا من اللفظة السريانية Malka التي تعني ملك وأطلق عليهم هذه التسمية أولئك الذين رفضوا تعريف مجمع خلقدونية والذين يؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة وأطلقت هذه التسمية في بادئ الأمر علي من أخذ من المصرين برأي مجمع خلقدونية ثم انصرفت بعد ذلك إلي كل من أخذ بذلك الرأي في الشرق الأوسط وأصبحت في النهاية تدل علي كل من أخذ بمذهب الطبيعتين في بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكية --

لها ما يبررها فبقاؤهم يتوقف على قوة الإدارة الإمبراطورية وهيبتها. (١)

وفي سنة ٦٠٢ ميلادية اغتصب فوكاس قائد المئة (٢) العرش الإمبراطوري، وكان حكمه وحشيًا عاجزًا. وبينما كانت القسطنطينية تعاني من حكم الإرهاب تفشت في المقاطعات أعمال الشغب والحرب الأهلية بين المتحزبين من رواد السيرك المتحيزين ومن يتصدون لهم من الطوائف الدينية؛ وفي أنطاكية عقد البطارقة اليعقوبيون

--وانحصرت طائفة الملكين في المستوطنين اليونانيين والمستعربين من مسيحيي مصر وسوريا الذين اتخذوا الشعائر البيزنطية واتبعوا ميخائيل سيريولاريوس بطريق القسطنطينية في انشقاقه عن روما سنة ١٠٥٤ ميلادية . وحاول بطارقة أنطاكية في القرون التالية أن يعودوا إلي الاتحاد مع روما وظهرت أعداد قليلة من الملكين الكاثوليك ولم يتم ذلك الاتحاد إلا في سنة ١٧٢٤ ميلادية عندما انتخب سيرل السادس الكاثوليكى بطريقا لأنطاكية وتبعه بضعة أساقفة وثلث الملكين وانتخب الأرثوذوكس الذين عارضوا الاتحاد سلفستر بطريقا لهم وحصلوا علي اعتراف قانوني لهم من الحكومة العثمانية وبذلك تأكد استقلالهم الذاتي وبعد انقضاء مائة عام من الاضطهاد والصراعات الدينية بين اليسوعيين (Jesuits) والمارونيين اللبنانيين وبين الكاثوليكيين منح الأتراك العثمانيون أولئك الكاثوليكيين استقلالا ذاتيا أتاح لهم حرية ممارسة نشاطهم وتزايد عددهم .

(١) See Bréhier,cit. iv, pp. 489-93; Devreesse,*Le Patriarchat d'Antioche*, pp.77-99

(٢) (المترجم) : المئة : جماعة تتألف من مئة مقاتل حسب تقسيم الجيش الروماني .

والنساطرة مجلسًا مشتركًا علنيًا لمناقشة اتخاذ إجراء ضد الأرثوذوكس، فعاقبهم فوكاس بأن أرسل إليهم جيشًا قتل أعدادًا غفيرة من الهراطقة بمساعدة اليهود الذين سرهم ذلك، وبعد ذلك بعامين ثار اليهود أنفسهم وعذبوا بطريق المدينة الأرثوذوكسي وقتلوه. (١)

الحرب الفارسية

وفي سنة ٦١٠ ميلادية عزل فوكاس شاب نبيل ينحدر من أصل أرميني هو هرقل ابن حاكم أفريقيا. وفي نفس العام أتم كسرى الثاني استعداده لغزو الإمبراطورية وتمزيق أوصالها، ودامت الحرب الفارسية تسعة عشر عاما، اتخذت الإمبراطورية في اثني عشر منها موقف الدفاع، واحتل الجيش الفارسي هضبة الأناضول وسوريا، وسقطت أنطاكية سنة ٦١١ ميلادية ودمشق سنة ٦١٣ ميلادية، وفي ربيع ٦١٤ ميلادية غزا القائد شهربراز فلسطين وراح ينهب البلاد ويحرق الكنائس في طريقه ولم تسلم سوى كنيسة الميلاد في بيت لحم بسبب الفسيفساء التي تصور حكماء الشرق يرتدون ملابس فارسية، وحاصر القدس في الخامس عشر من أبريل (نيسان) وكان البطريق زخارياس مستعدا لتسليم المدينة حقنا للدماء، ولكن سكانها من المسيحيين رفضوا أن يسلموا في خنوع، فاقتحمها الفرس في الخامس من مايو (أيار) بعون اليهود الذين كانوا في داخلها، وتبعت ذلك مشاهد من الهلع البالغ؛ فبينما كانت النيران تلتهم كنائس ومنازل المسيحيين قتل جنود الفرس بعضهم وقتل اليهود أكثرهم دون تمييز ويقال إن

---

(١) Theophanes, ad ann.6101, p.296; John of Nikiu, p.166; Sebeos, pp.113-14; Eutychius, *Annales,* col. 1084 (telling of riots in Tyre); *Chronicon Paschale,* p. 699 (attributing the murder of the Patriarch to rioting soldiers); Kulakovsky, "Criticism of evidence in Theophanes "(in Russian), *Vizantiiski Vremennik,* vol. xxi, pp. 1-14, and *History of Byzantium,* vol.iii (in Russian), pp. 12-15, who collates the evidence and fixes the date .

ستين ألفا أبيدوا وإن خمسا وثلاثين ألفا آخرين بيعوا عبيدا في أسـواق الرقيـق، وإن "المخلفات المقدسة" بالمدينة وهى "الصليب المقدس" و"أدوات الآلام" (١) قد اكتشفت بعد إخفائها وأرسلت مع البطريق شرقا هدية لملكة فارس المسيحية، مريم النسطورية. وبلغ تخريب المدينة وما حولها ذروته بحيث لم تعد البلاد إلى حالتها الأولى حتى يومنـا هذا. (٢) وبعد ثلاث سنوات تقدم الفرس إلى مصر وسيطروا عليها في غضـون عـام واحد، وصلت الجيوش الفارسية إلى البسفور شمالا.

وكان سقوط القدس صدمة مروعة للعالم المسيحي. و لم يكن الدور الذي لعبـه اليهود في ذلك لينسى أو يغتفر في أية حال. وأخذت الحرب ضد الفرس طبيعة الحرب المقدسة. وعندما استطاع هرقل أخيرا أن يبادر إلى الهجوم سنة ٦٢٢ ميلادية كـرس نفسه وجيشه للرب في خشوع، وانطلق كمحارب مسيحي يتصدى لقوى الظـلام، وصورته الأجيال اللاحقة على أنه أول الصليبيين. فبعد ذلك بخمسة قرون أورد المؤرخ وليم الصوري قصة الحرب الفارسية ضمن تاريخه عن الحملات الصليبيـة، وتعـرف الترجمة القديمة لكتابه باسم "كتاب هرقل".

وكانت تلك الحرب الصليبية حربا ناجحة. فبعد كثير من التقلبات ولحظات من القلق واليأس هزم هرقل الفرس في نينف في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٢٧ ميلادية، وفي بداية العام التالي ٦٢٨ ميلادية اغتيل الملك كسرى، وفاوض خليفته على السـلام الذي لم يقر إلا سنة ٦٢٩ ميلادية، واستعادت الإمبراطورية ما فقدته من مقاطعـات، وفي أغسطس (آب) احتفل هرقل بانتصاره في القسطنطينية، وفي الربيع التالي رحل مرة

---

(١) (المترجم) : يقصد بالالام ، في العقيدة المسيحية ، معاناة وموت السيد المسيح علي لصليب .

(٢) Antiochus the stratege, pp. 9 - 15; Sebeos, pp. 130 - 1; *Anon. Guidi*, p .3; *Chronicon Paschale*, pp. 704 - 5; Theophanes, ad ann. 6106, pp. 300-1 . The incident of the mosaics at Bthlehem is given in the letter of the eastern Patriarch to Theophilus, in Migne, Patrologia Graeco-Latina, vol. xcv, cols. 380-1.

أخرى جنوبا ليستعيد "الصليب المقدس" ويحمله إلى القدس في موكب فخم. وكان ذلك المشهد مثيرا للعواطف.

على أن مسيحيي الشرق لم يكونوا على أية حال سيئة في ظل الحكم الفارسي، فمحاباة كسرى لليهود لم يدم وانتهى به الأمر إلى طردهم من القدس. وبينما كان البلاط الفارسي يحابي النساطرة، كان كسرى يظهر رسميا مشاعر العطف على الوحديطبعيين والأرثوذوكس بنفس القدر، فاستعادوا كنائسهم وأعادوا بناء ما تهدم منها وانعقد في العاصمة كتسيفون (١) مجلس برعاية كسرى لمناقشة إعادة توحيد الطوائف. على أنه تبين بعد عودة الإدارة الإمبراطورية، وبعد أن خبا ما صاحب ذلك من حماس، أنها تفيد الأرثوذوكس دون غيرهم؛ ذلك أن هرقل الذي ورث خزانة خاوية لم يتمكن من تمويل حروبه إلا بقرض ضخم من الكنيسة، و لم تكف الأسلاب التي أخدها من فارس لسداد الدين، ومرة أخرى وجد السوريون والمصريون أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، وإذا هم يرون أموالهم تضخم خزائن رجال الكنيسة الأرثوذوكسية.

وأخفقت سياسة هرقل الدينية في إصلاح الأمور. ذلك أنه بدأ باتخاذ بعض الإجراءات ضد اليهود، وإن لم يكن يضمر لهم عداء من قبل، ولكن الذي حدث هو أنه التقى بيهودي أكرم وفادته في طبرية وهو في طريقه إلى القدس وأحاطه علما بالتفاصيل الكاملة للدور الذي قام به اليهود إبان الغزوات الفارسية. وربما تأثر بنبوءة مبهمة مفادها أن جنسا مختونا سيدمر الإمبراطورية، فأمر بتعميد كل اليهود في الإمبراطورية تعميدا قسريا وكتب إلى ملوك الغرب يحثهم على أن يحذوا حذوه. واستحال تنفيذ أمره، على أن الحادثة أتاحت للمسيحيين المتعصبين فرصة نادرة لتقتيل

---

(١) (المترجم) : كتسيفون : أو المدائن، تقع حاليا بالقرب من بغداد جنوبا .

ذلك الجنس البغيض، وهكذا ازداد استياء اليهود من الحكم الإمـــبراطوري. وخـــاض الإمبراطور في أمواه اللاهوت المسيحي الخطرة؛ ذلك أنّ سرجيوس بطريق القسطنطينية وهو سوري وَحْدِيطَبَعيّ بالمولد تدرج في تطوير عقيدة ظن أنها تحقق المصالحـــة بـــين الوَحْدِيطَبَعيّين وبين الأرثوذوكس، ووافق هرقل على تلك العقيدة المعروفة تاريخيًا باسم المونوإنرجية (١) ، وبانتهاء الحروب الفارسية انتشرت العقيدة الجديـــدة. وبرغـــم أن الإمبراطور والبطريق تبنياها، وأن الحبر الروماني هونوريوس وافق عليها موافقة مشوبة بالحذر، فإنها لم تلق شعبية تذكر، وأجمع رجال الكنيسة من الوَحْدِيطَبَعيّين على رفضها من فورهم كما رفضتها أغلبية الأرثوذوكس التي يتزعمها في القســـطنطينية الصـــوفي الكبير مكسيموس المعترف، وفي الشرق البطريق سوفرونيوس. وحاول هرقل جاهدا أن يفرضها على رعاياه تدفعه الحماسة أكثر مما تدفعه الفطنة، لكنه لم يجد أحـــدا يؤيـــده سوى حاشيته وعدد ضئيل من الأرمن واللبنانيين الذين عرفوا فيما بعد بالموارنـــة. ثم عدل هرقل هذه العقيدة فيما بعد ونشر سنة ٦٣٨ ميلادية عقيدته المسماة اكثيسيس(٢) التي يدافع فيها عن المونوثيليتية (٣) ، لكنـــه أخفق بنفس القـــدر. و لم يســـتقر علـــى رأى في هذه المسألة برمتها، وبقيت الحال على ذلك حتى بعد انعقاد المجلس المسكوني

---

(١) (المترجم) : Monoenergism يقصد بهذه اللفظة الوحد بطاقية إذ ذهـــب ســـيرجيوس بطريـــق القسطنطينية (٦١٠-٦٣٨) في محاولته التوفيق بين الوحد يطبعين وبين القائلين بأن للمسيح طبيعتين إلي التأكيد علي أن للمسيح منبع إلهي واحد للفعـــل الحيـــوي Monoenergism وأنـــه يختـــص بـــإرادة واحـــدة Monothelitism وقد حاول سيرجيوس بذلك تحقيق الوحدة العقائدية في العالم المســـيحي الشرقـــي، وإن كانت هذه العقيدة قد رفضت بعد ذلك علي أنها غير أرثوذوكسية .

(٢) (المترجم) : اكثيسيس Ekthesis لفظة يونانية تعني : يعرض أو يطرح ، استخدمها أرسطو في علـــم المنطق ليدلل بها علي صحة فرض أو قياس منطقي معين .

(٣) (المترجم) : المونوثيليتية Monotheletism معتقد لاهوتي يري أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن لـــه طبيعتين .

السادس سنة ٦٨٠ ميلادية. مما زاد من المرارة والاضطراب الذين كانا يلحقان الخراب بمسيحي الشرق.

الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان هرقل يستقبل في القسطنطينية في سنة ٦٢٩ ميلادية السفراء المهنئين القادمين من بلاد بيعدة كفرنسا والهند. ويقال أنه في تلك الأثناء جائته رسالة يوجهها إليه سيد عربي يقدم نفسه على أنه نبي الله ويدعوه إلى الدخول في دينه، وتلقى ملكا فارس والحبشة وحاكم مصر رسائل مماثلة. وربما تكون تلك القصة مكذوبة، فمن غير المحتمل ألا يكون هرقل قد علم آنذاك بالأحداث العظام التي كانت آخذة في تغيير الجزيرة العربية تغييرا شاملا. ففي بداية القرن السابع كانت تقيم في شبه الجزيرة بعض القبائل المستقلة التي يصعب قيادها، تقوم حياة بعضها على الرعي والبعض الآخر على الزراعة واستقرت قلة منها في مدن تجارية تقع على امتداد طريق القوافل. وكان شبه الجزيرة وثنيًا ولكل منطقة فيه أوثانها. وكانت الكعبة أقدس المقدسات وتقع في مكة وهى المدينة التجارية الرئيسية. على أنّ عبادة الأوثان كانت تتضاءل بسبب ماكان يقوم به المبشرون من اليهود والمسيحين والزرادشتيين (١) . و لم تحقق الزرادشتية نجاحًا إلا في

---

(١) (المترجم) : الزرادشتيون : نسبة إلي زرادشت (Zoroaster أو Zarathustra) الذي ولد في فارس حوالي سنة ٦٢٨ ق.م وتوفي حوالي سنة ٥٥١ ق.م ، وهو مصلح ديني لا يعرف عن حياته معرفة يقينية إلا القليل . ويقال أنه تلقي رؤيا من أهورا مازدا الرب الحكيم الذي كلفه بالدعوة إلي الحقيقة و لم يتصد زرادشت للقضاء علي وثنية الديانية الفارسية وإنما جعل أهورا مازدا علي رأس ملكوت يقوم علي العدل ويعد بالخلود والنعيم فأهورا مازدا هو صاحب المكانة العالية بين الألهة والجدير بأن يعبد ولا يستطيع الدارسون المحدثون أن يثبتوا علي سبيل اليقين ما يرد إلي زاردشت وما يرد إلي اتباعه مما جاء في الزرادشتية من توحيدية وإثنينية (أي عبادة إلهين) ومما يتعلق بالأخرويات (كالموت والبعث والحساب والخلود) والممارسات الشعائرية . للزراشتية أتباع قلائل منعزلون في إيران ولها أتباع كثيرون في الهند من أحلاف الزرادشتيين الأول الذين هاجروا إلي هناك

المناطق الشمالية الشرقية الخاضعة للنفوذ السياسي الفارسي وفيما بعد في الجنوب. وكان اليهود مجتمعون في كثير من المدن العربية، خاصة في "المدينة"، وتمكنوا من تحويل عدد قليل من العرب إلى دينهم. وأما المسيحيون فكانوا يحققون نجاحا أكبر وأصبح للأرثوذكس أتباع في سيناء والبتراء، ووجد النساطرة حيثما توفرت الحماية الفارسية شأنهم في ذلك شأن الزرادشتيين،وكان للوحديطبعيين تجمعات عبر طرق القوافل الممتدة إلى اليمن وحضرموت ، كما كانت هناك قبائل هامة كثيرة تدين كذلك بالوحديطبعية كالغساسنة والتغالبة . وأتيحت للتجار العرب الذين كانوا يترددون على مدن سوريا وفلسطين والعراق فرص أكثر للإلمام بأديان العالم المتحضر، بينما كان هناك في شبه الجزيرة ذاتها تراث الحنفاء (١) القديم الذي يأخذ بالتوحيد. وفي الوقت نفسه كانت شبه الجزيرة في حاجة إلى التوسع نظرا لمواردها الشحيحة التي كانت تتناقص على نحو مطرد منذ تدمير منشآت الري الخاصة بالحميريين ولم تعد تكفي السكان المتزايدين، فعلى مدى التاريخ المسجل كان سكان الصحراء يتدفقون دائما على الأراضي المزروعة من حولهم، وزادت الحاجة الآن إلحاحا.

ويستطيع مؤرخو الأديان الغربيون أن يقفوا في وضوح علي أوجه الصلات أو العلاقات بين العقائد الزرادشتية و العقائد اليهودية و المسيحية، ومن ثم نراهم يحاولون أفتعال علاقة مزعومة بين الزرادشتية و الإسلام. ذلك أنهم يرون في أباطيلهم أن ثمة علاقة بين الإسلام و اليهودية و المسيحية، وبالتالي لابد من أن تكون هناك علاقة بين الإسلام و الزرادشتية. على أنَ بطلان هذا الزعم لا يحتاج إلي تدليل عند المنصفين من دارسي خصائص الأديان الذين يعرفون أن الإسلام وحدة هو الدين الذى يقوم على التوحيد الخالص الذى ينزه الله تنزيها مطلقاً عن الشرك أو شبهة الشرك به وعن إيثاره لقوم معين دون سائر خلقه .

(١) (المترجم) : الحنفاء : جمع حنيف وهو المخلص الذي أسلم لأمر الله فلم يلتو في شيء من دينه وقد جاء هذا اللفظ في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قول الحق عز وجل في سورة البقرة الآية ١٣٥ ، " قل بل ملة ابراهيم حنيفا " وفي سورة الحج الآية ٣١ ، " حنفاء لله غير مشركين به " ولفظ حنيف مشتق من الفعل : حنف يحنف حنفا أي : مال ويقصد بالميل في هذا السياق : الميل إلي الحق والحنفاء علي وجه العموم هم أولئك السابقون علي الإسلام الذين اهتدوا إلي التوحيد ومن ثم أنكروا اليهودية والمسيحية وعبادة الأوثان .

وجاءت عبقرية محمد العظيمة والمتفردة لتلائم تماما تلك الظروف. فقد نشأ في مدينة مكة المكرمة واحدا من فقراء قبيلتها العظيمة قريش، وارتحل وشاهد العالم ودرس أديانه (١) ، واجتذبته الوحديطبعية بوجه خاص، على أن عقيدة التثليث بدت له متناقضة مع اتجاه التوحيد الخالص الذي أعجب به في تراث الحنفاء. والعقيدة التي جاء بها، وإن لم تكن ترفض المسيحية رفضا مطلقا، إن هي إلا شكل من الدين يقوم المفاهيم ويبسطها بحيث تسوغ لقومه في يسر. ويرجع نجاحه كداعية ديني إلى فهمه العميق للعرب، ذلك أنه كان أقدرهم وكان يشاركهم مشاعرهم وميولهم مشاركة أصيلة، فضلا عن أنه كان يتميز بمهارة سياسية فائقة. وائتلفت هذه الصفات فيه لتعينه على أن يقيم من لا شيء في سنوات عشر إمبراطورية تتأهب لفتح العالم. ففي سنة ٦٢٢ ميلادية، وهو عام الهجرة، انحصر أتباعه في آل بيته وجماعة صغيرة من أصدقائه، وعندما مات سنة ٦٣٢ ميلادية كان سيد شبه الجزيرة العربية كلها وكانت جيوشه تجاوز حدودها. وإذا كان من يقدمون على التغيير في الشرق كثيرا ما يتولون زمام الأمور على حين غرة، فإنهم سرعان ما يفقدون سلطانهم فجأة بعد ذلك. بيد أن محمدا ترك من بعده نظاما باقيا يضمن القرآن دوامه، ذلك الكتاب العظيم الذي جاء به النبي

---

(١) (المترجم) : نحسب أن رانسيمان مؤلف هذا الكتاب يأخذ فيما يذهب إليه هنا ومتاح في الغرب مما يردده المستشرقون وواقع الحال أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يتح له أن يجوب بقاع العالم علي سعته وأن يدرس أديانه علي تنوعها ومن البدهي أن وسائل الاتصال وسبل انتشار المعرفة لم تكن لتتيح مهما أوتي من قدرة الإلمام بما كان متوزعا هنا وهناك من معتقدات .

والدراسة المقارنة والمتعمقة والتي تتميز بالحيدة الموضوعية لتواريخ الأديان السماوى منها والوضعي ، تبين دون شك أن المفاهيم الأساسية والتي تتمثل في مفهومي الألوهية والنبوة من ناحية بالإضافة إلي شرائعه ، والتي تستهدف تنظيم حياة الإنسان تختلف في الدين الإسلامي اختلافا بيناً وأصيلا عما عداها في سائر الأديان والعقائد الأخري . والصلة التي حاول المستشرقون ويحاولون حتي يومنا هذا إيجادها بين الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد تتسم بافتعال وتعمل لا يصمدان للمناقشة المنطقية والحيدة الموضوعية .

وتتمثل فيه كلمة الله، والذي لا ترد فيه جوامع الكلم والقصص وحسب، وإنما يضم كذلك القواعد التي تقوم عليها الحياة وأسس الحكم وشريعة كاملة. و لم يكن القرآن مستغلقا على البسطاء من العرب معاصري النبي، كما أنه يتميز بالشمول الذي يفي باحتياجات الملك العظيم الذي قدر لخلفائه أن يقيموه من بعده. ولا غرو، فإن قوة الإسلام تنبثق من بساطته. ففوق الخلق إله واحد، وعلى الأرض يحكم المؤمنين أمير واحد، بمقتضى شريعة لا ينبغي له أن يحكم بسواها ألا وهى القرآن. وعلى خلاف الحال في المسيحية التي تدعو إلى سلام لم تستطع أبدا تحقيقه، جاء الإسلام بسيف لا يستشعر الحرج في مجاهة الباطل (١) .

---

(١) (المترجم) : اقتضت الأمانة العلمية أن ننقل إلي العربية بكل دقة ما جاء به رانسيمان في هذا الجزء متأثرا بما ورد في المراجع الغربية من تصور ساذج ينبيء عن الجهل حينا وعن سوء القصد أحيانا ويتمثل في أن النبي محمدا لم يكن يصدر فيما جاء به عن وحي أنزل عليه من السماء وإنما كان مدفوعا ببواعث مصلح اجتماعي وسياسي توفرت له أسباب القدرة المتفوقة والعبقرية المتفردة وهو في رأيهم إنما جاء بما يناسب بساطة قومه الذين عاش حياتهم وسبر أغوارهم . وكأن هؤلاء الكتاب الغربيين لم يحاولوا أن يسائلوا عقولهم المتحيزة عن علة واقع لا يجهلونه يعلمهم أن الإسلام - كعقيدة وشريعة ونظام سياسي اجتماعي - جاوز حدود شبه الجزيرة وبلغ في عقود قليلة أقصى أرجاء العالم المعروف من الصين شرقا إلي الأندلس غربا ودانت به شعوب وأقوام تختلف في كل مقوماتها أيما اختلاف عن بعضها البعض وعما كان عليه العرب الذين بدأ الإسلام مسيرته عندهم.

وثمة حقيقة أخري أسرف خصوم الإسلام في تجاهلها وعمدوا إلى افتعال ما يناقضها تتمثل في أن الإسلام لم يقم في نشر دعوته علي إعمال السيف ، وحسبنا في الرد علي من يزعمون أن للسيف مجالا في نشر الدعوة الإسلامية أن نورد آيتين من القرآن الكريم تقرر أولاهما أن " لا إكراه في الدين " (البقرة ٢٥٦) ، وتأمر ثانيتهما المسلمين ألا يلجأوا إلي القتال إلا دفاعا عن أنفسهم : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... " (الحج ٣٩) ولا يفوتنا هنا أن نلفت نظر القارىء إلي أن الفعل " يقاتلون " مبني للمجهول وذلك يعني أن المسلمين لم يؤذن لهم بقتال إلا بعد أن بودروا به وأنهم لم يبدأوه . والذي حدا بنا إلي الإشارة إلي ذلك أن مترجمي القرآن الكريم من غير المسلمين عمدوا في ترجماتهم إلي نقل الفعل " يقاتلون " مبنيا للمعلوم كي يوحوا بأن المسلمين هم الذين كانوا يبادرون بالقتال . ولا يتسع هذا المجال الضيق لأن نورد ما يجاوز ذلك في دحض أساطير الغ[illegible] أوهامهم --

واتخذ السيف سبيله إلى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية والنبي بعد على قيد الحياة، وتمثل ذلك في سرايا صغيرة ذهبت إلى فلسطين و لم تحقق الكثير من النجاح. واتسع انتهاج سبيل الفتح في عهد أبي بكر، خليفة محمد، الذي استكمل فتح شبه الجزيرة بطرد الفرس من مستعمرهم في البحرين، وفي نفس الوقت زحف جيش عربي عبر البتراء على طريق التجارة المؤدي إلى ساحل فلسطين الجنوبي وهزم الحاكم المحلي سرجيوس في مكان ما بالقرب من البحر الميت، ثم تقدم إلى غزة واستولى عليها بعد حصار قصير ولقي سكانها معاملة طيبة منه، وأصبح جنود الحامية أول من استشهد من المسيحيين على أيدي المسلمين.

وفي سنة ٦٣٤ ميلادية خلف عمر أبابكر وورث عنه عزمه على أن يزيد من قوة المسلمين. وفي تلك الأثناء أيقن هرقل، الذي كان ما يزال في شمال سوريا، أنه لا مفر من أخذ الغزو العربي مأخذا جادا، لكنه كان يعاني من نقص الرجال لخسائره الفادحة في الحرب الفارسية خاصة وأنه سرح كتائب كثيرة بعد انتهاء تلك الحرب لأسباب اقتصادية، وتبدد حماس الالتحاق بالجيش، وخيم في أنحاء مملكته شعور التراخي والتشاؤم الذي غالبا ما يحل بالمنتصرين بنفس القدر الذي يحل به على المنهزمين بعد حرب طويلة مريرة. ورغم ذلك، أرسل هرقل أخاه ثيودور على رأس جنود المقاطعة السورية لحفظ النظام في فلسطين. والتقى ثيودور بالجيشين العربيين الرئيسيين معا في جباثا أو أجنادين جنوب غرب القدس وهزم هزيمة ماحقة. وبات العرب آمنين في

--- بيد أنه لا بد لنا من أن نستميح للمؤرخ رانسيمان عذرا فيما يستغلق عليه بالعقيدة والشريعة الإسلاميتين فمراجعه فيهما غربية وتبعة التقصير في نقل إسلامنا علي وجهه الصحيح إلي الغرب تقع ولا شك علينا ، وحسبنا من رانسيمان أنه استطاع أن يبذل جهده ويعمل فكره ويجيء بمعالجة واقعية لما كانت عليه الحملات الصليبية في حيدة علمية لا نكاد نجد مثلها عند غيره .

جنوب فلسطين، فتقدموا على طريق التجارة الذي يمضي شرقي الأردن إلى دمشق ووادي الأرند (نهر العاصي)، وسقطت في أيديهم مدن طبرية وبعلبك وحمص دون مقاومة، واستسلمت دمشق في أغسطس (آب) سنة ٦٣٥ ميلادية بعد حصار قصير.

الفتح العربي لسوريا

وهنا شعر هرقل بالخطر الحقيقي فأرسل بشيء من الجهد جيشين جنوبا: الأول يقوده أمير أرميني يدعى فاهان ويتألف من مجندين أرمينيين وعدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم شيخ من بني غسان، والجيش الثاني يقوده ثيودور تريتيريوس يتألف من أخلاط من الجنود. وحين علم المسلمون بأنباء اقترابهما انسحبوا من وادي الأرند ودمشق ناحية الأردن، واشتبك معهم تريتيريوس عند جابيا في الحوران لكنهم هزموه. ورغم ذلك، تمكن من الاحتفاظ بموقع على نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من الجليل حتى يلحق به فاهان، حيث نشبت المعركة في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٦٣٦ ميلادية في عاصفة رملية تعمي الأبصار، وكان جيش المسيحيين يفوق جيش المسلمين عددا ولكن المسلمين ناوروهم وهزموهم، ففي خضم القتال انضم الأمير الغساني إلى الأعداء ومعه اثنا عشر ألفا من العرب المسيحيين من الوحديطبعيين الذين كانوا يكرهون هرقل وتأخرت رواتبهم لشهور عديدة، ومن ثم سهلت عليهم خيانته بحيث حسمت الموقعة، وبذا اكتمل النصر الإسلامي. وهلك تريتريوس وفاهان وجميع رجالهما تقريبا، وأصبحت فلسطين وسوريا مهيأتين للفتح.

وعلم هرقل بالهزيمة وهو في أنطاكية فأخذ منه اليأس كل مأخذ. إنها يد الرب تمتد إليه لتعاقبه على زواجه الآثم من ابنة أخته مارتينا، وليس لديه رجال ولا أموال للدفاع عن المقاطعة أكثر من ذلك. فأقام صلاة شفاعة خاشعة في كاتدرائية أنطاكية، واتجه إلى الشاطىء وركب سفينة إلى القسطنطينية. وأثناء تحرك السفينة

مبتعدة عن الشاطىء صاح في صوت مرير من بين عبراته: "وداعا... وداعـــا طويـــلاً لسوريا".(١)

واكتسح العرب البلاد، واستسلم لهم الهراطقة المسيحيون دون اعتراض وقدم لهم اليهود عونًا فعالاً إذ عملوا كمرشدين لهم. و لم يجد العرب مقاومة منظمة إلا في أكـــبر مدينتين فلسطينيتين: قيسارية والقدس، وفي قلعتي بيلا ودارا على التخوم الفارسية. أما في القدس، فما أن سمع سوفرونيوس بأخبار اليرموك إلا وحصّن دفاعات المدينة، وفور سماعه بوصول الأعداء إلى أريحا جمع آثار المسيح المقدسة وأرسلها إلى الساحل بليـــــل لتوصيلها إلى القسطنطينية، فلا ينبغي أن تقع تلك الآثار المقدسة في أيدي الكفرة مـــرة أخرى. وصمدت القدس للحصار لما يزيد على عام، وصمدت قيسارية ودارا حتى سنة ٦٣٩ ميلادية ، لكنهما كانتا نقطتي حراسة معزولتين، وكانت حاضرة الشرق أنطاكية قد سقطت في العام المنصرم، وهكذا أمست البلاد كلها من برزخ الســـويس وحـــتى جبال الأناضول في قبضة المسلمين. (٢)

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الأحداث دمـــر العـــرب الإمبراطوريـــة الفارسية ند روما القديـــم. إذ استولوا على العراق بانتصارهم في القادسية سنـــة ٦٣٧

---

(١) يذكـــر ميخائيل السوري Micael the Syrian, vol. ii, pp.424 قصة صلاة الشفاعة الـــتي أداهـــا هرقل ووداعه ، ويتهمه خطأ بأنه نهب ثروات المدن السورية قبل رحيلة . ويتكرر ذكر هزيمته في *Agapius* *Kitab al-Unvan*, p. 471، حيث يقـــال إنه رفض أن يحارب ضد إرادة الرب . وبحسب مـــا ذكـــره Nicephorus, p.23، فإن Theodore يعزو الكوارث التي نزلت بالإمبراطور إلي زواجه الباطل بابنة أخته .

(٢) أنظر Ceatani, *op. cit.* vol. iii, pp. 1119 ff. and de Goeje, *Mémoire sur la Conquête de la Syrie, Passim;* Prince, *op. cit.* pp. 267-89; Kulakovsky, *op. cit.* vol. iii, pp. 152-6 ويتأكد الدور الذي لعبه اليهود فـــي جميع المصادر الأصلية ، خاصة Sebeos, pp. 173-4, وفي *Doctrina Jacobi*, pp. 89-8 الذي كتبه أحـــد يهـــود القسطنطينية الـــذي وجـــد نفسه آنذاك في قرطاجة .

ميلادية،وعلى الهضبة الإيرانية بانتصارهم في نهاوند في العام التـــالي. وقبـــع يزدجـــرد الثالث، آخر الساسانيين، في خراسان متحفزا حتى سنة ٦٥١ ميلادية، وكان العـــرب قد وصلوا آنذاك إلى حدوده الشرقية على التلال الأفغانية وتلال أكسوس.(١)

فتـــح مصـــر

وتقدم القائد المسلم عمرو في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٣٩ ميلادية بأربعـــة آلاف رجل لغزو مصر التي كانت إدارتها الرومانية في فوضى عارمة منذ نهاية الاحتلال الفارسي. فكان حاكم مصر، سيروس بطريق الإسكندرية، فاسدا تعوزه الحكمة، فقد تحول عن النسطورية وتزعم مناصري الإمبراطور في تعاليمه المونوثيليتية وعقد العـــزم على فرضها على الأقباط الرافضين لها، فكانوا يمقتون حكمه مقتا شديدا، وهكـــذا لم يجد عمرو مشقة في العثور على حلفاء له من بين رعاياه. وفي بداية سنة ٦٤٠ ميلادية دخل عمرو قلعة الفرما العظيمة على الحدود بعد حصار دام شهرين، وهناك جاءتـــه تعزيزات من الخليفة. وتقدم إلى بلبيس (القاهرة القديمـــة) حيـــث تتمركـــز الحاميـــة الإمبراطورية، وأسفرت المعركة التي نشبت في هليوبوليس في أغســـطس (آب) ســـنة ٦٤٠ ميلادية عن تقهقر الرومان إلى حصن بابليون الذي صمد حتى إبريل (نيســـان) سنة ٦٤١ ميلادية. واستولى العرب على مصر العليا، وبعد سقوط بابليون سار عمرو من الفيوم إلى الإسكندرية وأمامه حاكمها وحاميتها يلوذون بالفرار. وثارت شكـــوك لها ما يبررها حول دخول سيروس في تحالف خائن مع عمرو، فاستدعته القسطنطينية، لكن هرقل مات في فبراير (شباط)، وتنظر أرملته الإمبراطورة الوصية مارتينا فلا تأمن على نفسهـــا في القسطنطينية ، فماذا تفعل للدفاع عن مصر؟ لذا أعادت سيروس إلى

---

(١) Caetani, *op. cit.* vol. iii, pp. 629 ff.; Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, pp. 494-503.

مصر ليصل إلى ما يستطيع الوصول إليه من شروط. فذهـــب إلى عمـــرو في نوفمـــبر (تشرين الثاني) ووقّع معه معاهدة تسليم الإسكندرية. وفي تلك الأثناء سقطت مارتينا، وأنكرت الحكومة الجديدة سيروس ومعاهدته، لأن عمروا أخل بما اتفق عليه وغزا مدن منطقة البنتابولس بفلسطين ومنطقة طرابلس بليبيا (١). وبدا، مع ذلـــك، أنـــه مـــن المستحيـــل الاحتفاظ بالإسكندرية بينما مصر كلها في قبضة العرب فاستسلمت المدينة في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ٦٤٢ ميلادية. لكن الأمل لم يتبدد كله بعد، إذ استدعى عمرو إلى "المدينة" في سنة ٦٤٤ ميلادية، وأرسل إلى الإسكندرية جيش جديد عـــن طريق البحر من القسطنطينية ليحتلها مرة أخرى في أوائل سنة ٦٤٥ ميلادية، وتقـــدم إلى الفسطاط وهي العاصمة التي شيدها عمرو بالقرب من بابليون. ولكن عمروا عـــاد إلى مصر وهزم القوات الإمبراطورية هزيمة نكراء على مقربة من الفسطاط، وانسحب قائدها مانويل الأرميني عائدا إلى الإسكندرية وقد أذهله ما أبداه المســـيحيون مـــن لا مبالاة مطلقة عند محاولته إعادة البلاد إلى المسيحية، فلم يبذل جهدا للدفاع عن المدينة، ورجع إلى القسطنطينية، وأعاد البطريق القبطي بنيامين الإسكندرية إلى عمرو.(٢)

وضاعت مصر إلى الأبد. وفي سنة ٧٠٠ ميلادية أصبحت أفريقيا الرومانيـــة في قبضة العرب. الذين فتحوا إسبانيا بعد أحد عشر عاما. وفي سنة ٧١٧ ميلادية امتدت إمبراطوريتهم من جبال البرانس إلى أواسط الهند، بينمـــا محـــاربوهم يدقـــون أســـوار القسطنطينية.

---

(١) (المترجم) : بنتابوليس Pentapolis : أي المدن الخمس وتضم : غزة وعسقلان وأشدود وحـــت وعقرون وكلمة طرابلس مأخوذة عن الأصل تريبوليس Tripolis الذي يعني : المدن الثلاث .

(٢) Bréhier, *op. Cit.* pp. 134-8, 152-5; Amélineau, La Conquête de l'Egzpte par les Arabes in the *Revue Historique*, vol. cxix,pp. 275-301 . والرواية الكاملة الواردة في Butler's *The Arab Conquest of Egypt* ما تزال ذات فائدة رغم أن أسماء الأماكن قديمة.

الفصل الثاني :

حكم مناهض المسيح

حكم مناهض المسيح

"أمَّا نَحْنُ فَقَدْ كلَّتْ أعْيُنُنا مِنْ النَّظَرِ إلىَ عَوْننا البَاطِلِ. في بُرجنا انتظَرنا أُمّـةً لا تُخلِّصُ".

(مراثيا أرميا: ٤ — ٧)

وارتضى مسيحيو الشرق عن طيب خاطر حكم سـادتهم الكفـرة، و لم يكـن بوسعهم غير ذلك. وتضاءل الآن احتمال قيام بيزنطة مرة أخـرى لإنقـاذ الأمـاكن المقدسة كما فعلت مع الفرس، وسرعان ما بين العرب، وهم في ذلـك أحكـم مـن الفرس، أسطولا لهم في الإسكندرية، وانتزعوا من بيزنطة أغلى ما لديها من قـوة، ألا وهي السيطرة على البحار. واحتفظوا على اليابسة بزمام الهجوم لما يقرب من ثلاثـة قرون، وهكذا تبدد الأمل في أن يقوم أمراء العالم المسيحي بذلك الإنقاذ.

و لم يكن مثل هذا الإنقاذ ليلقى ترحيبا من طوائف الهراطقة، فتغيير الحكام يريحهم ويسرهم. وبعد تلك الأحداث بخمسة قرون كتب بطريق أنطاكية اليعقوبي، ميخـائيل السوري، أيام الممالك اللاتينية، معربا عن تقاليد شعبه القديمة قائلا: "إن رب الانتقـام القدير ... هو الذي بعث بني اسماعيل من الجنـوب ليخلصنا بهم من أيدي الرومـان"،

وأضاف أن هذا الخلاص "ليس شيئا هينا لنا" (١) . وردد النساطرة هذة المشاعر، فكتب مؤرخ مجهول من مؤرخيهم "لقد طَربت قلوب المسيحيين لحكم العرب لهم ــ أعزهـــم الله ووفقهم" (٢) . وأما قبط مصر، فكان لديهم ما يثير بعض الانتقاد، بيد أنّ عداوتهـــم كانت تتجه إلى عمروالفاتح القاسي المخادع وما يفرضه عليهم وليـــس إلى قومـــه أو دينه(٣) . و لم يظهر الأرثوذوكس كثيرا من الميل إلى مناقشة مصيرهم بعـــد أن وجـــدوا أنفسهم آمنين من الاضطهاد الذي كانوا يخشونه فيما مضى، وأنهم يدفعـــون ضرائـــب تقل بكثير ــ برغم الجزية التي فرضت عليهم كمسيحيين ــ عما كان يفرضه عليـــهم البيزنطيون أيام حكمهم. و لم يكن هناك من يقاوم الحكام الجدد سوى قبـــائل قليلـــة تعيش في الجبال، مثل قبائل المارديين في لبنان وجبال طوروس، لكنها كانت تقاوم من منطلق الفوضى والكبرياء لا من منطلق العقيدة. (٤)

الذميـــــــون

وترتب على الفتح العربي أن بقيت كنائس الشرق كما كانت دون مساس بهـــا. فعلى حين كانت الإمبراطورية المسيحية تتوخى مثلا أعلى يتمثل في أن تفرض علـــى جميع مواطنيها وحدة دينية حال دون بلوغها تعذر تحويل اليهود عن دينهم أو طردهم، كان العرب، كالفرس من قبلهم، مهيأين لقبول الأقليات الدينية على أن تكون من أهل الكتاب. وأصبح المسيحيون ومعهم الزرادشتيون واليهـــود ذميين، أي طوائف تحظـــى

---

(١) . Michael the Syrian , vol. ii, pp. 412-13 (Syriac text, p. 412)

(٢) .*Chronicle of Seert,* pt. ii, xciv, in *Patrologia Orientalis,* vol . xiii, p. 582

(٣) . John of Nikiu, pp. 195, 200-1

(٤) أحداث خروج الجراجمة علي القانون في زمن الخليفة الأموي معاوية يصفها . Theophanes, ad ann 6169, p. 355 وانظر أيضا : .Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi,* vol. ii, pp. 45 ff

بالحماية،تكفل لهم الجزية حرية العبادة وتعفيهم من الخدمة العسكرية، وألحق بـــالجزية الخراج وهو ضريبة الأرض. وكانت كل طائفة تعامل على أنها ملة أو جماعـــة تتمتـــع بحكم شبه ذاتي في نطاق الدولة، يرأس كلا منها زعيم ديني يعتبر مسئولا عن حســـــن سلوك أفرادها أمام حكومة الخليفة. ويحق لكل منها أن تحتفظ بدور عبادتها التي كانت تمتلكها قبل الفتح، وكان هذا الترتيب يلائم الأرثوذوكس أكثر مما كان يلائم هراطقة المسيحيين الذين أعطاهم هرقل بآخرة كثيرا من الكنائس ليقيموا فيها شعـــــائرهم. و لم يراع الإجراء الأخير مراعاة صارمة، واستولى المسلمون على كنائس مسيحية معينة مثل كاتدرائية القديس جون الكبيرة في دمشق، وأزالوا بين الحـــين والآخـــر عـــددا مـــن الكنائس، و لم يتوقف في نفس الوقت إقامة العديد من الكنائس والمعابد اليهودية. ولقد أباح فقهاء المسلمين المتأخرون للذميين أن يقيموا أبنيتهم دون أن تجاوز في ارتفاعـــــها أبنية المسلمين وبحيث لا تبلغ أصوات أجراسها أو الشعائر التي تقـــام بداخلـــها آذان المسلمين. بيد أنه لم يكن هناك ثمة تراخ في الالتزام بالقاعدة التي تقضي بـــأن يرتـــدي الذميون ملابس مميزة، وألا يحاولوا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وألا يتزوجوا نســـاء المسلمين، وألا يستخفوا بالإسلام؛ وينبغي لهم أن يظلوا على ولاء للدولة. (١)

الأرثوذوكس تحت الحكم الإسلامي

ورسخ النسق المِلّي مفهوما يختلف بعض الشيء عما كان يفـــهم مـــن الانتمـــاء القومي. و لم تكن القومية في الشرق تقوم لقرون عديدة خلت على العنصر، فيما عـــدا حالة اليهود الذين حافظ انغلاقهم الديني على نقاء دمهم نسبيًا ، وإنما كانت تقوم على

---

(١) *Encyclopaedia of Islam*, articles " Djizya" by Becker and " Kharadj " by Juynboll; Browne, *op. cit.* ch. v; Tritton, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, ch. xv; Vincent and Abel, *op. cit.* vol. ii, pp.935-44

التراث الثقافي والموضع الجغرافي والصالح الاقتصادي. والآن أصبح الولاء لدين ما بديلا للولاء الوطني. فالمصري، على سبيل المثال لايعتبر نفسه مواطنا مصريا، وإنما مسلما أو قبطيا أو أرثوذوكسيا بحسب حالته. وكان الدين، أوالملة، هو الذي يوجه ولاء الفرد، الأمر الذي أعطى للأرثوذوكس امتيازا على طوائف الهراطقة، إذ كانوا ما يزالون يعرفون بالملكيين ويعتبرون أنفسهم ـ كما تعني هذه اللفظة ـ رجال الإمبراطور. وربما تضعهم الضرورة القاسية تحت سيطرة الكافر الذي يجبرهم على إطاعة قوانينه; أما الإمبراطور فهو خليفة الرب على الأرض وسيدهم بلا منازع. والقديس جون الدمشقي، الذي كان يعمل في بلاط الخليفة، كان يخاطب الامبراطور دائما على أنه مولاه وسيده برغم أنه كان يختلف معه في مسائل اللاهوت، بينما كان يخاطب مخدومه ـ أي الخليفة ـ على أنه "الأمير" وحسب. والبطارقة الشرقيون، الذين كانوا يكتبون في القرن التاسع إلي الإمبراطور ثيوفيلوس معترضين على سياسته الدينية، كانوا يخاطبونه بألفاظ مماثلة. وكان الأباطرة يقبلون تلك المسئولية، ففي جميع حروبهم ومعاملاتهم الدبلوماسية مع الخلفاء، كانوا يضعون في حسبانهم صالح الأرثوذوكس الذين يوجدون فيما وراء حدودهم. ذلك أن إدارة شؤون هؤلاء الأرثوذوكس لم تكن في متناول حكومة الإمبراطور، فالأباطرة لم يكن بوسعهم التدخل في الحكم اليومي في الأراضي الإسلامية، كما لم تكن لبطريق القسطنطينية أية ولاية على زملائه من البطارقة الشرقيين. ولم تكن مراعاة الأباطرة لصالح الأرثوذوكس إلا تعبيرا، يتسم بعاطفة قوية، عن بقاء فكرة أن العالم المسيحي واحد ولا يقبل التجزئة، وأن الإمبراطور رمز وحدة ذلك العالم. (١)

ولم يكن لكنائس الهراطقة من يسبغ عليها حماية كتلك التي كانت تسبغ على

---

(١) أنظر Runciman, 'The Byzantine " Protectorate " in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. xviii, pp. 207-15.

الأرثوذوكس، فلم يكن بوسعهم إلا أن يعتمدوا اعتمادا مطلقا على حسن نية الخليفة، ومن ثم تقلص نفوذهم وتناقصت هيبتهم. زد على ذلك أن هرطقاتهم تعزى أصولها الأولى إلى حد كبير لرغبة أبناء الشرق في تبسيط العقائد والممارسات المسيحية. وكان الإسلام ـــ الذي كان يقارب المسيحية على نحو جعل الكثيرين يعتبرونه شكلا متقدما منها والذي كان يتمتع في ذلك الحين بميزة اجتماعية كبرى تتمثل في كونه دين الطبقة الحاكمة الجديدة ـــ يسهل قبوله لدى الكثيرين منهم (١). وليس ثمة سبيل إلى معرفة عدد الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام; بيد أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الهراطقة وليسوا من الأرثوذوكس. ففي غضون قرن واحد من الفتح أصبحت سوريا بلدا يسود فيه الإسلام، بعد أن كان سواد سكانها من الهراطقة المسيحيين، بينما نقصت أعداد الأرثودوكس بشكل ضئيل. وفي مصر، فقدت المسيحية مكانتها بشيئ من البطء، ويرجع ذلك إلى ثراء الأقباط الذين كانوا يحاربون معركة خاسرة. ومن ناحية أخرى، ضمن النسق الملي دوام بقاء الهراطقة وعزز وضعهم على نحو يحول دون إعادة توحيد الكنائس.

---

(١) (المترجم) لابد لنا من أن نقف مع رانسيمان في هذا السياق فهو - رغم الحيدة الموضوعية التي تتميز بها كتاباته - لا يستطيع أن يخلص مما يشيع عند الكتاب الغربيين من أن الإسلام شكل متقدم أو متطور من أشكال المسيحية بالرغم من أن زيف هذا الرأي أجلي من أن يحتمل لُبْساً . فالمفهوم الإلاهي في الدينيين الإسلام والمسيحية يختلف اختلافا بينا يغلق كل أبواب التماثل أو التشابه ويحول دون أي شكل من أشكال التوفيق أو التلفيق وهذه حقيقة راسخة تجلوها المقارنة الموضوعية بين المفهومين وليس ثمة شك في أن المفهوم الإلهي هو المفهوم الأساسي الذي لاينهض دين إلا به . وليس ثمة شك في أن مفهومي النبوة والوحي في الدينين يتسمان بالاختلاف الجذري ناهيك عن أن مفهوم الخلاص الذي تقوم عليه المسيحية يجري على منطق يرفضه الإسلام رفضا مطلقا. وإذا انتقلنا إلي ما يستهدفه الدين من تنظيم للمجتمع نجد أن سبل هذا التنظيم وما تنطوي عليه من تشريع تختلف في الإسلام عنها في المسيحية . وإذا كانت هذه الحاشية لا تتيح مزيدا من التوسع فإننا نترك معالجة الأمر كله إلي صفحات كتاب نرجو أن يعين الله على إصداره .

و لم ترجع قوة الإسلام في سوريا وفلسطين إلى تدفق العرب المفاجئ من الصحراء، فلم تكن جيوش الفاتحين من الضخامة بمكان، و لم تكن لتشكل سوى طبقة عسـكرية تهيمن على السكان الموجودين في البلاد الذين لم يكد يتغير تكوينهم العرقي. وسـرعان ما اتخذ أبناء المدن والقرى، من أسلم منهم ومن بقى على مسيحيته، اللغة العربية بـدلا من لغتهم في شتى مناحي حياتهم، وفي وقتنا الحاضر نسمي خلفهم، في بساطة، عربـا. بيد أنهم كانوا يتألفون من خليط من أجناس كثيرة، ومن قبائل كانت تقيم في تلـك الأرض قبـل خروج بني إسرائيل من مصر، من الأمالكيين أو الجيبوسيين أو المؤابيـين أو الفينيقيين، ومن قبائل أخرى كالفلسطينيين الذين تقادم بهم العهد هناك كغـيرهم، ومن الآراميين الذين انتشروا عبر التاريخ المسجل في بطء وخفية في الأراضي الزراعية، ومن أولئك اليهود الذين انضموا إلى كنيسة المسيح، كما فعل الرسل الأولون. و لم يبق دون تخلط سوى اليهود المتدينين، الذين لم يتأثر نقاؤهم العرقي إلا في القليل. وفي مصر كانت سلالة حام أقل تخلطا، بيد أنها زادت نتيجة للتزاوج مع المهاجرين من سـوريا والصحاري والنيل الأعلى وشواطئ حوض البحر المتوسط كله.

وكان لابد للهجرة العربية من أن تبلغ أقصى مداها في المناطق المتاخمة للصحـراء وفي المدن الواقعة على طريق القوافل الممتدة بطول حوافها. وتدهور التجارة البحرية في البـحر المتوسط، الذي حدث على إثر الفتح، أضفى على هذه المدن التي تقطنها أغلبية من المسلمين، أهمية تفوق أهمية المدن الهيلينستية (١) القريبة مـن السـاحل. وكـانت الإسكندرية هي الميناء الوحيد الكبير الذي احتفظ به العرب على البحر المتوسط. وبقي فيها، وفي مدن سوريا الهيلينستية كثير من السكان المسيحيين الذين ربمـا جـاوزوا في العدد السكان المسلمين. وفي الريف السوري كان هناك نفـس الاختـلاف تقريبـا، فأصبحت السهـول الداخلية والوديان إسلامية بشكل آخذ في التزايد بينما سـادت

---

(١) (المترجم) : هيلينستي : كل ما يتعلق بالثقافة الإغريقية في عصر ما بعد الإسكندر الأكبر .

الطوائف المسيحية المتنوعة المنطقة الواقعة بين لبنان والبحر. وفي مصر كان الفارق بين الحضر والريف أكبر إذ تحول الفلاحون إلى الإسلام شيئا فشيئا بينما كانت المسيحية تغلب على أهل المدن. وفي فلسطين كان توزع المسلمين والمسيحيين مغايرا، فبينما أسلم السكان في مناطق كثيرة من الريف، تمسكت قرى كثيرة بدينها القديم، وأما المدن ذات الأهمية الخاصة عند المسيحيين ـــ مثل الناصرة وبيت لحم ـــ فكانت المسيحية منتشرة فيها تماما. وفي القدس نفسها، وبرغم تبجيل المسلمين لها، ظل المسيحيون هم الأغلبية، وكان الفلسطينيون المسيحيون كلهم تقريبا من الملة الأرثوذكسية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مستعمرات يهودية هامة في القدس وفي العديد من المدن الأصغر كصفد وطبرية. وكانت المدينة الإسلامية الرئيسية هي العاصمة الإدارية الجديدة في الرملة. وعلى مدى القرون الأربعة التالية ظل سكان سوريا وفلسطين ومصر في تلك المجموعات النمطية التقريبية. (١)

الخلافة الأموية

وكان الخليفة الأموي الخامس، معاوية، حاكما لسوريا قبل توليه الخلافة، وبعد توليه خلافة المسلمين سنة ٦٦٠ ميلادية نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، وحكم خلفاؤه هناك زهاء قرن من الزمان ازدهرت فيه سوريا وفلسطين. وكان الخلفاء الأمويون يتمتعون ـــ عدا القليل منهم ـــ بمزايا غير عادية من الاقتدار والتسامح وسعة الأفق. وكان وجود بلاطهم في تلك المقاطعة بمثابة ضمان للإدارة الحسنة والنشاط التجاري المتجدد؛ ولقد شجعوا الثقافة التي وجدوها هناك، وهي ثقافة هيلينستية مسيحية تأثرت

---

(١) للإطلاع علي هيكل تكوين المجتمع في فلسطين وسوريا في ظل الخلفاء أنظر :

Le Strange, *Palestine under the Moslems, passim;* Gaudefroy-Demombynes and Platonov, *Le Monde Musulman,* pp. 233-47; Browne, *op. cit.* ch. v; O'Leary, *How Greek Science passed to the Arabs,* pp. 135-9.

بأذواق وأفكار ننعتها نحن بالبيرنطية. والتحق المسيحيون مـــن المتحدثـــين باليونانيـــة بالوظائف الحكومية; وكانت حسابات الدولة تقيد باليونانية لعشرات الســـنين، كمـــا كان الفنانون والصناع المسيحيون من ذوي المهارات يعملون لدى الخليفة، وستبقى قبة الصخرة في القدس، التي أتم بناءها الخليفة عبد الملك سنة ٦٩١ ميلادية، مثـــالا رفيعـــا لنمط البناء الدائري في العمارة البيزنطية، وستبقى فسيفساؤها ـــ وأعمال الفسيفســـاء الأكثر جمالا التي أقامها ابنه الوليد الأول في فناء جامع دمشق الكبـــير ـــ مـــن أرفـــع مستويات الفن البيزنطي. فإلى أي مدى تعتبر تلك الأعمال من صنع الحرفيين من أبنـــاء البلاد، وما مدى العون الذي قدمه لهم الفنيون والمواد التي لابد وأن يكون الوليد قـــد أحضرها من بيزنطة؟ هذه أمور ماتزال مثار خلاف. ولقد روعي في أعمال الفسيفساء هذه ما ارتآه النبي من اجتناب تصوير الكائنات الحية. و لم يتقيد الأمويون بذلـــك في قصورهم الريفية المتوارية عن أنظار رجال الدين المتشددين، ومثال ذلـــك اللوحـــات المرسومة على جدران استراحة الصيد بقصر الأمراء في السهوب الواقعة وراء نهر الأردن والتي تصور شكل الإنسان وجسده. وواقع الحال أن حكم الأمويين لم يؤد إلى انقطاع تطور الثقافة الهيلينستية في الشرق الأدنى والتي كانت قد بلغت في ذلك الوقـــت ذروة الازدهار الذي لم تبلغها بعد ذلك. (١)

ومن ثم، لم يكن هناك من سبب يؤدي بالمسيحيين إلى الحسرة لما حققه الإســـلام من انتصار. فبرغم ما تعرضوا له من اضطهاد لا يذكر، وبرغم القليـــل مـــن التدابـــير المهينة، فإنهم كانوا أحسن حالا مما كانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين، فالمحافظة على

---

(١) عن الحضارة الأموية أنظر :

Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 a` 1081*, pp. 335-44, and Lammens, *Etudes sur le Siécle des Ommayades*. For its art, see Creswell, *Early Muslim Architecture*, especially ch. V, on mosaics, by M. van Berchem. For individual buildings, see Richmond, *The Dome of the Rock*, and the two volumes *Kuseir Amra*, published by the Kaiserliche Akademie der Wissenschaften of Vienna.

النظام كانت أفضل، وتحسنت أحوال التجارة وخفضت الضرائب إلى حد كبير عما كانت عليه. وفضلا عن ذلك، كان الأباطرةالمسيحيون هراطقة في الشطر الأكبر من القرن الثامن يحطمون الأيقونات ويضطهدون كل من يبجل الصور المقدسة من الأرثوذوكس. وكان المسيحيون المتدينون أسعد حالا في ظل الكافر.

الخلافة العباسية

على أن هذه الفترة السعيدة لم تدم. ذلك أن تدهور حكم الأمويين، واستقرار الخلفاء العباسيين في بغداد سنة ٧٥٠ ميلادية نتيجة للحروب الأهلية، جلبا الفوضى إلى سوريا وفلسطين. فجمع بعض الحكام المحليين ممن لا ضمير لهم ولا ضابط لأفعالهم المال عن طريق مصادرة بعض الكنائس المسيحية التي كان على المسيحيين في ذلك الوقت أن يسترجعوها بأموالهم. وعاود التعصب والاضطهاد والإكراه الديني الظهور بين الحين والحين (١) . وأعاد انتصار العباسيين استقرار النظام، مع وجود فارق يتمثل في أن بغداد كانت نائية فقلت الرقابة على الحكم في الأقاليم. وكانت حركة التجارة ماتزال نشيطة على طريق القوافل، وإن كانت تفتقد الأسواق الكبرى التي تنهض بها داخل البلاد. وكان العباسيون أكثر تشدداً من الأمويين، فلم يتوسعوا في إفساح المجال للمسيحيين، ذلك أنهم كانوا يعتمدون — شأنهم في ذلك شأن الأمويين — على ثقافة أقدم من الهيلينستية ألا وهي الفارسية. وكانت بغداد تقع في نطاق مملكة الساسانيين القديمة. وشغل الفرس مواقع رئيسية في الحكومة، واتبع العباسيون مُثل الفن الفارسي والعادات الفارسية في الحياة اليومية. واستعانوا — كالأمويين — بموظفين مسيحيين، بيد أن هؤلاء المسيحيين كانوا — مع بعض الاستثناء — نساطرة ممن يتوجهون إلى الشرق

---

(١) Diehl and Marçais, *op. cit.* pp. 345-8; Gaudefroy-Demombynes and Platonov, *op. cit.* pp.260-8

وليس إلى الغرب. وكان اهتمام البلاط العباسي بأمور الثقافة يجاوز اهتمام الأمويين على وجه العموم واستعين بالنساطرة في ترجمة الأعمال الفنية والفلسفية عن اليونانية القديمة، وشجع العلماء والرياضيون على المجيئ من بيزنطة وغيرها للتدريس في مدارس بغداد. لكن هذا الاهتمام كان سطحيا، ذلك أن الحضارة العباسية لم تتأثر في أساسها بالفكر الإغريقي وإنما اتجهت إلى اتباع التراث المتوارث من ممالك ما بين النهرين وإيران، ولم يبق أثر للحياة الهيلينستية في العالم الإسلامي إلا في إسبانيا التي لاذ بها الأمويون.

على أن حظ المسيحيين في ظل الحكم العباسي لم يكن تعسا. وربما تصدى الكتاب المسلمون، من أمثال الجاحظ في القرن التاسع، للهجوم عليهم، ومرجع ذلك أنهم كانوا يتمادون في غطرستهم لفرط ثرائهم ولأنهم لم يعبأوا بالتدابير التي كانت تتخذ من أجلهم (١) . وفي ذلك الوقت تقريبا كتب بطريق القدس لزميله بطريق القسطنطينية يحدثه عن السلطات الإسلامية الحاكمة قائلا: "إنها عادلة لا تظلمنا شيئا ولا تظهر نحونا أي شكل من أشكال العنف." (٢) فعدل تلك السلطات واعتدالها كانا في غالب الأحوال متميزين. وفي القرن العاشر، عندما كانت أحوال العرب تسوء في حروبهم مع بيزنطة، ويتألب الغاضبون من المتجمهرين على المسيحيين لتعاطفهم المعروف مع أعداء الإسلام، كان الخليفة في كل حال يعوض أولئك المسيحيين عما قد يصيبهم . وربما كان دافعه إلى ذلك خشيته من القوة الوليدة للإمبراطور الذي كان

---

(١) Al-Jahiz, *Three Essays*, ed. by Finkel, p. 18. Labourt, *De Timotheo I*, *Nestorianorum Patriarcha*, pp. 33-4، يوضح Labourt ، ما كان يتمتع به النساطرة من نفوذ في بلاط الخليفة .

(٢) رسالة Theodosius of Jerusalem إلى Ignatius of Constantinople الواردة في Mansi, *Concilia*, vol. xvi, pp. 26-7.

يعيش في أراضيه مسلمون بوسعه أن يضطهدهم من قبيـــل الانتقـــام (١). وحظيـــت الكنائس الأرثوذوكسية، والقوى الأجنبية تؤازرها، بوضع طيب في كـــل حـــال. وفي أوائل القرن العاشر، وأثناء خلاف وقع بين ابراهام الثالث ــ كاثوليكوس النسطوري ــ وبين بطريق أنطاكية الأرثوذوكسي، قال الأول للوزير الأكـــبر " نحـــن معشـــر النساطرة أصدقاء للعرب ونبتهل من أجل انتصارهم ..... وأنأى بك أن تســـاوي في نظرتك بين النساطرة، الذين ليس لهم ملك سوى العرب، وبين اليونـــانيين الذيـــن لا يتوقف ملوكهم مطلقا عن قتال العرب" (٢) . غير أن منطقه لم يبلغه مأربـــه في نهايـــة المطاف وإنما حققت غايته الهدية التي قدمها وقدرها ألفا قطعة من العملـــة الذهبيـــة. وكانت الجماعة المسيحية الوحيدة التي استمرت العداوة تجاهها هي جماعة المســـيحيين المنحدرة من أصـــل عربي خالص، مثل قبائل بني غسان أوبني تنوخ، التي اضطر أبناؤها إلى عبور الحدود لياذا ببيزنطة بعد رفضهم أن يجبروا على التحول عن دينهم. (٣)

شارلمان وفلسطين

واستمرت هجرة المسيحيين إلى أراضي الإمبراطور، و لم يتخـــذ المســـلمون أيـــة خطوات حيال تلك الهجرة. ويبدو أنه لم تكـــن هناك محاولة في كل حال للحيلولـــة دون قيام علاقات وثيقة بين المسيحيين داخل الخلافة وخارجها، حتى في أزمنة الحرب.

---

(١) في عامي ٩٢٣ و ٩٢٤ قام بعض المتظاهرين المسلمين بمهاجمة كنائس مسيحية أرثوذوكسية في الرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق ، وعلي الأثر ساعد الخليفة المقتدر المسيحيين علي إعادة بناء تلك الكنـــائس (Eutychius, co. 1151)

(٢) Bar Hebraeus, quoted in Assemani, *Bibliotheca Orientalis,* vol . ii, pp. 4401 .

(٣) البلاذري ، النص العربي ص ١٤٢ ترجمة Hitti and Murgotten, pp. 208-9. أنظر :
Nau, *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie* , pp. 106-11.

وخلال الجزء الأكبر من فترة الخلافة العباسية لم يكن الإمبراطور البيزنطي من القـــوة بحيث يستطيع أن يقدم الكثير لأبناء دينه. وكان فشل العـــرب في الاســـتيلاء علـــى القسطنطينية سنة ٧١٨ ميلادية بمثابة ضمان لاستمرار الإمبراطورية، ولكن بيزنطـــة لم تتمكن من المبادرة إلى الهجوم على العرب على نحو فعال إلا بعد انقضاء قرنـــين مـــن الزمان. وفي تلك الأثناء كان مسيحيو الشرق الأرثوذوكس قد اكتشفوا صديقا أجنبيا جديدا؛ فاتساع إمبراطورية شارلمان الكارولنجية في القرن الثامن لم يمر دون أن تلحظه أنظار الشرق. وفي نهاية القرن أظهر شارلمان العظيم، الذي كان على وشك أن يتـــوج إمبراطورا في روما، اهتماما خاصا بإصلاح حال الأماكن المقدسة، ولقيت اهتماماتـــه ترحيبا كبيرا؛ إذ أن الخليفة هارون الرشيد، الذي سره أن يجد حليفـــا ضـــد بيزنطـــة، شجعه على إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها. ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي وكان العاهل الذي تحمـــي قوتـــه الأرثوذوكـــس في فلسطين، ولقد ردوا على إحسانه بأن بعثوا إليه ما يدل على تبجيلهم له. بيد أن انهيار إمبراطوريته في عهد من خلفوه وبعث بيزنطة مرة أخرى جعلا تدخل الفرنجة قصـــير الأجل ولا يكاد يذكر، لولا تلك النزل التي أنشأها شارلمان، والصلوات اللاتينية الـــتي كانت تقام في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين، والراهبات اللاتينيات الـــلاتي كن يخدمن في كنيسة القبر المقدس. لكن الغرب لم ينس أبدا تلك القصة التي بـــالغت الأساطير والمأثورات في روايتها، وسرعان ما ظن أن شارلمان قد أضفى على الأمـــاكن المقدسة حمايته القانونية، وقيل أنه قام بالحج إلى هناك. وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرة حقها في أن تحكم القدس، وقوبل هذا الإعلان بالتأييد. (١)

---

(١) أنظر Runciman, " charlemagne and palestine ", in *English Historical Review*, vol. I, pp. 606 ff.

وكان المسيحيون الشرقيون أكثر اهتماما ببعث قوة بيزنطة. ففي أوائل القرن التاسع كانت الإمبراطورية ماتزال في موقف الدفاع، واستولى المسلمون على جزيرتي صقلية وكريت، ولم يكد يمضي عام دون أن يشن العرب غارة كبرى في قلب آسيا الصغرى. وفي منتصف القرن أعيد تنظيم البحرية البيزنطية وتجهيزها، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى الاقتصاديات الرشيدة للإمبراطورة الوصية على العرش، ثيودورا. وبفضل قوة بيزنطة تأكدت سيادتها على جنوب إيطاليا ودالماتيا (١). وفي بداية القرن العاشر، بدأت الخلافة العباسية تضمحل بسرعة، إذ ظهرت ممالك محلية أهمها مملكة الحمدانيين في الموصل وحلب ومملكة الإخشيد في مصر .وكان الحمدانيون مسلمين غُيُر وذوي براعة كبيرة في القتال وأقاموا خطا دفاعيا لصد العدوان البيزنطي، لكنهم لم يستطيعوا وقف إضمحلال القوة الإسلامية، بل زادوها إضمحلالابتشجيعهم الحروب الأهلية. وسيطر الإخشيديون إبان تلك الحروب على فلسطين وجنوب سوريا، وسارع البيزنطيون إلى الاستفادة من ذلك الموقف. وكان هجومهم حذرا في بادئ الأمر. ولكن في سنة ٩٤٥ ميلادية استولى القائد البيزنطي جون كركوس — برغم شجاعة وإقدام الأمير سيف الدولة الحمداني — على مدن ومناطق في أعالي أرض مابين النهرين، لم تكن قد شاهدت جيشا مسيحيا منذ ثلاثة قرون (٢)، وضمها للإمبراطورية. وتزايدت سرعة الأحداث بعد سنة ٩٦٠ ميلادية، على إثر تسلم الجندي العظيم نيسفوراس فوكاس قيادة الجيش الإمبراطوري، وفي سنة ٩٦١ ميلادية استعاد نيسفوراس جزيرة

---

(١) (المترجم) : دالماتيا : حاليا إقليم في جمهورية كرواتيا الصربية في يوغوسلافيا علي الساحل الأدرياتيكي .

(٢) Vasiliev, *Byzantium and the Arabs* (in Russian), vol. ii, pp. 229 -37; Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 135-50

كريت، وفي سنة ٩٦٢ ميلادية جرد حملة على حدود كيليكيا (١) واستولى على أنزاريوس وماراش (جرمانيشيا) وبذلك عزل كيليكيا المسلمة. وفي سنة ٩٦٣ ميلادية كان نيسفوراس مشغولا في وطنه يخطط للانقلاب الذي جاء به إلى العرش بمساعدة الجيش والإمبراطورة الوصية. وفي سنة ٩٦٤ ميلادية عاد إلى الشرق، وفي سنة ٩٦٥ ميلادية أكمل غزو كيليكيا، وأرسل حملة إلى قبرص أعادت السيطرة البيزنطية الكاملة على الجزيرة، وفي سنة ٩٦٦ ميلادية أغار على أواسط الفرات ليقطع خطوط المواصلات بين حلب والموصل (٢) . فنهض الشرق المسيحي كله وظن أن الخلاص وشيك، وكتب إليه جون بطريق القدس يحثه على الإسراع إلى فلسطين، بيد أن تلك الخيانة جاوز وقعها قدرة المسلمين على الصبر، فألقت الجماهير الغاضبة القبض على جون وأحرقته. (٣)

لقد كانت آمال جون سابقة لأوانها. ففي عامي ٩٦٧ و٩٦٨ كان نيسفوراس مشغولا بحدوده الشمالية، لكنه في سنة ٩٦٩ ميلادية قاد جيشه جنوبا مرة أخرى إلى قلب سوريا مباشرة، وتقدم إلى وادي الأرند (العاصي) ليستولي على مدن شيزار وحماة وحمص وينهبها الواحدة تلو الأخرى، ثم سار على الساحل إلى ضواحي طرابلس; وعاد إلى الشمال تاركا وراءه طرطوس وجبلة واللاذقية تلتهمها النيران، بينما حاصر ضباطه أنطاكية وحلب. واستولى على أنطاكية في أكتوبر (تشرين الأول)، واستسلمت حلب في نهاية السنة. وذابت أنطاكية، التي ربما كان عدد مسيحييها يفوق عدد مسلميها، في

(١) (المترجم) : كيليكيا : الجزء الجنوبي الشرقي من الأناضول (تركيا) المطل على البحر المتوسط .

(٢) .Schlumberger, *Un Empereur Byzantin, Nicéphore phocas,* chs. viii and x

(٣) Yachya of Antioch, in P.O. vol. xviii,pp. 799-802. The date is discussed in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar slayer* (in Russian), p. 351

الإمبراطورية، ويبدو أن المسلمين قد أجبروا على الهجرة منها. وأصبحت حلب التي كان المسلمون أغلبية غالبة فيها، ولاية تابعة. ووقع حاكمها معاهدة تحدد بدقة الحدود التي تفصل بين المقاطعة الإمبراطورية الجديدة وبين المدن التابعة. وبمقتضى تلك المعاهدة يقوم الإمبراطور بتعيين حاكم حلب، وفرضت ضرائب باهظة على هذه الولاية التابعة على أن يعفى المسيحيون منها، وتدفع مباشرة إلى الخزانة الإمبراطورية، كما تقضي المعاهدة بمنح تجار الإمبراطورية وقوافلها امتيازات وحماية خاصة. وهكذا آذنت تلك الشروط المهينة بانتهاء قوة المسلمين في سوريا.

الإمبراطور جون تسيميسس

وقبل سقوط حلب اغتيل الإمبراطور في القسطنطينية، قتلته الإمبراطورة وعشيقها ابن عم الإمبراطور جون تسيميسس، وكان نيسفورس رجلا صارما لا يُحَب، وبرغم انتصاراته كان مكروها في القسطنطينية لاغتصابه الأموال وفساده وخلافه المرير مع الكنيسة. واعتلى جون، الذي كان معروفا كقائد بارع، العرش دون صعوبة وسالم الكنيسة بأن تخلى عن خليلته الإمبراطورة، بيد أن الحرب مع بلغاريا أبقته مشغولا في أوروبا طوال السنوات الأربع التالية. وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينهض من جديد في ظل الفاطميين الذين عززوا مكانتهم في مصر وجنوب سوريا، وحاولوا استعادة أنطاكية سنة ٩٧١ ميلادية. واستطاع جون أن يلتفت إلى الشرق سنة ٩٧٤ ميلادية، فاتجه في خريف ذلك العام إلى شرق ما بين النهرين واستولى على نصيبين وحول الموصل إلى ولاية تابعة، وفكر في زحف مفاجئ على بغداد، بيد أنه تحقق من أن الفاطميين أعداء يخشى بأسهم أكثر مما يخشى بأس منافسيهم العباسيين، فتقدم في الربيع التالي إلى سوريا واتخذ نفس الطريق الذي اتخذه نيسفوراس قبل ذلك بستة أعوام،

---

(١) Schlumberger, *op. cit.* ch. xiv.

واكتسح وادي الأرند (العاصي) متجاوزا حمص التي استسلمت دون أدنى مقاومة، وبعلبك التي أخذها عنوة، ثم انتهى إلى دمشق التي وعدت بدفع إتاوة وعقدت معه تحالفا مهينا. ومن هناك انطلق إلى الجليل، واستولى على طبرية والناصرة، ثم اتجه جنوبا إلى قيسارية على الساحل. وجاءته الوفود من القدس متوسلة إليه أن يخف لنجدتها، لكنه شعر بعدم استطاعته التقدم إلى المدينة المقدسة ذاتها دون الاستيلاء على مدن الشاطئ الفينيقي من ورائه والتي لم يكن قد استولى عليها، فعاد أدراجه شمالا وقهرها الواحدة تلو الأخرى فيما عدا ميناء طرابلس الحصين. وكان الشتاء على الأبواب، فاضطر الإمبراطور إلى تأجيل جهوده إلى فصل آخر .وفي طريق عودته إلى أنطاكية استولى على القلعتين الكبيرتين، قلعة بارزويا وقلعة صهيون، الواقعتين في جبال النصيري وترك فيهما حاميتين من رجاله وعاد إلى القسطنطينية، بيد أن حملته لم تستأنف بعد ذلك على الإطلاق، إذ مات على حين غرة في يناير (كانون الثاني) سنة ٩٧٦ ميلادية. (١)

ولقد جعلت هذه الحروب من الإمبراطورية المسيحية القوة العظمى في الشرق مرة أخرى. وبينما كان مسيحيو الشرق ينتظرون مخلصيهم كانت تلك الحروب تتخذ سمة دينية، وفي ذلك الحين، كانت الحروب ضد المسلمين تشن بانتظام دفاعا عن الإمبراطورية، وكانت من المسلمات في الحياة اليومية ــــ إذا جاز هذا التعبير. وبرغم أنه ربما كان يعن لأحد المنتصرين المسلمين المتشددين أن يخير أحيانا الأسرى المسيحيين بين الارتداد عن دينهم أو الموت، فإن ذكرى هؤلاء المسيحيين كان يحتفى بها على أنهم شهداء، بيد أن مثل هذه الحالات كانت نادرة الحدوث. ولم يكن هناك فارق كبير عند الرأي العام البيزنطي بين أن يموت المرء في المعركة لحماية الإمبراطورية من عربي كافر أو بلغاري مسيحي، ولم تكن الكنيسة تفرق بين هاتين الحالتين كذلك. غير أن

(١) Schlumberger, *L'Epopée Byzantine*, vol.i, ch. iv.

نيسفوراس وجون أعلنا أن الصراع حين ذاك كان من أجل مجد العالم المسيحي وإنقاذ الأماكن المقدسة والقضاء على الإسلام. وعندما كان أحد الأباطرة يحتفـــل بانتصـــار أحرزه على العرب كان المنشدون في الكنائس يتغنون: "المجـــد للـــرب، الـــذي هـــزم العرب"(١) . وكان نسفوراس يؤكد أن حروبه حروب مسيحية، وربما كان من دوافعه إلى ذلك، محاولة موازنة علاقاته السيئة مع الكنيسة، لكنه فشل في أن يحفز البطريـــق لإصدار مرسوم كنسي بأن الجنود الصرعى على الجبهة الشرقيـــة مـــاتوا كشـــهداء، فالكنيسة الشرقية كانت ترى أن ضرورات الحرب لا تبرر القتل في كل حـــال (٢) . لكنه عندما أرسل بيانه المهين إلى الخليفة قبل أن يبدأ حملته سنة ٩٦٤ ميلادية، صـــور نفسه على أنه البطل المسيحي، وجاوز ذلك إلى التهديد بالزحف إلى مكة لإقامة عرش المسيح هناك (٣) . واستخدم جون تسيميسس نفس اللغة، إذ جاء بخطابـــه إلى ملـــك أرمينيا الذي يصف فيه حملته سنة ٩٧٤ ميلادية: "كانت رغبتنا هي تحرير بيت المقدس من انتهاكات المسلمين" وأخبره أنه أنقذ مدن الجليل من النهب، لدورهـــا في تـــاريخ العقيدة المسيحية، وأضاف أنه لولا امتناع مدينة طرابلس عليه لذهب إلى مدينة القدس وأقام الصلوات في أماكنها المقدسة. (٤)

وكان العرب فيما مضى يميلون دائما إلى النظر إلى الحرب على أنها مسألة دينية ثم قل هذا الميل عندهم، وحاولوا بعد ذلك أن يستعيدوا حُميّاهُم وقد استشعروا الخـــوف

---

(١) Constantine Porphyrogennetus, *De Ceremoniis* (Bonn ed.) vol. i, pp. 332-3, ed by Vogt, vol. ii,pp. 135-6 ويحتمل أن تكون الهتافات أولا لإنتصار ميخائيل الثالث علي العرب سنة ٨٦٣. أنظر :
Bury, " The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos", in *E.H.R* vol. xxii, pp. 434.

(٢) Zonaras, vol. iii, p. 506

(٣) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin,* pp.427-30 الذي يقتبس من مخطوطة عربية في فيينا.

(٤) .Matthew of Edessa, pp. 13-20

من المسيحيين. ففي سنة ٩٧٤ ميلادية حدثت أعمال شغب في بغداد أجبرت الخليفة على إعلان الحرب المقدسة، أي الجهاد، رغم أنه لم يأسف لهزيمة الفاطميين. (١)

السلام بين بيزنطة ومصر

وبدا أن الأراضي المقدسة ستعود أخيرا إلى الحكم المسيحي، لكن الأرثوذوكس في فلسطين انتظروا دون طائل، وبرغم أن بازل الثاني، وهو وريث جون الشرعي، أصبح محاربا عظيما فإن الفرصة لم تتح له أبدا ليواصل التقدم نحو الجنوب. فالحروب الأهلية التي أعقبتها حرب طويلة ضد البلغاريين استغرقت كل اهتمامه. ولم يستطع زيارة سوريا سوى مرتين: مرة لتأكيد السيادة البيزنطية على حلب سنة ٩٩٥ ميلادية، ومرة أخرى عندما زحف على الساحل حتى بلغ طرابلس سنة ٩٩٩ ميلادية، وقرر في سنة ١٠٠١ ميلادية أن من العبث مواصلة الغزو. وهكذا عقدت هدنة لعشر سنوات مع الخليفة الفاطمي، فكانت فاتحة سلام دام أكثر من نصف قرن دون إخلال خطير بها. وثبتت الحدود بين الإمبراطوريتين وامتدت بين بانياس وطرطوس إلى الأرند جنوب شيزار، وبقيت حلب رسميا تحت النفوذ البيزنطي. لكن الأسرة الحاكمة المرداسية التي حكمت حلب سنة ١٠٢٣ ميلادية سرعان ما حصلت على استقلال حقيقي، ففي سنة ١٠٣٠ ميلادية هزم أميرها جيشا بيزنطيا هزيمة نكراء. على أن الإمبراطورية البيزنطية عوضت خسارة حلب بضم الرها في العام التالي. (٢)

---

(١) Miskawaihi, *The Experiences of the Nations*, in Amedroz and Margoliouth. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vol. ii, pp. 303-5 (Arabic text) and vol. v, pp. 326-8 (English text)

(٢) يرد وصف أنشطة بازل في سوريا من مصادر عربية(كمال الدين وابن الأثير وأبو المحاسن)وهي واردة في Rosen, *op. cit.* pp. 239-66, 309-11وفي ٩٨٧-٨ أرسل بازل سفراء إلي القاهرة قدموا الأموال اللازمة لصيانة كنيسة القبر المقدس في القدس*ibid* . pp.202-5 ،يقتبس نصا من مخطوطة أبي المحاسن--

وكان السلام ملائما للإمبراطورية وللفاطميين في آن، فقد كان من المقلق أن يعيد بعث الخلافة في بغداد مغامرون أتراك من أواسط آسـيا. و لم يكـن بوسـع العـاهل الفاطمي، الذي كان المسلمون الشيعة يقبلونه على أنه الخليفـة الحقيقـي، أن يتيـح للعباسيين أية فرصة لتعزيز مطالبهم، بينما كانت بيزنطة ترى أن حدودهـا الشرقيـة أضعف من حدودها الجنوبية. وبدافع الخوف من الأتراك، اضطر بازل الثاني إلى ضـم مقاطعات أرمينيا الأقرب إلى الإمبراطورية، ثم استولى بعد ذلك على المنطقة الواقعـة في أقصى الجنوب الشرقي للبلاد، وهي إمارة فاسبوراكان. واستمر خلفاؤه في سياسـته، ففي سنة ١٠٤٥ ميلادية، قام ملك آني، وهو الحاكم الرئيسي في أرمينيـا، بتسـليم أراضي مملكته إلى الإمبراطور، وفي سنة ١٠٤٦ ميلادية ذابت إمارة كارس في الأراضي الإمبراطورية وقد كانت آخر ولاية مستقلة في أرمينيا. (١)

وأملت الاعتبارات العسكرية ضم أرمينيا إلى الإمبراطورية، وبينت التجـارب أن أمراء الأرمن ليسوا أهلا للاعتماد عليهم. وبرغم أنهم كانوا مسـيحيين لا يسـتفيـدون شيئا من الفتح الإسلامي، فإنهم كانوا هراطقة، تجاوز كراهيتهم للأرثوذوكس كرهـهم لأي مسلم ظالم لهم. وبرغم استمرار التجارة والعلاقات الثقافية، وبرغم هجرة أعـداد كبيرة من الأرمن إلى الإمبراطورية وشغلهم لأعلى المناصب هناك، لم تنطفـئ جـذوة العـداوة عندهم. ونظرا لسهولة التغلغل في قلب آسيا الصغرى عبر الوديان الأرمينية — كما أظهرت حروب الحدود فيما مضى — رأت السلطات العسكرية أن من الحمـاقة

--وفيمـا يتعلـق بـالحدود أنظـر المناقشـات الـواردة في *Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches*, pp. 106-8, 134 ff., also his article " Shaizar " in the *Encyclopaedia of Islam* وكانت شيزر ما تزال تخضع لإدارة أسقف باسم الإمبراطور حتى سنة ١٠٨١ (Michael the Syrian, vol. ii, p. 178)

(١) يرد موجز كامل بالمراجع عن التاريخ الأرميـني في هـذه الفـترة في *Grousset, Histoire de l'Arménie*, pp. 531 أنظر أدناه ص ١١٩.

ترك تلك المنطقة الخطرة خارج نطاق سيطرتها. وكان ضم أرمينيا — من الناحية السياسية — خطوة تفتقر إلى الحصافة، إذ كان الأرمن يمقتون الحكم البيزنطي، وبرغم أن الحاميات البيزنطية تحرس الحدود فإن أعدادا كبيرة من الأرمن الساخطين توجد وراءها، وليس هناك من شك في أن غيبة الولاء تعد خطرا كامنا، لا سيما وأنهم الآن لا يدينون بالولاء لأمير محلي وراحوا ينشرون الفوضى في أنحاء الإمبراطورية. على أن الأمر لو ترك لرجال الدولة المتمرسين، الذين لا تشغلهم وجهة النظر العسكرية كما تشغل أباطرة بيزنطة العسكريين، لترددوا في خلق تلك المشكلة الأرمينية التي تقضي على تجانس الإمبراطورية وتدخل أقلية متنافرة في زمرة رعاياها.

الحاكم بأمر الله

وانتقل شمال سوريا إلى الحكم المسيحي، ووجد المسيحيون في جنوب سوريا وفلسطين أن حكم الفاطميين يسهل احتماله. ولم يعانوا من أي اضطهاد إلا لفترة وجيزة وذلك عندما انقلب الخليفة الحاكم على حين غرة وتصرف على نحو يغاير ما ربي عليه، فهو إبن لأم مسيحية وأسهم المسيحيون في تنشئته إلى حد كبير. فلسنوات عشر من ١٠٠٤ إلى ١٠١٤ ميلادية، وبرغم احتجاجات الإمبراطور، أصدر مراسيم ضد المسيحيين، وبدأ بمصادرة ممتلكات الكنيسة، ثم بحرق الصلبان والأمر ببناء مساجد صغيرة على أسطح الكنائس وأخيرا بحرق الكنائس ذاتها. وفي سنة ١٠٠٩ ميلادية أمر بهدم كنيسة القبر المقدس على أساس أن معجزة النار المقدسة التي تحدث في كل سنة، والتي يحتفل بها عشية عيد الفصح، زيف فاجر دون مراء. وبحلول سنة ١٠١٤ ميلادية أحرق أو نهب ما يقارب ثلاثين ألف كنيسة، واعتنق كثيرون من المسيحيين الإسلام في الظاهر لإنقاذ أرواحهم. واتخذت إجراءات مماثلة ضد اليهود. بيد أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن المسلمين كانوا معرضين لنفس القدر من الاضطهاد المتعسف من حاكمهم الذي دأب على تعيين وزراء من المسيحيين. وفي سنة ١٠١٣ ميلادية، وكتنازل

للإمبراطور، سمح للمسيحيين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية. و لم يتوقف الاضطهاد إلا عندما انتهى الحاكم إلى الاقتناع بأنه هو نفسه إله. وفي سنة ١٠١٦ ميلاديـــــة أعلـــن صديقه درازي على الملأ هذه الألوهية. وأدى سلوك الحاكم علــــى هـــذا النحـــو إلى إحساس عميق بالصدمة في نفوس أقرانه من المسلمين يجاوز ما كان يمكن أن يحس بـــــه غيرهم، فبدأ الحاكم يحابي المسيحيين واليهود وعاقب المسلمين بأن منعهم من الصوم في رمضان ومن الحج إلى مكة. وفي سنة ١٠١٧ ميلادية منح المسيحيون واليهود كــــامل الحرية الدينية وسرعان ما عاد حوالي ستة آلاف ممن ارتدوا حديثا إلى حظيرة المسيحية. وفي سنة ١٠٢٠ ميلادية أعيدت للكنائس ممتلكاتها المصادرة بما في ذلك ما أخذ مـــن مبانيها التي هدمت، بينما ألغي القرار الذي يقضي بارتداء ملابـــس مميـزة. بيـد أن المسلمين استثير غضبهم حين ذاك على الخليفة الذي أمر بأن يستبدل اسم الله باسمه في الصلوات في المساجد، وفر درازي إلى لبنان وأنشأ هناك الطائفة التي سميت باسمه وهى طائفة الدروز. وفي سنة ١٠٢١ ميلادية اختفى الحاكم نفسه، وربمــــا قتلتـــه أختــه الطموحة ست الملك، لكن مصيره ظل غامضا حتى الآن. ويعتقد الدروز أنه ســـيعود مرة أخرى في الوقت الملائم. (١)

المسيحيون في رخاء

وبعد موته، استولى أمير حلب صالح بن مرداس على فلسطين لفترة من الزمـــن، لكن الفاطميين استعادوها كاملة سنة ١٠٢٩ ميلادية. وكانت هناك معــاهدة موقعــة بالفعل سنة ١٠٢٧ ميلادية تسمح للإمبراطور قسطنطين الثامن بالاضطلاع بإعادة بناء كنيسة القبر المقدس وتسمح بعودة المرتدين الباقين إلى المسيحية دون عقاب، وتجددت

(١) See the article " Hakim " by Graefe in the *Encyclopaedia of Islam*, also browne, *op. Cit.* pp.60-2.

هذه المعاهدة سنة ١٠٣٦ ميلادية، بيد أن إعادة بناء الكنيسة بدأ بالفعل بعـــد ذلـــك بحوالي عشر سنوات وقام بتنفيذه الإمبراطور قسطنطين التاسع. وللإشراف على العمل كان مسئولو الإمبراطورية يرتحلون بحرية إلى القدس حيث بدا أن المسيحيين يسيطرون على كل شيء سيطرة كاملة الأمر الذي أثار استياء المسلمين المقيمين والمرتحلـــين(١). وكان كثيرون من البيزنطيين يشاهدون في طرقات القدس فأشيع بـــين المســـلمين أن الإمبراطور نفسه قدم إليها (٢). وكان للتجار الأمالفيين (٣) مستعمرة مزدهرة يحميـــها الخليفة، بيد أنهم كانوا يعترضون على تبعية مدينتهم الإيطالية للإمبراطور، مما كان يتيح له مشاركتهم فيما ينالونه من امتيازات (٤). وكانت الخشية من القوة البيزنطية توفـــر الأمان للمسيحيين. ويذكر الرحالة الفارسي ناصري خوسرو، الذي زار طرابلســـــنة ١٠٤٧ ميلادية، عدد السفن التجارية اليونانية التي تشاهد في الميناء، ويصف خـــوف

---

(١) William of Tyre, vol. i , pt. I, pp. 391-3; Schlumberger, *L'Epopèe Byzantine,* vol. iii, pp. 23,131,203-4 ; Riant , *Donation de Hugues, Marquis de Toscane ,* p. 157; Mukaddasi, *Description of Syria,* by Le Strange, p. 37.

ويخبرنا المقدسي أن الكتاب والأطباء في فلسطين كانوا كلهم تقريبا من المسيحيين بينمـــا كـــان الدباغـــون والصباغون والصيارفة من اليهود .

(٢) .Nasir-i -Khusrau, *Diary of a Journey through Syria and palestine,* trans . by Le Strange, p. 59

(٣) (المترجم) : الأمالفيين : نسبة إلي مدينة أمالفي الحالية وتقع إلي الجنوب الشرقي من نابولي في إيطاليا . وهي من أهم الجمهوريات البحرية الإيطالية في القرن التاسع الميلادي وكانت تضاهي بيزا وجنوا وفينيسيـــا وحايتا كقوة بحرية في التجارة مع الشرق .

(٤) . William of Tyre, vol. 1, 2, pp. 822-6; Aimè, *Chronicon,* p. 320

السكان من هجوم قد تشنه البحرية البيزنطية. (١)

في منتصف القرن الحادي عشر كان من النادر أن يحظى المسيحيون بمثل هذا القدر من الرضا، فأصحاب السلطة من المسلمين كانوا ليني الجانب، وكان الإمبراطور يرعى مصالحهم، وكانت التجارة مع البلدان المسيحية في الخارج تزدهر وتتزايد، و لم يحدث من قبل أن حظيت القدس في أية حال بمثل هذا القدر من التعاطف ومن الثروة التي كان الحجاج يجلبونها إليها من الغرب.

(١) Nasir-i-Khusrau, *op.cit.* pp. 6-7; Mukaddasi, *op. Cit.* pp. 3-4، ويقول المقدسي الذي كان يكتب في حوالي عام ٩٨٣ ، أن الناس في سوريا " يعيشون في رعب دائم من البيزنطيين ... إذ أن مناطق حدودهم كانت تنتهب على الدوام ، وكانت غاباتهم تدمر المرة بعد المرة ".

الفصل الثالث :

حجـــاج المسيــــــح

حجاج المسيح

"تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ"

(المَزَامِير: ١٢٢ — ٢)

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية. فوقوف المـــرء في نفـــس الموقع الذي وقف فيه من يجلّهم ذات مرة، ومشاهدة نفـــس الأمـــاكن الـــتي ولـــدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلـــك تعبـــير عملي عما يشعر به نحوهم من تبجيل. وإذا كان لعظماء رجال العالم مزاراتهم التي يفد إليهـــا المعجبون بهم من بعيد، فإن جماعات الناس تُقبِل في تلـــهف أكـــبر إلى تلـــك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها.

وكان الحج نادرا في أيام المسيحية الأولى. وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجـــع الارتحال إلى فلسطين. ولم تكن القدس سوى أطلال بعد أن دمرها تيتـــوس، وبقيـــت كذلك إلى أن أعاد هادريان بناءها وأصبحت مدينة إيليا الرومانية. غير أن المســـيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حيـــاة المسيح وبلغ احترامهم لموقـــع

كالفاري(١) حدا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لـــفينوس كابيتولينا(٢) هنـــــاك. وعـــرف مسيحيو القرن الثالث الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيــــت لحـــم معرفـــة جيدة، وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتـــون وحديقـــة جثمـــان (٣) ومكان صعود المسيح إلى السماء. وأصبحت زيارة هـــذه البقـــع المقدســـة للصـــلاة ولاكتساب الفضائل الروحية جزءا مما يزاوله المسيحيون. (٤)

---

(١) (المترجم) : كالفاري : اسم المكان الذي صلب فيه المسيح ، بالقرب من القدس .

(٢) (المترجم) : كابيتولينا : اسم تل من تلال روما السبعة على الضفة الشرقية التيبر ، وهي التلال الــــتي بنيت روما في الأصل عليها أو من حولها.

(٣) (المترجم) : جثمان Gethsemane: هو اسم حديقة كانت تقع عبر وادى كــــدرون Kidronفي جبل الزيتون وهى المكان الذى صلي فيه السيد المسيح عشية صلبه ، والاسم جثمان مأخوذ عن العبرية جـــات شيمانيم أي معصرة الزيت وهذا الاسم يوحي بأن تلك الحديقة كانت دغلا من أشجار الزيتون توجـــــد بـــة معصرة للزيت. وبرغم أنة لا يمكن تحديد موقع حديقة جثمان على سبيل اليقين فإن الكنائس الأرمينية واليونانية واللاتينية والروسية تقبل دغلا من أشجار الزيتون يقع على المنحدر الغربي من جبل الزيتون على أنـــة الموقـــع الفعلي الذي أخذت به الإمبراطورة هيلينا ، أم الإمبراطور قستنطين أول الأباطرة المسيحيين في أوائـــل القـــرن الرابع الميلادي. غير أن رواية أخرى من روايات التراث تصور أن صلاة السيد المسيح وخيانته في جثمان وقعتا في مكان يعرف الان بمغارة العذاب بالقرب من قنطرة تعبر وادي كدرون. ويمكن أن تكون حديقة جثمان في موقع اخر إلى الجنوب من هذا المكان في حديقة تضم أشجار زيتون قديمة ، حيث توجد كنيسة لاتينية أقامـــها الرهبان الفرنسسكان على أنقاض كنيسة كانت موجودة في القرن الرابع.

(٤) يشير جيروم Jerome, *Epistolae xlvi, 9, M.P.L.*, vol. xxii, col. 489إلى رحلات الحج المبكـــرة إلـــى فلسطـــين وكـــان أول مـــن نعـــرف إسمـــه مـــن الحجـــاج أحـــد أساقفـــة قيصــــرية فــــي اســـيا الصغـــرى فـــي وقـــت مبكـــر مـــن القـــرن الثالـــث ، وهـــو المدعــــو Fermilian (Jerome, *De Viris Illustribus, M.P.L.* vol. xxiii, cols. 665-6).وفي وقت لاحق من القرن الثالث قـــام Alexander، وهـــو أحـــد أســـاقفة قبادوقيـــا ، بزيـــارة فلســــطين (Eusebius, *Historia Ecclesiastica*,pp.185-6)أما المؤرخ Originفيتحدث في (*In Joannem vi, 29, M.P.G* vol. xiv, col.269) عن "...عة المسيحيين في اقتفاء خطوات المسيح

واتسع نطاق هذه المزاولات بانتشار المسيحية. وكان يسر الإمبراطور قسطنطين أن يضفي قوة على الدين الذي اختاره، وانطلقت أمه الإمبراطورة هيلينا، وهي من أنجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنا، إلى فلسطين لتكتشف كالفاري ولتبحث عما تبقى من أدوات صلب المسيح، ودعم الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك، وهى الكنيسة التي ظلت الهيكل الرئيسي للعالم المسيحي عبر كل تقلباته. (١)

وبدأ على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذي بذلت فيه هيلينا جهودها. ولا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة ٣٣٣ ميلادية، وقبل انتهاء حفائر هيلينا، جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو الفرنسي إلى فلسطين ودون شيئا عن رحلته (٢). ونجد بعد ذلك وصفا لرحلة قامت بها سيدة دعوب تسمى أحيانا اثيريا وأحيانا أخرى القديسة سيلفيا قديسة إقليم أكتيان الفرنسي (٣) . وعند اقتراب نهاية القرن استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحي اللاتيني، وهو القديس جيروم، وجذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللاتي كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا. وكان يستقبل في صومعته ببيت لحم موكبا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يفدون إليه

---

(١) .Eusebius *Vita Constantini*, chs. xxv-xi, given in *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. 1

(٢) .The *Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* is published in the *P.P.T.S.* vol. 1, in a trans.by A.Stewart

(٣) The pilgrimage of Aetheria is published in an English trans.by J.H.Bernard in the *P.P.T.S.* vol. 1, under the name of *The Pligrimage of Saint Silvia of Aquitaine*, with whom the editor identifies her, almost certainly incorrectly

معبرين عن احترامهم له بعد مشاهدة الأماكن المقدسة (١). وكان القديس أوحستين، وهو أشد الأباء الغربيين روحانية، يرى أن القيام بالحج لا محل له وفيه مخاطرة وكـــان الآباء اليونانيون يميلون إلى الاتفاق معه في هذا الرأي (٢). غير أن القديس جيروم، الذي لم يكن يري أن للإقامة الفعلية في القدس أية قيمة روحية، أكد أن الصلاة في المكــــان الذي وطأته أقدام المسيح عمل من أعمال الإيمان (٣)، وكان رأيه أكثر انتشارا من رأي أوحستـــين. وتضاعفت رحلات الحج بتشجيع من السلطات ويقال إنـــــه في مطلـــع القرن الثاني بلغ عدد الأديرة والأنزال التي شيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين، تخضع كلها تقريبا لرعاية الإمبراطور. (٤)

---

(١) يرد خطاب Paula and Eustochion إلي Macella ، وفيه وصف الحياة في فلســــطين في مجتمـــع القديس جيروم منشوراً ضمن خطابـــات القديـــس جـــيروم تحـــت الرقـــم xlvi (cols. 483 ff. in M.P.L.vol.xxii) ويوصـــى جيروم نفسه في الخطاب الذى يحمل رقم xlvii (ibid. col.493) صديقـــه Desiderius بزيارة الأماكـــن المقدسة؛ ويشرح هو نفسه أن زيارته لفلسطين مكنته من أن يفهم الأســـفار المقدسة على نحو أفضل. (Liber Paralipumenon, preface, in M.P.L., vol. xxviii, cols. 1325-6). غـــير أنه في لحظات ضجره، كما يتضح من خطابه الذى يحمل رقم lviii,2, إلى Paulinus of Nola (ibid. vol.xxii,col. 580) يعرب عن اعتقاده بأنه لا يفتقد شيئا في حالة عدم زيارة القدس .

(٢) خطاب القديس أوغسطين Contra Faustum xx, 21, ibid. vol. xlii, cols. 384-5 lxxviii, 3, in M.P.L. vol. xxxiii, cols. 268-9 ويعارض Saint Gregory of Nyssa الحج بشدة (letter no ii,in M.P.G. vol. xlvi, col. 1009) . كما يعارض بنفس القدر تقريبـــا Saint John Chrysostom في (Ad Populum Antiochenum v,2, in M.P.G. vol.xlix, col. 69) غير أنه يعرب في أماكن أخري عن رغبته في أن تسمح له واجباته بأن يكـــون حاجـــا (In Ephsianos viii,2 (ibid. vol. lxii, col. 57

(٣) أنظر ما سبق ص ٨٤ حاشية ٤ .

(٤) Couret, La Palestine sous les Empereurs grecs, p. 212

الحجـــاج الأوائـــل

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واســـتقرت هناك الإمبراطورة ايودوسيا، وهى ابنة فيلسوف وثني أثيني، بعد حياة تعسة في البلاط، وجاء في ركابها كثيرون من الأرسطقراطيين البيزنطيين الورعين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون الترانيم كانت ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، الـــتي بـــدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العـــذراء الـــتي رسمها القديس لوقا. (١)

وحذا حذوها حجاج من الغرب، ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بدائـــع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العـــالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور. وكانت المسيحية بادئ الأمر دينا شرقيـــا، وأغلب القديسين والشهداء المسيحيين الأوائل كانوا شرقيين. وكان هناك ميل مـــتزايد لتبجيل القديسين، وكان الثقاة من أمثال برودينيتوس واينوديوس يقولـــون إن العـــون الإلاهي يمكن أن يستمد من قبورهم وإن أجسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات(٢).

وبدأ الرجال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثرا مقدسا، وجـــاوزوا ذلـــك إلى

---

(١) أنظر . Bury, *Later Roman Empire* (A.D. 395-565) , vol. 1, pp. 225-31. وفيمـــا يتصل بما قـــام بـــه Eudocia مـــن صيـــد الآثـــار ، أنظـــر Nicephorus Callistus, *Historia Ecclesiastica,* in *M.P.G.* vol. cxlvi, col. 1061.

(٢) udentius, Peristephanon vi, pp. 132; Ennodius, Libellum pro Synodo, p. 315 وكان القديس أمبروز يؤمن إيمانا راخسا بما للآثار من أفضال ، وقد جاءه هو نفسه إلهام ليكتشف بعض الآثار ، وذلك كما جاء في الرسالة (letter xxii in *M.P.L.* vol. xvi, cols. 1019 ff).ويؤكـــد القديـــس Victricius أن للآثار فضـــل ونعمـــة وذلـــك فيمـــا كتبـــه *Liber de Laude Sanctorum* فى (*M.P.L.*vol. xx, cols. 453-4) ومن الناحية الأخري فإن Saint Basil أحب أن يكون متيقنا تمامـــا من أصالتها . أنظر خطابه إلي القديس Ambrose حول جسد أحد أساقفة ميلانو ، الخطاب الذي يحمـــل رقم cxcvii في *M.P.G.* vol. xxxii, cols . 109-13.

محاولة الحصول على واحد من تلك الآثار وينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيستهم. علـى أن الآثار الرئيسية بقيت في الشرق، فظلت آثار المسيح في القدس حتى نقلت إلى القسطنطينية، وبقيت أغلب آثار القديسين في أماكنها الأصلية. ورغم ذلك بدأت الآثار الأقل شأنا تتسرب إلى الغرب مع حاج محظوظ أو تاجر مغامر، أو ترسل كهدايا إلى بعض ذوي الشأن، وسرعان ما لحقت بها أجزاء صغيرة من الآثار الرئيسـية الـتي نقلت بكاملها بعد ذلك. وساعد كل ذلك في جذب انتباه الغرب إلى الشرق. فمواطنو لانجر الذين كانوا يفخرون بحيازتهم لأصبع من أصابع القديس ماماس كان لابد لهم من أن يستشعروا الرغبة في زيارة قيصرية في كابادوكيا(١) حيث عاش هذا القديـس (٢)، وراهبات شامالبير اللائي كن يحتفظن بعظام ثكلا في كنيستهن، كن يستشعرن اهتماما شخصيا بمسقط رأس تلك القديسة في المنطقة الايزورية في سيلوشيا(٣). وعندمـا (٤) عادت إحدى سيدات مورين من رحلاتها ومعها إبهام القديس يوحنا المغتسل دفع ذلك جميع معارفها إلى أن يرتحلوا إلى السامرة ليروا جسده وإلى دمشق لـيروا رأسـه (٥). وكانت البعثات ترسل على أمل الحصول على شيء من هذه الكنوز ربما يتمثل في قنينة من الدم المقدس أو قطعة من الصليب الحقيقي نفسه. وأقيمـت الكنائس في الغـرب

---

(١) (المترجم) : كابادوكيا : مملكة قديمة وفيما بعد إقليم روماني (شرقي آسيا الصغرى) .

(٢) *Historia Translationum Sancti Mamantis vel Mammetis*, in *Acta Sanctorum*, 17 August, vol. iii, pp. 441-3.

(٣) (المترجم) : سيلوشيا : إسم مدينة من عدة مدن قديمة جنوب غرب آسيا شيدها " سيلوسيـوس الأول " لاسيما المدينة الرئيسية للإمبراطورية السيلوسية علي نهر دجلة .

(٤) Mabillon, *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, vol. 1, p. 481.

(٥) Gregory of Tours, *De Gloria Martyrum*, in M.P.L. vol. lxxi, cols. 719-20. See Delehaye, *Les Origines du Culte des Martyres*, p. 99

وأطلقت عليها أسماء القديسين الشرقيين أوالقبر المقدس، وغالبا ما كان يخصص جـــزء من عوائدها لإرساله إلى الأماكن المقدسة التي أخذت عنها أسماؤها.

وساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط، علـــى الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الـــذي بدأ يتزايد في الغرب، وكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هي الحال عندمـــا أحـــال القراصنة الواندال (١) البحار، في منتصف القرن الخامس، إلى منـــاطق غـــير آمنـــة لا يستطيع أن يجوبها التجار غير المسلحين. كما أسهمت الهرطقة والتذمر في الشـــرق في إضافة مزيد من الصعوبات. على أن هناك مدونات كتبها حجاج غربيون ارتحلوا شرقا في القرن السادس في سفن تجارية سورية أويونانية. وكان التجـــار ينقلـــون الأخبـــار والقصص الديني عند نقلهم المسافرين والبضائع. وبفضل المسافرين والتجـــار، أصبـــح المؤرخ جريجوري التوري (٢) على دراية جيدة بالشئون الشرقية. ويوجد سجل لمحادثة دارت بين القديس سيميون ستايلايتس وتاجر سوري رآه على عموده (٣) بالقرب من

---

(١) (المترجم) : حاليا الضفة الغربية لنهر الأردن .

(٢) (المترجم) : التوري : نسبة إلي مدينة تور التي تقع غربي وسط فرنسا علي نهر اللوار .

(٣) (المترجم) : يعني اسم القديس **Symen Stylites** : سيميوي العمودي ، من لفظة **Stylos** اليونانية أي العمود التي أخذت عنها اللغة الإنجليزية لفظة **Stylite** بمعنى الناسك أو الزاهد الذي يعيش علي قمة عمود . والقديس سيميون العمودي (حوالي ٣٩١-٤٥٩) هو أول ناسك يبتـــدع فكرة العيش فوق عمـــود ، وقضى عشرين عاما من شبابه المبكر متنقلا بين الصوامع والأديرة في شمال سوريا ثم بدأ سنة ٤٢٣ميلادية في العيش فوق عمود منخفض ، تزايد ارتفاعه علي مر السنين حتى بلغ حوالي ستين قدما، وكانت تعلوه منصة تبلغ مساحتها حوالي اثني عشر قدما مربعا . وقضى فوق ذلـــك العمـــود ستـــة وثلاثين عاما هي بقية عمره ويعلل اتخاذ سيميون هذه الطريقة الغريبـــة فـــي العيش برغبته في احتناب

حلب، وسأله القديس سيميون خلالها عن أخبار القديسة جنيفييف الباريسية وأرسل لها رسالة شخصية (١) . وبرغم الخلافات الدينية والسياسية بين السلطات الأعلى ظلت العلاقات بين المسيحين الشرقين والغربين ودية ووثيقة للغاية.

وانتهى هذا العصر بمقدم الفتوحات العربية. فلم يعد التجار السوريون يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكلفة بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تماما. فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكرون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين، وعندما اتهم البابا مارتين الأول سنة ٦٨٢ ميلادية بالتعامل الودي مع المسلمين، علل ذلك بأنه كان مدفوعا برغبته في الحصول على إذن بإرسال الهبات إلى القدس (٢) . وفي سنة ٦٧٠ ميلادية شرع الأسقف الفرنجي أركولف في رحلته إلى الشرق وتمكن من أن يتم جولة شملت مصر وسوريا وفلسطين وأن يعود عن طريق القسطنطينية، ولكن تلك الرحلة استغرقت عدة سنوات قابل خلالها صعوبات كثيرة (٣). ونحن نعرف أسماء حجاج آخرين ينتمون إلى ذلك العصر مثل فالدي أوف روو من بيكاردي أوبيركير أوف مونتييه ان ـــ

-- أولئك الذين كانوا يفدون إليه ليصلي من أجلهم ليسدي النصح لهم وحدث عكس ما كان يتوقع ، إذا زاد عدد الوافدين إليه ، وجاءه الكثيرون من الناس إما حاجين إليه أو متفرجين عليه وتجاوزت شهرته سوريا ، وكثر مقلدوه في الشرق .

(١) *Vita Genovefae Virginis Parisiensis, p. 226*.

(٢) Martin I, letter to Theodore, in M.P.L. vol. lxxxvii, cols. 199-200.

(٣) Arculf's narrative, written by Adamnan, is given in the *P.P.T.S.* vol . iii, trans. By J.R. Macpherson.

دير من برحندي وصديقه وايمار (١) . غير أن أقاصيصهم تبـــين أن المغـــامرين وغـــير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كان يحدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج.

حجاج القرنين الثامن والتاسع

وزاد عدد الحجاج خلال القرن الثامن. وجاء بعضهم مـــن إنجلـــترا، أشـــهرهم ويليبالد الذي مات سنة ٧٨١ ميلادية وهو أسقف إيشستاد في بافاريا وكان قد ذهب إلى فلسطين في شبابه بادئا رحلته من روما سنة ٧٢٢ ميلادية ولم يرجع إليـــها إلا في سنة ٧٢٩ ميلادية (٢) بعد كثير من المغامرات الكريهة. ويبدو أنه كانت هناك محاولة عند نهاية القرن لتنظيم الحج تحت رعاية شارل العظيم، الذي استعاد النظـــام وبعـــض الرخاء إلى الغرب وأقام علاقات حسنة مع الخليفة هارون الرشيد. وتُظهر الأنزال التي شُيدت بمساعدته في الأراضي المقدسة أنه لابد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قـــد وصل إلى القدس في عهده ومن بينهم بعض النساء. وأرسلت راهبات مـــن إســـبانيا المسيحية للخدمة في القبر المقدس (٣) لكن هذا النشاط لم يدم طويـــلاً، إذ تدهـــورت الإمبراطورية الكارولنجية، وعاد قراصنة من المسلمين إلى الظـــهور في شـــرق البحـــر المتوسط، وجاء القراصنة النرويجيون من الغرب. وعندما قام برنارد الحكيم، مـــن

---

(١) *De Samctp Wlphlagio,* in *As. Ss.* 7 June, June, vol. ii, pp. 30-1

(٢) .Willibald's *Hodoeporicon,* trans. By Brownlow, is given in the *P.P.T.S.* vol. iii

(٣) ‘ Commemoratioriumde Cases Dei vel Monasteriis’ , in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana* vol. 1, 303

بريتاني (١) ، بزيارة فلسطين سنة ٨٧٠ ميلادية وجد أن المنشآت التي أنشأها شارل ما تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وآخذة في الانهيار. ولم يستطع برنـــارد القيام بالرحلة إلا بعد أن حصل على جواز مرور من السلطات الإسلامية التي كـــانت آنذاك تحكم باري في جنوب إيطاليا وإن لم يمكّنه ذلك من النزول في الإسكندرية.(٢)

عصر عظيم للحج

وبدأ العصر العظيم للحج مع القرن العاشر. ففي خلال ذلك القرن فقد العـــرب آخر أوكار القراصنة في إيطاليا وجنوب فرنسا، وأُخذت منـــهم كريـــت ســـنة ٩٦١ ميلادية، وكانت البحرية البيزنطية قبل ذلك ببعض الوقت تسيطر على البحار بـــالفعل على نحو يكفل اكتمال انتعاش التجارة البحرية في البحر المتوسط; فـــأبحرت الســـفن التجارية اليونانية والإيطالية دونما عائق بين موانئ إيطاليا وموانئ الإمبراطورية، وبـــدأت في فتح مجال التجارة مع سوريا ومصر برضا السلطات الإسلامية. وكان مـــن اليســـير على الحاج أن يجد طريقا مباشرا للحج من فينيسيا أو من باري في جنوب إيطاليـــا إلى طرابلس أو الإسكندرية، رغم أن أغلب المسافرين كانوا يفضلون أن يزوروا القسطنطينية ليروا مجموعات الآثار العظيمة الموجودة فيها، ثم يواصلون الرحلة بعد ذلك بـــالبحر أو بالطريق البري الذي أصبح آنذاك آمنا بفضل النجاح العسكري البيزنطي. وفي فلسطين نفسها، نادرا ما أثارت السلطات الإسلامية، سواء أكانت عباســـية أم إخشيديـــة أم فاطميـــة أية صعوبات، وإنما كانت تتجه إلى الترحيب بالمرتحلين لما يجلبونه من ثـــروة إلى المنطقة.

---

(١) (المترجم) : شبه جزيرة ومقاطعة قديمة تقع في الشمال الغربي من فرنسا بين القناة الإنجليزية (المـــانش) وخليـــج بسكاي.

(٢) The *Itinerary of Bernard the Wise,* trans. By J. H. Bernard, is given in the *P.P.T.S.* vol. iii.

وكان لتحسن ظروف الحج آثاره على الفكر الديني الغربي. ولسنا نعرف على وجه اليقين التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة. ففي مطلع العصور الوسطى أوصت البنيتنشياليا (١) بالحج، دون تحديد هدف له في واقع الحال. بيد أن الناس أخذوا يعتقدون أن لبعض الأماكن المقدسة فضيلة روحية معينة تؤثر في زائريها ويمكن أن تهيئ لهم اغتفار خطاياهم. ومن ثم عرف الحاج أنه لم يكن بوسعه أن يبجل ما تركه الرب والقديسون على الأرض والبيئة التي عاشوا فيها بحيث يتصل بهم اتصالا وجدانيا وحسب، بل ربما جاوز ذلك وحظى بعفو الرب عما أتاه من شرور. وساد الاعتقاد منذ القرن العاشر بأن أربعة مزارات بعينها تتميز بهذه الخاصية: مزار القديس جيمس في كومبوستيللا بإسبانيا، ومزار القديس ميكائيل في مونت جارجانو بإيطاليا، والمزارات المقدسة الكثيرة في روما، وفوق ذلك الأماكن المقدسة في فلسطين. وأصبح بلوغ تلك الأماكن أيسر بكثير عن ذي قبل بسبب ابتعاد المسلمين عنها أو سماحهم بزيارتها، بيد أن الرحلة الطويلة إليها كانت ما تزال يعتورها من المشقة ما يجعلها لا تسوغ في فكر إنسان العصر الوسيط أو تستثير شعوره الديني. وكان من الحكمة إبعاد من يقترف جرما عن المكان الذي ارتكب فيه جريمته لفترة عام أو أكثر بتكليفه بالحج. ذلك أن ما كان يتجشمه من مشقة وتكلفة في تلك الرحلة كان بمثابة عقوبة له فضلا عن أن قيامه بالحج على هذا النحو وما يحيط بذلك من جو عاطفي يؤدي به إلى إحساس بالطهر والقوة الروحية فيعود وهو إنسان أفضل عن ذي قبل. (٢)

---

(١) (المترجم) : بنيتنشياليا (من اللاتينية Poenitentialia) : قائمة أو كتاب بالقواعد التي تحكم الكفارة الدينية ، أي العقوبة التي يترلها الاثم بنفسه تعبيرا عن توبته وخاصة بتوجيه من الكاهن .

(٢) See de Rozière, *Recueil gènèral des Formules usitèes dans l'Empire des Francs*, vol. ii, pp. 939-41 وهناك فرنجي يدعي Fromond ذهب مع إخوته إلي فلسطين--

وهناك إشارات عارضة في السجلات التاريخية عن رحلات متعددة للحـــج، وإن كانت أسماء الحجاج التي في حوزتنـــا الآن لا تعـــدو بـــالضرورة أن تكـــون أسمـــاء الشخصيات المرموقة دون غيرها. فمن بين كبار النبلاء والنبيلات في الغرب الذين ورد ذكرهم كحجاج نجد هيلدا، كونتيسة سوابيا (١) التي ماتت سنة ٩٦٩ ميلادية أثنـــاء رحلتها، وجوديت دوقة بافاريا(٢)، شقيقة زوجة الإمبراطور أوتو الأول، التي قـــامت برحلتها سنة ٩٧٠ ميلادية، ودوق أرديش، ودوق فيينا، ودوق فردون، ودوق آركي، ودوق أمالت، ودوق جوريزا، وكان كبار رجال الدين أكثر مثابرة: إذ قام القديـــس كونراد أسقف كونستانس بثلاث رحلات منفصلة إلى القدس، وقام القديس جـــون أسقف بارما بما لا يقل عن ست رحلات، وقام أسقف أوليفولا بـــالحج ســـنة ٩٢٠ ميلادية، ومن بين رؤساء الأديرة الذين قاموا بالحج، رئيـــس ديـــر ســـانت ســـيبار، وفلافيني، وأريلاك، وسانت أوبين دي آنجر، ومونتيير — إن — در. واصطَحبت تلـــك الشخصيات البارزة معها مجموعات من الرجال والنساء غير ذوي الشأن الذين لم تكن لأسمائهم أهمية عند كتاب ذلك العصر.

ويرجع هذا النشاط في الأساس إلى الجهد الخاص. على أنه كانت هنـــاك قـــوة جديدة آخذة في الظهور في السياسة الأوروبية وتولت هذه القوة، فيما تولت، البدء في

--للتكفير عن جريمة وذلك في منتصف القرن التاسع ، وهـــو أول تائب يعرف إسمه . ويرد The
Aa. Ss. 24 October, Oct., vol.x, pp. 847 ff. في *Peregrinatio Frotmundi*
أنظر أيضاً : van Cauwenbergh, *Les Pélerinages expiatoires et judiciares, passim,*
and Villezy, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie juridique,* pp. 141 ff.

(١) (المترجم) : إقليم يقع جنوب غرب ألمانيا .

(٢) (المترجم) : ولاية تقع جنوب ألمانيا عاصمتها ميونخ كانت دوقية ، فمملكة ، فجمهورية .

تنظيم نقل الحجاج. وفي سنة ٩١٠ ميلادية أسس الكونت وليم الأول أوف أكتيان الدير المسمى دير كَلاني .وفي نهاية القرن أصبحت مدينة كَلاني، التي تعاقب في حكمها عدد من رؤساء الأديرة المرموقين، مركزًا لحلقة كنسية واسعة، جيدة التنظيم ومحكمة الترابط وعلى صلة وثيقة بالبابوية. وكان أبناء مدينة كَلاني يرون أنهم يتولون الحفاظ على ضمير العالم المسيحي الغربي. وأخذ مذهبهم بالحج، ورغبوا في أن يهيئوا السبل العملية لأدائه، وبحلول القرن التالي كانت بعثات الحج إلى المزارات الإسبانية العظيمة تحت سيطرتهم الكاملة، أو تكاد. وأخذوا في نفس الوقت يرتبون رحلات إلى القدس ويعملون على انتشارها. واستجابة لإقناعهم ارتحل رئيس دير ستافيليون إلى الارض المقدسة سنة ٩٩٠ ميلادية، وكونت فيردون سنة ٩٩٧ ميلادية. ويتبين تأثيرهم، في القرن الحادي عشر، من الزيادة الكبيرة في عدد حجاج فرنسا واللورين والمناطق القريبة من كَلاني والأديرة التابعة لها. وبرغم أن الحجاج الألمان كانوا كثيرين بين حجاج القرن الحادي عشر، وكان بينهم رئيس أساقفة ترير وميتز وأسقف بامبرج، وكثيرون من الحجاج الإنجليز، فإن أعداد حجاج فرنسا واللورين فاقت أعداد الحجاج الألمان والإنجليز إلى حد كبير. وكانت الأسرتان الحاكمتان الكبيرتان في شمال فرنسا، من أشراف أنجو ونورماندي على ما بينهما من تنافس، صديقتين حميمتين لمدينة كَلاني، وترعيان رحلة الحج إلى الشرق. وذهب فولك نيرا أوف أنجو المرعب إلى القدس سنة ١٠٠٢ميلادية ثم عاد إليها مرتين فيما بعد. وأرسل الدوق ريتشارد الثالث أوف نورماندي الصدقات إليها، وقاد الدوق روبرت جمعًا غفيرًا ذهب به إلى هناك سنة ١٠٣٥ ميلادية، وسجل المؤرخ الكَلاني الراهب جلابر بأمانة جميع تلك الرحلات إلى

---

(١) See Brèhier, *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age*, pp. 32-3, and Ebersolt, *Orient et Occident*, vol. 1, pp. 72-3, who gives references for these journeys .

الحج. (١)

الحجاج الاسكندنافيون

وحذا النورمانديون حذو دوقهم، وكانوا يبجلون القديس ميكائيل تبجيلا خاصا، وقامت أعداد كبيرة منهم بالرحلة إلى مونت جرجانو ومن هناك كان المقـــدام منـــهم يذهب إلى فلسطين. وفي منتصف القرن، بلغت نسبتهم، بين الحجـــاج الذاهبـــين إلى فلسطين، من الكبر والتحمس حدا جعل حكومة القسطنطينية، التي كانت غاضبة مـــن إغارة النورمانديين على إيطاليا البيزنطية، تبدي شيئا من عرقلة مرورهم إلى الأراضي المقدسة (٢) . وأظهر أبناء عمومتهم من اسكندنافيا حماسا يكاد يبلغ حماسهم، وكـــان الاسكندنافيون قد اعتادوا زيارة القسطنطينية منذ أمد بعيد وتأثروا بثروتها وعجائبـــها إلى حد كبير. وكانوا يتحدثون عند عودتهم إلى منازلهم في الشمال عن الحديقة الكبيرة، وذلـــك هو الاسم الذي أطلقوه على المدينة العظيمة القسطنطينية والتي كانوا يعرفونها

---

(١) Radulph Glaber in Bouquet, *R.H.F.* vol. x, pp. 20, 32, 25, 74, 106, 108 . See Brèhier, *op. Cit.* pp. 42-5; Ebersolt, *op. Cit.* pp. 75-81

(٢) يفترض Brèhier, أن " انشقاق Michael Cerularius " قد أوجد سوء النية بـــين البيزنطيـــين والحجاج . وأما Riant في مؤلفه *Expèditions et Pèlerinages des Scandinaves,* p. 125 فيمضـــي شـــأوا بعيدا بحيث يقول إن السلطات البيزنطية تعمدت إغلاق الطريق إلى فلسطين . ومن الواضح أن ذلك يقوم على أساس تفسيره لتجربة Lietbert of Cambrai(أنظر ص ٧٨ والحاشيـــة رقم ١) ، والظروف التي كانت سائدة في سوريا هي التي تفســـر ذلك فـــي واقـــع الأمر . علـــي أن خطـــاب البابا فيكتور Victor (أنظر ص ٧٨ والحاشية ٣) يـــوحي بـــأن مسؤولي الإمبراطورية لم يكونوا ودودين دائما في معامليهم للحجاج . إن سبب البرود كان كراهية النور مانديين وليـــس أي انشقاق .

أحيانا بـــآسجارد أي بيت الآلهة. وفي سنة ٩٣٠ ميلادية كان جيش الإمبراطور يضم بالفعل جنودًا اسكندنافيين، وفي مطلـــع القرن الحادي عشر زادت أعدادهـــم زيـــادة كبيرة بحيث شكلت منهم فرقة اسكندنافية خاصة اشتهرت باسم الحـــــرس الفـــارنجي (الاسكندنافي). وسرعان ما اعتاد الفارنجيون أن يقضوا عطلة في رحلـــة إلى القـــدس، وأول من جاء ذكرهم من بين هؤلاء شخص يدعى كوليسكسجر كان في فلســـــطين ســـنة ٩٩٢ ميلادية، وذهب هارولد هاردرادا، وهو أشهر الفارنجيين، إلى فلســـــطين سنة ١٠٣٤ ميلادية. وخلال القرن الحادي عشر كان هناك الكثير مـــــن الـــنرويجيين والأيسلنديين والدانمركيين ممن قضـــوا خمس سنوات أو أكثر في الخدمة الإمبراطورية ثم قاموا بالحج قبـــل أن يعودا إلى أوطانهم في الشمال ومعهم مدخراتهم بعد أن أثْـــــروا. وكانت أقاصيصهم التي يرووها لأصدقائهم تستحث هؤلاء الأصدقاء فيرتحلون جنوبًـــا بقصد الحج. وذهب المصلح الأيسلندي ثورفالد كوردرانزسون فيدفورلي إلى القـــــدس سنة ٩٩٠ ميلادية تقريبًا. وزعم حجاج نرويجيون كثيرون أنهم شاهدوا أولاف ترِيفاس هناك، وهو أول ملك مسيحي نرويجي، بعد اختفائه الغامض ســـنة ١٠٠٠ ميلاديـــة. ولقـــد انتوى أولاف الثاني أن يحذو حذوه، بيد أن رحلتـــــه لم تتـــم مطلقًـــا إلا في الأساطير. وكان هؤلاء الأمراء الشماليون رجالاً يتصفـــون بالعنف وكثيرًا ما يقترفون إثم القتل، وينتابهم شعور دائم بالحاجـــة إلى التكفير عن آثامهم. فنجـــــد أن ســـوين جودوينسون، وهو نصف دانماركي، خـــرج سنة ١٠٥١ ميلادية مع مجموعـــــة مــــن الإنجليز للتكفير عن جريمة قتل ارتكبها، لكنه مـــات لتعرضـــه لسوء الأحوال الجوية في جبال الأناضول في الخريف التالي، وكان يرتـــحل حافي القدمين تكفيرًا عن آثامه. ولوجمان جودرودسون، وهو ملك مان النرويجي الذي قتل أخاه، التمس غفرانًا مـــــن الرب بنفس الطريقة. ومعظم الحجاج الاسكندنافيين كانوا يفضلـــون المجيء إلى بيت المقـــدس عن طريق البحـــر عبر مضيق جبـــل طارق ثم يعودون عن طريق الـــبر عبر

روسيا. (١)

وكان حجاج القرن العاشر القادمون من الغرب يضطرون قبل ذلك إلى السفر عن طريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية أو إلى سوريا، على أن تكاليف السفر كانت عالية، ولم يكن من اليسير الحصول على أماكن. وفي سنة ٩٧٥ ميلادية تحول حكام المجر إلى المسيحية، وافتتح طريق بري يتجاوز الدانوب ويعبر البلقان إلى القسطنطينية.
وبقي ذلك الطريق محفوفا بالأخطار إلى أن أحكمت بيزنطة سيطرتها على شبه جزيرة البلقان كلها في سنة ١٠١٩ ميلادية.

السفر عبر الحدود

ومنذ ذلك التاريخ، كان باستطاعة الحاج أن يسافر مارا بالمجر بأقل قدر من المخاطرة، ويعبر الحدود البيزنطية عند بلجراد ثم يمضي عبر صوفيا وأدريانوبل إلى العاصمة. وكان بوسعه عندئذ أن يسلك طريقا آخر، فيذهب إلى إيطاليا البيزنطية ويقوم برحلة بحرية قصيرة يعبر فيها البحر من باري في جنوب إيطاليا إلى درهاكيوم ثم يسلك الطريق الروماني القديم إلى ثيسالونيكا ثم البسفور. وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسية جيدة يمكنه استخدامها لعبور آسيا الصغرى إلى أنطاكيه حيث يمضي جنوبا بمحاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ثم ينحرف داخل الأراضي الفاطمية بالقرب من طرطوس. وكانت هذه هي الحدود الوحيدة التي كان عليه أن يعبرها بعد وصوله إلى بلجراد أو إلى تيرومولي في إيطاليا، وكان باستطاعته بعدئذ أن يمضي إلى القدس دون عوائق أخرى. وهكذا كان السفر بالطريق البري رغم البطء أقل تكلفة بكثير وأيسر من السفر بحرا، ويناسب الجماعات الكبيرة إلى حد كبير.

---

(١) يورد Riant, *op. cit.*, pp. 97-129 رواية كاملة عن الحجاج الإسكندنافيين .

وكان الحجاج يلاقون من مزارعي الإمبراطورية معاملـــة مضيافـــة إذا الـــتزموا بالنظام. وكان الجزء الأول من رحلة الحج يتم في يسر لأن أهل كلاني كانوا يقيمـــون آنذاك عديدا من الأنزال على ذلـــك الجزء من الطريق، وكان هناك عدد من الأنزال في إيطاليا يقتصر استخدام بعضها على النرويجيين، كما كان هناك نزل ضخم في مدينـــة ميلك في النمسا (١)، وخصص نزل سامسون في القســـطنطينية للحجـــاج الغربيـــين، واحتفظ أهل كلاني بمؤسسة في ضواحي رودوستو (٢) . وفي القدس نفسها كان بوسع الحجـــاج أن يقيموا في مضيفة القديس جون التي أسسها تجار أمالفي (٣) . و لم يكـــن ثمة اعتراض على أن يصطحب سادة الغرب العظام حاشية مســـلحة علـــى أن تلـــتزم بالانضباط، وكان معظم الحجاج يحاولون أن يذهبوا في معية أولئك السادة. علـــى أن ارتحال الرحال فرادى أوفي مجموعات من رجلين أو ثلاثة رجال لم يكن من غير الشائع أو بالغ الخطورة .وربما حدثت صعاب أحيانا، و لم تكن الإقامة الطويلـــة في فلســـطين مريحة للحجاج إبان اضطهاد الحاكم، بيد أن تدفق الحجاج لم ينقطع كلية في أية حال.

وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان عبور الحدود إلى أراضي المسلمين أمرا خطرا. ولم يوافق حاكم اللاذقية على أن يأذن بالرحيل لأسقف كامباري يتبرت، فأضطر إلى الذهـــاب إلى قبرص (٤) . وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية منع المسلمون الغربيين من دخول القبر المقدس

---

(١) .Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica iii,* 4, vol. ii, p. 64

(٢) .See Riant, *op. cit.* p. 60

(٣) . William of Tyre, xviii, 4-5, 1, pp. 822-6; Aimé, *Chronicon,* p. 320

(٤) ' Vita Lietberti',in d'Achéry, *Spicilegium,* vo. Ix, pp. 706-12 وقد وجدت رحلـــة الحـــج الألمانية الكبيرة في الفترة ١٠٦٤-١٠٦٥م ، والتي كانت تضم ٧٠٠٠ حاج ، ظروفا غـــير مريحة للغـــاية جنـــوب الحـــدود البيـــزنطيـــة . وتـــرد الـــرواية فـــي *Annales Altahenses Majores,* p. 815. See Joranson, "The Great German Pilgrimage of 1064-5

وأخرجوا حوالي ثلاثمائة منهم من القدس وربما تغاضى الإمبراطور عن ذلك (١) . وقـــد أساء كل من بازل الثاني وإبنة أخيـــه الإمبراطورة ثيودورا عندما أمرا ضباط جماركهما بفرض ضريبة على الحجاج وخيلهم؛ فكتب البابا فيكتور الثـــاني إلى الإمـــبراطورة في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٥٦ ميلادية راجيا إلغاء ذلك الأمر، ويوحي خطابـــه بأن موظفي الإمبراطورة كانوا يوجدون آنذاك في القدس نفسها. (٢)

على أن هذه المتاعب كانت نادرة. فطوال القرن الحادي عشر وحتى آخر عقدين فيه كان تيـــار المسافرين إلى الشرق لا ينقطع، وكانوا يرتحلـــون في جماعـــات تبلـــغ الآلاف من الرجال والنساء، من كل الأعمار ومن كل الطبقات، وقد تميزوا في عصـــر يتميز بالفراغ لقضاء عام أو أكثر في تلك الرحلة. وكانوا يتوقفـــون في القســـطنطينية إعجابا بتلـــك المدينة الهائلة التي كانت تجاوز في ضخامتها عشر أمثال أية مدينة أخرى يعرفونهـــا في الغرب، وليبجلـــوا المخلفات المقدسة الموجودة فيها. فكـــان بإمكـــانهم مشاهدة تاج الأشواك والرداء غير المخيط وكل المخلفات الرئيسية التي خلفتـــها آلام المسيح، وكان هنـــاك نسيج من مدينة الرها طبع المسيح وجهه عليه، ولوحة العـــذراء التي رسمها القديس لوقا بنفسه، وشعر رأس يوحنا المغتسل، ودثار إيليـــا، وجثـــث لا حصر لها للقديسين والأنبياء والشهـــداء، وقدر هائل من أقدس الأشيـــاء في العـــالم المسيحـــي. ومـــن هنـــاك كانـــوا يذهبـــون إلـــى فلسطـــين ، والناصـــرة وجبـــل

---

(١) Miracula Sancti " Wolframni Senonensis ", in *Acto sanctorum Ordinis Sancti Benedicti,* saeculum iii, pars l, pp. 381-2.

وقـــد قابـــل Lietbert مسافـــرين آخـــرجوا من فلسطين ('Vita Lietbertti ', *loc. cit.*)

(٢) خطـــاب فيكتـــور الثاني Victor II, in *M.P.L.* vol. cxlix, cols. 961-2 يعزي خطأ إلى فيكتور الثالث Riant *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades,* pp. 50-3

طابور (١) والأردن وبيت لحم وكل مزارات القدس. وكانوا يحملقون في ذلـــك كله، ويصَلّون أمام ذلك كله، ثم يشرعون في رحلة العودة الطويلة إلى الوطـــن وقـــد تهذبوا وتطهروا، فيستقبلهم أبناء وطنهم ويحتفون بهم على أنهم حجاج المسيح الذيـــن قاموا بأقدس رحلة.

وكان نجاح الحج يتوقف على شرطين: أولهما، أن تكون الحياة في فلسطين مـــن الانتظام بحيث يستطيع المسافر الذي لا حول له ولا قوة أن يتحرك ويمارس عبادتـــه في أمان. وثانيهما، أن يظل الطريق مفتوحًا وقليل التكاليف. وكان الشرط الأول يقتضي أن يسود السلام وحسن الإدارة الحكومية في العالم الإسلامي، ويستلزم الشرط الثـــاني أن تكون بيزنطة مزدهرة وخيّرة.

---

(١) (المترجم) : جبل طابور ، في شمال فلسطين في الجليل الأسفل . وبرغم أنه لم يرد ذكر هذا الجبل في العهد الجديد، فهو الموقع الذي يري التراث الكنسي أن المسيح تجلي فيه .

(٢) Elbersolt, *Les Sanctuaires de Byzance*, pp. 105 ff.

الفصل الرابع :

صــــوب الكارثـــــة

صوب الكارثة

"فِي سَاعَةِ سَلاَمٍ يَأْتِيهِ الْمُخَرِّبُ"

(أيوب : ١٥ ــ ٢١)

بدا من المؤكد في منتصف القرن الحادي عشر أن الهدوء سوف يسود منطقة شرق البحر المتوسط لسنوات كثيرة قادمة. ذلك أنّ القوتين العظيمتين فيها: مصر الفاطمية وبيزنطة كانتا على وفاق فلم تعتد أيهما على الأخرى وكانتا ترغبان في كبح جماح الدول الإسلامية الواقعة إلى الشرق منهما حيث كان المغامرون الأتراك يثيرون المتاعب دون أن يعكروا صفو حكومتي القسطنطينية أو القاهرة على نحو خطير. وكان الفاطميون على ودّ مع المسيحيين الذين لم ينلهم اضطهاد منذ موت الخليفة الحاكم.

وكان الفاطميون يفتحون موانيهم للتجار القادمين من بيزنطة ومن إيطاليا، ومن ثم استفاد التجار والحجاج على حد سواء من حسن معاملتهم.

وكانت قوة بيزنطة تكفل هذه المعاملة الحسنة. ويرجع الفضل في امتداد الإمبراطورية آنذاك — من لبنان إلى الدانوب ومن نابولي إلى بحر قزوين — إلى مجموعة من الأباطرة المحاربين العظماء، الذين أديرت الإمبراطورية في ظلهم على نحو يفضل غيرها من الممالك المعاصرة، برغم ما قد يعرض لها من فساد أو شغب. ولم يسبق للقسطنطينية أن حظيت بمثل هذا الثراء من قبل، ذلك أنها أصبحت عاصمة العالم التي لا تبارى في شؤون التجارة والمال. وكان التجار يتوافدون عليها من كل حدب وصوب، من إيطاليا وألمانيا، ومن روسيا، ومن مصر والشرق، ليبتاعوا ما تنتجه مصانعها من أشياء نفيسة وليبادلوا بضائعهم الأقل جودة. وكانت تلك المدينة الشاسعة، التي تفوق القاهرة وبغداد في سعتها وازدحامها وصخب الحياة فيها، تدهش زائرها بمينائها المزدحم وأسواقها الحافلة وضواحيها الممتدة وكنائسها وقصورها الهائلة. وكان البلاط الإمبراطوري يبدو للزائر وكأنه مركز الكون كله، وإن سيطرت عليه آنذاك أميرتان متقدمتان في العمر جامحتا الطبع.

وإذا كان الفن مرآة الحضارة، فإن الحضارة البيزنطية بلغت مكانة رفيعة فيه. ذلك أنّ فنانيها، في القرن الحادي عشر، أظهروا ما كان يتصف به أسلافهم الكلاسيكيون من اعتدال واتزان; وأضافوا إلى ذلك ميزتين رائعتين من التراث الشرقي وهما الشكلية الزخرفية الثرية عند الإيرانيين، والتركيز الوجداني في الشرق القديم. والأعمال الباقية من ذلك العصر — كقطع العاج الصغيرة أو لوحات الفسيفساء الكبيرة أو الكنائس المحلية ككنيسة دافني أو كنيسة القديس لوقا في اليونان — تُظهر في اقتدار الجمع بين عناصر التراث التي تأتلف في كُلٍّ متكامل. وبالرغم من أنّ أدب ذلك العصر يتوارى وراء ما تعطيه لنا العصور الكلاسيكية السابقة عليه من منجزات، فإنه يعطينا مجموعة متنوعة من الأعمال التي يتصف مستواها جميعًا بالامتياز. فلدينا التاريخ الرائق لـجون

دياكوناس، والشعر الغنائي الرقيق لـكرستوفر الميثيليني، وملحمة ديجينيس أكريتـاس ذات الشعبية المكتسحة، والأقوال المأثورة السائرة للجندي سيكاومينوس، ومذكـرات البلاط التي تتسم بالانتقاد والفطنة لـميخائيل بسيلوس. ويكاد يتسم الجو العـام في بيزنطة آنذاك بالرضا عن النفس الذي كان سائدًا في القرن الثامن عشر لولا شيئ مـن الانشغال بالأمور الأُخروية وشيئ من التشاؤم اللذين لم يخلص منهما البيزنطيون في أيّة حال.

وللإغريقي شخصية تتسم بخفاء وتعقيد لا نلمسهما في الصورة التي يرسمـها في الوقت الحاضر دارسو القرن الخامس السابق على الميلاد. وزادت هذه الشخصية تعقيدًا عند البيزنطي بما داخلها من صفات يتسم بها الدم الشرقي الذي خالطها وجعلها تتميز بالتناقض التام. فعلى حين كان البيزنطي عمليًا إلى حدٍّ بعيد وذا قابلية للعمل وتواقًا إلى أن يحظى بالأمجاد الدنيوية، فإنه كان على استعداد لأن يهجر الدنيا ويخلـو إلى حيـاة التأمل والرهبنة. وكان يؤمن إيمانًا حارًا بالرسالة الإلهية للإمبراطورية وبالسلطة الإلهيـة للإمبراطور، بيد أنه اتسم بالنزعة الفردية وبالتمرد على أيّة حكومـة لا ترضيـه دون إبطاء. وكان يفزع من الهرطقة، على أنّ دينه، وهو أشد أشكال المسـيحية المسـتقرة جنوحًا إلى الباطنية، أتاح له ـــ سواء أكان رجل دين أو دنيا ـــ رحابة فلسفية كبيرة. واحتقر جيرانه على أنهم برابرة وإن سهل عليه تبني عاداتهم وأفكارهم. وهو متقلـب الطبع برغم درايته بشُؤُون الدنيا وما له من كبرياء. وتزعزعت ثقته نتيجة لما اجتـاح بيزنطة من كوارث أوشكت أن تودي بها، فالأزمة المباغتة تروعه وتجعلـه يجنـح إلى ضَرْبٍ من الوحشية يستنكره، هو نفسه، عندما تعاوده لحظات الهدوء. ولربـما كـان حاضره واعدًا متألقًا، ولكن نبوءات عديدة تنذره بأن مدينته سوف تهلك ذات يـوم، ويحسب أنّ هذه النبوءات صادقة. فالسعادة والدَّعة لا محل لهما في هذا العـالم العـابر المعتم وإنّما يوجدان في ملكوت السماء وحده.

انهيار الاقتصاد البيزنطي

وكان لمخاوفه ما يبررها. فلم تكن دعائم القوة البيزنطية وطيدة بالقدر الكافي، فتنظيم الإمبراطورية العظيمة قائم على الدفاع، والمسئولون العسكريون يحكمون المقاطعات ويَخضعون هم أنفسهم للإدارة المدنية في القسطنطينية. وهيأ هذا النظام رَديفًا محليًا قادرًا من الجند يمكنه أن يدافع عن منطقته في أوقات الغزو وأن يعزز الجيش الإمبراطوري الرئيسي في حملاته الكبيرة. وأن يضفي مزيدًا من القوة على حاكم الإقليم عند انتهاء الغزو، خاصة إذا كان هذا الحاكم من الثراء بحيث يستطيع أن يتجاهل من يتولى الإنفاق في العاصمة. فضلاً عن أنّ الرخاء كان مفسدة لنظام الزراعة في آسيا الصغرى. وكان العمود الفقري لبيزنطة يتمثل في مجتمعات المزارعين الأحرار الذين يحصلون على أراضيهم من الدولة مباشرة في مقابل أداء خدمات عسكرية في أغلب الأمر. على أنّ الحال هناك لم تكن تختلف عنها في أي مكان آخر في العصور الوسطى، فالأرض هي الاستثمار الوحيد الآمن للثروة، وكان كل غني يسعى للحصول عليها، وحرضت الكنيسة من يتحمسون لها على أن يورثوها الأرض، وكانت الأرض هي الجائزة المعتادة التي تُمنح للقادة العسكريين الأكفاء أو للمستحقين من الوزراء. وبدت الأمور على ما يرام، فالإمبراطورية ماتزال تستعيد الأراضي التي استولى عليها العدو، أو تعيد إعمار المناطق التي أخلتها الحروب أو خربتها; بيد أنّ النجاح في ذلك في حد ذاته أدى إلى احتدام شهوة تملك الأرض، ولم يكن بوسع الأعيان والقائمين على الأديرة إلا أن يزيدوا من ضياعهم بشراء الأرض من الفلاحين الذين كانوا في حاجة إلى المال أو بالاستيلاء على قرى بأكملها إمّا بأخذها على سبيل الهديّة من الدولة أو بتوليهم مسئولية سداد الضرائب المستحقة عليها. وسعى الحكماء من الأباطرة إلى أن يحولوا دون ذلك، لأن المالك الجديد لم يكن ليقاوم الرغبة في تحويل أرضه إلى مزرعة للأغنام إلا فيما ندر، ولأن نقل الحيازات من الفلاحين الذين يؤدون خدمات عسكرية كان يهيِّئ للمالك ـــ وذلك هو الأهم ـــ القدرة على أن يجمع جيشًا خاصًا مما يضعف

جيش الدولة. بيد أن ما وضعه أولئك الأباطرة من تشريعات لم يحقق نجاحا في هـذا السبيل، ففي خلال القرن العاشر نشأت في بيزنطة أرستقراطية وراثية تملـك الأرض بلغت من الغنى والقوة ما يكفي لتحدي الحكومة المركزية واستطاع الإمبراطور بـازل الثاني، أعظم أباطرة العائلة المقدونية، أن يخمد بمشقة تمردا قام به أولئك الأرستقراطيون في مستهل حكمه. وبانتصار الإمبراطور بازل الثاني ظلت هيبته باقيـة إلى أن انتـهى حكـم أسرته في سنة ١٠٥٦ ميلادية بوفاة ابنة أخيه ثيـودورا. ولـو أن السـلالة المقدونية أنجبت ورثة للعرش من الذكور لترسخ مبدأ وراثة العـرش الإمـبراطوري، ولتوفرت لبيزنطة قوة خليقة بكبح جماح الأرستقراطية. ولكن الولاء للأسرة الحاكمـة مكن الأميرة زو وأزواجها المتعاقبين من الاستمرار في حكم يتسم بالفجور والتفريط لما يقرب من ثلاثين عاما، كما مكن الأميرة العجوز ثيودورا من الحكم بمفردها، وكانت القوى الهدامة تنمو طوال الوقت. وعندما ماتت ثيودورا كانت في بيزنطة قوتان تواجه كل منهما الأخرى في معارضة مريرة، وهما زمرة البلاط الـتي تسـيطر علـى الإدارة المركزية، وعائلات النبلاء التي تسيطر على الجيش. بينما حاولت الكنيسة - التي كـان لها موطئا في كل من المعسكرين - أن تحافظ على التوازن. (١)

---

(١) عن الحضارة البيزنطية في هذه الفترة أنظر :

Iorga, *Histoire de la Vie Byzantine*, vol. ii, pp. 230-49 ; Vasiliev, *Histoire de L'Empire Byzantin*, vol. i, pp. 476-92

وعن مشكلة الزراعة في بيزنطة أنظر :

Ostrogorsky , 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire ', in *The Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1, pp. 204 ff .

وعن التاريخ السياسي أنظر :

Bury, 'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos', in *Selected Essays*,pp. 126-214; Ostrogorsky , *Geschichte des byzantinischen Staates*, pp. 224-40.

كومنينوس ودوكاس

و لم تكد الأميرة ـــ التي بلغت العقد السابع وهي ما تزال تؤمن بنبوءة تقول أنهـــا ستحكم لسنوات عديدة ـــ تروح في غيبوبتها الأخيرة حتى دفع البــــلاط إلى العــرش بمسئول مدني متقدم في السن هو ميخائيل ستراتيكوس. ورفـــــض الجيـــش أن يقبـــل الإمبراطور الجديد، فزحف على القسطنطينية عاقدا العزم على تنصيب قائده، فتنحـــــى ميخائيل دون مقاومة وأصبح الجنرال اسحق كومنينوس إمبراطورا، وهكـــذا كســبت الأرستقراطية العسكرية الجولة الأولى.

وكان اسحق كومنينوس أرستقراطيا من الجيل الثاني وحسب، شأنه في ذلك شأن الكثير من أقرانه نبلاء بيزنطة. فأبوه جندي من تراكيـــا (١) ، أو ربمـــا فلاشـــي (٢) ، استحوز على رضاء الإمبراطور بازل الثاني فأعطاه بعض الأراضي في بافلاجونيـــا (٣) ، حيث شيد حصنا عظيما عرف باسم (كاسترا كومنينون) وما يزال يعـــرف في أيامنـــا باسم (كاستاموني). وورث اسحق وأخوه جون أراضي والدهما وجرأتـــه العســكرية. وانتسب كلاهما إلى الأرستقراطية البيزنطية بالزواج، فزوجة اسحق أميرة من أمــــيرات البيت الملكي السابـــق في بلغاريا، وزوجة جون وريثة عائلة دالاسيني العظيمة. على أن سوء طويّة الإدارة المدنية أدى باستمرار إلى إفشال حكم اسحق برغم ثروته وسيطرته وتأييد الجيش له، فكَفّ عن الصراع بعد عامين وانزوى في أحد الأديرة. ولمّا لم يكن له ولد، رشح كونسطنطين دوكاس خلفًا له، و لم تغفر له زوجة أخيه آنّا دالاسينا ذلك.

وكان كونسطنطين دوكاس رأس أسرة ربما كانت من أعرق أسر الأرستقراطيّـــة

---

(١) (المترجم) : تراكيا : حاليا الجزء الأوربي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الفلاشي : أحد أبناء جنوب شرق أوروبا المتحدثين بالرومانية .

(٣) (المترجم) : بافلاجونيا : مقاطعة في الأناضول تطل على البحر الأسود .

البيزنطية وأكثرها ثراء، على أنه هيأ لنفسه مكانًا في البلاط، ومن ثم كان اسحق يأمل في أن يقبله الجانبان; ولكنه سرعان ما أظهر أن ميوله تنأى عن طبقته. وكانت خزانته خاوية والجيش بالغ القوة والخطر، فكان الحل الذي ارتآه تمثل في تخفيـــض القـــوات المسلحة، وكان من الممكن الدفاع عن هذا التخفيض كـــإجراء تقتضيـــه السياســـة الداخلية، ولكن لم يحدث في أيّ وقت في التاريخ البيزنطي أن كان إضعـــاف القـــوة الدفاعية للإمبراطورية أمرًا مأمونًا، وكان الإقدام على ذلك في تلـــك الآونـــة وخيـــم العاقبة، إذ كانت سحب العاصفة تتجمع في الشرق بعد أن هبت عاصفة من الغـــرب بالفعل. (١)

أبناء تانكريد دي هوتفيل

فلبضعة عقود خلت كانت دولة جنوب إيطاليا مسرحا للشغب والاضطـــراب. وكانت الحدود الرسمية للإمبراطورية البيزنطية تمتد من تيراسيناعلى الساحل التيراني إلى ترمولي على البحر الأدرياتيكي، غير أنه، في نطاق تلك الحدود، لم يخضع لحكم بيزنطة المباشر سوى مقاطعتي أبوليا وكلابريا اللتين كان أغلب سكانهما من اليونانيين، وعلى الشاطئ الغربي تقع ثلاث من دول المدينة التجارية (٢) ، هم جايتا ونابولي وأمالفـــي،

(١) .Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 238-42; Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 a` 1081*, pp. 523-31

(٢) يعود مصطلح دولة المدينة أو city-state أو polis في الأصـــل عـــلى المدن الإغريقية القديمة التي كانت تتمثل في أي منها دولة صغيرة . ويرجـــع ظهـــور هذه المدن إلي طبيعة بلاد اليونان الجغرافية ، وانقسامها إلي أجزاء تفصل بينها الجبال والبحر من ناحية ، وإلي أسباب قبلية وعرقية ودينية من ناحية أخري . وكانت توجد في القدم بضع مئات من دول المدينة التي لا يكاد يعرف تاريخ معظمها إلا--

التي كانت تتبع الإمبراطور اسميا. ووجد أهل أمالفي، الذين كانت لهم آنذاك تجارة ضخمة مع الشرق المسلم، أن نية الإمبراطور الحسنة تفيدهم في تفاوضهم مع السلطات الفاطمية، وكان للأمالفيينقنصل دائم في القسطنطينية. أما أهل نابولي وجايتا، وبرغم استعدادهم للتجارة مع الكفار، كانوا أقل كياسة تجاه الإمبراطور. وسيطر على داخل البلاد أمراء بنيفنتو وساليرنو اللومبارديون، الذين اعترفوا بسيادة كل من الإمبراطور الشرقي والغربي في آن وإن لم يحترموا أيا منهما، وكانت جزيرة صقلية ما تزال في أيدي المسلمين برغم تعدد محاولات بيزنطة لاستعادتها، وتسببت الغارات التي يشنها المسلمون من صقلية ومن أفريقيا على طول الشواطئ الإيطالية في زيادة اضطراب البلاد.

وجاءت إلى هذه المناطق أعداد غفيرة من المغامرين النورمانديين القادمين من شمال فرنسا، في طريقهم إلى بيت المقدس ليحجوا أو ليزوروا ضريح القديس ميكائيل — على جبل جارجانو — الذي كانوا يفضلون زيارته، وكثير منهم جنود مرتزقة

--لما . ومن ثم يروي معظم تاريخ اليونان القديمة من خلال تواريخ أثينا واسبرطه وقليل من دول المدينة الأخري .

وكانت دولة المدينة تتمركز في مدينة واحدة يضمها سور في العادة ، وإن كانت المناطق المحيطة بها تتبعها . وتضم المدينة قلعة على أرض مرتفعة acropolis وسوقا agora . وكانت حكومة دولة المدينة تتمركز في داخلها ، بينما يعيش مواطنوها في نطاق المدينة وعلى الأراضي التابعة لها . ويشترك المواطنون في الحكم بدرجات مختلفة تتفق وشكل الحكم الذي كان إما أرستقراطيا أو أوليجاركيا (أي حكم قله) أو ديموقراطيا . ولما كانت درجات المواطنة في كثير من تلك المدن تتنوع اشتد الصراع وطال من أجل المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين عامة المواطنين على اختلاف أوضاعهم وبين الخاصة من ذوي المكانة المتميزة .

بقوا في تلك المناطق ليعملوا في خدمة الأمراء اللومباديين. ذلك أن الرغبـــة في تملـــك الأرض كانت جارفة في نورماندي، التي ضاقت ضياعها بسكانها و لم يعد فيها متســـع لصغار أبنائها ذوي الطموح الذين يساورهم القلق أو للفرسان الذين لا يملكون أرضا. وهذا الدافع إلى التوسع ـــ الذي أوشك أن يدفعهم إلى غزو إنجلترا ـــ حول أنظارهم إلى الشرق وكل ثرواته؛ ونظروا إلى جنوب إيطاليا على أنه مفتاح إمبراطورية البحـــر المتوسط، وأتاح لهم الاضطراب الذي كان سائدا فيه الفرصة التي انتظروها.

في سنة ١٠٤٠ ميلادية استولى ستة أخوة ـــ أبوهم فارس نورماندي مغمور هو تانكريد دي هوتفيلـــ على مدينة ميلفي في تلال أبوليا وأسسوا إمارة هناك. و لم تعبـــأ بهم السلطات البيزنطية المحلية؛ ولكن النورمانديين وجدوا مساندة من الإمبراطور الغربي هنري الثالث الذي كان تواقا للسيطرة على مقاطعة تصارعت عليها الإمبراطوريتـــان منذ وقت طويل؛ ومن البابا الألماني الذي عينه ذلك الإمبراطور والذي كان مستاء من أن يرأس بطريق القسطنطينية أي دائرة اختصاص كنسية إيطالية. وخلال اثني عشـــر عاما تسيد أبناء تانكريد على الإمارات اللومباردية ودفعوا بالبيزنطيين إلى أقصى نقطة في كلابريا وإلى شاطئ أبوليا، واتجهوا إلى الشمال عبر كامبانيا وأوشكـــوا أن يبلغـــوا روما، فشعرت الحكومة البيزنطية بالخطر فاستدعت ماريانوس أرجيروس حاكم أبوليا للوقوف على حقيقة الأمر وأعادته مزودا بسلطات أوسع ليعالج الموقف. على أنـــه لم يحقق شيئا من الناحية العسكرية إذ صد النورمانديون جيشه الصغير، وإن حقق شيئـــا من النجاح من الناحية الدبلوماسية لأن البابا ليوالتاسع، وهو من اللورين، كان متوترا مثله. فنجاح النورمانديين كان أعظم مما توقعه البابا وهنري الثالث الذي كان مشغولا بحملة هنغارية، لكنها لم تحل دون إرساله عونا للبابا الذي اتجه إلى الجنوب في صيـــف ١٠٥٣ ميلادية مع جيش من الألمان والإيطاليين معلنا أن تلك الحرب حرب مقدسة، وكان على قوة بيزنطية أن تلحـــق بـــه ، وبينما كان ينتظرها خارج مدينة سيفيتات

الصغيرة الواقعة في أبوليا هاجمه النورمانديون وقضوا على جيشه وأخذوه أسيرا. وافتدى نفسه بأن تخلى عن سياسته كلها.

وكانت هذه آخر محاولة جادة لكبح جماح أبناء تانكريد. ومات هنري الثالث سنة ١٠٥٦ ميلادية وخلفه الطفل هنري الرابع، وكان الوصي على العرش أجنس أوف بويتو مشغولا للغاية في ألمانيا فلم يستطع أن يولي الجنوب اهتماما. وقررت البابوية أن تنحى منحى واقعيا، ففي سنة ١٠٥٩ ميلادية اعترف البابا نيكولاس الثاني في مجلس ميلفي بروبرت جيسكارد (روبرت الماكر) أكبر أبناء تانكريد الباقين على قيد الحياة باعتباره "دوق أبوليا وكلابريا، وبفضل الرب والقديس بطرس، وبعونهما، دوق صقلية." وهذا الاعتراف الذي كان يقتضي، في رأي روما وليس في رأي روبرت، التبعية لوريث القديس بطرس، أيّ للبابا، مكّن النورمانديين من إتمام غزوهم في يسر، وسرعان ما خضعت لهم الجمهوريات البحرية; وبحلول سنة ١٠٦٠ ميلادية كان كل ما تبقي للبيزنطيين في إيطاليا هو عاصمتهم، قلعة باري الساحلية. وفي أثناء ذلك بدأ روجر شقيق روبرت الأصغر يحقق نجاحًا بطيئًا في الاستيلاء على صقلية من العرب. (١)

وصمدت باري إلى حين، واستطاع البيزنطيون بذلك أن يَحُولوا إلى حد ما دون أن يتوسع النورمانديون في اتجاه الشرق، غير أنه كان من المحتم أن تؤدي القلاقل السياسية في إيطاليا إلى قلاقل دينية; وأدى وجود الغزاة اللاتينيين في جنوب إيطاليا إلى إثارة مسألة الكنيسة اليونانية الموجودة في تلك المنطقة والخلاف القديم بين القسطنطينية

---

(١) إن أفضل ما كتب عن التغلغل النور ماندي في جنوبي إيطاليا وغزو البلد يرد في :
Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile,* vol 1, chs. ii -vii, and Gay, *L'Italie Mèridionale et l'Empire Byzantin,* bk . v, chs. ii-v

وروما حول ولائها الكنسي. وترتب على الإصلاحات التي أجريت في روما أن عزمت البابوية على ألا تسمح بأنصاف الحلول فيما لها من مطالب. وكان يشغـــل كرســي البطرياركية في القسطنطينية آنذاك ميكائيل سريولاريوس، وهو مـــن أكـثر ساســة الكنيسة اليونانية طموحًا وأشدهم عدوانية. إن القصة التعسة للزيارة التي قام بها البابـــا ليو التاسع إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية ينبغي أن تسرد مع ما ترتب عليها من علاقات بين الكنيستين الغربية والشرقية; فإنها انتهت بمشاهد من "العـــزل الكنســـي" المتبادل، على الرغم من محاولة الإمبراطور إيجاد نوع من المصالحة; كما أنها جعلت أيّ تعاون صادق بين روما والقسطنطينية بشأن حاجات إيطاليا العاجلة، أمرا مســـتحيلا. لكنها لم تتسبب في الانقسام النهائي الذي يعزوه المؤرخون المتأخرون إلى هذه الزيارة. وساءت العلاقات السياسية بين البلاطين الإمبراطوريين، لكنها لم تنقطع. وسرعان ما فقد سريولاريوس نفوذه. بعد أن ازدرته الإمبراطورة ثيودورا التي حاول أن يقصيـــها عما آل إليها، وخلعه الإمبراطور اسحق، فمات منفيا لا حول له ولا قوة. ولكنه انتصر في نهاية الأمر، ذلك أن أجيال بيزنطة اللاحقة رأت فيه بطل استقلالها; وعندما عـــاود الإمبراطور والبابا رسائل الود، استطاعت الإمبراطورة أيودوسيا ماكرمبوليتسا إضافـــة اسمه إلى قائمة القديسين. (١)

ومن وجهة نظر مؤرخي بيزنطة الذين عاصروا تلك الأحـــداث، فـــإن حكـــام الإمبراطورية لم يكادوا يلاحظون ذلك الخلاف، إذ كانت المشـــاكل الـــتي تحـــدث في الشرق تحجب عن عيونهم متاعب الغرب.

إن اضمحلال الخلافة العباسية لم ينطو على نفع كامل لبيزنطة. ذلك أن ما كان يعتور العراق من فقر بدأ يؤدي إلى تغيير طرق التجارة في العالم ، فلم يعد تجار الشرق

---

(١) انظر ما يلي الصفحات ١٧١ - ١٧٣ .

الأقصى يأتون إلى أسواق بغداد ببضائعهم التي كان الكثير منها ينقل إلى الإمبراطورية كي يعاد شحنه من موانئ آسيا الصغرى أو من القسطنطينية نفسها إلى الغرب; وأصبحوا يفضلون آنذاك أن يتخذوا طريق البحر الأحمر إلى مصر، ومن مصر كانت تنتقل بضائعهم إلى أوروبا على السفن التجارية الإيطالية، ومن ثم لم تعد بيزنطة تقع على طريق التجارة، وأدت غيبة القانون في أطراف الإمبراطورية العباسية إلى إغلاق طريق القوافل القديم من الصين والذي كان يمتد عبر تركستان وشمال فارس إلى أرمينيا والبحر عند طربزون (١) ، و لم يبق الطريق البديل الممتد إلى شمال بحر قزوين آمنا لفترة طويلة. وبالنسبة لمنطقة البحر المتوسط لم تعد القوة العباسية، كما كانت من قبل، عاملا من عوامل الدفاع الخارجي ضد برابرة أواسط آسيا من الناحيتين السياسية والعسكرية على السواء.

الأتراك يتحركون غربا

إن سبل الدفاع انهارت; وتمكنت آسيا الوسطى مرة أخرى من أن تتعدى نطاقها إلى أراضي الحضارة القديمة. ولقد لعب الأتراك دورا هاما في التاريخ لفترة طويلة، فالإمبراطورية التركية في القرن السادس كانت، على قصر عمرها، قوة استقرار وإشعاع حضاري في آسيا. والشعوب التركية البعيدة ـــ مثل شعوب الخزر (٢) اليهودية علي

---

(١) طربزون : مدينة في الشمال الشرقي من تركيا ، تقع علي خليج في الجنوب الشرقي للبحر الأسود وخلفها سلسلة جبال مرتفعة تفصلها عن هضبة الأناضول .

(٢) الخزر : شعب يتألف من اتحاد قبائل تركية إيرانية ، أنشأ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي إمبراطورية تجارية رئيسية في القسم الجنوبي الشرقي لروسيا الأوروبية حاليا .

ضفاف الفولجا (١) أو الاوجور النساطرة المسيحية، التي استقرت فيما بعد على حدود الصين ـــ أظهرت قدرتها على التكيف والتقدم الحضاري، على أنه لم يكن هنـــاك أي تقدم في تركستان نفسها منذ القرن السابع. ونشأ قليل من المدن على طرق القوافـــل، ومع ذلك بقى التركمانيون في غالب الأمر رعاة وأشباه بدو، وأدى تزايد عددهم إلى رغبة ملحة في الترحال إلى ما وراء حدودهم. وفي القرن العاشر حكم تركستان أبنـــاء الأسرة السامانية الفارسية (٢) الذين تمثل دورهم في التاريخ في تحويل أتـــراك أواســـط آسيا إلى الإسلام. ومنذ ذلك الوقت تحولت أنظار الترك إلى أراضي جنوب غربي آسيا وشرق المتوسط.

واستولى محمود الغزنوي (٣) ـــ وهو أول عظماء المسلمين الأتراك ـــ على الحكم من السامانيين. وفي العقود الأولى من القرن الحادي عشر أقـــام إمبراطوريـــة عظيمـــة امتدت من أصفهان إلى بُخَارى ولاهور . وفي تلك الأثناء كان المرتزقة الترك يتوغلون في العالم الإسلامي كِله، بنفس القـــدر الذي كان يتوغـــل به النورمانديون في أوروبا

---

(١) نهر الفولجا : أو نهر أوروبا : أطول نهر في القارة الأوروبية والمجرى المائي الرئيسي في الاتحاد السوفياتي ينبع من تلال فالداي شمال غرب موسكو ويجري إلى الجنوب الشرقي ليصب في بحر قزوين .

(٢) الأسرة الحاكمة السامانية (٨١٩-٩٩٩م) : أول أسرة حاكمة وطنية في إيران بعد الفتح الإسلامي . أسسها سامان خودا ، وحصل أحفاده الأربعة من الخليفة العباسي المأمون في مقابل خدماتهم المخلصة على مقاطعات سمرقند وفرغانة وشاه وحرات .

(٣) الأسرة الحاكمة الغزنوية (٩٧٧-١١٨٦م) : حكمت خراسان شمال إيران وأفغانستان وشمال الهند . وبلغت القوة الغزنوية ذروتها أثناء حكم محمود الذي أقام إمبراطورية امتدت من نهر جيحون (أموداريا حاليا) إلى وادي أندوس والمحيط الهندي وشرق إيران ، وانتقل بالأسرة من الأصـــل الوثني إلى العقيدة الإسلامية ووسع الرقعة التي ساد فيها الإسلام .

المسيحية. وكان للخليفة في بغداد، ولكثيرين من الحكام المسلمين، كتائب تركية; وكان من بين رعايا الغزنويين عشيرة الغز، وهم أتراك من سهول الآرال الفسيحة، أطلق عليهم السلاجقة، نسبة إلى اسم جدهم شبه الأسطوري. وكان أمراء السلاجقة مجموعة من المغامرين الذين يغارون من بعضهم البعض وإن كانوا يتحدون حفاظا على صالح العائلة، ولا يكادون يختلفون في ذلك عن أبناء تانكريد دي هوتفيل، وإن كانوا أوفر حظا من النورمانديين من حيث عدد أشياعهم، ذلك أنه كان بوسعهم أن يعولوا على عون حشود التركمان الهائلة التي لا تكاد تقر في مكان. وبعد موت محمود سنة ١٠٣٠ ميلادية، ثار السلاجقة على الغزنويين; وبحلول سنة ١٠٤٠ ميلادية كانوا قد طردوهم واضطروهم إلى أن يلوذوا بمقاطعاتهم الهندية. وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية، دخل طغرلبك (١)، وهو أكبر أمراء البيت السلجوقي، أصفهان وجعلها عاصمة دولة تضم فارس وخراسان، بينما استقر إخوته وأبناء عمومته على حدوده الشمالية في تحالف مفكك يعترف بسلطته العليا، وراحوا يغيرون على البلدان المجاورة كما يحلو لهم. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان الخليفة العباسي في حالة من الرعب بسبب المؤامرات التي كان يدبرها وزيره البساسيري مع الفاطميين، فاستنجد بطغرلبك الذي دخل بغداد كبطل سني ومنح لقب ملك الشرق والغرب، وصار صاحب السلطة العليا الدنيوية على كل الأراضي التي تدين للخليفة بالولاء الروحي. (٢)

---

(١) (المترجم) : طغر لبك : مؤسس الأسرة السلجوقية التي حكمت إيران والعراق وسوريا والأناضول خلال القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر .

(٢) أفضل موجز للتاريخ التركي المبكر يرد في مادة "Turks" التي كتبها Barthold في *Encyclopaedia of Islam* أنظر أيضا مادة " Seljuks " التي كتبها Houtsma في *Encyclopaedia Britannica*, Iith ed. وعن محمد الغزنوي ، أنظر : *Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 18 ff

نهاية أرمينيا

وكانت هناك غارات تركية داخل أرمينيا ترجع إلى عهد بازل الثاني في الوقت الذي كان فيه السلاجقة ما يزالون تحت الحكم الغزنوي. ولكي يحمي بازل إمبراطوريته من الأتراك، شرع في سياسته ضم أرمينيا قطعة قطعة، وبعد غزو السلاجقة لفارس تكررت الغارات التركية على أرمينيا، واشترك طُغْرُلبك بنفسه مرة واحدة سنة ١٠٥٤ ميلادية وخرّب البلاد حول بحيرة فان، ولكنه فشل في الاستيلاء على متريكيرت الحصينة. وكان إبنا عمه، حسن وإبراهيم إينال، يتوليان في العادة قيادة الجيوش المغيرة التي هزمها البيزنطيون سنة ١٠٤٧ ميلادية أمام مدينة أرزروم، وخلال الأعوام التالية تركزت جهودهما على مهاجمة حلفاء الإمبراطورية في جورجيا (١)، ففي سنة ١٠٥٢ ميلادية اجتاحا مدينة قرس، وعادا في سنتي ١٠٥٦ و١٠٥٧ ميلادية إلى أرمينيا مرة أخرى، وفي سنة ١٠٥٧ ميلادية نُهبت مدينة ملطية، وفي سنة ١٠٥٩ ميلادية تقدم الجنود الأتراك للمرة الأولى إلى مدينة سيفاس الواقعة في قلب الأراضي الإمبراطورية. (٢)

ومات طُغْرُلبك سنة ١٠٦٣ ميلادية، ولم يكن يولي اهتمامًا كبيرًا بحدوده الشمالية الغربية. لكن خليفته وإبن أخيه ألب أرسلان سعي إلى حماية نفسه من البيزنطيين، إذ كان في حالة من التوتر من إمكان تحالف البيزنطيين والفاطميين، فقرر غزو أرمينيا قبل المضي في هدفه الرئيسي ضد الفاطميين. وكُثفت الغارات على الإمبراطورية; ففي سنة ١٠٦٤ ميلادية دُمرت العاصمة القديمة لأرمينيا (مدينة آني)،

---

(١) (المترجم) : جورجيا : مدينة إلي اتلشرق من القسطنطينية .

(٢) Laurent, *Byzance et les Turcs Seldjoucides*, pp. 16-24; Cahen, 'La permiére Pénétration turque Asie Mineure',. .pp. 5-21, in *Byzantion*, vol. xviii. See also Mukrimin Halil, *Türkize Tarihi*, vol. 1, *Anadolum Fethi, passim*.

وأما أمير مدينة قرس الذي كان آخر حكام أرمينيا المستقلين فقد سـره أن يسـلم أراضيه للإمبراطورية في مقابل بعض الضياع في جبال طوروس ورافقته أعداد كبيرة من الأرمـن إلى موطنه الجديد. ومنذ سنة ١٠٦٥ ميلادية راح الأتراك يهاجمون قلعة إيديا العظيمة على الحدود كل عام، لكنهم كانوا غير متمرسين في أعمال الحصار الحربي. وفي العام التالي ١٠٦٦ ميلادية احتلوا ممرات جبال أمانوس، وفي الربيع التالي خربوا مدينة قيصرية الـتي كـانت حـاضرة كابادوكيا، وفي الشتاء التالي هزموا الجيوش البيزنطية في ملطية وسـيفاس. ومكنتـهم هـذه الانتصارات من السيطرة على أرمينيا سيطرة كاملة. وخلال السنوات التالية أغـاروا علـى أعماق الإمبراطورية: قيصرية الجديدة وعمورية سنة ١٠٦٨ ميلادية، وقونيـة سـنة ١٠٦٩ ميلادية، وخونيا سنة ١٠٧٠ ميلادية، القريبة من شواطئ بحر إيجة. (١)

واضطرت الحكومة الإمبراطورية إلى التصرف. وفي سنة ١٠٦٧ ميلادية مـات الإمبراطور كونسطنطين العاشر، وكانت سياسته في خفض القوات المسلحة مسـئولة بدرجة بدرجة كبيرة عن هذا الموقف الخطير، وترك ابنه الصغير ميكائيل السابع تحـت وصاية أمه الإمبراطورة أيوديسيا التي تزوجت في العام التالي من رومانوس ديوجينـوس القائد العام ورفعته إلى العرش. وكان رومانوس جنديا بارزا ووطنيا مخلصـا، غـير أن المهمة التي كانت تنتظره تتطلب رجلا ذا عبقرية. ولقد ارتأى أن سلامة الإمبراطورية تستلزم إعادة غزو أرمينيا، لكن الجيش البيزنطي لم تعد له القوة الهائلة التي كان عليها قبل خمسين سنة مضت، و لم تكن قوات المقاطعات تكفي لحماية أراضيها من المغيرين، وإذن لا يمكنها توفير جنود لحماية الإمبراطورية، والعائلات النبيلة القادرة على تجنيـد الرجال من ضياعها ساورتها الشكوك فكفت أيديها ، وفصائل الفرسان وعددها ستون ألف فارس تفرقت الآن وهـي الـتي كانـت دورياتها تجوب الحدود السورية حـتى

---

(١) Laurent, *op. cit.* pp. 4-6; Cahen, *op. cit.* pp. 21-30.

منتصف القرن، والحرس الإمبراطوري المكون من نوعيات منتقـــاة مـــن الأنـــاضول والمدرب تدريبًا عاليًا أقل بكثير مما كانت عليه قوته في الأيام الغابرة. وأصبـــح ســـواد الجيش يتكون من مرتزقة أجانب: نُرويجيّين من الحرس الفارنجي، ونورمانديين وفرنجـــة من غرب أوروبا، وسُلافيين من الشمال، وأتراك من سهول روسيا الجنوبية، وبتشنج، وكومان، وغُزّ، وانتقى رومانوس من هذه العناصر قوة تقرب من مائة ألف رجل، ربما كان نصفها من مواليد بيزنطة، لكن الجنود المحترفين منهم كانوا قِلّة ضئيلة و لم يكـــن أحد منهم مجهزًا تجهيزًا جيدًا، وكانت أكبر فصيلة من المرتزقة تتكوّن مـــن الكومـــان والأتراك يقودها جوزيف تاركانيوت التركي المولد، وكانت الكتيبة الرئيسية تضم أبرز الفرسان النورمانديين بقيادة روسيل أوف بيلويل النورماندي، وكان لهذه الكتيبة مـــن قبل قائدان من الفرنج هما هيرفي وكرسبين، اللذان خُلِعا واحدًا بعد الآخر لخيانتـــهما البيّنة، و لم يكن الرجال يعملون إلاّ تحت إمرة رجل وطني، أمّا كبير القادة البـــيزنطيين التابع للإمبراطور مباشرة — وهو أندرونيكوس دوكاس، إبن أخي الإمبراطور المتوفى — فكان كباقي أفراد عائلته عدوًّا لدودًا لـــرومانوس الـــذي لم يجـــرؤ علـــى تركـــه في القسطنطينية. وخرج رومانوس في ربيع ١٠٧١ ميلادية على رأس هذا الجيش، الذي لا يعوَّل عليه وإن كان كبيرًا، لاستعادة أرمينيا. وبينما هو يغادر العاصمة جاءت الأنبـــاء من إيطاليا بأن باري، وهي آخر ما يملكه البيزنطيون في شبه الجزيرة الإيطالية، سقطت في أيدي النورمانديين.

معركة مانزكيرت

ويتناول مؤرخو ذلك العصر بتفصيل مأسوي مسيرة الإمبراطور شرقًا بطول الطريق العسكري الضخم. وكان ينوي الاستيلاء على القلاع الأرمينية ويضع فيها حامياته قبل وصول الجيش التركي من الجنوب. وكان ألب أرسلان في سوريّا بالقرب

من حلب حينما سمع بالتقدم البيزنطي، وتحقق من مدى خطورة التحدي، فأسرع شمالاً لمقابلة الإمبراطور. ودخل رومانوس أرمينيا عن طريق الفرع الجنوبي للفرات الأعلـــى، وقسّم قواته بالقرب من مانزكيرت التي ذهب إليها هو نفسه بينما أرسل قواتـــه مـــن الفرنجة والكومان لاحتلال قلعة الأخلاط على شاطئ بحيرة فان. وفي مانزكيرت جاءته الأنباء باقتراب ألب أرسلان، فانحدر إلى الجنوب الغربي لكي يعيد توحيد الجيش قبـــل أن ينقضّ عليه الأتراك، لكنه أهمل إرسال المســـتكشفين ناســـيًا بذلـــك أول مبـــادئ التكتيكات البيزنطية. وفي يوم الجمعة ١٩ أغسطس (آب)، وبينما كان في أحد الأودية على طريق الأخلاط في انتظار أتباعه من المرتزقة، انقض عليه ألب أرسلان ولم يـــأت المرتزقة لنجدته، وفي الليلة السابقة على المعركة، تذكر الكومان أنهم أتراك وأن رواتبهم قد تأخر دفعها، فتوجهوا جميعا إلى الأعداء وانضموا إليهم، وقرر روسيل والفرنجة عدم الاشتراك في المعركة، وهكذا لم يطل التنبؤ بنتيجتها. ولقد حارب رومـــانوس نفســـه بشجاعة، وأما أندرونيكوس دوكاس فقد تحقق من الهزيمـــة ورأى بثـــاقب نظـــره أن القسطنطينية ستشهد الفصل الثاني من المسرحية، فسحب القوات الاحتياطيـــة الـــتي كانت تحت إمرته من ساحة القتال وسار بها غربا تاركا الإمبراطور لمصيره. وما أن حل المساء حتى كان الجيش البيزنطي قد دمر وجرح رومانس واقتيد في الأسر. (١)

---

(1) يورد Cahen أكمل الروايات وأفضلها تزويدا بالمراجع في

'La Campagne de Mantzikert d'aprés les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. ix, pp. 613-42. See also Laurent, *op. cit.* p. 43 and n. 10.

ويرد وصف جيد لإستراتيجية المعركة وتكتيكاتها فى Oman, *History of the Art of War*, pp.217-19 أما Delbrück في *Geschichte der krigskunst*, vol. iii, p. 206 و Lot فى *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, vol. 1, pp. 71'2 من Oman لقبوله الأعداد الغفيرة التي أوردها المؤرخون الشرقيون للدلالة علي قوة جيش رومانوس الرابع - بدءا من مائه ألف رجل وأكثر-علي أن الجيش كان بلا شك ضخما بصورة غير عادية سوى أنه ، كما يؤكد Lautrent, *op. Cit.* pp. 45-59 نظـــرا لإقتصاديات قسطنطين العاشر بشأن الجيش ، لم تكن تجهيزاته كافية وكانت نسبة الجنود المدربين ضئيلة جدا .

الفصل الخامس :

اضطـــراب في الشـــــرق

إضطراب في الشرق

" إِنِّي وإِنْ كَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ بَينَ الأُمَمِ
الْآنَ أَجْمَعُهُم فَيَنْفَكُونَ قَلِيلاً مِن ثِقَلِ
مَلِكِ الْرُؤَسَاءِ"

(هُوشَع : ٨ ـــ ١٠)

كانت معركة مترِكرت أشد الكوارث الحاسمة في التاريخ البيزنطي، و لم يخـــالط البيزنطيين أنفسهم أية أوهام في ذلك، وما فتئ مورخوهم يذكرون ذلك اليوم الرهيب. وبدا للصليبيين المتأخرين أن البيزنطيين خسروا في ساحة القتال لقبهم كحمـــاة للعـــالم المسيحي، ومن ثم كان لتدخل الغرب بعد مترِكرت ما يبرره (١) .

---

(١) يعتبر المؤرخ وليم الصوري (William of Tyre) أن تلك الكارثة كانت مبرراً للتحرك الصليبي مادامت بيزنطة لم تستطع حماية العالم المسيحي الشرقي أكثر من ذلك . وأما المؤرخ الألماني (ديلبروك) .. فيعتبر أن أهمية المعركة مبالغ فيها علي أنه يتضح من الشواهد أن المعركة أسفرت عن عجز الإمبراطورية عن أن تدفع بجيـــش هجومي إلي الميدان لسنوات كثيرة بعد ذلك .

ولم يستفد الأتراك استفادة عاجلة كبيرة إثر ذلك النصر. وحقق ألب أرسلان ما كان يهدف إليه، وتوفرت الحماية لجناحه، وأزال خطر التحالف البيزنطي الفاطمي. ولم يطلب من الإمبراطور الأسير سوى إخلاء أرمينيا وفدية كبيرة نظير إطلاق سـراحه، ثم سار في حملة إلى بلاد ما وراء النهر حيث مات سنة ١٠٧٢ ميلادية، ولم يدخـل ابنـه وخليفته ملكشاه ــ الذي كان لإمبراطوريته أن تمتد من البحر المتوسط إلى تخوم الصين ــ آسيا الصغرى مطلقًا. لكن أتباعه التركمان اعتادوا على التنقل، ولم يكن يرغب في توطينهم في الأراضي القديمة للخلافة، بيد أنّ سهول الأناضول الوسطى التي أخلاهـا وجهاء بيزنطة أنفسهم وحولوها إلى مزارع أغنام كانت تناسبهم تمامًا، فعهد إلى ابـن عمه سليمان بن قتلمش أمر إخضاع تلك البلاد للشعب التركي. (١)

ويسر البيزنطيون أنفسهم الغزو على الأتراك، إذ انقضت السنوات العشرون التالية من تاريخهم في مُضْطَربَ التمرد والتآمر . فعندما وصلت إلى القسطنطينية أنباء الكارثة وأسر الإمبراطور أعلن ميكائيل دوكاس ــ ابن زوجته ــ أنه بلغ سن الرشد واسـتولى على الحكم، وعزز موقفَه وصولُ ابن عمه اندرونيكوس ومعه بقايا الجيـش. وكـان ميكائيل السابع شابًّا مثقفًا ذكيًّا، وحريًّـا به أن يكون حاكمًا مقتدرًا في زمن أهـدأ ،

---

(١) Article ' Suleiman ben Qutulmush ' by Zettersteen in *Encyclopaedia of Islam ;* Laurent , *op . cit* . pp . 9 - 11 ; Cahen, 'La paremiére Pénétration turque', in *Byzantion,* vol. xviii,pp. 31-2 See also Wittek, 'Deux Chapitres de l'Histoire des Ramsay, 'Intermixture of Turcs de Roum', in *Byzantion,* vol. xi, pp. 285-319;Races in Asia Minor', in *proc . Brit . Acad* . vol. vii, pp . 23 - 30 , and Yakubovsky, ' Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian) , in *poc. Acad. Sci. U.S.S.R.* 1936.

غير أن المشاكل التي واجهته كانت تتطلب رجلاً أعظم منه بكثير. وعـــاد رومـــانوس ديوجينيس من أسره ليجد نفسه مخلوعًا، فحاول أن يحارب دفاعًا عن عرشه الســـليب لكنه هُزم بسهولة واقتيد سجينًا إلى القسطنطينية حيث اقتلعت عيناه في وحشيـــة أدت إلى موته بعد ذلك بأيام قليلة. و لم يكن بوسع ميكائيل أن يتركه على قيد الحياة، لكن النهاية الوحشية التي انتهت بها حياته صدمت أقاربه الأقوياء وأصدقاءه الذين أســـرتهم شهامته وأخذت منهم النقمة كل مأخذ، وسُرعان ما وجـــد اســـتياؤهم متنفسًـــا في الخيانة.(١)

دخول الأتراك آسيا الصغرى

وبدأت الغزوات التركية لآسيا الصغرى بصورة جدية سنة ١٠٧٣ ميلاديـــة دون تناسق أو وحدة. ورغب سليمان في إقامة سلطنة منظمة يحكمها تحت سيادة ملكشاه، ولكن بعض الأمراء الأتراك الأقل شأنا، مثل دنمشند و شاكـــا و منجشـــك، كـــانوا يستهدفون الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة أو القلاع التي تمكنهم من الإغارة علـــى السكان أيا كانوا وتولى أمرهم، وآزرهم في ذلك، البدو التركمان الذين كانوا يرتحلون على ظهور خيولهم بما خف من السلاح ومعهم خيامهم وعائلاتهم وهم يتقدمـــون في البراري. وولى المسيحيون الأدبار تاركين الغزاة من ورائهم يحرقون قراهم ويجمعـــون أسراهم وقطعانهم. وكان التركمان يتجنبون المدن الكبيرة، ولكن وجودهم وما أحدثوه من دمار قطع الاتصالات في أنحاء البلاد مما فرض العزلة على حكام المقاطعات، وتمكن

---

(١) إن المصدر الرئيسي الأصلي لهذه الفترة المعقدة من التاريخ البيزنطي هو **Nicephorus Bryennius** الذي يغطيها تفصيلا .**Modern résumés in Diehl and Marçais**, *op.cit.* **pp. 554 ff.**
And Ostrogorsky, *op. cit.* **pp. 243-7**

زعماء الأتراك من تحقيق رغباتهم، ومن ثم شكلوا عاملا يحول دون أن يعاود البيزنطيون محاولة الغزو.

وحاول الإمبراطور ميكائيل أن يعترض التقدم التركي. وكان لما دبره روسيل أوف بيلويل من خيانة أثره في تمكين الكتيبة الفرنجية النورماندية من الإفلات من كارثة متركرت، وبرغم ما تبين من أن روسيل لا يعتمد عليه اضطر ميكائيل إلى الاستفادة به، فعهد إليه بجيش محلي صغير يقوده اسحق كومنينوس، وهو ابن أخي الإمبراطور السابق. وكان اختيارا حكيما، ذلك أنه وأخوه ألكسيوس الذي صحبه ينتميان إلى أسرة تكره عشيرة دوكاس كراهية مريرة، غير أنهما، وبرغم إلحاح أمهما ظلا مخلصين لميكائيل ولعهده وأثبتا جدارتهما في القيادة. ولكن غدر روسيل لم يدع مجالا لإخلاص اسحق، فقبل أن يقابل الجيش البيزنطي الأتراك، تخلى روسيل وقواته عن ولائهم. وتعرض اسحق لهجوم الأتراك والفرنجة الذين جاوزت أعدادهم عدد جنوده إلى حد يدفع إلى اليأس، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في أسر السلاجقة.

روسيل أوف بيلويل

واتضحت عندئذ نوايا روسيل الذي التهب خياله بما فعله بنو جلدته في جنوب إيطاليا، فوطد نفسه على إرساء دعائم دولة نورماندية له في الأناضول، ولم يكن معه سوى ثلاثة آلاف رجل لكنهم يدينون له بالولاء وكان تسليحهم جيدا، وكذلك تدريبهم، وبإمكان أي منهم أن يغلب أي تركي أو بيزنطي إذا واجهه على حدة. وتحقق الإمبراطور من أن روسيل أصبح آنذاك أشد خطورة من الأتراك، فتدارس مع عمه القيصر جون دوكاس ما يمكن جمعه من الجنود وأرسلهم في نهاية الأمر تحت إمرة عمه بنفسه، وقابلهم روسيل بالقرب من عمورية حيث اجتث شأفتهم بسهولة وأسر القيصر. ولكي يضفي على ملكه مبررا شرعيا أعلن تتويج القيصر الأسير إمبراطورا رغما عنه وسار إلى القسطنطينية ووصل إلى الشاطئ الآسيوي لمضيق البسفور دون

عائق وأحرق ضاحية كريسوبوليس (سكوتاري) وعسكر بين أطلالهـــا. ولجــأ ميكائيل اليائس إلى القوة الوحيدة القادرة على مساعدته فأرسل وفـــدًا إلى السـلطان السلجوقي سليمان الذي وعد بالمساعدة ـ بموافقة سيده ملكشاه ـ في مقابل التنازل عن المقاطعات الشرقية للأناضول التي كانت محتلة بالفعل. واستدار روسيل ليواجهـــه لكن الأتراك أحاطوا بجنوده على جبل سوفون في كابادوكيا، وتمكن روسيل من الهرب مع قلة من رجاله وتحصن في مدينة أماسيا الواقعة في الاتجاه الشمالي الشرقي. وأرسـل ميكائيل إليهألكسيوس كومنينوس الذي نجح في المزايدة لدى الزعيم التركي الرئيسي في المنطقة وفاز بعونه، وأدى ذلك إلى استسلام روسيل. وكانت حكومة روســيل مــن الكفاءة والشهرة بحيث بذل مواطنو أماسيا جهدهم لإنقاذه و لم يكفوا عن ذلـــك إلا عندما علموا أنّ عينية قد فقئتا. وحقيقة الأمر أنّ ألكيسوس لم يكن ليضع نفســـه في موضع التمثيل بــروسيل، وفي ذلك سر جاذبيته التي جعلت الإمبراطور يســعد بــأن يسمع أنّ ألكسيوس لم يتدن إلى السماح بمثل هذا الانحطاط. (١)

ويختفي روسيل من التاريخ. ولكن الأحداث تترك أثرها على البيزنطيين وتعلمهم أنّ النورمانديين ليسو أهل ثقة، وأن طموحهم لا تحده شواطئ إيطاليا الجنوبية، وإنّمـــا يرغبون في إقامة إمارات في الشرق. ويمضي أثر هذه الأحداث فيفسّر السياسة البيزنطية بعد ذلك بعشرين عامًا. وفي ذات الوقت تثبط همّة النورمانديين عن الانخراط في الخدمة الإمبراطورية، ومن ثم يصبح أبناء عمومتهم الاسكندنافيون موضع شك. ومنذئذ يصبح اختيـــار الحرس الفارنجي من الذيـــن عانـــوا من النومانـــديين، وهم الأنجلوسكسون

---

(١) Roussel's career is told by Bryennius, pp. 73-96, And Attaliates, pp. 183 ff See Schlumberger, Deux Chefs normands', in Revue Historique, vol. xvi

البريطانيون. (١)

وتسبب الخوف من النومانديين والحاجة الدائمة إلى مرتزقة أجانب في أن يســـرع ميكائيل إلى اتباع سياسة استرضاء الغرب. و لم يكن هناك من سبيل لاسترجاع جنوب إيطاليا و لم يكن بوسعه أن يستمر في الحرب هناك، فأرسل جون إيتالوس، الفيلســـوف الإيطالي المولد، إلى النورمانديين سفيرا للاتفاق على السلام معهم رغم أن الكثير مـــن البيزنطيين يعتبرونه خائنا لمصالح الإمبراطورية، ولكن ميكائيل لم يعبأ بذلك وكان على دراية برغبة آل هوتفيل الذين يتطلعون إلى عقد أحلاف كبيرة عـــن طريـــق الـــزواج، فاقترح عليهم إرسال هيلين إبنة جيسكار لتكون عروسا لإبنه القاصر قســـطنطين، وفي الوقت نفسه سعي إلى التقرب من البابا العظيم جريجـــوري الســـابع ونـــال صداقتـــه الحميمة. وهكذا تحقق السلام على حدوده الغربية بفضل سياسته. (٢)

على أن الاضطراب ازداد سوءا في الأناضول، وفقدت الحكومـــة الإمبراطوريـــة السيطرة على مجريات الأمور هناك. برغم وجود قليل من القـــادة المخلصـــين الذيـــن حافظوا على استبقاء سلطة الإمبراطور، مثل اسحق كومنينوس حاكم أنطاكية آنذاك، فإن انقطاع سبل الاتصال أدى إلى افتقار تنسيق السياسة. وفي نهايـــة الأمـــر، تمـــرد نسفورس بوتنياتس في سنة ١٠٧٨ ميلادية الذي كان محافظا لإحـــدى المقاطعـــات الكبرى للأناضول في الجزء الأوسط الجنوبي لآسيا الصغرى، مدفوعا من ناحية بطموح

---

(١) For the English in the Varangian Guard, see Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 355-77; Vasiliev, 'Opening Stages of the Ango- Saxon Immigration to Byzantium', in *Seminarium Kondakovianum* , vol. 39-70 .

(٢) .Chalandon, *op. cit.* vol. 1, pp. 264-5; Gay, *Les Papes du Xle Siécle,* pp. 311-12 .

شخصي، ومن ناحية أخرى بضيق متأصل من ضعف حكم ميكائيل، لكنه كان قائدا بلا جيش، ولذا جند أعدادا كبيرة من الأتراك، واستخدمهم كحاميات للمدن التي كان يستولي عليها وهو في طريقه إلى العاصمة، مثل مدن سيزيكوس، ونيقيه، ونيكوميديا، وخلقدونية، وكريسوبوليس. وهكذا وجدت الحشود التركية نفسها لأول مرة داخل المدن العظيمة غربي الأناضول، وربما أصبحت مرتزقة للإمبراطور الجديد، وإن صعب عليه بعد ذلك اقتلاعهم. وعندما دخل نيسفورس العاصمة لم يظهر ميكائيل أي مقاومة، وإنما دخل أحد الأديرة حيث وجد فيه سبيله الحقيقي. وكان أسعد حظا من أغلب الأباطرة المخلوعين: ففي غضون سنوات قليلة اعتلى كرسي رئيس الأساقفة بفضل مزاياه وحدها. وأما زوجته التي هجرها، وهي ماريا القوقازية من ألانيا، والتي كانت أجمل أميرات عصرها، كانت من التعقل بحيث مدت يدها للمغتصب.

ووجد نيسفورس أن حياة المتمرد أسهل من حياة الحاكم. وحذا قادة آخرون حذوه; ففي غرب البلقان أعلن نيسفورس برينيوس، حاكم ديرهاكيوم، نفسه إمبراطورا، واجتذب جنود المقاطعات الأوروبية إلى لوائه، فأرسل الإمبراطور نيسفورس إليه ألكيسوس كومنينوس على رأس قوة صغيرة تتكون من جنود يونانيين غير مدربين وقليل من الفرنج الذين تخلوا عن مهمتهم كعادتهم .و لم يتأت لـه هزيمة نيسفورس برينيوس إلا بوصول المرتزقة الأتراك في اللحظة الملائمة. وما أن انتهت هذه الحملة حتى اضطر ألكسيوس إلى الذهاب إلى ثيسالي ليسحق مغتصبا آخر هو بازيلاكيوس، وفي نفس الوقت تمردت الحامية التركية في نيقية. وعندما سمع البابا جريجوري بأنباء سقوط حليفه ميكائيل أصدر قرارا بطرد الإمبراطور الجديد من الكنيسة، أما روبرت جيسكار فقد خطط لعبور البحر الأدرياتيكي، مدفوعا بتشجيع من البابوية وبحنقه لفسخ خطوبة إبنته، فترل إلى البر في شهر مايو (أيار) في مدينة أفلونا بكامل قواته وسار إلى ديرهاكيوم. وتمرد أبرز القادة في آسيا، نيسفورس ميليسينيوس هو الآخر في أوائل فصل الربيع نفسه، وتحالف مع السلطان التركي سليمان الذي استطاع بفضل هذا التحالف

أن يتقدم دون مرد إلى بيثينيا حيث رحبت به الحامية التركية التي تركها بوتينياتس، ولما فشل ميليسينيوس في الاستيلاء على القسطنطينية رفض سليمان إعادة المدن التي احتلها، وبدلا من ذلك نصب نفسه في مدينة نيقية التي كانت أكثر المدن قداسة في العالم المسيحي. وهكذا أصبحت مدينة نيقية، التي تبعد عن القسطنطينية بأقل من مائة ميل، عاصمة للسلطنة التركية.

وفي القسطنطينية أضاع الإمبراطور نيسفورس فرصته الوحيدة في البقاء بتشاجره مع عائلة كومنيكوس بعد أن خدمه اسحق وأليكسيوس كومنينوس بإخلاص، وكانا يأملان في الاحتفاظ بمودته؛ فبينهما وبين الإمبراطورة صداقة وثيقة، لاسيما وأن اسحق تزوج ابنة خالتها، وأنه كان يظن أن أليكسيوس عشيقها. غير أنها لم تستطع شيئا حيال دسائس البلاط التي دفعت نيسفورس إلى أن ينقلب عليهما. وأضطر الشقيقان إلى التمرد لتأمين نفسيهما، وأعلن أليكسيوس نفسه إمبراطورا مستندا إلى اعتراف الأسرة به على أنه أقدر الاثنين. وهكذا سقط نيسفورس بنفس القدر من السهولة التي خلع بها سابقه، وأخذ بنصيحة البطريق فتقاعد منهوكا مهانا لينهى أيامه في الرهبنة. (١)

ألكسيوس كومنينوس يعتلي العرش

وقدر لألكسيوس كومنينوس أن يحكم سبعة وثلاثين عاما، وأن يثبت أنه أعظم رجل دولة في عصره، على الرغم مما بدا سنة ١٠٨١ ميلادية من أنه سيعجز عن البقاء هو وإمبراطوريته؛ وربما كان شابا لم يجاوز الثلاثين من عمره على أنه خبر الحياة لسنوات عدة كقائد عسكري يفتقد القوات الكافية في غالب الأحيان ويتوقف نجاحه

---

(١) يورد Chalandon أفضل موجز لحكم Boteniates في *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 35-50.

على فطنته ودبلوماسيته، وكان لوجوده وقع خاص، و لم يكن طويل القامة، وإنما قوي البنية في مهابة. وكان كيس الطبع بسيطا بادي القدرة على ضبط النفس، بيد أنه كان يجمع إلى لطف المعشر والاستعداد اليقظ لأن يلجأ إلى الخديعة والإرهاب إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك، ولا تكاد تجاوز مزاياه صفاته الشخصية وحب جنده له. ولا شك أن أسرته ذات الصلات المتشعبة في الأرستقراطية البيزنطية أعانته على الوصول إلى السلطة، وعزز مركزه بأن تزوج من سيدة من آل دوكاس وزاد من مشاكله دسائس أقاربه وغيرهم، وخاصة الكراهية التي كانت أمه المسيطرة تكنها لزوجته وكل عشيرتها. وكان البلاط يزخر بأفراد عائلات إمبراطورية سابقة، أو عائلات تفكر في اغتصاب العرش، فعمل أليكسيوس على ربطها به بأواصر الزواج، فهناك الإمبراطورة ماريا التي كانت تنهشها الغيرة من الإمبراطورة الجديدة إيرين، وكذلك ابن ماريا قنسطنطين دوكاس الذي قربه أليكسيوس واتخذه رفيقا يصغره وعجل خطبته لابنته الكبرى أنا، وهناك أبناء رومانوس ديوجينيس الذي زوج أحدهم من أخته ثيودورا، وهناك ابن نيسفورس برينيوس الذي تزوج بالفعل أنا كومنينا بعد أن مات زوجها قنسطنطين دوكاس في سن مبكرة، وهناك نيسفورس ميليسينوس الذي تزوج من أخته ايودوشيا التي جعلته يتخلى لأخيها عن مطالبته بالإمبراطورية في مقابل لقب قيصر. فكان لزاما على أليكسيوس أن يداوم مراقبتهم جميعا بعين يقظة، يهدئ خلافاتهم ويحبط خياناتهم، وابتدع نظام ألقاب وافيا لإرضاء أهوائهم. و لم تكن طبقة النبلاء يعتمد عليها، وكذلك كبار موظفي الدولة على السواء، فكان يكتشف مؤامرات لا تنتهي ضد حكومته، ويتهدده دائما خطر الاغتيال، لكنه كان رفيقا في عقابه من منطلق السياسة ومنطلق نزوعه الشخصي معا(١). وهذا الحلم الذي اتصف به، وبصيرته البعيدة في كل أفعاله،

---

(١) أوردت المؤرخة أنا كومنينا وصفا للمظهر الشخصي لأبيها بألفاظ الإطراء والمديح في تاريخها *Alexiad*, 7-III, ii, 5, vol. 1, pp. 106 وأورد Chalandon, *op. cit.* pp. موجزا --

كانا الميزتين الملحوظتين البارزتين بالنظر إلى الظروف غير المأمونة المحيطة بحياته كلها.

الإمبراطور أليكسيوس

وكانت حالة الإمبراطورية في سنة ١٠٨١ ميلادية هي الحالة التي لا يمكن أن يضطلع بحكومتها سوى رجل فائق الشجاعة أو رجل شديد الغباء. فالخزانة خاوية، وكان الأباطرة الذين سبقوه مسرفين متلافين، وتسببت خسارة الأناضول وحالات التمرد التي حدثت في أوروبا في تقليص عوائد الإمبراطورية على نحو يثير الأسى، وانهار نظام جمع الضرائب القديم. ولم يكن أليكسيوس خبيرًا ماليًا، لكن رجل الاقتصاد العصري يقف مشدوهًا أمام الطرق التي اتبعها; إذ أنه بطريقة أو بأخرى فرض على رعاياه أقصى حد من الضرائب تتسع له مواردهم، وأجبر الأعيان والكنيسة على منحه قروضًا وصادر ممتلكاتهم، واستبدل عقوبة السجن بعقوبة الغرامة المالية، وباع الامتيازات، وطَوّر تقاليد القصور وعاداتها، وتمكن بذلك من تحمل تكاليف تنظيم إداري ضخم، وإعادة بناء الجيش والبحرية، وتمكن في ذات الوقت من الاحتفاظ بفخامة البلاط الإمبراطوري، واستطاع أن يخلع الهدايا على رعاياه المخلصين والمبعوثين الزائرين والأمراء، فقد تحقق من أن الهيبة في الشرق تتوقف على العظمة والجلال، وأما الشح فهو الرذيلة التي لا تغتفر. على أن أليكسيوس ارتكب خطأين كبيرين: فقد منح التجار الأجانب امتيازات تجارية في مقابل معونات عاجلة مما أضرّ برعاياه; كما أنه خفّض قيمة العملة الإمبراطورية في إحدى اللحظات الحرجة، وهي العملة التي ظلت وحدها طوال سبعة قرون مستقرة في عالم من الفوضى.

-- لشخصيته . أما التاريخ " المختصر Synopsis Chronico " الذي وضعه مؤرخ يوناني مجهول ، والذي يتخذ موقفا وديا منه ، فيصفه بأنه " عظيم الإرادة والقدرة في العمل " .

وأما في الشؤون الخارجية فكان الوضع باعثا على اليأس بصورة أكبر ـــــ هذا إذا كانت كلمة "خارجية" لا تزال وصفا قابلا للتطبيق آنذاك، إذ أن الأعـــداء توغلـــوا في داخل الإمبراطورية من كل جانب، ففي أوروبا كانت قبضة الإمبراطورية علـــى شبـــه جزيرة البلقان محفوفة بالمخاطر، وكان السلافيون في صربيا ودالماتيا في حالـــــة تمـــرد، وكثيرا ما كانت قبيلة البتشنج التركية المتجولة وراء الدانوب تعبر النهر للإغـــــارة، وفي الغرب احتل روبرت جيسكار والنورمانديون مدينة أفلونا وحاصروا ديرهاكيوم، وأمـــا في آسيا فلم يبق لبيزنطة سوى شواطئ البحر الأسود، والقليل من المدن المعزولة علـــــى الشاطئ الجنوبي، وحاضرة أنطاكية العظيمة المحصنة، لكن الاتصالات مع هـــذه المـــدن البعيدة كانت نادرة وغير مضمونة، كما بقيت عــــدة مـــدن في الداخـــل في أيـــدي المسيحيين، لكن الصلة بين حكامها وبين الحكومة المركزية كانت مقطوعة تماما. وكان سواد البلاد في قبضة السلطان السلجوقي سليمان الذي حكم من نيقية دولة تمتد مـــــن البوسفور إلي الحدود السورية، برغم عدم توفر الإدارة المنظمة لدولته، التي لم تكن لها حدود ثابتة، وكانت هناك مدن أخرى في قبضة أمراء أتراك أقل شأنا، اعترف بعضهم بسيادة سليمان بينما لم يعترف أغلبهم بسيد آخر غير ملكشاه. وكان أكثرهم أهمية آل دانشمند الذين كانوا يمتلكون قيصرية وسافوس وأماسيا، فكان منجشك حاكما على أرزنكان وكولونيا، وكان أخطرهم جميعا هو المغامر شاكا الذي استولى على أزمـــــير وساحل بحر إيجة. واستتب الأمر لزعماء الأتراك على نحو أو آخر حول مدنهم الرئيسية، بينما بقي سائر البلاد نهبا لجحافل التركمان الرحل وتســـببت جماعـــات اللاجئـــين اليونانيين والأرمن في زيادة اضطراب الأمور. ودخلت أعداد غفيرة من المســـيحيين في الإسلام وذابت شيئا فشيئا في الجنس التركي، وبقيت جماعات يونانية ضئيلة العدد في مناطق الجبال، أما المسيحيون الأتراك الذين استقروا حول قيصرية في كابادوكيا قبـــــل ذلك ببضعة قرون فقد احتفظوا بهويتهم ودينهم حتى العصور الحديثة، إلا أن أغـــلب

السكان اليونانيين شقوا طريقهم بقدر الاستطاعة إلى شواطئ البحر الأسود وبحر إيجة. (١)

الأرمن في طوروس

وكانت هجرة الأرمن مدروسة ومنظمة بشكل أكبر. ذلك أن الأمــراء الأرمــن الذين جردهم البيزنطيون من ممتلكاتهم حصلوا على ضياع في كابادوكيا، وخاصــة في الجنوب ناحية جبال طوروس، وصاحبهم الكثير من أتباعهم. وعندما اتخذت غــزوات السلاجقة شكلاً جدياً تركت أعداد كبيرة من الأرمن منازلها لتلحق بهذه المستعمرات الجديدة وأصبح نصف سكان أرمينيا في طريقهم إلى الجنوب الغربي. ودفعهم التغلغــل التركي إلى مزيد من التقدم داخل جبال طوروس وجبال طوروس المقابلة، ثم انتشــروا في وادي الفرات الأوسط إذ لم يكن الترك قد وصلوا إليه بعد. وسرعان ما امتــلأت المقاطعات التي هجروها بالترك وغيرهم من الأكراد المسلمين القادمين من تلال آشور

---

(١) عــن البتشنــج أنظــر : Vasilievsky , *Works* (in Russian) , vol . 1 , pp . 38 ff.
و عن سليمــان أنظر : *art. cit.* in the *Encyclopaedia of Islam* , and the article 'Izniq",*ibid.*by Honigmann.
و عــن الدانشمند أنظر : article ' Danishmend ' by Mukrimin Halil in the Turkish *Islam Ansiklopedisi*, and Cahen, 'La premiére Pénétration turque ', *op. cit.* pp . 46 -7, 58-60
عن منجوشيك أنظر : article 'Menguchek' by Houtsma in the *Encyclopaedia of Islam*.
و عن شاكا الذى لا نعرفه إلا من أنا كومنينا فيرد فى *Alexiad*, VII, viii, 1-8, vol.ii, pp. 110-16؛ و عن سيرة حياته المبكرة انظر : article 'Izmir' by Mordtmann, vol.1,pt. 1, *passim*, and Köprülu,*Les Origines de l'Empire Ottoman*,pp. 48 ff

وشمال غرب إيران. وكان آخر أمير أرميني ينتمي إلى الأسرة البجراتية (١) — وهـــي الأسرة التي كانت تفخر بادعائها أنها من سلالة داوود وبتشبع (٢) — قد قتـــل سـنة ١٠٧٩ ميلادية بناء على أوامر بيزنطية بعد أن ارتكب جريمته البشعة الشاذة وهي قتل رئيس أساقفة قيصرية. وترتب على مقتل ذلك الأمير أن تمرد أحد أقربائه (روبين) على الإمبراطورية ونصب نفسه في التلال الواقعة شمال غرب كيليكيا. وفي نفـــس الوقـــت تقريبا أنشأ أوشين — وهو ابن هيثوم — إمارة مشابهة تبعد قليلا ناحية الغرب، وكان لكل من الأسرتين الحاكمتين الروبينية والهيثومية دور تلعبه في التاريخ اللاحق، لولا أن أدى تألق فاهران الأرميني — الذي يسميه اليونانيون فلاريتـــوس — إلى حجبـــهما في الظل.

وكان فلاريتوس يعمل في خدمة بيزنطة، وقد عينه رومانوس ديوجينيس حاكمـــا لمدينة كهرمان ماراس (٣) . وعندما سقط رومانوس رفـــض الاعـــتراف بـــميكائيـــل

---

(١) (المترجم) : الأسرة الحاكمة البجراتية : هي الأسرة التي أسستها عائلة بجراتوني في أرمينيا وجورجيا في القرن التاسع وحافظ ملوكها علي بقاء أرمينيا مستقلة عن كل من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية. ونتيجة لغزوات الأتراك السلاجقة والبيزنطيين في القرن الحادي عشـــر قضـــي علي ما تبقي من البجراتيين والمملكة الأرمينية .

(٢) (المترجم) : بتشبع : (أنظر العهد القديم : سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ و ١٢) : زوجة أوريا الحِثي - ابنة أليعام تزوجها داوود بعد أن قتل زوجها وأنجبت له سليمان .

(٣) (المترجم) : كهرمان ماراس : مدينة جنوب تركيا علي حافة سهل خصب جنوب جبال أهير داغي إلي الشمال الشرقي من أدنا .والمدينة قريبة من ثلاثة ممرات هامة في جبال طوروس وهي جوكسن، البستان، ملطية . وتعرف المدينة تاريخيا أيضا باسم جرمانيشيا أو كاركاسي ، ويطلق عليها أيضا مرعش .

دوكاس وأعلن استقلاله عنه; وأثناء الفوضى التي سادت حكم ميكائيل استولى علـــى المدن الرئيسية في كيليكيا وهي طرسوس ومامسترا وعين زربة (١). وفي ســـنة ١٠٧٧ ميلادية استولى أحد قادته على أورفا من البيزنطيين بعد حصار دام ستة أشـــهر، وفي العام التالي ١٠٨٧ ميلادية توسل إليه أهل أنطاكية أن يستولي على المدينة إنقاذًا لها من الأتراك لاسيّما وأنها بلا حاكم، إذ قُتل حديثًـــا حاكمـــها وكـــان خليفـــة اســـحق كومنينوس. وكانت سيطرة فيلاريتوس آنذاك تمتد من طرسوس إلى ما وراء الفـــرات وأمسى كل من روبين وأوشين من أتباعه. لكنه كان يشعر بعدم الأمـــان، إذ كـــان أرثوذوكسيا على خلاف أغلب معاصريـــه ولم يرغـــب في الانفصـــال تمامـــا عـــن الإمبراطورية. وبعد أن اعتزل ميكائيل أعلن ولاءه لـــنيسفورس بوتينياتس الذي تركه حاكما على ما استولى عليه من أراض. ومن الواضح أنه اعترف بـــألكسيوس كذلك، غير أنه اتخذ جانب الحيطة بتقديمه نوعا من التكريم لعظـــام الشخصيـــات العربيـــة في حلب.(٢)

وكان لزاما على أليكسيوس، بعد توليه السلطة، أن يحدد العدو الذي يجـــب أن يبدأه بالحرب. وبعد دراسة مستفيضة وجد أنه لا يستطيع أن يرد الأتـــراك إلا بجـــهود طويلة متصلة لم يكن قد استعد لها بعد ، وفي نفس الوقت كان الأقرب إلى التصور أن

---

(١) (المترجم) : عين زربة : مدينة في كيليكيا في الأناضول تقع في منطقة مقاطعة أدنا . ولا يزال يوجد في موقعهـــا حتي الأن قلعة بيزنطية أرمينية علي أطلال الموقع ، وكذلك بقايا كنائس بيزنطية وقوس نصـــر ومسرح وملعب ومدرج . وتعرف تاريخيا باسم أنازاريوس .

(٢) Laurent, *op. cit.* pp. 81 ff.; *idem,* 'Des Grecs aux Croisés', pp. 368-403; Grousset, *Histoire des Croisades,* pp. xl-xliv.

أما سيرة حياة Philareus فنعرفها من الرواية المعادية التي يرويها متى الأور في الذى كان يكرهه لأنه مسحي أرثوذكسي.(Mattew of Edessa (ii,cvi,ff.pp.173ff.

يتشاحنوا فيما بينهم، ولذلك اعتبر أن التصدي للهجوم النورماندي هو الأكثر إلحاحا. لكن الأمر استغرق أكثر مما كان يقدر; ففي صيف سنة ١٠٨١ ميلادية ضرب روبرت جيسكار حصارا حول ديرهاكيوم، وكان بصحبته زوجته المحاربة سيجيلجاتيا أوف ساليرنو وابنه الأكبر بوهيموند، وفي أكتوبر (تشرين أول (خف أليكسيوس لنجده القلعة ومعه جيش تتكون قوته الأساسية من الحرس الفارانجي الأنجلوساكسوني، لكن حدث هناك ما حدث في هاستنجز قبل ذلك بخمسة عشر عاما ـــ فلم يكن الأنجلوساكسون في كفاءة النورمانديين، وهزم أليكسيوس هزيمة حاسمة، وصمدت ديرهاكيوم طوال الشتاء، لكنها سقطت في فبراير (شباط) سنة ١٠٨٢ ميلادية، وهكذا تمكن روبرت من التقدم في الربيع عبر الطريق الرئيسي الكبير فياأجناتيا في طريقه إلى القسطنطينية، ولكن سرعان ما اضطره ما يحدث في إيطاليا إلى العودة إلى موطنه تاركا جيشه تحت إمرة ابنه بوهيموند لتأمين مقدونيا واليونان. وهزم بوهيموند أليكسيوس مرتين فاضطره إلى الاستعانة برجال من الأتراك وسفن من فينيسيا لقطع خطوط مواصلات النورمانديين. ومكن الأتراك الإمبراطور من أن يخلص ثيسالي. وفي سنة ١٠٨٣ ميلادية تراجع بوهيموند إلى إيطاليا، لكنه عاد مع أبيه في العام التالي ودمرا أسطول فينيسيا على مقربة من ميناء كورفو. ولم تنته الحرب إلا بموت روبرت في سيفالونيا سنة ١٠٨٥ ميلادية، وتناحر أبنائه على الميراث.(١)

الغزو السلجوقي لسوريا

واستقرت سلطة الإمبراطور أخيرا على المقاطعات الأوروبية، لكنه فقد المقاطعات الشرقية أثناء تلك السنوات الأربع. وتورط فيلاريتوس في دسائس تركية مهلكة; ففي أوائل سنة ١٠٨٥ ميلادية غدر به ابنه وسلم أنطاكية ومدن كيليكيا إلى السلطان

(١) For the Norman War, see Chalandon, *op. cit.* pp. 58-94.

سليمان. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية سقطت أورفا في قبضة بوزان الزعيم التركي، ولكن ثوروس الأرميني، الذي كان من أتباع ملكشاه والذي كانت تكبح جماحه حامية تركية في القلعة بادئ الأمر، استعاد المدينة سنة ١٠٩٤ ميلادية. وفي تلك الأثناء احتل أرميني آخر هو جابرييل حمو ثوروس مدينة ملطية، وكان ينتمي إلى عقيدة أرثوذكسية، شأنه شأن ثوروس، وتسببت الخلافات بين الكنائس الأرثوذكسية واليعقوبية والأرمينية في زيادة الفوضى التي سادت سائر أنحاء سوريا الشمالية. وكان اضمحلال القوة البيزنطية أمرا سارا للكنيسة الأرمينية التي كانت تفضل الحكم التركي.(١)

واكتملت حينئذ السيادة السلجوقية على جنوب سوريّا، فمنذ أن دخل طغرُلبك بغداد سنة ١٠٥٥ ميلادية باتت ممتلكات الفاطميين في سوريّا مهددة، ونتج عن تزايد الخطر والترقب هناك أن تفشت الفوضى، كما حدثت حالات تمرد صغيرة. وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية رفض موظفو الحدود البيزنطية في اللاذقيّة السماح لأسقف كمباري وهو في طريقه للحج بالتقدم جنوبًا، و لم يكن السبب ـــ كما تشكك الغربيون ـــ هو مجرد مضايقة أحد اللاتينيين (رغم احتمال وجود حظر على الحجاج النورمانديين)، وإنّما أُخطروا بأن سوريّا غير مأمونة للمسافرين المسيحيين. وأكدت حادثة الأساقفة الألمان، الذين أصَرّوا ـــ بعد ذلك بثماني سنوات ـــ على عبور الحدود برغم النصيحة المحلية، أنّ المسئُولين البيزنطيين كانوا على صواب.(٢)

وفي سنة ١٠٧١ ميلادية، وهو عام مانزكرت وسقوط باري، قام المغامر التركي عزيز بن أبق، التابع لألب أرسلان اسمًا، بالاستيلاء على القدس دون صراع،

---

(١) Laurent, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 403-10, (references); also article 'Malatya' by Honigmann in the *Encyclopaedia of Islam*

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٩ الحاشية ٤ و ص ١٠٠ حاشية ١ .

وسرعان ما احتل فلسطين كلها حتى قلعة عسقلان على الحدود الجنوبية، وفي سنة ١٠٧٥ ميلادية استولى على دمشق بمن فيها. وفي سنة ١٠٧٦ ميلادية استعاد الفاطميون القدس، ثم أخرجهم عزيز منها مرة أخرى بعد حصار دام عدة أشهر وبعد مذبحة للسكان المسلمين ولم ينج سوى المسيحيين الذين ظلوا آمنين وراء أسوار حيهم. ومع ذلك، استطاع الفاطميون مهاجمة عزيز في دمشق مما اضطره إلى طلب مساعدة الأمير السلجوقي تتش شقيق ملكشاه الذي كان يحاول أن يقيم لنفسه سلطنة في سوريا بموافقة أخيه. وفي سنة ١٠٧٩ ميلادية دبر تتش مقتل عزيز وأصبح الحاكم الوحيد لدولة تمتد من حلب إلى حدود مصر التي ظلت تحت حكم أسرتها الحاكمة العربية. ويبدو أن تتش وضابطه أرتق حاكم القدس أقاما حكومة منظمة، فلم تكن هناك عداوة ضد المسيحيين خاصة، برغم أن بطريق القدس الأرثوذوكسي ربما أمضى كثيرا من وقته في القسطنطينية التي بدأ الإقامة فيها آنذاك قرينة بطريق أنطاكية.(١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية حول الإمبراطور أليكسيوس انتباهه إلى المشكلة التركية بعد أن تحرر من الخطر النورماندي. وحتى ذلك الحين لم يستطع صدهم إلا بالدسائس

---

(١) أنظر مادتي 'Tutush' by Houtasma و 'Ortoqids' by Honigmann في *Encyclopaedia of Islam*. ويقارن التاريخ القبطي History of the Patriarchs of Alexandria الحكم التركي بصورة محابية جدا للحكم الفرنجي الذي تلى في فلسطين (pp.181,207). والسهم الشهير الذي أطلقه أرتق علي سطح كنيسة القبر المقدس لم يكن المقصود منه الإهانة ، وإنما كعلامة علي السيادة . أنظر Cahen, La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. cxxxiv, pp. وكان بطريق القدس Euthymius في القسطنطينية في نهاية سنة ١٠٨٢ ، عندما ذهب إلي ثيسالونيكا في سفارة إلي بوهيموند وكان خليفته Symeon في مجمع سنة ١٠٨٦ الذي لعن Leo of 167-73 Chalcedon (وللاطلاع علي مجمع الكنيسة في ذلك العام انظر Dölger, *Rgesten*, no. 1087, vol. ii, p. 30 and Montfaucon, *Bibliotheca Coisliniana*, pp. 102 ff.)

غير أنه عاد إلي القدس سنة ١٠٨٩، كان بطريق أنطاكية موجودا في هذا المجمع أنظر ما يلي ص١٨٠ الحاشية ١

المستمرة، وبضرب أمير تركي بآخر. أما الآن فقد جمع بين الدبلوماسية واستعراض القوة، واستطاع التوصل إلى معاهدة تقضي باحتفاظ الإمبراطورية بنيكوميديا وسواحل الأناضول الواقعة على بحر مرمرة. وفي العام التالي ظل يجني ثمار صبره; ذلك أن سليمان بن قلتمش الذي استولى على أنطاكية سار إلى حلب، فأرسل حاكمها العربي إلى تتش مستنجدا ;ودارت معركة خارج المدينة انتصر فيها تتش وقتل سليمان.

الدانشمند وشاكا

تسبب موت سليمان في تفشي الفوضى بين أتراك الأناضول. وأما أليكسيوس، الذي كان في أفضل ظروفه، فكان ما يفتأ يلعب على أحقادهم المتبادلة ويعرض على كل منهم الرشوة ويلمح لهم بالمصاهرة من أجل التحالف. وكان المتمرد التركي أبو القاسم، قد استولى على نيقية لستة أعوام خلت، لكن ملكشاه استطاع في سنة ١٠٩٢ ميلادية أن يستبدله بابن سليمان ـــ قلج أرسلان الأول. وفي تلك الأثناء استطاع أليكسيوس تعزيز مركزه، ولم يكن ذلك يسيرا; فالأراضي الوحيدة التي تمكن من استردادها هي مدينة سيزيكوس، ولم يستطع منع الدانشمند من التوسع غربا والاستيلاء على كستمون وهي موطن عائلته في بافلاجونيا، وكانت دسائس القصر تعوقه. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية كان عليه أن يجابه غزوا خطرا من أعلى الدانوب قاده البتشنج بمساعدة هنغارية، ولم يتحرر نهائيا من تهديد غارات برابرة الشمال إلا في سنة ١٠٩١ ميلادية بفضل دبلوماسيته التي عززها انتصار رائع عليهم.

وظل شاكا، أمير أزمير التركي، يمثل إنذارا أكبر بالخطر، ذلك أنه كان أكثر طموحا من أغلب أبناء جلدته، ولذا كان يسعى إلى الاستيلاء على الإمبراطورية، ولاحتياجه إلى القوة البحرية استخدم اليونانيين بدلا من الأتراك، على أنه حاول في نفس الوقت تنظيم الأتراك في تحالف، فزوج ابنته من قلج أرسلان الصغير، وفيما بين عامي ١٠٨٠ و١٠٩٠ ميلادية جعل نفسه سيدا على ساحل بحر إيجة، وجزر لسبوس،

وكايوس، وساموس، ورودس. ولكن أليكسيوس استطاع أخيرا — وكان من أولويات اهتمامه إعادة بناء الأسطول البيزنطي — أن يلحق به الهزيمة بحرا عند مدخل بحر مرمرة. على أن الخطر بقي جاثما حتى سنة ١٠٩٢ ميلادية عندما قتل شاكا بوساطة زوج ابنته قلج أرسلان في وليمة أولمت له في نيقية. وقد تم القتل بناء على نصيحة الإمبراطور للسلطان الذي كان يخشى أن يرى تركيا آخر يعلو نجمه فوقه.(١)

وبموت سليمان وشاكا غدا بإمكان أليكسيوس أن يفكر في سياسة أكثر عدوانية؛ إذ صار هو نفسه آمنا الآن في القسطنطينية، وقد هدأت المقاطعات الأوروبية، وأصبح أسطوله ذا كفاءة، وخزانته قد امتلأت مؤقتا، لكن جيشه كان ضئيلا جدا، وجنوده من المواطنين الذين يمكنه الاعتماد عليهم قليلو العدد بعد أن فقد الأناضول. فكان في حاجة إلى المرتزقة الأجانب المدربين.

وفي حوالي سنة ١٠٩٥ ميلادية بدا مؤكدا أن القوة السلجوقية تنهار أخيرا؛ فقد مات ملكشاه سنة ١٠٩٢ ميلادية، وهو الذي كان مسيطرا على الإمبراطورية التركية كلها، وبعد موته شبت حرب أهلية بين أبنائه الصغار. وطوال السنوات العشر التالية تحول جل اهتمام الأتراك نحو هذا الصراع بعد أن استطاعوا الاتفاق على تقسيم ميراثهم. وفي ذات الوقت برز زعماء العرب والأكراد في العراق. وعندما مات تتش سنة ١٠٩٥ ميلادية، لم يستطع ولداه رضوان ودقاق في كل من حلب ودمشق إثبات القدرة على حفظ النظام في سوريا، وانتقلت القدس إلى أبناء أرتق، وكانت حكومتهم ظالمة غير فعّالة، وعاد البطريق الأرثوذكسي سيمون وكبار قساوسته إلى قبرص، وفي

---

(١) يرد وصف موت شاكا في تاريخ Anna Comnena, IX, iii, 3, vol. II, pp. 165-6 لكن هناك "شاكا" جديد يظهر في تاريخها (IX,v. 3, vol. III, pp. 24 -5). وربما كان ابن شاكا الأول وعرف باسم ابن شاكا وقد بسطته أنا كومنينا علي أنه شاكا . وبالمثل يطلق الكتاب الغربيون علي قلج أرسلان إسم "سليمان" لأنهم اعتادوا علي معرفته باسم "ابن سليمان" وترد حرب شاكا مع ألكسيوس في Chalandon, *op. cit.* pp. 126 ff.

طرابلس أقامت عشيرة بني عمّار الشيعية إمارة خاصة بها، وبدأ الفاطميون يستعيدون جنوب فلسطين، وفي الشمال بدأ كربوقا، القائد التركي وأتابج الموصل التابع للخليفة العباسي، في التعدي شيئًا فشيئًا على أراضي رضوان في حلب. وبدا للمرتحلين آنذاك أنّ لكل مدينة سيدًا مختلفًا.(١)

مصاعب الحجاج

ويلاحظ أن المرتحلين لم يكونوا من المسلمين وحسب، بل كان هناك حجاج مسيحيون قادمون من الغرب، و لم يحدث مطلقا أن توقفت حركة مرور الحجاج، لكن الرحلة كانت بالغة الصعوبة. ويبدو أن حياة المسيحيين في القدس، وحتى موت أرتق، لم تتأثر إلا في القليل النادر، وكانت فلسطين هادئة دائما باستثناء الفترة التي شهدت الحرب بين الأتراك والمصريين هناك، في حين أن عبور الأناضول كان عسيرا، وكان على المسافر أن يصطحب معه حرسا مسلحا، وحتى مع الحرس المسلح كان الطريق محفوفا بالأخطار، وكانت الحروب، أو السلطات المعادية، دائما ما تجبره على التوقف. وكانت سوريا أفضل بقليل، وكان قطاع الطرق في كل مكان، وفي كل مدينة صغيرة كان حاكمها يحاول فرض ضريبة على المارين. والحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه الصعاب رجعوا إلى الغرب متعبين معدمين ليقصوا أقاصيص رهيبة.

---

(١) أنظر مادة 'Sukman ibn Ortok' by Zettersteen in the *Encyclopaedia of Islam* ويصف وليم الصوري William of Tyre, 1, 8, vol. 1, pp. 25-6 انطباعات الحجاج في ذلك الوقت. وقد تقاعد Symeon of Jerusalem في قبرص قبل وقت طويل من بداية الحملات الصليبية ، بيد أن التاريخ الفعلي غير معروف .

البـــاب الثاني :

التبشير بالحرب الصليبية

الفصل الأول :

السـلام المقدس
والحرب المقدسـة

السلام المقدس والحرب المقدسة

" اِنْتَظَرْنَا السَّلَامَ وَلَمْ يَكُنْ خَيْرٌ"

(إرميا ٨ ـــ ١٥)

إن المواطن المسيحي يواجه مشكلة أساسية هي: هل يحق له أن يحارب من أجل بلده؟ ودينه دين سلام وليست الحرب إلا القتل والدمار. ولم تكن الشكوك تساور الآباء المسيحيين الأول في عدم مشروعية الحرب، فهي في نظرهم قتل بالجملة. غير أنه بعد انتصار الصليب، أي بعد أن أصبحت الإمبراطورية عالما مسيحيا، ألا ينبغي لمواطنيها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحمل السلاح من أجل رفاهتها ؟

لم تكن الكنيسة الشرقية ترى ذلك، فبينما اعترف كبير قساوستها ـــ القديس بازل ـــ بأن على الجندي إطاعة الأوامر فإنه يؤكد، مع ذلك، أنه يجب على مرتكب

إثم القتل في الحرب أن يمتنع عن التناول (١) الذي هو علامـــة التوبـــة مـــدة ثـــلاث سنوات(٢). وهذا الرأي صارم للغاية; فلم يكن الجندي البيزنطي في الواقــــع يعـــامل كقاتل، وإن لم تضف عليه مهنته جاذبية خاصة، فليس الموت في ساحة القتال شيئـــا مجيدا، كما أن الموت في معركة مع الكفار ليس استشهادا، وإنما الشهيد هو من مات وهو مسلح بإيمانه وحسب. وكانت محاربة الكفار شيئا يبعث على الأسى رغم عـــدم إمكان تجنبها أحيانا، وأما محاربة الرفاق المسيحيين فكان شرا مضاعفا. وحقيقة الأمـــر أن التاريخ البيزنطي كان خلوا من الحروب العدوانية بصورة ملحوظة. فقد انطلقـــت حملات جستينيان لتحرير الرومان من الحكام البرابرة الهراطقة (٣)، واستهدفت حملات بازل الثاني ضد البلغار استعادة المقاطعات الإمبراطورية وإزالة خطر يتهدد القسطنطينية. وغالبا ما كانت الطرق السلمية هي المفضلة حتى وإن كانت تشتمل على دبلوماســـية ملتوية أو دفع أموال. ويرى المؤرخون الغربيون ممن اعتـــادوا الإعجـــاب بالشجاعـــة العسكرية أن المسالك التي كان يسلكها رجال الدولة البيزنطيون تتصـــف بـــالجبن أو الخبث، غير أن الدافع كان الرغبة الأصيلة في تجنب سفك الدماء. وتوضح الأميرة أنـــا كومنينا ــ وهي واحدة من أكثر النماذج المعبرة عن الشخصية البيزنطية ــ في تاريخها أنه بقدر عمق اهتمامها بالمسائل العسكرية، وبقدر تقديرها البالغ لانتصارات والدها في المعارك الحربية، فإنها تعتبر الحرب شيئًا مشينًا، وملاذًا أخيرًا عندما تعجز باقي الســـبل

---

(١) (المترجم) : التناول أو العشاء الرباني (communion or Eucharist): طقس كنسي يمارس فيه سر من الأسرار الكنسية السبعة ، ويتم فيه تناول الخبز والنبيذ إحياء لذكرى العشاء الرباني وتعبيرا عن التوبة .

(٢) Saint Basil, letter no. 188, in *M.P.G.* vol. xxxii, col. 681.

(٣) (المترجم) : الهرطقة Herecy : هي مخالفة ، أو الخروج عن ، القواعد الدينية الأساسية التي تلتزم بها كنيسة معينة .

الأخرى، وأنها ـــ أي الحرب ـــ في حد ذاتها اعتراف بالفشل في حقيقة الأمر. (١)

كانت وجهة النظر الغربية أقل استنارة، إذ اعترف القديس أوجاستين نفسه بإمكان شن الحروب بأمر من الرب (٢)، ولم يجد المجتمع العسكري الذي ظهر في الغرب نتيجة للغزوات البربرية بدا من أن يبحث عن مبرر لما اعتاد عليه من تزجية فراغه. وأضفت مبادئ الفروسية المتنامية، والتي عززتها الملاحم الشعبية، هيبة على البطل العسكري، وأما المنادي بالسلام فقد نالته سمعة سيئة لم يبرأ منها مطلقا. ولم تستطع الكنيسة شيئا حيال تلك العاطفة، وإنما سعت إلى توجيه تلك الطاقة ذات النزعة القتالية إلى دروب تفضي إلى المنفعة الخاصة بها; فأصبحت الحرب المقدسة ـــ أي الحرب التي تحارب لمصلحة الكنيسة ـــ مسموحا بها، بل ومرغوبا فيها، وأعلن البابا ليو الرابع في منتصف القرن التاسع أن من يقتل في معركة دفاعا عن الكنيسة سينال ثوابه من السماء (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة رفع البابا جون الثامن ضحايا الحرب المقدسة إلى مصاف الشهداء، وإذا ماتوا بسلاحهم في المعركة تغفر لهم خطاياهم، بيد أنه ينبغي للجندي أن يكون نقي القلب (٤). وأعلن نيكولاس الأول أنه لا ينبغي لمن تدينه الكنيسة بسبب خطاياه أن يحمل السلاح إلا لمحاربة الكفار. (٥)

---

(١) عن موقف أنا كومننا أنظر Buckler, *Anna Comnena*, pp. 97-9.

(٢) Saint Augustine, *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xii, col. 35.

(٣) Mansi, *Concilia*, vol. xiv, p. 888.

(٤) John VIII, letters, in *M.P.L.* vol. cxxvi, cols. 696, 717, 816; Mansi, *Concilia*, vol. xvii, p.104.

(٥) خطاب Nicholas في *Monumneta Germania Historica, Epistolae*, vol. vi, p. 658 وقد أرفق هذا الخطاب في مجموعة القوانين الكنسية التي جمعها Burchard and Gratian.

حركات من أجل السلام

بيد أنه برغم أنّ أعلى السلطات الكنسية لم تعلن إدانتها للقتال على هذا النحو، فإن بعض مفكري الغرب صُدِموا لذلك; إذ أنّ برونو أوف كويرفورت الألماني، الذي قتله البروسيون الوثنيون شهيداً سنة ١٠٠٩ ميلادية، شعر بمهانة عظيمة من جرّاء الحروب التي شنها أباطرة عصره ضدّ الرفاق المسيحيين: حرب أوتو الثاني ضد الملك الفرنسي، وحرب هنري الثاني ضد البولنديين (١). وبدأت في فرنسا حركة من أجل السلام; فأثناء انعقاد مجلس شارو سنة ٩٨٩ ميلادية، حيث اجتمع أساقفة أكيتان لحماية الحصانة الممنوحة لرجال الدين، اقترح المجلس أن تضمن الكنيسة للفقراء حياة سلام (٢) ، وفي العام التالي — أثناء انعقاد مجلس لوبوي — أُعيد تأكيد الاقتراح بصرامة أشد، وأعلن أُسقف لوبوي، وهو جي أوف أنجو، أنه لن يتأتى لأحد أن يرى الرب بدون تحقيق السلام، ولذلك حثّ جميع الرجال على أن يصبحوا أبناء السلام (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة مضى وليم العظيم دوق جوين بالفكرة قُدُمًا، ذلك أنه في مجلس بُواتييه، الذي دعي إلى انعقاده سنة ١٠٠٠ ميلادية، تقرر الكفّ عن حل الخلافات عن طريق الحرب واللجوء بدلاً من ذلك إلى العدالة، وأن يُطرد من الكنيسة كل من يرفض الإذعان لهذه القاعدة، وتعهد الدوق ونبلاؤه بالالتزام بها، وحذا حذوه روبرت الورع، ملك فرنسا، بالأخذ بقاعدة مماثلة في مملكته (٤) . وظلت الكنيسة

---

(١) أنظر Erdmann, *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, p. 97 n. 35 الذي يورد مراجع للنصوص ذات الصلة .

(٢) Mansi, *Concilia*, vol. xix, p. 89-90.

(٣) *Cartulaire de Saint-Chaffre*, p. 152.

(٤) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 267-8; Fulbert of Chartres, letter in Bouquet, *Historiens de la France*, vol. x, p. 463.

مهتمة أساسا بهذه الحركة لكي تحافظ على ممتلكاتها من خراب الحـــرب ومتطلباتهـــا، وعقدت سلسلة من المجالس لتحقيق هذه الغاية. ففي سنة ١٠١٦ ميلادية صـــدرت في (فيردون سير لو دوب) صيغة أقسم النبلاء بمقتضاها ألا يكرهوا رجال الدين والفلاحين على الانضمام إلى قوائمهم وألا يغيروا على محاصيلهم وألا يصادروا ماشيتـــهم. وشـــاع القسم في أرجاء فرنسا بينما كان المجمع والقساوسة والمؤتمرون يصيحون: "الســـــلام، السلام، السلام." (١)

ودفع هذا النجاح بعض الأساقفة المتحمسين إلى المضي أبعد من ذلك. ففي ســـنة ١٠٣٨ ميلادية أمر أيمون رئيس أساقفة بورج كل مسيحي يزيد عمره علـــى خمـــس عشرة سنة أن يعلن عداءه لكل من يعتدي على السلام وأن يكون على استعداد لحمـــل السلاح لمحاربتهم إذا اقتضى الأمر. ونظمت هيئات للسلام كانت فعالة أول الأمر، غير أن الشق الثاني من أمر رئيس الأساقفة كان أشد جاذبية من الشق الأول، فتزعم رجال الدين جنودا من الفلاحين المسلحين وحطموا قلاعا للنبلاء المعاندين، وســـرعان مـــا أصبحت هذه الميليشيات المعدمة تتصرف بلا مسئولية وبلغت أعمال التخريـــب الـــتي اقترفتها الحد الذي اضطر السلطات إلى قمعها. وقامت جماعة السلام الكـــبرى بحـــرق قرية بينيس، وطبقا للمعلومات التي نعرفها فإن ما لا يقل عن سبعمائة من رجال الدين لقوا حتفهم في المعركة. (٢)

---

(١) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vol. iv, pt. 2, p. 1409; Radulph Glaber, in Bouquet, *R.H.F.,* vol. x, pp. 27-8. See Pfister, *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux,* p. lx; Huberti, *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden,* p. 165

(٢) *Miracles de Saint-Benoît,* ed. By de Certain, p. 192

الهدنة في الأيام المقدسة

وفي ذات الوقت كانت هناك محاولة أكثر فعالية للتقليل من أعمال الحرب. ففي سنة ١٠٢٧ ميلادية عقد أوليبا أسقف فيش مجمعا كنسيا في تولوج، في روزيلون، أسفر عن فرض حظر على أعمال الحرب في أيام السبت (١) . وبتشجيع من رئيس دير رهبان مدينة كلاني العظيم أوديلو قام أساقفة بروفانس — الذين ادعوا أنهم يتحدثون باسم كنائس الغال كلها — بإرسال خطاب في سنة ١٠٤١ ميلادية إلى كنيسة إيطاليا طالبين أن تمتد هدنة الرب لتشمل الجمعة الحزينة (٢) وسبت النور (٣) وعيد الصعود(٤). وهكذا كبرت هذه الفكرة، أي فكرة هدنة تشمل الأيام المقدسة، وحذت كنيسة أكتيان بالفعل حذو كنيسة بروفانس الرائدة، إلا أن دوقية بورجاندي مضت إلى أبعد من ذلك بأن خصصت الهدنة لكامل الأسبوع من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين وأضافت الفترة من عيد المجيئ (٥) إلى يوم الأحد الأول بعد عيد الغطاس

---

(١) Mansi, *Concilia,* vol. xix, pp. 483-8.

(٢) (المترجم) الجمعة الحزينة : السابقة علي عيد الفصح وتحيى فيه الكنائس ذكري صلب المسيح .

(٣) *Ibid.* pp. 593-6 (المترجم) سبت النور : السابق علي عيد الفصح .

(٤) (المترجم) عيد الصعود : خميس الصعود الذي يعقب عيد الفصح بأربعين يوما والذي تحيا فيه ذكري صعود المسيح إلي السماء .

(٥) (المترجم) عيد المجيء : هي الفترة التي تسبق عيد ميلاد المسيح بأربعة أيام أحد وتعتبرها بعض الكنائس فترة صلاة وصوم . وتعني كلمة "المجيء" كذلك : مجيء المسيح متجسدا أي ظهور علي هيئة بشروتعني كذلك : " المجيء الثاني " ويقصد به مجيء المسيح يوم القيامة .

(أو الظهور) (١) وكذا فترة الصوم الكبير (٢) وأسبوع الآلام واليوم الثامن بعد عيـــد الفصح (٣). وفي سنة ١٠٤١ ميلادية، عندما كان وليم الغازي يشَـرِّع لنورمـانـدي، أدرج كذلك الفترة من أيام الابتهال (٤) إلى اليوم الثامن مـن عيـد الخمسـين (أو العنصرة) (٥). وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية أوصى مجلس عُقد في تولوج بضم عيد الأيـــام الثلاثة الخاص بالعذراء وأيام القديسين الرئيسيين (٦). وفي منتصف القرن بدت فكـــرة الهدنة الإلهية وقد ترسخت، وحاول مجمع ناربون الكبير المعقود سنة ١٠٥٤ ميلاديـــة التنسيق بينها وبين فكرة سلام الرب لحماية بضائع الكنيسة والفقــراء مــن ويــلات الحرب، وكان من الضروري مراعاة احترام كلٍّ من الهدنة الإلهية وسلام الرب خوفًا

---

(١) الغطاس أو الظهور : أي ظهور المسيح الطفل لمجوس المشرق الذين أتوا إلي القدس .(أنظر إنجيل متى : ٢ - ١) .

(٢) الصوم الكبير : فترة صوم مقدارها أربعون يوماً ، تقع بين أربعاء الرماد (ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلي العادة القديمة التي كانت تقضي بنثر الرماد فوق رءوس التائبين) وعشية عيد الفصح ، مخصصـة للصيام والتوبة تخليدا لذكري صيام المسيح في البرية (يستبعد منها أيام الأحد في الكنيسة الغربيـة السبت والأحد في الكنيسة الشرقية) .

(٣) *M.G.H., Constitutiones et Acta Publica Imperatorum et Regum,* vol. 1, p. 599. See Huberti, *op. cit.* pp. 296, 303 (المترجم) : عيد الفصح : يحتفل فيه بذكري قيام المسيح ، ويختلف موعده بحسب اختلاف التقاويم .

(٤) (المترجم) : أيام الإبتهال : الأيام الثلاثة السابقة علي عيد الصعود .

(٥) Mansi, *Concilia,* vol. xix, pp. 597- 600.(المترجم) : عيد الخمسين أو العنصرة : يـوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليدا الهبوط الروح القدس (أنظر العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني) .

(٦) *Ibid* . p. 1042

من عقوبة الطرد من الكنيسة، وفضلاً عن ذلك، أعلن أنه لا ينبغي للمسيحي أن يقتل مسيحيًّا آخر، باعتبار أنّ "من يقتل مسيحيًّا يسفك دم المسيح." (١)

ويندر أن تكون حركات السلام مؤثرة في عالم الواقع كما هي في عالم النظرية، ولم تشذ حركات السلام في القرن الحادي عشر عن هذه القاعدة، ذلك أنّ أكثر الأمراء المناصرين لهدنة الرب لم يلتزموا بنصوصها، ففي يوم السبت حارب وليم الغازي رفيقه المسيحي هارولد في هاستنز، كما ذكرت آنّا كومنينا وهي فزعة أنه في الوقت الذي حاولت فيه كنيستها أن تتوخى الأمانة في اجتناب أعمال الحرب في الأيام المقدسة هاجم فرسان الغرب القسطنطينية في أسبوع الآلام وقد احتشد في جيوشهم القساوسة المسلحون المحاربون (٢) . وعرف البابوات أنفسهم من التجربة أن ممتلكات الكنيسة لم تسلم من هجمات العامة، ولم يكن من اليسير في الغرب إخماد النزوع إلى القتال واستمراءها المجد العسكري; وكان من الأصوب العودة إلى السياسة القديمة والانتفاع بهذه الطاقة بتحويلها إلى محاربة الوثنيين.

وبالنسبة إلى الغرب، كان الخطر الإسلامي أكثر تهديدًا بكثير عمّا عليه بالنسبة للبيزنطيين إلى وقت الغزوات التركية، وانزعج البيزنطيون من الأتراك على أنهم برابرة وليسو كفّاراً. ومنذ أن فشل العرب أمام القسطنطينية في بداية القرن الثامن باتت الحرب داء متوطنًا على الحدود الشرقية للعالم المسيحي، بيد أنها لم تكن من الخطورة بحيث تهدد وحدة الإمبراطورية، ولم يحدث مطلقًا أن انقطع التبادل التجاري والفكري لأمد طويل، فكان العربي وريثًا للحضارة اليونانية الرومانية بنفس القدر تقريبًا كالبيزنطي، كما لم تكن طريقة حياته تختلف اختلافًا كبيرًا. وعندما يزور البيزنطي

---

(١) *Ibid.* pp. 827-32

(٢) Anna Comnena, *Alexiad,* x, viii, 8, vol. ii, pp. 218-19; x,ix5-6, vol. ii, p. 222.

القاهرة أو بغداد كان يشعر بأنه في وطنه على نحو يجاوز كثيرًا شعوره وهو في بـــاريس أو جوسلار (١) أو حتى روما. وباستثناء بعض الأزمات النادرة وبعض حالات الثـــأر، اتفقت السلطات في كل من الإمبراطورية والخلافة على عدم الإكراه في الدين والسماح بحرية العبادة للدين الآخر. وربما كان بعض الخلفاء المفاخرين يتحدثون باستخفاف عن الأباطرة المسيحيين، وربما فرضوا عليهم الإتاوات أحيانًا، ولكن باقتراب القرن العـــاشر من نهايته غدت بيزنطة عدوًا مخيفًا حسن التنظيم.

ولم يستطع المسيحي في الغرب مشاركة البيزنطي في التسامح والشعور بالأمـــان، إذ يفخر الأول بمسيحيته ويظن أنه وريث روما، بيد أنه كان يعي علـــى مضـــض أن الحضارة الإسلامية تسمو على حضارته في معظم الجوانـــب. ولقـــد هيمنـــت القـــوة الإسلامية على غرب البحر المتوسط من قطالونيا (٢) إلى تونس، وهاجم قراصنة مـــن المسلمين سفنه، ونهبوا روما، وحصنوا أنفسهم في إيطاليا وبروفـــانس، وبـــدا أنهـــم يستطيعون أن يخرجوا من معاقلهم في إسبانيا ويعبروا الحدود ويتدفقوا على فرنسا عبر جبال البرانس، ولم يكن للعالم المسيحي تنظيم يمكّنه من التصدي لمثل ذلك الهجـــوم، وإنّما كان آحاد الأبطال يصدون غارات العرب منذ أيام تشارل مارتل (٣) وما بعدها، كما كانت الإمبراطورية الكارولنجية (٤) لبعض الوقت بمثابة الحائط الواقي من هـــذه الغارات. وفي سنة ٩١٥ ميلادية تعاون البابا جـــون العاشر مع بلاط القسطنطينية في

---

(١) (المترجم): جوسلار: مدينة تقع حاليا شمال ألمانيا.

(٢) (المترجم): قطالونيا: إقليم شمال شرق إسبانيا يطل على البحر المتوسط.

(٣) (المترجم): تشارل مارتل: جد شارلمان، حكم ما يعرف الآن بشمال شرق فرنسا وبلجيكا وألمانيا.

(٤) (المترجم): الإمبراطورية الكارولينجية: أسسها سنة ٧٥١ ميلادية " بيبين " إبن تشارل مارتل.

تكوين تحالف من الأمراء المسيحيين لطرد المسلمين من معقلهم في كاريليانو (١). وفي سنة ٩٤١ ميلادية اشترك البيزنطيون مع هيو أوف بروفانس في الهجوم على قلعتهم في فريجوس، لكن الهجوم فشل بسبب ارتداد هيـــو في آخر لحظة، غير أنه في سنة ٩٧٢ ميلادية نجح تحالف من البروفنسال والإيطاليين في إتمام المهمـــــة (٢)، وكـــانت هـــذه التحالفات محلية متفرقة سريعة الزوال، وكان من الضروري وجود تنسيق أكبر وجهد أكثر تركيزا. ولم تتحقق تلك الضرورة على نحو أفضل مما تحققت في رومــــا الـــتي لا يغيب عن إدراكها مطلقا تخريب كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ميلادية.

المنصـــــــور

وكان مسلمو إسبانيا في القرن العاشر يهددون العالم المسيحي تهديدا حقيقيا بالغا، إذ أن المسيحيين كانوا قد فقدوا الأراضي التي حصلوا عليها من قبــــل، وفي منتصـــف القرن كان الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث سيد شبه جزيرة أيبريـــــا بـــلا منـــازع، وصاحب موته سنة ٩٦١ ميلادية بعض الشعور بالراحة، إذ كان خليفته الحكم الثـــاني مسالما وشغلته الحروب مع الفاطميين والأدارسة في مراكش، ولكن بعد موت الحكـــم سنة ٩٧٦ ميلادية سيطر على مسرح الأحداث الوزير المحارب محمد بن أبي أمير الملقب بـــالمنصور والذي يعرفه الأسبان بـــالمنظور. وكانت مملكة ليون هي القوة المســـيحية الرئيسية في إسبانيا، وهي التي تحملت صدمة هجمات المنصور، وفي سنة ٩٨١ ميلادية استولى على زامورا في جنوب المملكة؛ وفي سنة ٩٩٦ ميلادية دمر ليون نفسها وحرق

---

(١) Liudprand, *Antapodosis*, pp. 61-2; Leo of Ostia, pp. 50ff. See Gay, *L'Italie Méridionale el l'Empire Byzantin*, .p. 161, who establishes the date 915; Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 184-5

(٢) .Liudprand, *op. cit.* pp. 135, 139; Poupardin, *Le Royaume di Bourgogne*, pp. 94 ff.

في العام التالي مدينة القديس جيمس في كومبوستيلا التي يأتي ترتيبها ثالث أماكن الحج بعد القدس وروما، ومع ذلك كان حريصًا على احترام المزار نفسه. وكان قد استولى بالفعل على برشلونه سنة ٩٨٦ ميلادية، وبدا أنه سرعان ما سيعبر البرانس لكنه مات سنة ١٠٠٢ ميلادية (١). وبموته بدأت قوة الإسلام في الاضمحلال، واستطاع القراصنة القادمون من أفريقيا أن ينهبوا أنتيب سنة ١٠٠٣ ميلادية، وبيزا سنة ١٠٠٥ ميلادية، ومرة أخرى سنة ١٠١٦ ميلادية، وناربون سنة ١٠٢٠ ميلادية، في حين أنّ الهجوم الإسلامي المنظم كان قد انتهى آنذاك وحان الوقت لهجوم مضاد. (٢)

وخطط سانكو الثالث، ملك نافار، الملقب بالعظيم للهجوم المضاد؛ ففي سنة ١٠١٤ ميلادية حاول تنظيم تحالف من الأمراء المسيحيين لمحاربة "الكفرة"، وكان رفاقه في ليون وكاستيل على استعداد للمعاونة، ووجد في سانكو وليم، دوق جاسكوني، حليفًا متلهفًا، ولكن روبير ملك فرنسا لم يرد على ندائه. ولم يتحقق شيئ ملموس، بيد أنه في نفس الوقت اجتذب سانكو اهتمام حليف له قيمته البالغة، ألا وهو منظمة كَلاني الهائلة التي حكمها راهبان كبيران امتد حكمهما لمدة ١١٥ عامًا وهما: أوديلّو الذي تولى الحكم سنة ٩٩٤ ميلادية ومات سنة ١٠٤٨ ميلادية، وهيو الذي خلفه وعاش حتى سنة ١١٠٩ ميلادية، وبدأت هذه المنظمة تُولي انتباهًا خاصًّا للشُّؤُون الإسبانية، فكانت كَلاني دائمة الاهتمام برفاهية الحجاج، وبسعدها أن يكون لها رأي في تدبير طريق الحجاج الذاهبين إلى كومبوستللا وأن تساعد في حماية العالم المسيحي الإسباني كله. فحينما هدد المسلمون الكونتيسة إيرسلند أوف بارشلونه سنة ١٠١٨ميلادية، كان نفوذ كَلاني هو الذي جعل روبير أوف توسني يأتي من نورماندي

---

(١) .For Almanzor see Dozy, *Histoire des Musulmanes en Espagne,* rev. vol. ii, pp. 235 ff.

(٢) .Ballesteros, *Historia de Espana,* vol. ii, pp. 389 ff.

مدفوعًا بروح المغامرة النورماندية التي ربما حفّزته أيضًا على المجيئ. وقويـــــت قبضـــة كَلاني على الكنيسة الإسبانية أثناء حكم سانكو وخلفائه مما جعلها تتصـــدر الحركـــة الإصلاحية، ومن أجل ذلك لم يفت البابويّة أن توافق على أيّة محاولة لتوسيع حـــدود العالم المسيحي في إسبانيا. وعندما اشترك سانكو وليم أوف جاسكوني مـــع ســـانكو أوف نافارو في الهجوم على أمير سرقوسة صاحبتهما بركات البابويّة وبركات كَـــلاني التي شجعت كذلك ريموند برنجار الأول في برشلونه على دفع المسلمين إلى الجنوب.(١)

الحرب المقدسة في إسبانيا

وهكذا اكتسبت محاربة الكفرة في إسبانيا شكل الحرب المقدسة، وسرعان ما كان للبابوات أنفسهم يد في توجيهها. وفي سنة ١٠٦٣ ميلادية قُتِل أحد المسلمين رامـــيرو الأول ملك آراجون في بداية هجوم كبير على المسلمين في جرادوس، وألهـــب مقتلـــه خيال أوروبا كلها، وفي الحال وعد البابا الكسندر الثاني باغتفار خطايا كل من يحارب من أجل الصليب في إسبانيا وشرع في جمع جيش لاستكمال ما بدأه راميرو، وقام وليم أوف مونتروى وهو من الجنود النورمانديين العاملين في خدمته بتجنيد الجنود في شمال إيطاليا، وفي شمال فرنسا قام الكونت إيبل أوف روسي ـــ وهو شقيق الملكة فيليســـيا

---

(١) Boissonnade, *Du nouveau sur la Chanson de Roland*, pp. 6-22. أما Fliche في مؤلفه *L'Europe Occidentale de 888 a`1125*, pp. 551'3 فإنه يعتبر أن Boissonnade و Hatem يبالغان في دور Cluny في تنظيم حرب مقدسة في أسبانيا حسبما جـــاء في مؤلفـــهما *Les Poèmes Epiques de Croisades*, pp. 43-63 وقام Halphen في سلسلة محـــاضرات ألقاهـــا في مدرسة الدراسات العليا وباريس (Ecole des Hautes Etudes et Paris) لم تنشـــر بعـــــد - بمناقشة كاملة للمسألة ويعتبر أن دور Cluny كان دوراً هاما لكنها لم تنظم حملة عسكرية في الواقـــع أنظـــر أيضاً Rousset, *Les Origines et les Caractéres de la premiére Croisade*, pp. 31-5

الأراجونية ـــ بجمع جيش، أما أكبر فرقة جمعها جوي ـــ جيوفري كونـــت أكيتـــان الذي تم تعيينه آمرا للحملة. ورغم كل ذلك لم يتحقق سوى القليل، فقد تم الاستيلاء على مدينة بارباسترو مع الكثير من الغنائم ولكن سرعان ما ضاعت مرة أخـــرى(١). وتدفق الفرسان الفرنسيون منذ ذلك الوقت على جبال البرانس لمواصلة تلك المهمـــة، وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية نظم آيبل أوف روسي حملة جديدة دعى البابـــا جريجـــوري السابع أمراء العالم المسيحي للانضمام إليها، وبينما كان يذكر العالم بأن مملكة إسبانيا هي من توابع الكرسي الرسولي للقديس بطرس أعلن أن للفرسان المسيحيين الحـــق في التمتع بالأراضي التي ينتزعونها من "الكفرة" (٢) . وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية قاد هيـــو الأول، دوق برجاندي، جيشًا لمساعدة صهره ألفونسو السادس أوف كاستيل(٣)، وفي سنة ١٠٨٠ ميلادية منح جريجوري السابع تشجيعه الشخصي للحملة التي قادها جوي ـــ جيوفري. وسارت الأمور على ما يرام في الأعوام التالية; فاستولى الكاستلليون على توليدو سنة ١٠٨٥ ميلادية (٤)، واستتبع ذلك بعث إسلاميّ بقيـــادة المرابطـــين (٥) المتعصبين. ومنذ سنة ١٠٨٧ ميلادية بدأت الدعـــوة لاستدعاء الفرسان المســـيحيين بشكل ملح لمقاومتهم، وشجع البابا إيربان الثاني ذلك بحماس، بل طلب ممن كانـــوا ينوون الحج إلى فلسطين أن ينفقوا أموالهم بشكل أكثر نفعًا في إعـــادة بنـــاء المـــدن

---

(١) Boissonnade, *op. cit.* pp. 22-8; Fliche, *op. cit.* pp. 551-2.

(٢) Gregory VII, *Registrum,* I, 7, pp. 11-12 See also Villey, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie juridique,* p. 71

(٣) Boissonnade, *op. cit.* pp. 29-31.

(٤) *Ibid.* pp. 31-2.

(٥) (المترجم) : دولة المرابطين : تأسست في شمال غرب أفريقيا والأندلس واستمرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

الإسبانية التي انتزعت من المسلمين بعد أن نهبوها (١). وحتى نهاية القرن استمرت الحملات الإسبانية تجذب المغامرين من فرسان المسيحيين في الشمال إلى أن وصلت سلسلة الحملات إلى زروتها بالاستيلاء على هوسكا سنة ١٠٩٦ وبارباستيرو سنة ١١٠١ ميلادية.

وهكذا، وبانتهاء القرن الحادي عشر، تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى ممارسة عملية. وحثت سلطات الكنيسة الفرسان والجنود على أن ينبذوا خلافاتهم التافهة ويرتحلوا إلى حدود العالم المسيحي لمحاربة الكفرة، ولتشجيعهم على أداء خدماتهم سمحت لهم بأن يتملكوا الأراضي التي ينتزعونها، كما منحتهم مزايا روحانية، ولكن طبيعة هذه المزايا الروحانية لم تكن معروفة بشكل يقيني. ويبدو أنّ الكسندر الثاني منح غفرانًا للمشتركين في حملات سنة ١٠٦٤ ميلادية (٢) ، ولكن جريجوري السابع لم يمنح سوى تبرئة كنسيّة لكل من مات في القتال من أجل الصليب (٣) ، كما أعطى تبرئة كنسيّة مماثلة لجنود رودلف أوف سوابيا في الحرب ضد هنري الرابع الجرماني (٤) المطرود من الكنيسة. وأصبحت البابويّة تتولى توجيه الحروب المقدسة، فغالبًا ما كانت تشنها وغالبًا ما كانت تعين قادتها، وكان يتعين أن تكون جميع الأراضي المنتزعة تحت السيادة البابويّة المطلقة.

ورغم أن كبار الأمراء كانوا يميلون إلى أن يتنحوا جانبًا، لبّى فرسان الغرب طوعًا نداء الحرب المقدسة، وكانت دوافعهم تصطبغ من ناحية بصبغة دينية، إذ أنهم كانوا يستشعرون الخذي لاستمرار القتال فيما بينهم، وأرادوا أن يقاتلوا من أجل

---

(١) Riant, *Inventaire critique*, pp. 68-9.

(٢) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 4530, vol. I, p. 573.

(٣) Gregory VII, *loc. Cit.*

(٤) *Ibid.* vii, 14B, pp. 480 ff.

الصليب، فضلا عن أنه كان لديهم حافزًا آخر ألا وهو التلهف علـــى امتـــلاك الأرض وخاصة في شمال فرنسا، حيث ترسخ حق الابن الأكبر وحده في المـــيراث; ذلـــك أنّ مالك الأرض لم يكن على استعداد لتقسيم أملاكه ومتعلقاتها التي تتمركز حول قلعتـــة الشامخة، فكان على باقي أبنائه أن يبحثوا عن الثروة في مكان آخر. وشاع بين طبقـــة الفرسان الفرنسيين نوع من القلق والميل إلى المغامرة الذي يلاحَظ أكثر ما يلاحَظ بـــين النورمانديين، وهم الذين تركوا منذ عدة أجيال حياة السلب والترحال. وبدت فرصـــة الجمع بين الواجب المسيحي واقتناء الأرض في مناخ جنوبي فرصة جذابة للغاية، وكـــان للكنيسة أسباب تدفعها إلى الابتهاج باستمرار لتلك الحركة: أفليس من الممكن القيـــام بمثل هذه الحركة عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي ؟

الفصل الثاني :

صخـــرة القديس بطـــرس

صخرة القديس بطرس

"بِي تَمْلِكُ الْمُلُــوكُ وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ عَدْلًا".

(أَمْثَال: ٨ ــ ١٥)

إن انحسار المد الإسلامي في إسبانيا جعل البابا لا يجد صعوبة تذكـــر في بســـط سلطانه على كنيسة الأراضي المستعادة. وكانت (منحة قسطنطين) (١)، التي قبلها العالم المسيحي الغربي قبولاً واسع الانتشار ــ وإن كان قبولاً خاطئًا ــ على أنها شيئ أصيل،

(١) (المترجم) : منحة قسطنطين : وثيقة تناقش منحة السيادة الروحية التي يفترض أن "قسطنطين العظيم" منحها للبابا "سلفستر الأول " (٣١٤ - ٣٣٥م) وخلفائه ذوي المكانة الروحية العالية علي البطارقة العظام الآخرين ، وعلي جميع مسائل العقيدة والعبادة ، فضلا عن السيطرة الدنيويـــة علـــي رومـــا والإمبراطورية الغربية برمتها . ويزعم أن قسطنطين كان مدفوعا بما يفترض فيه مـــن عرفـــان للبابا " سلفستر "لمعجزته في علاج الإمبراطور من مرض الجزام وتحويله إلي المسيحية .والآن يعترف الجميع بأنها مزورة .

قد ساعدته على بسط سيادته الدنيوية على بلدان كثيرة، أضيفت إليها شبه جزيرة أيبريا في غفلة من الزمن، كما لم يكن في إسبانيا أيّة سلطة كنسية يمكنها أن تتحداه. أما العالم المسيحي الشرقي فكان تنظيمه مختلفًا; إذ أنّ بطريارقيّة الإسكندرية التي أسسها القديس مارك، وبطريارقيّة أنطاكية التي أسسها القديس بطرس، كانتا قديمتين قدم كرسي روما الأسقفي. وكان لبطريارقيّة القدس، وهي كنيسة القديس جيمس، هيبة خليقة بأكثر مدن العالم المسيحي قدسية وإن كانت أصغر من سابقتيها. وكانت بطريارقيّة القسطنطينية فكانت أعظم ند مهيب لتلك الكنائس جميعًا، وإن لم يكن لها من القدم ما يضفي عليها سلطان الزمن برغم ما يُزعم من أن القديس أندرو هو الذي أنشأها. غير أن القسطنطينية أزاغت العاصمة القديمة وأصبحت هي روما الجديدة ومقرًا لسلسلة متصلة من الأباطرة المسيحيين، فهي أعظم مدن العالم المسيحي، وربما حق لبطريقها أن يري أنه يمثل العالم المسيحي كله وأنه أعظم قاض كنسي في العالم المتحضر. وربما كانت المعارضة الدينية في بيزنطة تلجأ أحيانًا إلى سلطة روما القديمة كقوة توازن قوة الإمبراطور، بيد أنه لم يكن في الشرق من يأخذ على محمل الجد أنّ أسقف المدينة الغربية التي تقلّص نفوذها ــ والتي تخضع دائمًا لسيطرة صغار النبلاء المشاغبين أو زعماء البرابرة الشماليين ــ له أية ولاية على الكنائس الشرقية ذات التقاليد الباقية المستقرة على مدى الزمان، ومع ذلك بقى لروما احترامها الخاص. وبرغم تجاهل ادّعائها السيادة، كانت لها أولوية تكاد تكون عامة بين الكراسي الأسقفية للعالم المسيحي، حتى من قِبل البطريق الذي يمثل العالم المسيحي كله. وليس هناك من كان على استعداد لتحدي الاعتقاد بأنّ العالم المسيحي شيئ واحد وينبغي أن يكون كذلك.

روما والقسطنطينية

وبعد الفتح العربي فقدت بطريارقيّات الجنوب الشرقي كثيرًا من قوتها، وبرزت

القسطنطينية كأولى الكنائس الشرقية، وثارت مجادلات وخلافات كثيرة بين الكنيستين في روما والقسطنطينية حول الشؤون الكنسية وإن لم تشكل أي منها خطورة أو تستغرق وقتا طويلا على خلاف ما يعتقده الجدليون المتأخرون (١)، وإنما ظلت وحدة العالم المسيحي مقبولة على العموم. غير أنه أجري في القرن الحادي عشر فحص دقيق لنظام الكنيسة الرومانية، وترتبت اقتراحات الإصلاح إلى حد كبير على نفوذ رهبان كلاني واللورين، ونفذها في بادئ الأمر السلطات العلمانية المتسيدة على روما آنذاك، وكان الإمبراطورهنري الثالث نشطا بوجه خاص ومنح تلك الإصلاحات قوة دافعة أتاحت للكنيسة أن تستمر فيها وتطورها بعد موته مستقلة عن الحكومة العلمانية ومضادة لها في نهاية الأمر. وتولد عن الحركة نظريات برزت وأصرت على السيادة الروحانية الشاملة لروما وتسيدها في النهاية على الأمراء الدنيويين، وأثارت هذه النظريات بدورها جدلا جديدا مع الشرق.

وتكمن المسألة الرئيسية في إعادة تأكيد مزاعم روما في السيادة، ولكن الخلافات بدأت حول تفصيلات المعتقد وتفصيلات الأعراف، وانساقت البابوية وراء رغبتها في ترسيخ سلطانها، فسعت إلى توحيد أعراف الكنيسة. ولم تتوقف رغبتها عند إلغاء زواج رجال الدين الدنيويين لأسباب سياسية وكذلك روحانية، بل بذلت مساعيها في محاولة وضع معايير للطقوس والشعائر الدينية، وهي إصلاحات ممكنة الحدوث في الغرب، لكن أعراف الكنائس الشرقية شيئ آخر، لا سيما وأن هناك كنائس يونانية تقع في النطاق الروماني كلية كما كانت هناك كنائس لاتينية في نطاق القسطنطينية، وكانت الحدود بين النطاقين في جنوب إيطاليا مثار نقاش لوقت طويل. وفي نفس

---

(١) أفضل ما كتب عموما عن العلاقات بين روما والقسطنطينية يوجد لدي Every في مؤلفه *The Bayzantine Patriarchate, Passim*

الوقت° أدى النفوذ الألماني في روما إلى إدخال كلمة (فيليوك) (١) بشأن انبعـــاث الروح القدس، وكان البابوات المهتمون بالإصلاح أقل استعدادا من أسلافهم لقبـــول الحلول الوسطى، أو للصمت في لباقة، ومن ثم لم يكن من الصدام بد.

وأورد البابا سيرجيوس الرابع كلمة (فيليوك) في خطابه بإعلان الإيمـــان الـــذي يرسل عادة من البابا أو البطريق إلى زملائه بمناسبة توليه البابوية، وعلى الأثـــر رفـــض بطريق القسطنطينية سرجيوس الثاني تخليد اسمه على اللوح التذكاري المزدوج للكنائس البطرياقية في القسطنطينية، وفهم البيزنطيون ذلك كدلالة على أن البابا نفسه لم يتبـــع سواء السبيل حول نقطة في المعتقد، وإن لم يكن ذلك طعنا في استقامة الكنيسة الغربية بكاملها. بيد أن ذلك في نظر البابا ـــ فضلا عن الكنائس الغربية الـــتي تعتـــبر البابـــا مصدرا لاستقامة المعتقد ـــ كان إهانة عامة وبعيدة الأثر وواســـعة النطـــاق. وأدرك البطريق أن وضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج يتيح له فرصة للمساومة. (٢)

وفي سنة ١٠٢٤ ميلادية تلقى البابا جون التاسع عشر اقتراحًا من القســـطنطينية بإمكان تسوية نقاط الخلاف بين الكنائس يقضي بقبول صيغة وُضعت ببراعة تمنح روما سيادة اسمية، وتترك للقسطنطينية استقلالية شاملة فعلية، وأعلنت هذه الصيغة أنه:

---

(١) (المترجم) :فيليوك : المعني الحرفي باللاتينية : " ومن الابن " ، وهي عبارة أضافتها الكنيسة اللاتينية إلي قانـــون الإيمان المسيحي في العصور الوسيطة ، وتعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي سببت الصدع بين الكنائس الشرقية والغربية .

(٢) عن هذه الواقعة أنظر،، vol. i، pp. 20-40 Michel *Humbert und Kerularios*. وهناك ما يدل علي أن كلمـــــة (فيليوك *filioque*) أدخلت علي إعلان الإيمان في رومـــا في وقـــت هنري الثاني هناك في سنة ١٠١٤م .

Berno *Libellus de Officio Missae* in *M.P.L.* vol. cxlii col. 1061-2

"بموافقة الحبر الروماني تعتبر كنيسة القسطنطينية كنيسة عالمية في نطاقها، كما كانت كنيسة روما في العالم". وكان البابا جون نفسه على استعداد للموافقة، لولا أن أسرع الراهب الكلاني، راهب سانت بنجنوس في ديجون (١) بالكتابة إليه مذكرا إياه في صرامة بأن سلطة الإلزام والإطلاق في السماء وعلى الأرض إنما يختص بها القديس بطرس وخلفاؤه دون غيرهم، وحثه على إظهار المزيد من البأس في إدارة الكنيسة العالمية. وكان على بيزنطة أن تعلم أن البابوية بعد إصلاحها لا تسمح بمثل ذلك الحل الوسط. (٢)

وفي منتصف القرن أسفر الغزو النورماندي لجنوب إيطاليا عن رغبة في تحالف سياسي بين البابا والإمبراطور الشرقي، ولكن البابوية بعد إصلاحها التزمت بسياسة وضع المعايير، ورغبت في إبطال أعراف معينة سائدة في الكنائس اليونانية في جنوب إيطاليا قلدتها كنائس إيطالية كثيرة إلى الشمال حتى ميلانو. وفي سنة ١٠٤٣ ميلادية تولى ميكائيل سيريولاريوس بطريارقية القسطنطينية، وكان رجلا طموحا متكبرا، وتواقا بنفس القدر إلى وضع معايير للأعراف داخل حدود نطاقه، وكان دافعه الرئيسي هو أن يستوعب بشكل أيسر كنائس المقاطعات الأرمينية المحتلة حديثا، والتي كانت تمارس أعرافا مختلفة، كاستخدام الخبز غير المخمر. على أن سياسته أثرت أيضا في الكنائس اللاتينية الواقعة في إيطاليا البيزنطية والكنائس اللاتينية في القسطنطينية نفسها، وانتفع بها التجار والحجاج وجنود الحرس الفارانجي. وعندما رفضت تلك الكنائس الأخيرة أن تمتثل لذلك أمر البطريق بإغلاقها، وبدأ مجلسه في إصدار كتيبات دينية تنكر أعراف اللاتينيين.

---

(١) (المترجم) : ديجون : مدينة في وسط فرنسا ناحية الشرق .

(٢) Radulph Glaber in Bouquet *R.H.F.* vol. x pp. 44-5. ليست هناك مصادر يونانية تذكر هذه المفاوضات غير أنه ليس هناك من سبب يدعو للشك في حدوثها .

صـــدع سنة ١٠٥٤ ميلادية

ويبدو أنّ سيريولاريوس لم يكن مهتمًا بالمسألة اللاهوتية، وكان على استعداد لأن يضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج في مقابل أن تكون المعاملة مع روما على قدم المساواة. وتركز الخلاف حول أعراف الكنيسة، وبذا أُثـــيرت مشكلـــة الحـــدود الكنسية في إيطاليا، وزادت حدة المشكلة بالغزو الذي قام بـــه النورمـــانديون، وهـــم أنفسهم من أتباع الكنيسة اللاتينية. وتولى حاكم إيطاليا البيزنطية المفاوضات ـــ وهـــو أرجيرس النورماندي الذي كان من أتباع بيزنطة ويدين بالشعيرة اللاتينية ـــ وقد فـــاز بثقة الإمبراطور لكنه كان من المحتم أن يرتاب فيه سيريولاريوس الذي خدمته الظروف: ففي سنة ١٠٥٣ ميلادية، وقبل تعيين السفراء الرسوليين للذهـــاب مـــن رومـــا إلى القسطنطينية، اعتقل النورمانديون البابا ليو التاســـع، وعندمـــا وصـــل ســـفراؤه إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية وعلى رأسهم الكاردينـــال هومـــبرت أوف ســـيلفا كانديرا، استقبلهم الإمبراطور بمظاهر التشريف، ولكن سيريولاريوس تساءل هل عيّنهم البابا حقًا، وهل بمقدوره وهو رهينة تنفيذ الوعود التي يقطعونها على أنفسهم؟ وقبل أن تتسع المناقشات مات ليـــو فجأة في إبريل (نيسان)، وهكذا فقد السفراء كل صفة أو مؤازرة رسمية مُنحت لهم. وانقضى عام بكامله قبل انتخاب البابا التالي، ولم يكن أحد يعلم السياسة التي سيتبعها، ورفض سيريولاريوس الاستمرار في المفاوضـــات، وعلـــى الرغم من رغبة الإمبراطور في التوصل إلى اتفاق، حميت المشاعر وانتهى الأمر بأن رحل السفراء الرسوليون وهم مغضبون وقد تركوا على مذبح القديسة صوفيا أمـــرًا بابويًـــا رسميًّا مختومًا بالرصاص بطرد البطريق ومستشاريه من الكنيسة ويعترف في نفس الوقت باستقامة الكنيسة البيزنطية. وحيال ذلك، عقد البطريق مجمعًا مقدسًا لعن فيه ذلـــك الأمر البابوي على أنه من عمل ثلاثة أشخاص غير مسئُولين، وأعرب عن أسفه لإضافة (فيليوك) إلى المذهب، وأدان زواج رجل الديـــن، لكنه لم يذكر الكنيسة الرومانيـــة

على عمومها ولا الأعراف الأخرى المختلف عليها. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك تغيير مطلقا سوى أن المرارة أطلت برأسها.

ولم تشترك كنائس الإسكندرية والقدس في هذه الحادثة، وأيقن بطريق أنطاكية بطرس الثالث أن سيريولاريوس رجل صعب المراس دون داع، واستمرت كنيسته في تخليد اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج الموجود لديها، إذ لم يجد سببا يدعوه إلى التخلي عن تلك الممارسة، وربما كان يخشى أن تكون لدى سيريولاريوس — الذي حامت الشكوك حول طموحاته — مخططات ضد استقلالية كرسيه الأسقفي، وربما كان متعاطفا مع سياسة الإمبراطور. وفضلا عن ذلك، لم يكن بوسعه أن يؤيد وضع معايير للطقوس والأعراف الكنسية؛ فكانت أبرشيته تضم كنائس تمارس فيها الطقوس السيريانية، والكثير من تلك الكنائس وراء الحدود السياسية للإمبراطورية، فلا يستطيع فرض أعراف موحدة حتى وإن رغب في ذلك؛ فانتحى بنفسه بعيدا عن الشجار. (١)

مخطط جريجوري السابع لحرب صليبية

وتحسنت العلاقات خلال العقد التالي تحسنا طفيفا؛ إذ خلع ميكائيل سيريولاريوس سنة ١٠٥٩ ميلادية، وباختفائه عادت الكنائس اللاتينية في

---

(١) فيما يتعلق بما يسمى " انشقاق" سيريولاريوس أنظر Michel, *op. cit. passim,* especially vol. 1, pp. 43-65; Jugie, *Le Schisme Byzantin,* especially pp. 187 ff .; Leib , *Rome, Kiev et Byzance,* pp. 27 ff.; Every, *op. cit.* pp. 153-72.
ويستنتج Jugie, op.cit. 188 أن البطريق كان راغبا في الإبقاء علي إسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج وذلك من خطاب ليوالتاسع إلي سيريولاريوس في *M.P.L.* vol. cxliii, cols. 773-4 ومن خطاب سيريولاريوس إلي بطرس الأنطاكي في *M.P.G.* vol. cxx, col. 784 ولابد أن يبقي الدافع لدي بطري الأنطاكي تخمينيا ، بيد أن موقفه واضح من مراسلاته مع سيريولاريوس . أنظر خطاباتهم في *M.P.G.* vol. cxx, cols. 756-820

القسطنطينية تفتح أبوابها مرة أخرى. وفي جنوب إيطاليا كان النورمانديون يحققــــون تقدما متزايدا، وهم الحلفاء المخلصون للبابوية منذ ســـنة ١٠٥٩ ميلاديـــة، ولذلـــك وجدت بيزنطة أن ممارسة الضغوط من أجل مطالبها الكنسية هناك أمر غير عملي. وفي سنة ١٠٦١ ميلادية أبحر روجر النورماندي لغزو صقلية وانتزاعها من العـــرب، فقـــد شجع البابا الحرب المقدسة. وكان على بيزنطة أيضا أن تواجه انعدام السيطرة علـــى المجامع المسيحية هناك. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية قرر الإمبراطور ميكائيل السابع ضرورة التوصل إلى تفاهم ودي مع روما ;ذلك أن الإمبراطور ـــ بعد الغزو النورماندي لباري في جنوب إيطاليا سنة ١٠٧١ ميلادية ـــ أصبح يخشى المزيد من العدوان، فربما يمنعـــه البابا بنفوذه. وبدأ غزو التركمان لآسيا الصغرى، وكان ميكائيل في مسيس الحاجة إلى الجنود، فإذا ما أصبحت العلاقة بالبابوية علاقة ودية، ففي الإمكان تجنيد الجنود مـــن الغرب بسهولة. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية تم انتخاب الكاردينال هيلد برانـــد ليشغـــل منصب البابا تحت اسم جريجوري السابع الذي كان ذائع الصيت بالفعل لما يتصف به من بأس واستقامة، وكان مقتنعا بسيادة كرسيه البابوي ولذا لم يرسل خطاب إعـــلان الإيمان لأي من بطارقة الشرق، على أن الإمبراطور ميكائيل رأى من الحصافة أن يبادر بإشارة ودية; فأرسل إليه خطاب تهنئة ألمح فيه إلى رغبته في توثيق الصلة بينهما; فمـــا كان من جريجوري الذي أسعدته تلك المبادرة إلا أن أرسل بطريق فينيسيا دومينيكس في سفارة بابوية إلى القسطنطينية ليستطلع الأحوال هناك. (١)

ومن المعلومات التي أدلى بها البطريق دومينيكس، توصـــل البابـــا جريجـــوري إلى

---

(١) See Gregory VII's letters in his *Registra*, I, 49, ii, 37 ,vol.1, pp. 70 , 75, 173 وترد زيارة Dominicus إلى القسطنطينية في نفس المرجع *ibid.* I, 18, pp. 31-2. ومن المرجح أن جريجوري فشل في إرســـال خطـــاب إلى البطارقة الشرقيين بعد توليه . أنظر Dvornik, *The Photian Schism*, pp. 327-8

إقناع نفسه بأن الإمبراطور ميكائيل رجل مخلص، كما علم بالموقف في آسيا الصغرى الذي كان يشكّل خطورة على طريق الحج. و لم تكن فلسطين نفسها قد أُغلقت بعد أمام الحجاج، لكن سرعان ما ستصبح الرحلة عبر الأناضول مستحيلة ما لم تتوقف غزوات التركمان. وبحنكة سياسية خيالية خطط جريجوري سياسة جديدة; فالحرب المقدسة التي كانت تحقق نجاحًا في إسبانيا ينبغي أن تمتد حتى آسيا، لاسيّما وأنّ أصدقاءه في بيزنطة يفتقرون إلى المساعدة العسكرية، وسوف يحارب جيشه ويدحر الكفار من آسيا الصغرى، وسوف يعقد حينئذ مجلسًا في القسطنطينية حيث يكفّ مسيحيو الشرق عن خلافاتهم وينهونها وهم صاغرون شاكرون، وسوف يعترفون بسيادة روما. (١)

ولا نعرف ما إذا كان الإمبراطور ميكائيل على علم بنوايا البابا وما إذا كان سيرحب بها. إذ لم يستطع جريجوري مطلقًا أن يضع خططه موضع التنفيذ; وقادته استقامة سياسته التي لا تلين إلى متاعب أكثر فأكثر في الغرب مما اضطره إلى أن يتخلّى عن طموحاته في الشرق وإن لم ينسها أو يفقد اهتمامه بما يجري هناك.

وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية خُلع الإمبراطور ميكائيل السابع. وما أن سمع جريجوري بالنبأ حتى حكم على الغاصب نيسفوراس بوتينياتس بالطرد من الكنيسة. وبعد ذلك بفترة قصيرة ظهر أحد المغامرين في إيطاليا وأعلن أنه هو الإمبراطور المخلوع، وادّعى النورمانديون أنهم يصدقونه لفترة من الزمن، ومدّ له جريجوري يد العون. وجاء الدور على المغتصب نيسفوراس، فأطاح به ألكسيوس كومنينوس سنة ١٠٨١ ميلادية، وامتد قرار الطرد من الكنيسة ليشمل الإمبراطور الجديد. وفي يونيه (حزيران) كتب ألكسيسوس إلى البابا في محاولة لاستعادة ودّه وطلب مساعدته في كفّ عدوان روبرت

---

(١) Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, I, 46, 49, ii, 3, 37, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. ii, pp. 64-5, 69-70, 111 112, 150-1

جيسكار، ولكن دون جدوى، ووجد في هنري الرابع الألماني حليفًا يبشر بالخير، وفي ذات الوقت أغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية. وبدا واضحًا للبيزنطيين أنّ البابا كان متحالفًا مع النورمانديين الغادرين الملحدين، وراحوا يتناقلون الحكايات الخيالية حول تكبّره وافتقاره إلى المحبة المسيحية. وعندما سقط ميتًا في شبكة الكوارث التي نسجتها سياسته تلقوا النبأ بترحاب واعتبروا ذلك حكمًا نزل عليه من السماء. (١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية، وهو العام الذي مات فيه جريجوري، كانت العلاقات بين العالم المسيحي الشرقي والغربي باردة بصورة لم تحدث أبدًا من قبل; فالبابا طرد الإمبراطور من الكنيسة، وكان يشجع المغامرين منعدمي الضمير علانية على مهاجمة رفاقهم المسيحيين، بينما كان العدو الرئيسي للبابا، وهو ملك ألمانيا، يتلقى الإعانات من البيزنطيين، فتزايدت مشاعر الاستياء والمرارة بين الجانبين، ولكن لم يكن هناك صدع حقيقي بينهما حتى ذلك الحين، وربما كانت الحنكة السياسية لا تزال تحفظ وحدة العالم المسيحي; ففي الشرق رجل دولة يمتاز بالمرونة والحكمة الكافيتين وهو الإمبراطور ألكسيوس، وتصادف أن ظهر في الغرب حينئذ رجل دولة له نفس الوزن.

تنصيب البابا إيربان الثاني

ولد أودودي لاجيري لعائلة نبيلة في شاتيلو ـــ سير ـــ مارن حوالي سنة ١٠٤٢ ميلادية، والتحق بمدرسة الكاتدرائية في ريم لتلقي العلم، وكان ناظر مدرسته القديس

---

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, iii, x, 1-8, vol. I, pp. 132-6; Malaterra, *Historia Sicula*, in *M.P.L.* vol. cxlix, 1192 وتورد أنا كومنين *op. cit.* 1, xiii, 1-10, vol. 1,pp.47-51. وصفا عدوانيا تشهيريا للخلاف بين جريجوري وهنري الرابع .

برونو الذي أصبح فيما بعد مؤسس النظام الكارثوزي (١)، وبقى في ريم ليصبح كاهنا ثم رئيسا لشمامسة الكاتدرائية، لكن ذلك لم يرضه، وفجأة قرر الاعتزال والانضمام لجماعة كلاني. وفي سنة ١٠٧٠ ميلادية تم تثبيت إيمانه على يد الراهب هيو الذي تحقق من قدراته، وبعد فترة قام فيها بأعمال رئيس الدير نقل إلى روما التي سرعان ما أصبح فيها متميزا، وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية عينه البابا جريجوري السابع (أسقفا — كاردينالا) في أوستيا، وفي الفترة من ١٠٨٢ إلى ١٠٨٥ ميلادية كان قاصدا رسوليا في فرنسا وألمانيا، ثم عاد ليبقى إلى جوار جريجوري أثناء السنوات الأخيرة التعيسة من فترة بابويته. وعلى أثر موت جريجوري، في المنفى ووجود البابا الزائف جيبرت يحكم في روما، انتخب الكرادلة المخلصون للكرسي البابوي راهب مونت كاسينو الضعيف الذي كان عازفا عن المنصب والذي اتخذ لنفسه اسم فيكتور الثالث. ولم يوافق كاردينال أوستيا على هذا الانتخاب وأظهر عدم موافقته، ولكن فيكتور لم يضمر له شرا، بل أنه وهو على فراش الموت في سبتمبر (أيلول) ١٠٨٧ ميلادية أوصى به لدى الكرادلة كخليفة له، كما كان معروفا أن جريجوري السابع قد رغب هو الآخر في استخلافه، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى مارس (آذار) ١٠٨٨ ميلادية عندما أمكن عقد مجمع مقدس في تيراسينا لانتخابه تحت اسم إيربان الثاني. (٢)

كان إيربان مناسبا لمهمته؛ فكان يترك انطباعا مؤثرا في غيره، طويل القامة مليح الوجه واللحية، دمث الخلق، مقنع في حديثه. وإذا كان يفتقد ما كان يتميز به

---

(١) (المترجم) : نظام ديني للرهبان ، لعب دورا هاما في حركة إصلاح الرهبنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يجمع بين حياة الناسك في عزلته والحياة العامة داخل أسوار الدير وهو الشكل الوحيد ، لحياة دينية ذات صبغة اجتماعية بسيطة ، ولم يتطلب أي إصلاح مطلقا .

(٢) عن سيرة حياة إيربان المبكرة أنظر Leib, *op. cit.* pp. 1-4, and Gay, *Les Popes du Xie siècle*, pp. 356-8

جريجوري من حماس ووضوح الهدف، فقد فاقه في سعة النظرة والقدرة على معاملة الرجال، و لم يكن بنفس تكبّر جريجوري وعناده، لكنه لم يكن ضعيفًا. ولقد عانى السَّجن في ألمانيا عندما سجنه هنري الرابع لإخلاصه للبابا ولمعتقداته، وكان بوسعه أن يكون صارمًا قاسيًا، لكنه فضّل أن يكون لطيفًا وأن يتجنب الجدل الذي قد يثير المرارة والصراع.

وقد آلت إليه تركة ثقيلة; فهو لا يستطيع أن يعيش آمنًا إلاّ في الأراضي النورماندية دون غيرها، لكن النورمانديين حلفاء أنانيون لا يعتمد عليهم، وروما في قبضة البابا الزائف جيبرت، فكان بوسع إيربان أن يتغلغل في الضواحي لكنه لا يستطيع أن يجاوزها دون إراقة الدماء، وهذا ما رفض إثارته. وفي الشمال ساندته ماتيلدا أوف توسكاني مساندة مخلصة في سائر أنحاء أراضيها المترامية، وفي سنة ١٠٨٩ ميلادية عززت مركزها بزواج عابث من الأمير الألماني ويلف أوف بافاريا، وهو صبي يصغرها بأكثر من نصف عمرها. على أنه في عام ١٠٩١ ميلادية هزم هنري الألماني جيشها هزيمة منكرة في موقعة تريزونتاي، وكان هنري في أوج قوته بعد أن توّجَه البابا الزائف إمبراطوراً في سنة ١٠٨٤ ميلادية، فصار الآن سيد ألمانيا والظافر في شمال إيطاليا. و لم يكن في مأمول البابا إيربان أن يأمر فيطاع في تلك الأراضي الشاسعة وهو في ذلك الوضع غير المأمون.

على أنّ إيربان واصل العمل بثبات ولباقة إلى أن تغير كل شيء سنة ١٠٩٣ ميلادية; إذ تمكّن بالمال وليس بالسلاح أن يقضي عيد الميلاد من ذلك العام في روما، وفي الربيع التالي اتخذ لاتيران (١) مقرًا لإقامته. وضعف الإمبراطور هنري من جرّاء تمرد ابنه كونراد الذي كان إيربان يشجع سخطه تشجيعًا هادئًا، وأما نجاحه في موطنه

---

(١) (المترجم) : لاتيران : كنيسة القديس "جون لاتيران " وكتدرائية البابا باعتباره أسقف روما وملحق بها القصر الذي أصبح الأن متحفا .

فرنسا فيرجع إلى ملكاته التنظيمية في جمع الهيكل الكنسي كله تحت سـيطرته، وبلـغ نفوذه في إسبانيا ذروته، وشيئًا فشيئًا توالى اعتراف بلاد الغـرب البعيـدة بسـلطانه الروحاني. ونبذ الإصرار على المطالبة بالسيادة السياسية التي نادى بها جريجوري السابع من قبل، وأظهر للأمراء الدنيويين المنتشرين في كل مكان، باسـتثناء مـن جـاهروه بالعداء، حلما بالغ المدى. وفي سنة ١٠٩٥ ميلادية أصبح السـيد الروحـاني للعـالم المسيحي الغربي. (١)

وفي تلك الأثناء حوّل انتباهه إلى العالم المسيحي الشرقي. وبعد أن مات روبـرت جيسكار برز أخوه روجر الصقليّ معلنًا أنه القوة الرئيسية للنورمـانديين، ولم يكـن يرغب في الإساءة إلى بيزنطة أكثر من ذلك. واستغل إيربان انعقاد مؤتمـر ملفـي في سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٨٩ ميلادية — وحضور سفراء الإمبراطور — فرفـع إعـلان الطرد من الكنيسة الصادر ضد الإمبراطور ألكسيوس. واستجاب ألكسيوس لهذه اللفتة بأن عقد في نفس الشهر مجمعًا في القسطنطينية انتهى إلى أنّ اسم البابا حُذف من اللوح التذكاري المزدوج "دون صدور قرار كنسي وإنّما، كما قيل، نتيجة الإهمال"، واقترح في هذا المجمع إعادة وضع الاسم بمجرد استلام خطاب إعلان الإيمان من البابا. واعتـبر المجمع أنه ليس ثمة سبب حقيقي لأي خلاف بين الكنائس، وأوصى باستشارة بطريارقي الإسكندرية والقدس، وأما بطريق أنطاكية فكان حاضرًا بنفسـه. وكتـب بطريـق القسطنطينية نيكولاس الثالث إلى إيربان يخبره بتلك القرارات ويرجوه إرسال خطـاب إعلان الإيمان في غضون ثمانية عشر شهرًا، وأكد لـه حريـة الكنـائس اللاتينيـة في القسطنطينية في ممارسة أعرافها، ولم يذكر له أية خلافات لاهوتية. ولم يلق ذلك قبولاً حسنًا من سفراء الإمبراطور في إيطاليا وهم: بازل مطران تراني، وروماـنوس رئيـس أساقفة روسانو، ورجال الدين اليونانيين الذين شعروا بالخطر من التعدي البابوي داخل

---

(١) Gay, *op. cit.* pp. 358-63

أراضيهم، وقد صدمتهم ادعاءات البابا بأن أسقفيته ــ ببعض المــبررات التاريخيــة ــ يجب أن تشمل في الواقع ثيسالونيكا، وكانوا يفضلون لو أن أليكسيوس ســاند البابــا الزائف. لكن أليكسيوس استقر رأيه على تفضيل أحد الرجلين، وكان مــن الواقعيــة بحيث قبل ضياع الجزء البيزنطي في إيطاليا، بينما أسرع جيبرت ــ البابــا الزائــف ــ بالإساءة إلى أصدقائه اليونانيين بأن عقد مجلسا في روما أدان فيه زواج رجل الدين. (١)

وفي واقع الأمر أن إيربان لم يرسل خطاب إعلان الإيمان في أيه حال، وربما كان مرجع ذلك إلى عزوفه عن إثارة أية مسائل لاهوتية؛ كما لم يرد اسمه مطلقًا في اللــوح التذكاري المزدوج في القسطنطينية. ولكن العلاقات الحسنة بقيت. وفي ســنة ١٠٩٠ ميلادية أرسل ألكسيوس سفارة إلى إيربان تحمل رسالة صداقة وديّة. وتنعكس وجهة نظر بيزنطة الرسمية في مقال كتبه ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا، رجا فيه القراء ألاّ يبالغوا في أهمية توحيد الأعراف الكنسية، وتأسى على إضافة كلمة فيليوك إلى قــانون الإيمان المسيحي، لكنه فسّر أن الفقر الذي تعانيه اللغــة اللاتينيــة في المصطلحــات اللاهوتية خليق بأن يسبب سوء الفهم، و لم يتناول بشكل جدي الادعاء البابوي بفرض السلطة على الكنائس الشرقية (٢). و لم يكن هناك في حقيقة الأمر أي سبب يدعو إلى

---

(١) يرد تقرير المجمع مع الرسائل ذات الصلة في :
Holtzmann, ' Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089 ', in *Byzantinische Zeitshrift,* vol. xxviii, pp. 60-7.
والصياغة المتصلة بما توصل إيه المجمع المقتبسة أعلاه لا بد أن تعني أن البطريق Sergius II تصرف سنة ١٠٠٩م دون إحالــة الموضــوع إلــي المجمــع أو اســتشارة رفــاقة البطارقــة . وعن مجلس Loewenfeld, Guibert *Regesta,* vol.- Jaffé 1.p. 652

(٢) عــن تقريــر سفــارة أليكســيرس إلــس إيربان أنظر-in Holtzmann,*op.cit.* pp.64
phylact's treatise is published M.P.G. vol. cxxvi, cols. 222-50

أن يتطور الصدع، واستمر لاهوتيون شرقيون آخرون في مناقشة الفروق بين الأعراف بنبرة هادئة. ومن بين هؤلاء الكتاب بطريق القـــدس ســـيميون الثـــاني الـــذي أدان الاستخدام اللاتيني للخبز غير المخمر في تناول العشاء الرباني، ولكن بألفاظ لا تشوبها الحدة بأي حال. (١)

المجلس الكنسي في بياتشترا

وفي أوائل سنة ١٠٩٥ ميلادية ارتحل البابا إيربان الثاني من روما باتجاه الشمال، واستدعى ممثلي جميع الكنائس الغربية لمقابلته في المحفل العظيم الأول لبابويته الذي قرر عقده في مارس آذار في بياتشترا. وفي المحفل أصدر رجال الدين المؤتمرون قرارات تدين السيمونية (٢)، وزواج الكاهن، وتعارض الصدع داخل الكنيسة، كما ناقشوا ما اقترفه ملك فرنسا من الزنا ولكن تقرر عدم اتخاذ أي إجراء حتى يتمكن إيربان مـــن زيـــارة فرنسا بنفسه. وجاء رسل من كونراد ــ إبن الإمبراطور هنري ــ لترتيب لقائه مـــع البابا في كريمونا، وجاءت الإمبراطورة زوجة هنري بنفسها ــ براكسيديس الروســـية ومن بيت اسكندنافي حكم في كييف ــ لتشكو المهانات التي عانتها من زوجها. وكان المحفل بمثابة المحكمة العليا للعالم المسيحي الغربي والبابا بمثابة رئيس للقضاة.

---

(١) Symeon's treatise is published by Leib, *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*, pp. 85-107 ويرتاب Leib في أصالة رسالة Symeon إذ يبدوا أن هذا الرسالـــة تقابل رسالة أخري كتبها Bruno of Segni حوالي سنة ١١٠٨م . غير أين Michel, *Amalfi und Jersalem im griechischen Kirchenstreit* ويظهر أن الرسالة تقابـــل رسالة أخـــري كتبها من يدعي Laycus ينتحلها برونو .

(٢) (المترجم) السيمونية : بيع المناصب الكهنوتية أو شراؤها .

وكان من بين الحضور في المجلس مبعوثو الإمبراطور ألكسيوس الذي كانت حروبه مع الأتراك تحقق نجاحًا بالنظر إلى التدهور الواضح في القوة السلجوقيّة، وما هي إلاّ حملات قليلة محكمة التوقيت وينهزم السلاجقة إلى الأبد. ولكن إمبراطوريته تفتقر إلى الجنود، و لم تكن أماكن تجنيد الجنود في الأناضول منتظمة كما كانت من قبل وقد ضاع الكثير منها؛ ولذا كان أليكسيوس يعتمد بدرجة كبيرة على المرتزقة الأجانب وعلى فصائل تتألف من البتشنج، وقبائل أخرى من السهول استخدمها أساسًا كحرس للحدود وكشرطة عسكرية، والحرس الفارنجي الذي يتألف أساسًا من الأنجلوساكسون الهاربين من إنجلترا النورماندية، وجماعات من مغامري الغرب الذين التحقوا بالخدمة في جيشه بشكل مؤقت، وكان أبرز هؤلاء جميعًا هو الكونت روبرت الأول من فلاندرز الذي حارب من أجله سنة ١٠٩٠ ميلادية. وبرغم قدرة الإمبراطور على تجنيد الجنود من مواطنيه، كانت احتياجاته لا تزال تطلب المزيد؛ إذ كان عليه أن يحرس حدود الدانوب الطويلة من هجمات برابرة الشمال، وفي الشمال الغربي كان الصربيون متململين. ونادرًا ما يهدأ رعاياه البلغاريون لفترة طويلة، ودائمًا ما كان خطر العدوان النورماندي يتهدده من إيطاليا. وأما في آسيا الصغرى فإن الدفاع عن الحدود غير المحددة بدقة، وعن ثغورها، والحفاظ على النظام العام، والمواصلات، استنفد ما تبقى له من موارد. فإذا كان له أن يأخذ زمام المُبادأة فليس هناك بد من تجنيد المزيد من الجنود. ولسوف تثمر سياسته تجاه البابويّة إذا تمكن من استخدام النفوذ البابوي لكي يجد له هؤلاء الجنود. وكان إيربان متعاطفًا؛ وكان البرنامج البابوي يشمل تحريض فرسان الغرب المشاكسين على استخدام فصائل جنودهم في قضية بعيدة وأكثر قداسة. ودُعي السفراء البيزنطيون لمخاطبة المؤتمر.

وليس لدينا ما ألقوه من خطب. ولكن يبدو أنهم لكي يقنعوا سامعيهم بأنّ الخدمة مع الإمبراطور جديرة بالتقدير ركّزوا تركيزًا خاصًّا على الصعاب التي يعانيها مسيحيّو الشرق إلى أن يتم طرد الكفرة. وإذا كان على الكنيسة أن تقوم بتشجيع

تجنيد الجنود، فإن عرضها للأجور العالية وحدها لم يكن كافيا، وكان عليها أن تلجـــأ إلى الحجة الأقوى التي تتمثل في استثارة الواجب الديني. ولم تكن تلك اللحظة هي التي يمكن فيها تقييم منجزات بيزنطة تقييما دقيقا، وإنما كان لابد من أن يرجع الأســـاقفة إلى أوطانهم وقد أدخل في روعهم أن سلامة العالم المسيحي ما تزال مهددة، ومـــن ثم يكونون تواقين إلى إرسال أفراد من رعاياهم إلى الشرق لينضموا إلى الجيش المسيحي.

وتأثر الأساقفة، وكذلك البابا. فعندما كان في طريقه إلى كريمونا ليلقى تبجيـــل كونراد الصغير، وبينما هو يعبر ممرات جبال الألب إلى فرنسا، راح يقلـــب في ذهنـــه مخططا أوسع وأمجد، متخيلا حربا مقدسة. (١)

(١) Bernold of Constance, ad ann. 1095, p. 161; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vol. v, pt. 1, pp. 394-5 . See also Munrio in *American Historical Review,* vol. xxvii, pp. 731-3

الفصل الثالث :

الدعـــــوة

الدعـــــوة

"اسمَعُوا لي يَا أَشِدَّاءَ القُلوبِ البَعِيدِينَ
عَنِ البِرِّ".

(إشعياء: ٤٦ ـــ ١٢)

وصل البابا إيربان إلى فرنسا في أواخر صيف ١٠٩٥ ميلادية، وفي الخامس من أغسطس (آب) كان في فالينس، وفي الحادي عشر وصل إلى لوبوى، ومن هناك أرسل رسائل إلى أساقفة فرنسا والأراضي المجاورة طالبا منهم مقابلته في كليرمونت في نوفمبر (تشرين الثاني) . وفي تلك الأثناء اتجه جنوبا لقضاء سبتمبر (أيلول) في إقليم بروفانس، في أفينون وسانت جيل، وفي أوائل أكتوبر (تشرين أول) كان في ليون، ومن هنـــاك

واصل رحلته إلى برجاندي. وفي ٢٥ من نفس الشهر كان في كَلاني حيث أضفى القداسة على مذبح الكاتدرائية الكبيرة التي كان الراهب هيو قد بدأ بناءها، ومن كَلاني ذهب إلى سوفيني بالقرب من مولان لتبجيل مقبرة القديس مايولويس أقدس رهبان كَلاني، وهناك لحق به أسقف كليرمونت لمرافقته إلى مدينته الأسقفية استعداداً للمؤتمر. (١)

وكان إيربان أثناء ترحاله منشغلاً بشؤون الكنيسة في فرنسا، ينظم ويصحح، ويمدح ويؤنب، بحسب ما تقضي به الأحوال، ولكن ترحاله مكّنه أيضًا من متابعة مخططه. ولا نعرف ما إذا كان قد قابل وهو في الجنوب ريموند أوف سانت جيل، كونت تولوز، ومركيز إقليم بروفانس، الذي ذاعت شهرته لقيادته الحرب المقدسة في إسبانيا، لكنه كان على اتصال به ولابد أنه سمع بخبراته. وكان أهل كَلاني من المهتمين بطريق الحج إلى كومبوستيللا أو إلى القدس على السواء، وأخبروه بالصعاب القاهرة التي يعانيها الحجاج الآن مع تفسخ السلطة التركيّة هناك، وعلم أنّ الطرق عبر آسيا الصغرى ليست مغلقة وحسب، بل أنّ الأراضي المقدسة هي الأخرى موصدة بالفعل.

مؤتمر كليرمونت

وانعقد مؤتمر كليرمونت من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٠٩٥ ميلادية، وحضر حوالي ثلاثمائة من رجال الدين، وشملت أعمال المؤتمر نطاقًا واسعًا؛ وبوجه عام تكررت المراسيم التي تحظر الاحتفالات بتقليد المناصب الدنيوية، والتي تدين السيمونية

---

(١) عن تحركات إيربان ، أنظر Gay, *op. cit.* pp. 369-72; Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 19-22

وزواج رجال الدين، وناصر المؤتمرون هدنة الرب (١)؛ وبوجه خاص، طـرد الملـك فيليب من الكنيسة بسبب الزنا وأسقف كامبراي بسبب السيمونية، وتأسست سـيادة كرسي ليون الأسقفي على الكراسي الأسقفية في سيـن وريـم (٢) . على أنّ البابـا كان يرغب في استغلال تلك المناسبة لهدف أخطر؛ فأعلن عن عقد اجتماع عام في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ليذيع إعلانًا هامًا؛ فكانت الحشود من رجال الدين والعوام التي تجمعت من الضخامة بحيث لم تسعها الكاتدرائية التي انعقد فيها المؤتمر، لذا وُضع العرش البابويّ على منصة في الخلاء خارج البوابة الشرقية للمدينة، وهناك، وبعد أن تجمعت الحشود، نهض إيربان على قدميه لمخاطبتها.

ولقد دون لنا كلمات البابا أربعة مؤرخين معاصرين له. ويزعم أحدهم، وهـو روبرت الراهب أنه شهد الاجتماع، وجاءت رواية كل من بودري أوف دول وفولشر أوف تشارتر كما لو كانا حاضرين الاجتماع، وأما الرابع جيـبرت أوف نوجنـت فيحتمل أن يكون قد نقل روايته عن غيره، لكن لم يدّع أحد منهم بأنه يسرد سـردًا لفظيًّا دقيقًا، وكتب كل منهم تاريخه بعد ذلك بسنوات قلائل، ولوّن روايته على ضوء الأحداث التي تلت، وليس بوسعنا أن نعرف حقيقة ما قاله إيربـان إلاّ علـى وجـه التقريب. ويبدو أنه قد بدأ خطبته بأن أخبر سامعيه بضرورة مسـاعدة إخوانهـم في الشرق، فالعالم المسيحي الشرقي يستغيث من أجل المساعدة، والأتراك يتقدمـون إلى قلب الأراضي المسيحية، ويُسيئون إلى السكان، ويستبيحون مزاراتهم المقدسة. ولكـن حديثه لم يكن منصبًا على بيزنطة وحسب، وإنّما ركّز على القداسة الخاصة للقدس،

---

(١) (المترجم) هدنة الرب ، أو الهدنة الإلهية : وقف الحرب أو العداوات الخاصة في أيام معينة تحتفل بها الكنيسة .

(٢) Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v, pt. 1, pp. 399-403; Mansi, *Concilia,* vol. xx, pp. 695-6, 815 ff.

ووصف ألوان المعاناة التي يعانيها الحجاج في سفرهم إلى هناك. وبعد أن رسم تلك اللوحة الكئيبة أعلن مناشدته العظمى: "فليهب العالم المسيحي الغربي لإنقاذ الشرق، يجب أن يذهب الغني والفقير على السواء، وينبغي لهم أن يكفّوا عن ذبح بعضهم البعض، وأن يحاربوا بدلاً من ذلك حربًا مقدسة فيكونوا بذلك فاعلين عمل الرب، وسوف يقودهم الرب، ومن يمت في المعركة يفزْ بالغفران ومحو الذنوب، وما الحياة على الأرض إلاّ حياة البؤس والشر، يُرهق الناس أنفسهم فيحصدوا دمار أبدانهم وأرواحهم، هنا الناس فقراء تعساء، وهناك متمتعون مزدهرون، وأصدقاء الرب بحق، ولا ينبغي أن يكون هناك تأخير، فليكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق عندما يحل الصيف، وسيكون الرب مرشدهم." (١)

وتحدث إيربان بحمية وبكل فنون الخطيب البارع، وكانت الاستجابة فورية وهائلة; فكم من مرة يقاطع الناس الخطبة بصرخات: "الرب يشاؤها!". وقبل أن ينهي

---

(١) أورد خطبة إيربان خمسة من المؤرخين :

Fulcher of Chartres, 1, iii, pp. 130-8; Robert the Monk, 1, i-ii, pp. 727-9; Budri, Historia Jezosolimitanan, 1, iv, pp. 12-15; Guibert of Nogent, II, iv, pp. 137- 40; and William of Malmesbury, *Gesta Regum,* vol. II, pp. 393-8.

وكان وليم قد كتب بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة ؛ أما الأربعة الباقون فقد كتبوا كما لو كانوا حاضري الخطبة ، ويدعي Baudri في الواقع أنه كان هناك قطعا . لكن كلا من Baudri و Guibert يعترف بأن النص الخاص به ربما لم يكن صحيحا تماما . وتختلف النصوص الأربعة اختلافا كبيرا . ويحلل Munro في مؤلفه " خطبة البابا إيربان الثاني في كلير مونت " The Speech of Pope Urban II at Clermont الوارد في *American Historical Review,* Vol. xi, pp. 231 ff. الإختلافات بين النصوص ويأمل أن يجد النص الفعلي عن طريق تجميع النقاط التي يتفق عليها هؤلاء المؤرخون.غير أنه من الواضح أن كل مؤرخ كتب الخطبة التي ظن أن البابا لابد وأن ألقاها وأضاف إليها أفانينه البلاغية التي يفضلها.

البابا كلماته أو يكاد، نهض أسقف لوبوي من مقعده، وركع أمام العـــرش متوســـلا السماح له بالانضمام إلى الحملة المقدسة، وتزاحم المئات ليحذوا حـــذوه، ثم ركـــع الكاردينال جريجوري وردد بصوت مرتفع صلاة الاعتراف، ورددها وراءه الحشـــود المحتشدة، وعندما انتهت الصلاة نهض إيربان مرة أخرى ونطق بـــالغفران الكنســي، وطلب من الحاضرين الانصراف. (١)

وفاق الحماس كل توقعات إيربان. ولم تكن خططه لتوجيه ذلك الحمـــاس قـــد اكتملت بعد، ولم يكن أحد من كبار القوم حاضرا في كليرمونت، إذ كان الحـــاضرون كلهم من بسطاء الناس، ومن الضروري ضمان مساندة دنيوية أكثر صلابة. وفي الوقت نفسه جمع إيربان أساقفته مرة أخرى لإجراء مزيد من المشـــاورات. وأصـــدر المؤتمـــر بالفعل مرسوما عاما، ربما بناء على طلبه، بالعفو عن الجزاءات الدنيوية لكل من تتوفـــر لديه النوايا الورعة للاشتراك في الحرب المقدسة. وأضيف إلى ذلك وضـــع المتعلقـــات الدنيوية للمشتركين تحت حماية الكنيسة أثناء غيبتهم في الحرب، فيكون الأسقف المحلي مسئولا عن حفظها وإعادتها سليمة إلى المحارب حال عودته إلى الوطن. وينبغي لكـــل من يشترك في الحملة أن يضع علامة الصليب كرمز لتفانيه، على أن يكون الصليب من مادة حمراء تحاك على كتف معطفه، وينبغي لكل من يأخذ الصليب أن يقســم علـــى الذهاب إلى القدس، فإذا ما تعجل العودة، أو فشل في القيام بالرحلة، يكون مصـــيره الطرد من الكنيسة. وأما رجال الدين والرهبان فلا يأخذون الصليـــب دون إذن مـــن أسقفهم أو راهبهم الذي يرأسهم، ويتعين تثبيط همة كبـــار الســـن والضعفـــاء عـــن الانضمام إلى الحملة، ولا يجب أن يذهب أحد مطلقا دون الرجـــوع إلى مســـتشاره الروحاني. ولن تكون الحرب مقصورة على الغزو؛ ففي كل المدن التي يتم الاســـتيلاء عليها من الكفرة يتعين استعادة حقوق الكنائس الشرقيـــة وممتلكاتها، وينبغي لكـــل

---

(١) Robert the Monk. I ii-iii, pp. 15-16; Baudri, I, v, p. 15.

مشترك أن يتأهب لمغادرة منزله بحلول عيد الصعود (١٥ أغسطس/آب) من العام التالي بعد جمع الحصاد، ويجب أن تتجمع الجيوش في القسطنطينية. (١)

تنظيم الحملة الصليبية

وكانت الخطوات التالية هي ضرورة تعيين قائد للحملة، وأراد إيربان أن يوضح أنّ الحملة تحت سيطرة الكنيسة، ويجب أن يكون رئيسها كنسيًّا ــ قاصده الرسولي ــ وعيّن أسقف لوبوي رئيسًا للحملة بإجماع المجلس.

وينتمي أسقف لوبوي، وهو أديمار دي مونتي إلى أسرة كونتات فالنتنوا، وهو رجل متوسط العمر، سبق له الحج إلى القدس قبل ذلك بتسع سنين، وقد فاز بقيادة الحملة لأنه كان أول من لبّى نداء إيربان، على أنه نظرًا إلى استضافته لإيربان من قبل في لوبوي في أغسطس (آب)، فلابد وأن يكون قد حادثه هناك عن الشؤون الشرقية، وعلى ذلك من الممكن ألاّ تكون حركة المبادرة لتلبية نداء إيربان تلقائية تمامًا. ولقد كان تعيينه قائدًا للحملة تعيينًا حكيمًا; إذ أثبتت الأحداث التي تلت أنه واعظ بارع، ودبلوماسي لبق، وواسع الأفق وهادئ وشفوق، ورجل يحترمه الجميع، يسعى إلى الإقناع بدلاً من إصدار الأوامر. وقد استعمل نفوذه بشكل لا يعرف الكلل في كبح الأهواء وبث الحماس، على أنّ نفوذه هذا لم يكن دائمًا من الثبات بحيث يؤثّر في

---

(١) القرارات الكنسية لمجمع كلير مونت يوردها Lambert of Arras في Mansi, *Concilia*, vol. xx, pp. 815-20 ولا يتعلق بالحملة الصليبية بصورة مباشرة سوى القرار الأخير الثالث والثلاثين ، وعلى الرغم من أن Gratian ينسبه إلى المجمع فهو غير موجود في قرارات مجمع Rouen الذي استنسخ قرارات مجمع كلير مونت . أنظر: Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v. p. 339. ويحلل Chalandon, *op. cit.* pp. 44-6 ترتيبات البابا من شتى المصادر التي تعتبر مشوشة نوعاً ما .

وجهاء القوم الذين كانوا يتبعونه من الناحية الاسمّية فقط. (١)

وكان أول الوجهاء الذين طلبوا الاشتراك في الحملة هو الكونـــت ريمونـــد أوف تولوز، ففي أول ديسمبر (كانون الأول)، وأثناء وجود إيربان في كليرمونت، جاءتـــه الرسل تخبره بأن الكونت وكثيرا من نبلائه تواقون لأخذ الصليب، ولم يكـــن ريمونـــد الذي كان في تولوز، قد سمع بأنباء الخطاب العظيم في كليرمونت، فلابد وأن يكون قد علم به قبل وصول الرسل، ولأنه كان أول من علم بالمشروع، وأول من أقسم القسم، فقد رأي ضرورة توليه القيادة الدنيوية على اللوردات العظام الآخرين، فأراد أن يكون هو موسى وأديمار هو هارون. ولم يكن إيربان ليقبل ذلك الادعاء، لكـــن ريمونـــد لم يتخل عنه البتة، وفي ذات الوقت خطط للتعاون المخلص مع أديمار.

وفي الثاني من ديسمبر (كانون الأول) غادر إيربان كليرمونت. وبعد زيارته لشتى بيوت كلاني أمضى عيد الميلاد في ليموج حيث قام بالتبشـــير بـــالحرب الصليبيـــة في الكاتدرائية، ثم مضى شمالا خلال بواتييه إلى وادي اللوار، وفي مارس (آذار) وصل إلى تور حيث عقد مجلسا، وفي يوم من أيام الأحد دعا إلى عقد مجمع لمقابلته في ناحية من الأراضي الخضراء على ضفاف النهر، ومن فوق منصة متواضعة ألقى موعظة طويلـــة وقورة حاضا مستمعيه على التوبة والذهاب إلى الحرب الصليبية، ومن تور تحول جنوبا مرة أخرى خلال أكيتان مارا بمدينتي سينت وبوردو إلى تولوز التي كانت مقر رئاسته في مايو (أيار) ويونيه (حزيران)، وأُتيحت له مناسبات عديدة لمناقشة الحرب الصليبية مع مضيِّفه الكونت ريموند، وفي وقت متأخر من يونيه (حزيـــران) ، انتقـــل إلـــى

---

(١) Robert the Monk, I, iv, p. 731; Guibert, II, v, p. 140 وعـــن تـــاريخ Adhemar السابق أنظر النصوص المجمعة في Chevalier, *Cartulaire de Saint-Chaffre*, pp. 13-14, 139, 161-3

بروفانس، ورافقه ريموند في رحلته إلى نيم.

إيربان يعود إلى إيطاليا

وفي شهر أغسطس (آب) عبر البابا جبال الألب مرة أخرى إلى لومبـــاردي، و لم تكن رحلته لقضاء عطلة; إذ أمضى الوقت كله في مقابلات مع رجال الكنيســـة، وفي كتابة الرسائل، ساعيا لإتمام تنظيم الكنيسة في فرنسا، وفوق كل ذلك واصل خططه من أجل الحملة الصليبية، وأرسل إلى كل أساقفة الغرب رسائل مجمعية بالقرارات الـــتي تم اتخاذها في كليرمونت. وفي بعض الحالات عقدت مجالس إقليمية لاستلام تلك الرسائل والنظر فيما يمكن عمله على المستوى المحلي، ومن المحتمل أن تكون القـــوى الدنيويـــة الرئيسية قد أخطرت هي الأخرى برغبات البابا (١). وفي نهاية ســـنة ١٠٩٥ ميلاديـــة كتب إيربان من ليموج إلى جميع المخلصين في فلاندرز مشـــيرًا إلى قـــرارات مؤتمـــر كليرمونت، وطالبًا مؤازرتهم،(٢) وكانت الاستجابة التي أتته من فلاندرز والأراضـــي المجاورة باعثة على الرضا الكامل. وفي يوليه (تموز) سنة ١٠٩٦ ميلادية تلقى وهـــو في نيم رسالة من الملك فيليب يعلن فيها خضوعه التام في مسألة الزنـــا الـــذي اقترفـــه ،

---

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, IX, 3, vol. III, p. 470;, *Inventaire*, p. 109 ويقتبس Riant, op. cit. p. 113 نصا كتب في القرن السادس عشر ، يرتكز علي مستند ما ضائع فيما يبدو ، يخبر فيه البابا عوام اللوردات برغباته . وترد تحركاته بالتفصيل لدي Crozet في مؤلفه Le Voyage d'Urbain II', in *Revue Historique*, vol. CLXXIX, pp. 271-310 '.

(٢) يرد الخطاب في Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 136-7 وفـــي هـــذا الخطاب يحدد إيربان الخامس عشر من أغسطس تاريخا لرحيل الحملة الصليبية .

وربما أخبره كذلك بانضمام أخيه هيو أوف فرماندوا للحملة الصليبية.(١) وفي نفس الشهر برهن ريموند أوف تولوز على صدق نواياه بتنازله عن الكثير من ممتلكاته لدير سانت جيل.(٢) وربما بناء على نصيحة ريموند قرر إيربان الاستعانة بقوة بحرية للمحافظة على إمدادات الحملة؛ فذهب قاصدان رسوليان برسائل إلى جمهورية جنوا طلبا لتعاونها، ووافقت الجمهورية على تقديم اثني عشر قادسا(٣)، وكذا تقديم تسهيلات النقل، لكنها توخت الحذر وأرسلتها متأخرة إلى أن تيقنت من مدى جدية حركة الحرب الصليبية، ولم يبحر ذلك الأسطول من جنوا إلا في سنة ١٠٩٧ ميلادية، وفي نفس الوقت انضم كثيرون من أهل جنوا وأخذوا الصليب.(٤)

وعند عودة إيربان إلى إيطاليا تأكد من نجاح مخططه؛ فقد قوبلت نداءاته بطاعة وحماس، وأسرع الرجال من كل مكان بعيد كبعد إسكتلندا والدانمرك وإسبانيا إلى أخذ العهد، ورهن البعض ممتلكاتهم وأراضيهم للحصول على المال اللازم للرحلة، ووهب البعض كل ممتلكاتهم للكنيسة لتوقعهم عدم العودة مطلقا، وانضم عدد كبير من عظام النبلاء إلى الحملة الصليبية ليوفروا لها مساندة عسكرية هائلة؛ فبالإضافة إلى ريموند أوف تولوز، وهيو أوف فيرماندوا، كان روبرت الثاني) أوف فلاندرز)، وروبرت دوق نورماندي، وستيفن زوج أخته، وكونت بلوا، يعدون العدة للانطلاق، والملفت للنظر على نحو أكبر انضمام رجال يدينون بالولاء للإمبراطور هنري الرابع . وكانت الشخصية الرئيسية من بين هؤلاء هي جودفري أوف بويلون دوق

---

(١) Jaffé-Loewenfeld, *Regesta*, vol. 1, p. 688 لم يفي Philip بوعده بالتوبة .

(٢) .Document given in d'Achéry, *Spicilegium*, 2nd ed. Vol. 1, p. 630 , and *Mansi, Concilia*, vol.xx, p.938

(٣) *Caffaro, De Liberatione*, pp. 49-50

(٤) (المترجم) ، القادس : نوع من السفن القديمة التي تبحر بالشراع والمجاديف

اللورين الأسفل الذي أخذ الصليب مع أخويـــه إيوســـتاس ــ كونـــت بولونيـــا ــ وبالدوين. والتف حول هؤلاء القادة كثير من النبلاء الأقل مترلة، والقليل من رجـــال الكنيسة البارزين مثل أسقف بايو.(١)

ووجد إيربان في إيطاليا تحمسًا مماثلاً. ففي سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٩٦ ميلاديـــة كتب إلى مدينة بولونيا شاكرًا مواطنيها على حماسهم، وحذرهـــم مـــن الارتحـــال إلى الشرق دون الحصول على إذن من قساوستهم، كما لا ينبغي للمـــتزوجين حديثًـــا أن يرحلوا دون موافقة زوجاتهم. وفي تلك الأثناء وصلت أخبار الحملة إلى جنوب إيطاليا، فرحب بها كثير من النورمانديين ترحيبًا حارًا، فقد كانوا دائمًا متأهبين ليبدءوا مغامرة جديدة. وفي أول الأمر تمهّل الأمراء، ولكن بوهيموند إبن جيسكار وأمير تـــارانتو ــ وقد أحبط أخوه روجر بورصا وعمّه روجر الصقليّ طموحاته في إيطاليا ــ سرعان ما تحقق من الإمكانيات التي ستفتحها له الحرب الصليبية، فأخذ الصليب مع كثيرين من عائلته وأصدقائه، وجلب اشتراكهم في الحركة العديد من أكثر الجنود تمرسا وإقداما في أوروبا. وعندما عاد إيربان إلى روما في احتفالات أعياد الميلاد سنة ١٠٩٦ ميلاديـــة كان يشعر شعور اليقين بأن الحرب الصليبية قد شنت بالفعل. (٢)

وحقيقة الأمر أن إيربان أطلق العنان لحركة أضخم مما كان يتصور. وربما كـــان من الأفضل لو استجاب لندائه عدد أقل من عظماء اللوردات; فبرغم أن الحمية الدينية الأصلية كانت هي الدافع الأقوى بالنسبة لهم جميعا فيما عدا بوهيموند، فإن مشاريعهم الدنيويـــة، والخلافـــات الـــتي سادت بينهم سرعان ما خلقت صعابا تجاوزت سيطرة

---

(١) للإطلاع على قوائم كاملة للصليبيين ، أنظر ما يلي ، الجزء الثالث ، الفصل الأول .

(٢) Urban II, *Letter to the Bolognese,* in Hagenmeyer, op. cit. pp. 137-8.

وعن النور مانديين أنظر ما سبق الصفحات ١١٠-١١٣ .

القاصد الرسولي البابوي تجاوزا بعيدا، كما كان أكثر عجزا أمام الصعوبات التي خلقها العوام البسطاء الذين أتوا من سائر أنحاء فرنسا وفلاندرز وأراضي نهر الراين الألمانية.

بطرس النـــاسك

وطلب البابا من أساقفته أن يبشروا بالحرب الصليبية. على أنّ التبشير الأبلغ أثرًا كان تبشير الرجال الأكثر فقرًا؛ فقد بشّر بالحرب الصليبية أتباع الكنيســة الإنجيليــة مثــل روبرت أوف آربرسيل، مؤسس دير رهبان وراهبات فونتيفرولت، بل كــان الأكــثر نجاحًا في التبشير راهب متجوِّل يدعى بطرس. وكان بطرس رجلاً متقدمًــا في الســن، وُلد في ناحية ما قريبة من آميان، ويُحتمل أنه حاول الحــج إلى القــدس قبــل ذلــك بسنوات قليلة، لكن الأتراك عاملوه معاملة سيئة وأجبروه على العودة. ويعرفه معاصروه على أنه بطرس الصغير (شتو) أو (كيوكيو) في لهجة بيكار، بيد أنه فيما بعد اشتُــهر بكُنية "الناسك"، بسبب غطاء الرأس الذي اعتاد أن يرتديه، وهي الكنية التي اشتهر بها تاريخيًّا. وكان رجلاً قصير القامة، أسمر اللون، له وجه طويل نحيل شديد الشبه ـــ على نحو يثير الذعر ـــ بالحمار الذي يركبه دائمًا، والذي يكاد أن يلقي نفس التبجيل الذي يلقاه راكبه، يمشي حافي القدمين، قذر الثياب، وقد حرّم على نفسه أكل الخبز واللحم، لكنه كان يأكل السمك ويشرب النبيذ. وبرغم مظهره الوضيع كانت له قوة تحــرك الرجال، وكان هناك جوّ غريب من السلطان يحيط به، ويخبرنا جيبرت أوف نوجنت، الذي كان يعرفه معرفة شخصية: "ما من شيئ يقوله أو يفعله إلاّ ويبدو شيئًــا شبــه إلهي."!! (١)

---

(١) Guibert, I, vii, p. 142 وترد أكثر المناقشات اكتمالا عن أصل بطرس وسيرة حياته المبكرة في :

Hagenmeyer, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite*, trans. By Furcy Raynaud, pp. 17-63. Guibert describes him in II, viii, p. 142; Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, p. 477 ويحدد العدد بأنه ١٥٠٠٠ من التابعين الذين تبعوه

والأرجح أن بطرس لم يساعد في مؤتمر كليرمونت، لكنه كـــان يبشـــر بـــالفعل بالحرب الصليبية قبل انتهاء سنة ١٠٩٥ ميلادية. وبدأ جولته في بري، ثم تجول أثنـــاء شهري فبراير (شباط) ومارس (آذار) في أنحاء أورليانز وتشامباني إلى اللورين، ومـــن هناك مر بمدينتي ميوس وآشين إلى كولونيا حيث أمضى عيد الفصح. وجمـــع حولـــه مجـــموعة من التلامذة وأرسلهم إلى المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، وكان من بينهـــم الفرنسيون: والتر سان - أفوار ورينالد أوف بريز وجيوفري بوريـــل ،والـــتر أوف بريتـــول، وكذلك الألمانيان: أوريل وجوتشوك. وحيثما ذهب هو أو نوابه، ترك الرجال والنساء منازلهم وتبعوه، وعندما وصل إلى كولونيا كانت حاشيته تقدر بحـــوالي ١٥٠٠٠ شخص، وانضم إليه آخرون كثيرون في ألمانيا. (١)

ويعزى نجاحه غير العادي في التبشير إلى أسباب عديدة. إذ كانت حياة الفلاح في شمال غرب أوروبا حياة قاسية غير آمنة. وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة، فقد تهدمت السدود وطغى البحر والأنهار علـــى الحقول. ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيـــها رياضة الصيد، وكانت القرية التي لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفا لأن يســـرقها أو يحرقها الخارجون على القانون أو الجنود المشتركون في الحرب الأهلية المحدودة. وسعت الكنيسة إلى حماية فقراء الفلاحين وإلى انشاء المـــدن المســـورة bourgs(2) في الأراض بالخاليـــة، إلاّ أنّ مساعيـــها لـــم تكـــن منتظمـــة وغـــير مجديـــة. وربمـــا كـــان

(١) Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 127-51; Chalandon, *op. cit.* pp. 57-9.

(٢) (المترجم) ، البورج Bourg : واحدة من المدن المسورة التي نشأت في القرون الوسطي وضمت أصحاب الحرف المختلفة من غير الفلاحين . وقد أدي تطور هذه المدن فيما بعد إلي ظهور طبقة أصحاب الأعمال الذين عرفوا بـــ (البرجوازيين) نسبة إلي (بورج) ؛ وقد آذن نمو هذه المدن بانهيار النظام الإقطاعي .

عظام للوردات يشجعون نمو المدن، وإن كان صغار البارونات يعارضونه. كما كـــان تملك الأرض في الهيار و لم يكن هناك نظام آخر يحل محله. وعلى الرغم من الاختفـــاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض، كان الناس مرتبطين بالأرض بالتزامات لا سبيل إلى الهرب منها بسهولة، بينما عدد السكان يتزايد، وليس من الممكن تجزئة الحيازات في القرية إلا في حدود معينـــة. واستنادا لرواية روبرت الراهب، قال إيربان في كلـــيرمونت: "في هذه الأرض تستطيعـــون بالكاد إطعام السكان، وهذا هو السبب في أنكم تستنفدون نتاجها ثم تثيرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض." وكانت السنوات الأخيرة تتصـــف بصعوبة خاصة; إذ شهد عام ١٠٩٤ ميلادية فيضانـــات وأوبئـــة، أعقبـــها جفـــاف ومجاعة، فكانت لحظة بدت فيها الهجرة شيئا جذابـــا للغايـــة، وفي إبريـــل (نيسان) سنة ١٠٩٥ ميلادية سقطت نيازك كثيرة، واعتبر ذلك نذيرا بحدوث تحركات كبيرة للشعوب. (١)

حماس "الرؤيا"

وإلى جانب الدوافع الاقتصادية، أضيفت التعاليم الرؤيوية، فقد كان العصـــر عصـــر الرؤى، وظن الناس أن بطرس شخص كثير الرؤى. وكان رجل العصـــور الوســـطى مقتنعا بأن المجيئ الثاني للمسيح وشيك الوقوع، فينبغي له أن يتوب وفي الوقت متسع، كما ينبغي له أن يرحل ليفعل الخير، لاســـيما وأن الكنيســـة قـــد علمتـــه أن الحـــج يمحوالخطيئة، وأعلنت النبوءات ضرورة استعادة الأراضي المقدسة إلى حظـــيرة الإيمـــان قبل عودة المسيح مرة أخرى. وفضلا عن ذلك، لم يكن التفريق بين القدس و"القـــدس

---

(١) Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1094, p. 207; Sigebert of Gembloux, *Chronicon*, ad ann. 1095, p. 367; Robert the Monk, I, I, p. 728 وقـــد فســـر الأسقف Gislebert of Lisieux النيازك الكثيرة على أنها تنبـــيء بتحركات ضخمـــة نحو الأماكن المقدسة ، وقد أورد ذلك Orderic Vitalis, ix, 4, vo. iii, pp. 461-2 .

الجديدة"(١) محددا تحديدا واضحا في أذهان الجهلاء، وقد اعتقد الكثير من سامعي بطرس أنه يعدهم بإخراجهم من تعاساتهم الحالية إلى الأرض التي تفيض لبنا وعسلا التي تحدثت عنها الأسفار المقدسة. إن الرحلة شاقة، وهناك الحشود المناهضة للمسيح التي ينبغي التغلب عليها أولا، لكن الهدف هو "القدس الذهبية." (٢)

ولا يعلم أحد الآن رأي البابا إيربان في بطرس ومدى نجاح تبشيره. ويوحي خطاب البابا إلى أهل بولونيا بأنه كان عصبيا بعض الشيء بسبب حماسهم غير المنضبط، لكنه لم يمنعه، من الانتشار في إيطاليا، أو لم يستطع منعه. وطوال صيف ١٠٩٦ ميلادية بدأ سيل مستمر من الحجاج يتدفق إلى الشرق دون قيادة أو أي شكل من أشكال التنظيم، ولا شك في أنه كان يأمل في وصول الحجاج وأتباع بطرس إلى القسطنطينية بسلام وأن ينتظروا هناك مجيء قاصده الرسولي والقادة العسكريين لتنظيم صفوفهم وتكوين الجيش المسيحي الكبير.

وأصر البابا إيربان على أن تجتمع الحملة في القسطنطينية، وهذا يظهر مدى ثقته البالغة في ترحيب الإمبراطور أليكسيوس بها; فقد طلبت بيزنطة جنودا من الغرب، وها هم الآن يلبون النداء، لا كمرتزقة من أفراد قلائل، وإنما كجيوش قوية كاملة. ولكن ثقته لم تتسم بالحنكة، فالحكومات ترحب في العادة بأن يكون لها حلفاء; ولكن حينما يرسل هؤلاء الحلفاء جيوشا كبيرة لا يمكن السيطرة عليها لتستقر في أراضي تلك

---

(١) (المترجم) ، القدس الجديدة : المدينة المقدسة في السماء : " وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها " (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢:٢١) .

(٢) الرؤيا الإنجيلية لــ Robert of Arbrissel (الذي يورد Baudri سيرة حياته في *Aa. Ss.* 23 February, vol. iii) تعتبر مطابقة لروح ذلك العصر .
كما أن Robert كان يبشر بالحملة الصليبية بناء علي طلب إيربان . (*ibid.*p.695)

الحكومات مع ما يتطلبه ذلك من إطعام وإيواء وتوفير كل أسباب الراحة، فـإن هـذا يشكك في جدوى تحالف من ذلك النوع. ومن ثم، ثارت مشاعر القلـق والتوجـس عندما بلغت القسطنطينية أنباء التحرك الصليبي.

استعدادات الإمبراطور

في سنة ١٠٩٦ ميلادية أمضت بيزنطة، لبضعة أشهر نادرة من الراحة; فقد صـد الإمبراطور لتوه غزوا قرميا في البلقان وكانت الهزيمة حاسمة بحيث لم يكن من المحتمل أن تفكر أية قبيلة من برابرة السهول في محاولة عبور الحدود. وفي آسيا الصغرى كـانت الإمبراطورية السلجوقية في بداية تفككها بسبب الحروب الأهلية الـتي نفثـت فيـها الدبلوماسية البيزنطية. وكان أليكسيوس يأمل في سرعة المبادرة بالهجوم، لكنه شاء أن يختار الوقت الملائم له، وكان ما يزال في حاجة إلى متنفس يستطيع مـن خلالـه أن يصلح موارده المستنفدة. وكانت مشكلة نقص الجنود تؤرقه، فرغب في الحصول على مرتزقة من الغرب، ولا شك في أنه كان يعلق الآمال على نجاح سفرائه في إيطاليـا في تجنيد الجنود، والآن علم أنه بدلا من آحاد الفرسان أو المجموعات الصغيرة التي يريـد إلحاقها بجيشه، ها هي جيوش فرنجيه بكاملها تتحرك، فلم يسعده ذلك لعلمه من واقع التجربة أن الفرنج جنس مزعزع ذو شراهه للمال ولا ضمير له في حفظ العهد. ورغم تميزهم بجسارة الهجوم في الحرب إلا أنها ميزة تحيط بها الريب في مثل هذه الأحـوال، وجاء فيما كتبته الأميرة أنا كومنينا أن البلاط الإمبراطوري عرف بشيء من الخوف أن "الغرب كله وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرياتيكي وحتى عمودي هرقل(١) كانوا يتحركون في كيان واحد عبر أوروبا باتجاه آسيا مصطحبين معهـم عائـلات

---

(١) (المترجم): عمودا هرقل: لسانان علي جانبي مضيق جبل طارق: أحدهما عند جبل طارق، والثاني عند جبل موسي علي الشاطيء الإفريقي.

بكاملها". ولم يكن الإمبراطور وحده الذي ساوره القلق، إنما شعرت رعيته بالقلق كذلك. وحدث أن اكتسح الإمبراطورية أعداد غفيرة من الجراد التهمت الكروم وتركت الحبوب، فكان ذلك نذير شؤم وتحذير، وكانت السلطات البيزنطية حريصة على ألا يشيع اليأس بين الناس، فاستلهم المنجمون الشعبيون تلميحا من السلطات، وفسروا هجوم الجراد بأن الفرنجة لن يلحقوا أذى بالمسيحيين الطيبين الذين يرمز لهم بالحبوب التي هي مصدر خبز الحياة، لكنهم سيدمرون العرب وهم أناس لهم رغبات حسية يناسبها تماما رمز النبيذ، وكانت الأميرة أنا كومنينا متشككة بعض الشيء في هذا التفسير، لكن من المؤكد أن تشبيه الفرنجة بالجراد كان واضحا. (١)

وشرع الإمبراطور أليكسيوس في عمل ترتيباته بهدوء، فلابد من إطعام جيوش الفرنجة أثناء عبورها الإمبراطورية، ويتعين اتخاذ الاحتياطات اللازمة حتى لا ينهبوا الريف ويسلبوا المواطنين، فكدست المؤن في مخازن في كل مركز رئيسي من المراكز التي سيمرون بها، وخصصت قوة شرطيه لمقابلة كل فرقة حال وصولها داخل الإمبراطورية واصطحابها إلى القسطنطينية. وكان هناك طريقان كبيران يعبران شبه جزيرة البلقان: الطريق الشمالي الذي يعبر الحدود عند بلجراد ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقي ليمر بمدن نيش، وصوفيا، وفليبوبوليس، وأدريانوبل، والطريق الآخر وهو طريق فياأجناتيا من ديرهاكيوم الذي يعبر أوكريدا، وايديسافودينا إلى ثيسالونيكا ويمتد ليعبر موسينوبوليس وسيليمبريا إلى العاصمة. ومنذ وقت الحج الألماني الكبير سنة ١٠٦٤ ميلادية، نادرا ما كان مسافرو الغرب يستخدمون الطريق الأول; إذ تقلص عدد الحجاج، ومن حاول الرحلة كان يفضل الطريق البديل . وفضلا عن ذلك، كان

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, v, 4-7, vol. II, pp. 206-8 تمتدح أنا كومنينا بطرس لاستطاعته تنظيم الحملة الصليبية ، وربما كان ذلك لأن أول اتصال لها بالصليبيين كان مع غوغائيي بطرس الذي كانوا يمتدحونه هم أنفسهم .

أليكسيوس قد تلقى المعلومات المتعلقة بالصليبيين من إيطاليا، ولذا توقع أن تعبر جيوش الفرنجة البحر الأدرياتيكي وأن تستخدم طريق فياأجناتيا، فأرسل المؤن إلى ديرهاكيوم والمدن الداخلية على الطريق، وصدرت التعليمات إلى حاكم ديرهاكيوم - وهو جون - بأن يُظهر الود في ترحيبه بقادة الفرنجة، وأن يتوخى أن يكونوا هم وجيوشهم تحت مراقبة الشرطة العسكرية كومنينوس إبن أخي الإمبراطور طوال الوقت، وسيصل من القسطنطينية مبعوثون على مستوى عال لتحية كل قائد بدوره، وفي نفس الوقت أخذ أمير البحار نيكولاس مافروتاكالون أسطولاً صغيرًا إلى مياه الأدرياتيكي ليراقب السواحل ويعطي إشارة الإنذار باقتراب ناقلات الفرنجة.

وبقى الإمبراطور في القسطنطينية منتظرًا ما تأتي به الأخبار، ولّما كان يعلم أنّ البابا قد حدد يوم ١٥ أغسطس (آب) لمبارحة الحملة فإنه لم يتعجل ترتيباته. ولكن حضر رسول فجأة في نهاية مايو (أيار) سنة ١٠٩٦ ميلادية من الشمال حاملاً البريد بوصول أول جيش من جيوش الفرنجة من هنجاريا ودخوله الإمبراطورية عند بلجراد.

الباب الثالث :

الرحلة إلى الحرب

الفصل الأول:

حملة الشعب

حملـــة الشعـــب

"الرَّبَّ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْأَرْضَ
الَّتِي كَلَّمَهُمْ عَنْهَا "
(سفر التَّثْنِيَة ٩ — ٢٨)

وصل بطرس الناسك مع أتباعه إلى كولونيا الألمانية يوم سبت النور ١٢ إبريـــــل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية (١) وهناك بدأت تتضح له الصعاب التي تزعج قائد حملة

---

(١) الرواية الوحيدة التفصيلية المتصلة برحلة بطرس وولتر المفلس هي التي أوردها **Aibert of Aix** وما يتصف به تأكيد صحة الأحداث كان ولا يزال موضـــع مساءلة شديدة (أنظر ما يلي المرفق الأول ص ٣٣٢) ؛ غير أنه يبدو واضحا تماما أنه استقى معلوماته من شاهد عيان ربما كان يدون ملاحظاتــه أثنــــاء الأحـــداث . وبعض أرقامه غير مقنعة ، وتظهر تصرفات بطرس التناقض في بعض الأحيان ؛ لكن المؤلف ربـــما كان يريد أن يظهره دائماً بمظهر الحسن بغض النظر عن تناقض التصرفات . ويقدم تاريخ *Chronicle of Zimmern* بعض المعلومات الإضافية ، وإن بـــدا أنه يخلط بين الحملات الصليبية في سنة ١٠٩٦ وسنة ١١٠١ وهناك إشارة عابرة في تاريخ باري **Chronicle of Bari p 147** ، .وقد أورد . *Hagenmeyer op. cit.* **pp. 151-241** دراسة تفصيلية للقصة كلها . وأنا أقبل بصورة أساسية ما توصل إليه .

تتألف من عوام الناس، فكان ذلك النسيج الكبير من المتحمسين يتألف من رجال من مناطق كثيرة ومن أنواع أكثر، أحضر البعض نساءهم، بل أحضر بعضهم حتى الأطفال. وكان أغلبهم من الفلاحين، كما كان من بينهم أبناء المدن، ومن بينهم شباب ينتمون إلى عائلات الفرسان، ومنهم قطاع طرق سابقون ومجرمون. وكانت الصلة الوحيدة التي تربطهم بعضهم ببعض هي حميّة معتقدهم، وقد تخلّوا جميعًا عن كل شيْء ليتبعوا بطرس، وأخذ منهم الشوق للاستمرار في طريقهم كل مأخذ. وفضلاً عن ذلك، كان لابد لهم أن يستمروا في الحركة كيّ يتوفر لهم الطعام; ففي أوروبا في العصور الوسطى كان هناك عدد ضئيل من المقاطعات ذات الفائض الغذائي الذي يكفي احتياجات مثل هذا الجمع الغفير لمدة طويلة، لكن كولونيا تقع في بقعة غنية ذات مواصلات نهرية جيدة، فأراد بطرس استغلال هذه التسهيلات ليتوقف فترة من الزمن يمارس فيها التبشير بين الألمان، وربما كان تواقا لاجتذاب بعض النبلاء المحليين إلى حملته الصليبية، وكان الفرسان في فرنسا وفلاندرز يفضلون الانضمام إلى جماعة تضم عظماء اللوردات، و لم يكن هناك لورد ألماني كبير ذاهب إلى الحرب الصليبية. ولقد نجح تبشيره; فمن بين الألمان الذين لبوا دعوته عديد من النبلاء الأقل شأنا بقيادة الكونت هيو أوف توبنغن والكونت هنري أوف شوارزنبورغ ووالتر أوف تيك، وأبناء كونت زيمرين الثلاثة.(١)

والتر (المفلس)

وكان الفرنسيون متعجلين، وقرر والتر (المفلس) ألا ينتظر في كولونيا وغادر مع آلاف قليلة من الرفاق عقب انتهاء عيد الفصح، وربما في ثلاثاء الفصح، وانطلق في

---

(١) عن اللوردات الألمان الذين رافقوا بطرس ، أنظر Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-60 خاصة ص١٦٠ الحاشية ٢،وصفحة ١٦٦ الحاشية ١ ويقول Ekkehard, *Hierosolymita*, pp.18-19 إن الحملة الصليبية لم يحدث لها تبشير رسمي باللغة الألمانية بسبب الصدع .

طريق هنجاريا وسار أعلى نهري الراين ونيكار ثم أسفل الدانوب فوصـــل إلى الحـــدود الهنجارية يوم ٨ مارس (آذار)، وهناك أرسل إلى الملك كولومان طالبا الإذن في عبـــور المـــلكة وراجيا الحصول على المساعدة في تزويد رجالـــه بـــالمؤن. وأجابـــه الملـــك كولومان بترحاب ودود. وعبر الجيش هنجاريا دون حادثة سيئة. وفي منتصف الشـــهر وصل مدينة سيملين على الحدود المقابلة، وعبر نهر ساف، ودخل الأراضـــي البيزنطيـــة عند بلجراد.

وبوغت القائد العسكري في بلجراد، فلم تكن لديه أية تعليمات عـــن كيفيـــة التعامل مع مثل هذا الغزو، فأرسل بريدا عاجلا إلى نيش حيث يقيم حاكم المقاطعـــة البلجارية نيتاس يخبره بوصول والتر، وكان هذا الحاكم رجلا حي الضمير، وليست له ميزة أخرى، كما لم تكن لديه تعليمات هو الآخر، فأرسل بدوره رسولا على وجـــه السرعة إلى القسطنطينية. وفي تلك الأثناء طلب والتر وهو في بلجراد طعاما لأتباعـــه، لكن الحصاد لم يكن قد جمع بعد، وليس لدى الحامية فائض تعطيـــه، فـــراح والـــتر وأتباعه ينهبون الريف، وقد وقعت حادثة سيئة في سيملين أشعلت ثورة غضبه، ذلـــك أن ستة عشر رجلا من رجاله لم يعبروا النهر مع رفاقهم وحاولوا أن ينهبوا الســـوق، فألقى الهنجاريون القبض عليهم وجردوهم من أسلحتهم، وعلقوا ملابسهم على أسوار مدينة سيملين من قبيل التحذير، وأرسلوهم عرايا إلى بلجراد. وعندما بـــدأ الســـلب والنهب حول بلجراد لجأ الحاكم إلى السلاح، وقتل العديد من رجال والتر، وحـــرق آخرون وهم أحياء في إحدى الكنائس.

واستطاع والتر ورفاقه أن يصلوا أخيرا إلى نيش حيث استقبله نيستاس استقبالا حسنا، وقدم لهم الطعام، واستبقاهم إلى أن يتلقى رد القسطنطينية. واضطر الإمبراطور إلى أن يسرع في ترتيباته بعد أن كان يظن أن الحملة الصليبية لن تبرح الغرب قبل عيد الصعود، وطلب من نيستاس أن يرسلهم مع الحرس، فواصل والتر وجيشه رحلتهم في

سلام، وفي وقت مبكر من يوليه (تموز) وصلوا إلى فيليبوبوليس، حيث مات عم والتر (والتر أوف بويسي) ، وفي حوالي منتصف الشهر وصلوا إلى القسطنطينية. (١)

ولابد أن نيستاس علم من والتر أن بطرس كان وراءه على مسافة غير بعيدة ومعه صحبة أكبر بكثير، فذهب إلى بلجراد لمقابلته، وأجرى اتصالا مع حاكم سيملين الهنجاري.

وغادر بطرس كولونيا في ٢٠ إبريل (نيسان)، وسخر الألمان من تبشيره بادئ الأمر، ولكن آلافًا كثيرة التحقت به بعد ذلك، وربما قارب عدد أتباعه عشرين ألفًا من الرجال والنساء. وأشعلت حميته حماس ألمان آخرين، فخططوا للحاق به فيما بعد تحت قيادة جوتشوك والكونت إميش أوف ليزنغن. واتخذ بطرس الطريق المعتاد أعلى نهري الراين ونيكار إلى الدانوب. وهناك قرر بعض أتباعه مواصلة الرحلة بالقوارب أسفل النهر، ولكن بطرس وجُلّ أتباعه ساروا في الطريق الذي يمضي جنوب بحيرة فيرتو ودخلوا هنجاريا عند أويدنبرج. وكان بطرس على ظهر حماره، والفرسان الألمان على خيولهم، بينما كانت المؤن التي معهم وصندوق النقود التي جمعها من أجل الرحلة على عربات مكتظه بالناس، على أن الكثرة الغالبة كانت ترتحل سيرا على الأقدام، وكانوا يقطعون خمسة وعشرين ميلا في اليوم إذا كانت الطرق جيدة.

واستقبل الملك كولومان رسل بطرس بنفس القدر من الترحاب الذي أظهره لوالتر، وحذرهم بأن العقاب سيتنزل بكل من يحاول السلب والنهب، وعبر الجيش هنجاريا بسلام في أواخر مايو (أيار) وأوائل يونيه (حزيران). وفي مكان ما، ربما بالقرب من كارلوفسي ، انضمت إليه الفصائل التي كانت مرتحلة بالنهر، ووصل

---

(١) ترد رحلة Walter في تاريخ Albert of Aix, I, 6, pp. 274-6 وبصورة أكثر إيجازا في Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, pp. 478-9

الجيش إلى سيملين في ٢٠ يونيه (حزيران).(١)

وهناك بدأت المتاعب. وما حدث في حقيقة الأمر يشوبه الغموض; فيبدو أن حاكم سيملين، وهو من أصل تركي غزي، شعر بالخطر من حجم الجيش، فاجتمع بنظيره عبر الحدود وحاولا تشديد لوائح الشرطة، مما أثار شكوك جيش بطرس، لاسيما وأنهم قد سمعوا شائعات عن معاناة رجال والتر، وخشوا أن يكون الحاكمان قد تآمرا ضدهم، وصدمتهم رؤية ملابس رجال والتر اللئام الستة عشر التي كانت معلقة على أسوار المدينة. وكان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرام لولا أن خلافا على بيع زوج من الأحذية أدى إلى شغب، انتهى بدوره إلى معركة تم الإعداد لها سلفا، ربما ضد رغبة بطرس، فقام رجال من أتباع بطرس يقودهم جيوفري بوريل بمهاجمة المدينة ونجحوا في اقتحام القلعة، وقتل في تلك المعركة أربعة آلاف من الهنجاريين وتم الاستيلاء على كم هائل من مخزونات المؤن. ثم انتابهم الذعر من انتقام الملك الهنجاري، فهرعوا على جناح السرعة ليعبروا نهر ساف.

وأخذوا كل الأخشاب التي استطاعوا جمعها من المنازل ليبنوا لأنفسهم أطوافا يعبرون عليها النهر، وحاول نيستاس الذي كان يراقب الأحداث بقلق من بلجراد أن يتحكم في عبور النهر ليجبرهم على استخدام مخاضة واحدة فقط، وكان جنوده يتألفون أساسا من المرتزقة البتشنج الذين يثق في طاعتهم العمياء لأوامره، فأرسلهم على نقالات مائية لمنع أي عبور إلا من المكان المناسب، لكنه تحقق من عدم كفاية جنوده للتعامل مع مثل هذا الحشد الهائل، فانسحب إلى نيش حيث موقع القيادة العليا

---

(١) Alebert of Aix, I, 7, p.276. Malavilla is certainly to be identified with Semlin (Hagenmeyer, op. *cit.* p. 169 n.1) Guibert, II, viii, pp. 142-3

يقول إن بطرس لقي مصاعب عند عبورة هنجاريا ويبدو أنه يخلط بينه وبين إمش . Emich

العسكرية للمقاطعة، وعلى أثر رحيله هجر مواطنو بلجراد المدينة ولاذوا بالجبال.(١)

بطرس يدخل الإمبراطورية

وفي يوم ٢٦ يونيه (حزيران) شق جيش بطرس طريقه بصعوبة عبر نهر ســـاف. وحينما حاول لبتشنج تقييد عبورهم من معبر واحد هاجموهم، وغرقت عدة قـــوارب، وأُلقي القبض على راكبيها من الجنود وقتلوا. ودخل الجيـــش بلجـــراد وراح ينهبـــها بالجملة وأشعل فيها النيران، ثم سار سبعة أيام عبر الغابات ووصل إلى نيش في ٣ يوليه (تموز)، حيث أرسل بطرس على الفور إلى نيستاس طالبًا منه إمدادات الطعام.(٢)

وكان نيستاس قد أخبر القسطنطينية باقتراب بطرس، وكـــان ينتظـــر حضـــور المسئُولين والحرس العسكري لمرافقة الغربيين إلى العاصمة، وكانت هناك حامية كبيـــرة

---

(١) Albert of Aix, I,7, 8, pp. 276-8 يجعل المؤرخ ألبرت من بطرس - الذي تظهـــر شخصيته في التواريخ الأخري بصورة مسالمة - شخصية متعطشة للإنتقام ،ربـــما لأن من أخبره - أي المؤرخ - كان يظن أن الشراسة تضفى علي بطرس مزيـــدا من الفضائـــل The recurrent number 7 , in connection with the Petcheneg frontier guards, is equally not to be taken literally ويخلط ألبرت بين نهري مورافا و ساف .

(٢) Alebert of Aix,1, 9, 9.278. وأنـــا أتابـــع التواريخ التي أوردها Hagenmeyer .(*Achronology*, p. 30-1)

في نيش، زاد من قوتها بأن استجلب لهـــا عـــددًا إضافيًّـــا مـــن البتشنـــج والمرتزقـــة الهنجاريين،(١) وربما لم يستطع توفير رجال لمصاحبة بطرس إلـــى أن يـــأتي الجنـــــود القادمـــون مـــن القسطنطينيـــة، ومـــن الناحيـــة الأخرى كان السماح لمثـــل هـــذا الحشد الغفير بالتريث طويلاً في نيش أمرًا غير عملي وخطيرًا في الوقت نفسه; ولذلـــــك طلب نيستاس من بطرس أن يقدم رهائن إلى أن يتم جمع الطعـــام لرجالـــه علـــى أن يواصلوا المسيرة بعد ذلك بأسرع ما يمكن. وسار كل شيئ على ما يُرام في أول الأمر ،

(١) الحرس المرسل من القسطنطينية لمقابلة بطرس انضم إليه في صوفيا يوم ٩ أو ١٠ يوليو قاطعا مسافة تزيد كثيرا علي ٤٠٠ ميل وربما كان من الحرس الخيالة ومن ثم كان سفره أسرع ، فلا بد وأنه قد غادر العاصمة قبل أن يتمكن أي مبعوث-مرسل من نيش بعد وصول بطرس إليها يوم ٣ يوليو - من الوصول إلي البلاط الإمبراطوري واستناد لما أورده **Jirecek** في مؤلفـــه *Die Heerstrasse von Belgrad nach Cnostantinopel*, p. 9 كان التتار الذين يحملون البريـــد الإمـــبراطوري النمساوي في أوائل القرن التاسع عشر يستغرقون في المرحلة خمسة أيام ، منطلقين بأقصي سرعة علي ظهور الخيل وباستخدام الجياد البديلة . (المسافة تزيد في الواقع علي ٦٥٠ ميلا) وكانـــت الطـــرق فـــي العصر البيزنطي أفضل حالا منها في العصر العثماني وإن لم يكن تبديل الجياد منظما تنظيما جيدا ؛ وفي ذلك الوقت ربما كان المبعوث الخاص يستطيع أن يستغرق خمسة أوستة أيام ليقطع المسافة من نيش إلي القسطنطينية في ذلك الوقت . وترتيبا علي ذلك ، لا بد وأن **Nicetas** قد أرسل مبعوثا لإخطار العاصمة بمجيء بطرس قبـــل أن يعبـــر الحدود . ونحن نعرف **Nicetas** - الذي تطلق عليه المصادر الغربيـــة **Nichita** - من إحدي الوثائق المسجلة في **Schlumberger**, *Sigillographie de l'Empire Byzantin*, p. 239 ولا ينبغي الخلط بينه وبين **Leo** ، وهو دوق **Paristrium** ، الذي يذكره شالاندون خطأ فـــي **Chalando**, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, p. 167 n. 4

وتم تسليم جيوفري بوريل وولتر أوف بريتول كرهائن، وسمح السكان المحليون للصليبيين بالحصول على الإمدادات وكل ما يحتاجون إليه، ليس هذا وحسب، وإنما تبرع الكثير منهم بصدقات للحجاج الفقراء، بل طلب البعض الاشتراك في الحج.

وفي الصباح التالي شرع الصليبيون في مسيرتهم على الطريق الذاهب إلى صوفيا، وبينما كانوا يغادرون المدينة أشعل بعض الألمان العابثين النيران في بعض الطواحين على جانب النهر، وكانوا قد تشاجروا مع أحد المواطنين في الليلة البارحة، وما أن سمع نيستاس بذلك حتى وأرسل جنودا ليهاجموا حرس المؤخرة، ويأسروا بعضهم، وكان بطرس على حماره في المقدمة على مسافة ميل تقريبا و لم يعلم بشيء من كل هذا إلى أن أسرع رجل يدعى لامبرت من المؤخرة وأخبره بما حدث، فكر راجعا لمقابلة نيستاس ولترتيب فدية الرهائن، بيد أنه حدث أثناء محادثتهما أن انتشرت بين صفوف الجيش شائعات عن القتال والخيانة، فاستدارت جماعة من المتهورين وأغارت على حصون المدينة، فدفعتهم الحامية وشنت عليهم هجوما مضادا، وعندما ذهب بطرس لكبح جماح رجاله ومحاولة إعادة الاتصال بنيستاس، أصرت جماعة أخرى على تجديد الهجوم، مما اضطر نيستاس إلى إطلاق قواته كلها على الصليبيين، فهزمهم هزيمة نكراء وشتت شملهم. وقتل كثيرون، وأسر آخرون من الرجال والنساء والأطفال، وأنفقوا بقية أيامهم في الأسر في المناطق المجاورة. وفقد بطرس ضمن ما فقد خزانة أمواله، وهرب بطرس نفسه مع رينالد أوف بري ووالتر أوف بريتول وحوالي خمسمائة من رجاله بجانب أحد الجبال وقد ظنوا أنهم هم فقط الباقون على قيد الحياة، ولكن لحق بهم سبعة آلاف آخرون في الصباح التالي وأكملوا مسيرتهم على الطريق. ونفد منهم الطعام، فتوقفوا في مدينة بيلابالانكا المهجورة لجمع المحصول المحلي وهناك لحق بهم مشردون كثيرون آخرون، ولما عاودوا مسيرتهم اكتشفوا أنهم فقدوا ربع عددهم (١).

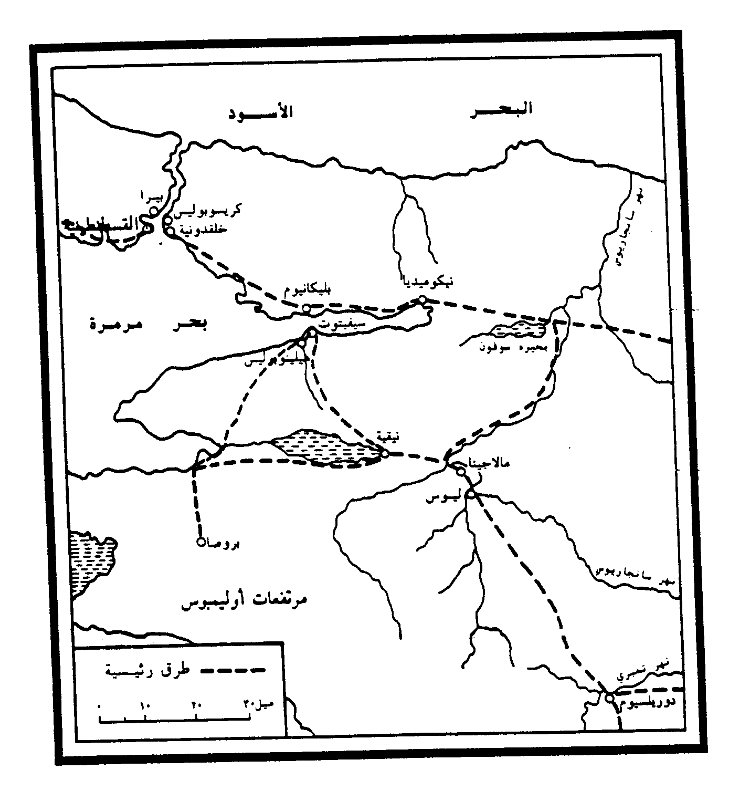
(١) . يذكر **Albert of Aix, I, 9-12, pp. 278** أن الباقين كانوا ثلاثين ألفا من أصل أربعين ألفا .

وصول بطرس إلى القسطنطينية

وفي ١٢ يوليه (تموز) وصلوا إلى صوفيا حيث قابلوا المبعوثين والحرس القادمين من القسطنطينية لمرافقتهم، ومعهم تعليمات من الإمبراطور بتزويدهم بكامل ما يلزمهم والعمل على ألا يتأخروا مطلقا لأكثر من ثلاثة أيام في مكان واحد، ومنذ ذلك الحين ورحلتهم تسير سيرا يسيرا. وكان أبناء البلاد المحليون يستقبلونهم بمظاهر الود، وفي مدينة فيليبوبوليس تأثرت مشاعر اليونانيين تأثرا عميقا بأقاصيص معاناتهم حتى أنهم تبرعوا لهم بالمال والخيول والبغال. وقبل وصولهم إلى مدينة أدريانوبل بمسيرة يومين قابلهم مبعوثون آخرون حيوا بطرس برسالة كريمة من الإمبراطور، وتقرر أن يغفر للحملة ما ارتكبته من جرائم، إذ أنها عوقبت بالفعل بما فيه الكفاية، فبكى بطرس فرحا لذلك المعروف الذي أنعم به عليهم عاهل عظيم كهذا. (١)

---

(٢) *Ibid.* I, 13-15, pp. 282-3; Anna Comnena, *Alexiad,* x, v-vi, vol. II, p. 210



خريطة رقم (١) : ضواحي القسطنطينة ونيقية في وقت الحملة الصليبية الأولى

و لم يتوقف الاهتمام الطيب الذي يكنه الإمبراطور عند وصـــول الصليبيـــين إلى القسطنطينية في أول أغسطس (آب). وتملكه الفضول لرؤية قائد الحملـــة، فاســـتدعى بطرس لمقابلة حيث منح المال والنصح. وأدرك ألكسيوس بعينه الخبيرة، أن الحملـــة لم تكن بذات وزن، بل كان يخشى إن عبرت إلى آسيا أن يدمرها الترك على الفور، على أن الفوضى الضاربة بين أفراد الحملة دفعته إلى أن يعجل بمغادرتها القسطنطينية; فقـــد ارتكب الغربيون سرقات لا حصر لها، واقتحموا القصور والدور في الضواحي، بل أنهم سرقوا الرصاص من أسطح الكنائس. وبرغم أن دخولهم القســـطنطينية ذاتهـــا ســـاده الانضبـــاط الصارم، وعلى الرغم من السمـــــاح لمجموعـــة صغيـــرة فقـــط بعبـــور البوابـــات لمشاهدة المدينة، كان من المستحيل على الشرطة أن تحرس الضواحي كلها.

وبينما كان والتر المفلس ورجاله في القسطنطينية وصلت إلى هناك جماعات شتى من الحجاج الإيطاليين، وانضموا إلى حملة بطرس، وفي ٦ أغسطس (آب) نقلت قواته كلها عبر مضيق البوسفور. وساروا على الشاطئ الآسيوي ينهبون المنازل والكنـــائس دون أن يكبح شيء جماحهم بطول بحر مرمرة وحتى مدينة نيكوميديا الـــتي كـــانت مهجورة منذ أن هاجمها الأتراك قبل خمسة عشر عاما. وهناك نشب شجار بين الألمان والإيطاليين من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى; فقد شق الأولون عصا الطاعة على قيادة بطرس وانتخبوا قائدا لهم لوردا إيطاليا يدعى رينالد. ومن مدينة نيكوميديـــاتحول الجزءان المكونان للجيش باتجاه الغرب وبطول الساحل الجنوبي لخليج نيكوميديا إلى أن وصلا إلى معسكر حصين يطلق عليه اليونـــانيون ســـيبوتوس ويســـميه الصليبيـــون سيفيتـــوت ، وكـــان ألكسيـــوس قد جهزه لمرتزقته من الإنجليز الموجودين في جوار

هيلينوبوليس، وكان المكان ملائما لإقامة معسكر لخصب المنطقة ولإمكـــان إحضـــار الإمدادات من القسطنطينية بسهولة عن طريق البحر.(١)

غارات الصليبيين

وكان ألكسيوس قد حث بطرس على الانتظار وعدم محاولة الهجوم على الكفرة إلى أن تأتي الجيوش الصليبية الرئيسية، وتأثر بطرس بهذه النصيحة، لكن سلطته كانت تتضاءل، وبدلا من أن يستجمع الصليبيون قوتهـــم في هـــدوء، انقســـموا إلى الألمـــان والإيطاليين برئاسة رينالد من جهة، وأبناء جلدته الفرنسيين، ويبدو أن جيوفري بوريل أصبح صاحب السيطرة الفعلية عليهم من جهة أخرى وراح الفريقـــان يتنافســـان في الإغارة على المناطق الريفية، وبادروا بنهب المنطقة المجاورة مباشرة، ثم توغلوا بحذر في الأراضي التابعة للأتراك، يغيرون على القرى وينهبون القرويين الذين كـــانوا كلـــهم مسيحيين يونانيين. وفي منتصف سبتمبر (أيلول) تجاسر عـــدة آلاف مـــن الفرنســـيين بالتوغل حتى بوابات مدينة نيقية وهي عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرســـلان إبـــن سليمان، وخربوا القرى الواقعة في الجوار وحاصروا قطعان وأسراب الماشية واســـتولوا عليها، وعذبوا وقتلوا المواطنين المسيحيين في وحشية مفزعة، وقيل إنهم كانوا يشـــوون الأطفال على السفود، وأرسلت فصيلة تركية من المدينة لكنها انسحبت بعد قتال مرير.

---

(١) Albert of Aix , I, 15, pp. 283-4 ؛ ويرد في *Gesta Francorum, 1*,2,p.6 ذكـــر تصـــ فات الجيش الصاخبة ؛ Anna Comnena. *loc. cit.* Orderic Vitalis. ix. 5. vol. III, pp. 490-1 ويذكـــر المؤرخ " أوردريش فيتاليس " أن ألكسيوس أعد سيفيتوت Civetot لجنـــوده الإنجليز . أنظر Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 363-4 وعن التواريخ أنظر Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 32

ثم عاد الصليبيون إلى سيفيتوت حيث باعوا الأسلاب لرفاقهم وللبحارة اليونانيين الذين كانوا بجوار المعسكر. وثارت نوازع الغيرة لدى الألمان من تلك الغارة الفرنسية الغانمة، فانطلقت في أواخر سبتمبر (أيلول) حملة بقيادة رينالد قوامها ستة آلاف رجل تضـــم قساوسة بل وأساقفة، وجاوزوا نيقية ناهبين مخربين أينما ذهبوا، لكنهم كـــانوا أكـــثر شفقة من الفرنسيين فأبقوا على المسيحيين، إلى أن وصلوا إلى قلعـــة كســـيريجوردون، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ووجدوها مكدسة بالإمدادات من كل نوع، فقـــرروا أن يتخذوها قاعدة يغيرون منها على داخل البلاد. وما أن سمـــع الســـلطان بمـــا اقترفـــه الصليبيون من فساد حتى أرسل قائدا عسكريا على مستوى عال على رأس قوة كبـــيرة لاستعادة القلعة التي كانت تقع على تل، وتحصل على إمدادات المياه من بئر خـــارج الأسوار مباشرة بالإضافة إلى ينبوع أسفل الوادي. وظهر الجيش التركي أمام القلعة في ٢٩ سبتمبر (أيلول)، وهو يوم عيد القديس ميخائيل، وهزم كمينـــا بقيـــادة رينـــالد واستولى على الينبوع وبئر الماء، وبذا أحكم الحصار على الألمان داخل القلعة، وسرعان ما أدى العطش إلى أن يدب اليأس في نفوسهم، وحاولوا امتصاص الرطوبة من الأرض، وقطعوا شرايين وأوردة خيولهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل وشربوا بـــول بعضـــهم البعض، وحاول قساوستهم عبثا تهدئتهم وتشجيعهم. وبعد ثمانية أيام من المعناة قـــرر رينالد الاستسلام، وفتح البوابات للأعداء بعد أن حصل على وعد بالإبقاء على حياته إذا ما تخلى عن المسيحية، وقتل كل من بقى على دينه. أما رينالد ومـــن ارتـــد معـــه فأرسلوا في الأسر إلى أنطاكية وحلب وبعيدا داخل خراسان.

كارثة في سيفيتوت

وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) وصلت أنباء استيلاء الألمان على كسيريجوردون إلى المعسكر في سيفيتوت، وأعقبتها شائعة أطلقها اثنان من الجواسيس الأتراك بأنهم

استولوا على نيقية نفسها، وغاصوا في الأسلاب يغترفونها. وكما توقع الأتراك تسببت تلك الشائعة في نشوة صاخبة في المعسكر، وتصايح الجنود مطالبين السماح لهم بالإسراع في السير إلى نيقية، في طرق أعد فيها السلطان المكامن بعناية، ولقي قادتهم مشقة كبيرة في كبح جماحهم، إلى أن اكتشفت الحقيقة فجأة حول مصير حملة رينالد، فتحولت النشوة الصاخبة إلى ذعر، واجتمع رؤساء الجيش للتشاور فيما يمكن عمله بعد ذلك. وكان بطرس قد ذهب إلى القسطنطينية بعد أن انتهت سلطته على الجيش، وكان يأمل في إحيائها بالحصول على بعض المعونات العينية الهامة من الإمبراطور.

وتحرك البعض في الجيش مطالبين بالخروج للثأر من فاجعة كسيريجوردون، لكن والتر المفلس أقنع رفاقه بالتريث حتى عودة بطرس التي يحين موعدها في غضون ثمانية أيام. ومع ذلك لم يرجع بطرس، وفي تلك الأثناء جاءت الأنباء باقتراب قوة من الأتراك باتجاه سيفيتوت، فاجتمع مجلس الجيش مرة أخرى، وظل قادته من ذوي المسئولية الأكبر ـــ وهم والتر المفلس، ورينالد أوف بري، ووالتر أوف بريتول، وفولك أوف أورليانز، ومن الألمان هيو أوف توبنغن، ووالتر أوف تيك ـــ يقنعون الباقين بألا يفعلوا شيئا إلى أن يعود بطرس، لكن جيوفري بوريل ومن ورائه الرأي العام في الجيش، أصر على أنه من الجبن والحماقة عدم التقدم لملاقاة الأعداء، وتم له ما أراد. وفي فجر الحادي والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) انطلق جيش الصليبيين كله وقد تجاوز عدده عشرين ألف رجل، تاركا وراءه في سيفيتوت المسنين والنساء والأطفال والمرضى.

وعلى بعد ثلاثة أميال تقريبا من المعسكر، حيث يدخل طريق نيقية واديا ضيقا مليئا بالأشجار، وبالقرب من قرية دراكون، كان الأتراك يتربصون في مكامنهم. وسار الصليبيون بلا مبالاة يسبقهم صخبهم وقد تقدمهم الفرسان على ظهور خيولهم. وفجأة انهمر سيل السهام من الأشجار وقتل الخيول أو أعجزها، فراحت تكبو مضطربة وهي تقذف راكبيها من فوق ظهورها، وهنا هاجم الأتراك، وتعقبوا الفرسان الذين تقهقروا إلى صفوف المشاة. وحارب فرسان كثيرون بشجاعة، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الذعر

الذي أخذ من الجيش كل مأخذ، وفي دقائق قليلة كان الحشد كله يولـــي الأدبـــار في فوضى عارمة إلى سيفيتوت. وفي المعسكر كانت الأعمال اليومية قد بدأت لتوها، فكان البعض من المسنين ما يزالون نائمين في الفراش، وهنا وهناك كان القساوسة يتـــهيأون لإقامة قداس مبكر، واندفعت إلى المعسكر جموع الفارين المذعورين والعدو في أعقابهم. ولم تكن هناك مقاومة حقيقية؛ إذ قتل الجنود والنساء والقساوسة قبل أن يجدوا وقتـــا ليتحركوا، وهرب البعض في الغابات المحيطة والبعض الآخر في البحر، ولكن القليـــل منهم هرب لفترة طويلة، ودافع البعض عن أنفسهم للحظات بإشعال النـــيران الـــتي دفعتها الرياح إلى أوجه الترك، ولم يبق الأتراك على أحد سوى الصبية والبنات حسني المظهر، مع قليل من الأسرى الذين أسروا بعد أن خبت جذوة القتـــال الأولى، وقـــد سيقوا كلهم إلى الرق. وكان هناك نحو ثلاثة آلاف أسعد حظا ممن سواهم تمكنوا من الوصول إلى قلعة قديمة مهجورة على البحر، وقد تفككت أبوابها ونوافذهـــا، وعلـــى عجل تولدت لديهم طاقة دفعها اليأس، فأقاموا تحصينـــات مـــن الأخشـــاب الملقـــاة ودعموها بالعظام واستطاعوا أن يصدوا هجمات الأعداء.

فشل حملة الشعب

وصمدت القلعة، على أنه في منتصف النهار كان كل شيء في الميدان قد انتـــهى فكانت الجثث تغطي الأرض من ممر دراكون إلى البحر، وكان من بين القتلـــى والـــتر المفلس، وريتالد أوف بري، وفولك أوف أورليانز، وهيو أوف توبنغن، ووالـــتر أوف تيك، وكونراد أوف زيمرن، وكثيرون من الفرسان الألمان. وكان القـــادة الوحيـــدون الذين بقوا على قيد الحياة جيوفري بوريل — الذي كان تهوره ســـببا في الكارثـــة — ووالتر أوف بريتول، ووليم أوف بويزي، وهنري أوف شوارزنبرج، وفريدريك أوف زيمرن، ورودولف أوف برانديس، وقد أصيبوا جميعا تقريبا بجروح خطيرة.

وحينما حلّ الظلام، تمكن يونانيّ كان مع الجيش من العثور على قارب أبحـــر بـــه إلى القسطنطينية لينقل أخبار المعركة إلى بطرس والإمبراطور. وليس لدينا شيْء مكتـــوب يصور مشاعر بطرس، لكن أليكسيوس أمر في الحال أن تبحر بعض السفن الحربية إلى سيفيتوت ومعها قوات قويّة. وعندما شاهد الأتراك الأسطول البيزنطي الصغير رفعـــوا الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل، ونُقـــل الأحيـــاء إلى الســـفن وأُعيـــدوا إلى القسطنطينية وخُصص لهم مكان إقامة في الضواحي، لكنهم جُردوا من أسلحتهم.(١)

وانتهت حملة الشعب التي راح ضحيتها ألوف كثيرة واستنفدت صبر الإمبراطور ورعيته، وبينت أنّ الإيمان وحده بلا حكمة ولا نظام لا يفتح الطريق إلى القدس.

---

(١) يورد Alert of Aix, 1, 16-22, pp. 284-9, and *Gesta Francorum*, I, 2, pp. 6-12 كلا التاريخين روايات عن الهجمـــات والكارثة النهائية لجيش بطرس ويقول صاحب تاريخ Gesta -الذي لابد وأن استقي روايته التاريخية من أحـــد الباقين عـــلي قيد الحياة قابله في القسطنطينية - في كـــل مكان من روايته إن ألكسيوس كان عدائيا إزاء بطرس وأنه ابتهج للمذبحة التي حدثـــت لـــرجاله ، رغم أنه يعود ويعترف بأنهـــم أساءوا التصرفوا وأحرقوا الكنائس أما رواية Albert فتظهر الإمتنـــاع للإمبراطور لكرمه ولنصيحته الطيبـــة ولمبادرته بإنقاذ من بقوا علي قيد الحيـــاة وتورد المؤرخـــة Anna Comnena, X, vi, 1-6 رواية أقصر تشكو فيها من تصرفات الفرنج وتقول إن بطرس - الذي تفترض خطأ أنه كان مـــع الجيش - ألقي باللوم علي التصرفات الشريرة التي أتاها مـــن كانوا في الجيش ممن لم يطيعونه . ويورد تاريخ *Chronicle of Zimmern* قائمة بالألمان الذي قتلوا في سيفيتوت (p. 29).

الفصل الثانى:

الحملة الصليبية الألمانية

الحملـــة الصليبيـــة الألمانيـــة

"آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ, هَلْ أَنْتَ مُهْلِكٌ بَقِيَّةَ
إِسْرَائِيلَ كُلَّهَا"

(حِزْقِيَال ٩ — ٨)

لم يتوقف الحماس الصليبي في ألمانيا برحيل بطرس الناسك إلى الشرق; إذ تـــرك وراءه حواريه جوتشوك ليجمع جيشًا آخر, وبدأ مبشرون وقـــادة آخـــرون كثـــيرون يتأهبون ليحذوا حذوه, على أنه برغم أنّ الألمان لبّوا النداء بالألوف فقد كـــانوا أقـــل تلهفًا من الفرنسيين في الإسراع إلى الأرض المقدسة, فهناك ما يتعيّن إنجازه في الوطن.

كانت المستعمرات اليهودية قد أُنشئت لقرون مضت بطول الطرق التجارية في أوروبا الغربية, وكان قاطنوها مـــن اليهود السفرديم (١) الذين انتشر أسلافهم من حـــوض البحر المتوسط على مـــدى العصور المظلمة, وحافظوا على الروابط مـــع أقرانهـــم في الدين في بيزنطة والأراضي العربية, الأمر الذي مكّنهم من أن يلعبـــوا دورًا كبـــيرًا في التجارة الدولية, لاسيّما التجارة بين البلدان الإسلامية والمسيحية. وأفسح لهـــم حظـــر الربا في البلدان المسيحية الغربية, ومراقبته مراقبة صارمة في بيزنطة, المجال لإنشاء بيوت لإقراض النقود في سائر أنحاء العالم المسيحي, كما مكّنتهم مهاراتهم الفنية وتقـــاليدهم المستقرة من أن يحتلوا مكان الصدارة في ممارسة الطب. ولم يعـــانوا مطلقًـــا مـــن أيّ اضطهاد حقيقي في الغرب إلاّ فـــي إسبانيا القوطية(٢) الغربية منذ أمد بعيد. ولم تكن لهم حقوق مدنية, ولكن السلطات ـــ الدنيوية والدينية على السواء ـــ كان يسرها أن تضفي حماية خاصة على من وراءه نفع من أمثالهم, ودائمًا ما كان ملوك فرنسا وألمانيا يصادقونهم, كما كان رؤساء الأساقفة في المدن الكبيرة في أراضي الراين يحابونهم محاباة خاصة, على عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلى المال بعد أن حلّ الاقتصـــاد النقدي محل اقتصاد الخدمات, فغرقـــوا في الديـــون أكـــثر فـــأكثر, وزاد استياؤهم مـــن اليهود أكثر فأكثر, بينما رفع اليهود أسعار الفـــائدة عوضـــا عمـــا يفتقدونه من الأمن القانوني , وكانوا كلما ساندهم الحكام المحليون يحققـــون أرباحًـــا فاحشة.

---

(١) (المترجم) يهود السفرديم : أو يهود الفرع الغربي الأوروبي الذين استوطنوا إسبانيا والبرتغال ، ثم اليونـــان وشرق البحر المتوسط وإنجلترا وهولندا والأمريكتين .

(٢) (المترجم) القوط Goth : شعب جرماني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد .
والقوط الغربيون Visigoth : فرع القوط الذي استقر في إسبانيا وفرنسا من القرن الخامس إلى القـــرن الثامن الميلادي .

وطوال القرن الحادي عشر, وبازدياد طبقات المجتمع التي شرعت في الاقتراض من اليهود, تزايد مقت الشعب لهم. وزادهم بدايات الحركة الصليبية مقتًا على مقت; إذ كان استعداد الفارس للذهاب إلى الحرب الصليبية وتجهيز نفسه أمرًا يتطلب أموالاً كثيرة, فإن لم يكن لديه أراض أو ممتلكات, فلا مفر له من الاقتراض من اليهود. ولكن أمن الصواب, كي يخرج هذا الفارس ليحارب من أجل العالم المسيحي, أن يقع في براثن أبناء الجنس الذي صلب المسيح؟ إن الصليبي الفقير كان دائمًا مدينًا لليهود, فهل من الصواب أن يُعاق واجبه المسيحي بالتزامات نحو واحد من الجنس الذي يفتقر إلى التقوى؟ إن التبشير الإنجيلي بالحرب الصليبية يركز على القدس التي شهدت الصلب, وكان لابد من أن يجذب ذلك التبشير الانتباه إلى من عانى المسيح على أيديهم. والمسلمون هم العدو الآن لأنهم يضطهدون أتباع المسيح, ولكن المؤكد أنّ اليهود هم الأسوأ لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه.(١)

وقد سبق أن كان لدى الجيوش المسيحية إبّان الحروب الإسبانية بعض الميل إلى إساءة معاملة اليهود; ففي زمن الحملة إلى باباسترو كتب البابا ألكسندر الثاني إلى أساقفة إسبانيا يذكرهم بالفرق الشاسع بين المسلمين واليهود, فالمسلمون أعداء للمسيحيين لا يمكن التصالح معهم, بينما اليهود على استعداد للعمل من أجل المسيحيين. على أنّ اليهود في إسبانيا كانوا يحظون بما أضفاه عليهم المسلمون من معروف بحيث لا يستطيع الغزاة المسيحيون أن يولوهم ثقتهم.(٢)

في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٩٥ ميلادية راسلت الجماعات اليهودية في شمال فرنسا يهود ألمانيا يحذرونهم من أنّ الحركة الصليبية ربما تسبب المتاعب

---

(١) عن وضع اليهود في هذه الفترة أنظر Graetz, *Geschichte der Juden*, vol vi, pp, pp. 89 ff.

(٢) Letter in *M.P.L.* vol. clxvi, col. 1387.

لجنسهم.(١) ونقلت روايات عن مذبحة لليهود في روين(٢), ويستبعد أن تكون هـــذه المذبحة قد حدثت في الواقع. بيد أن اليهود بلغوا من التوجس حدا يتيـــح لـــبطرس الناسك أن يحقق مأربا منهم, وألمح لهم, دون شك, أنه إذا سارت الأمور على غير ما يرجو فقد يجد صعوبة في السيطرة على أتباعه. وبذا حصل من اليهود الفرنسيين علـــى خطابات تقديم موجهة إلى المجتمعات اليهودية في سائر أنحـــاء أوروبـــا تدعوهـــم إلى الترحيب به, وتقديم كل الإمدادات التي قد يطلبها هو وجيشه.(٣)

وفي تلك الأثناء تقريبا بدأ دوق اللورين الأسفل جودفري أوف بويلون ترتيباتـــه للخروج في الحملة الصليبية. وسرت شائعة في أرجاء المقاطعة بأنه أقسم قبل رحيله أن يثأر لموت المسيح بدم اليهود; فقام اليهود الفزعين في أراضي الراين بحـــث حاخامـــهم الأكبر كالونيموس كي يكتب إلى الإمبراطور هنري الرابع ـــــ وهو السيد الإقطاعي الذي يتبعه جودفري, والذي دائما ما كان يظهر الود لجنسهم, ليدعوه إلى منع ذلـــك الاضطهاد. وفي ذات الوقت, ولكي تكون الجماعات اليهودية في ميـــتز وكولونيـــا في جانب الأمان, قدمت كل منها إلى الدوق مبلغ خمسمائة قطعة فضية . وكتب هنـــري إلى أتباعه الرئيسيين, من الدنيويين والكنسيين, يأمرهم بأن يضمنوا سلامة جميع اليهود في أراضيهم. ولما رأى جودفري أنه نجح بالفعل في ابتزازهم أجاب بأنـــه لم يفكـــر في الاضطهاد على الإطلاق, وأعطى الضمان المطلوب عن طيب خاطر. (٤)

---

(١) Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 11; Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. ii, p. 169

(٢) (المترجم) روين : مدينة وميناء شمال شرق فرنسا على نهر السين .

(٣) Salomon bar Simeon, *Relation,* in Neubauer and Stern, *op. cit.* pp. 25, 131
The *Notitiae Duae Lemovicenses de praedicatione Crucis in Aquitania*,p.351
وفي هذا التاريخ الأخير إلماع بعبارات غامضة إلى مذابح حدثت في مختلف المدن الفرنسية .

(٤) .Salomon bar Simeon, p. 87; Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1098, p. 208

وإذا كان في مأمول اليهود إنقاذ أنفسهم من تهديدات الحمية المسيحية بمثل هذا الثمن البخس فسرعان ما يكتشفون أنهم قد خدعوا; ذلك أنه في نهاية إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية انطلق المدعو فولكمار, الذي لا نعرف شيئا عن أصله, من أراضي الراين وبصحبته ما يزيد على عشرة آلاف رجل ليلحقوا ببطرس في الشرق. وسلك الطريق الذاهب إلى المجر عبر بوهيميا(١), وبعد ذلك بأيام قليلة رحل تلميذ بطرس القديم جوتشوك مع مجموعة أكبر قليلا عبر الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس أعلى نهر الراين وعبر بافاريا.(٢) وفي نفس الوقت قام لورد صغير في أراضي الراين هو الكونت إيمش أوف ليزنجن بجمع جيش ثالث, وكان قد اكتسب شهرة معينة تتصف بالفوضى وقطع الطرق. على أنه زعم أن الصليب قد طبع على لحمه بمعجزة. وفي ذات الوقت استطاع, وهو الجندي المعروف بحنكته, أن يجتذب إلى لوائه نوعية ضخمة وهائلة من المجندين ويتحكم فيها بشكل يفوق ما يستطيعه الواعظان فولكمار وجوتشوك, وانضم إليه حشد من الحجاج المتحمسين البسطاء, تتبع البعض منهم "أوزة" زعموا أن الوحي هبط عليها من الرب. لكن جيشه كان يضم كذلك بعضا من النبلاء الفرنسيين والألمان مثل لوردات زويبروكن, وسالم, وفيرننبرجر, وهاريمان أوف ديلينجن, ودوجو أوف نيسل, وكلارامبالد أوف فيندويل, وتوماس أوف لافير, ووليم فايكونت أوف ميلون الذي اكتسب لقب النجار بسبب قوته البدنية الهائلة.(٣)

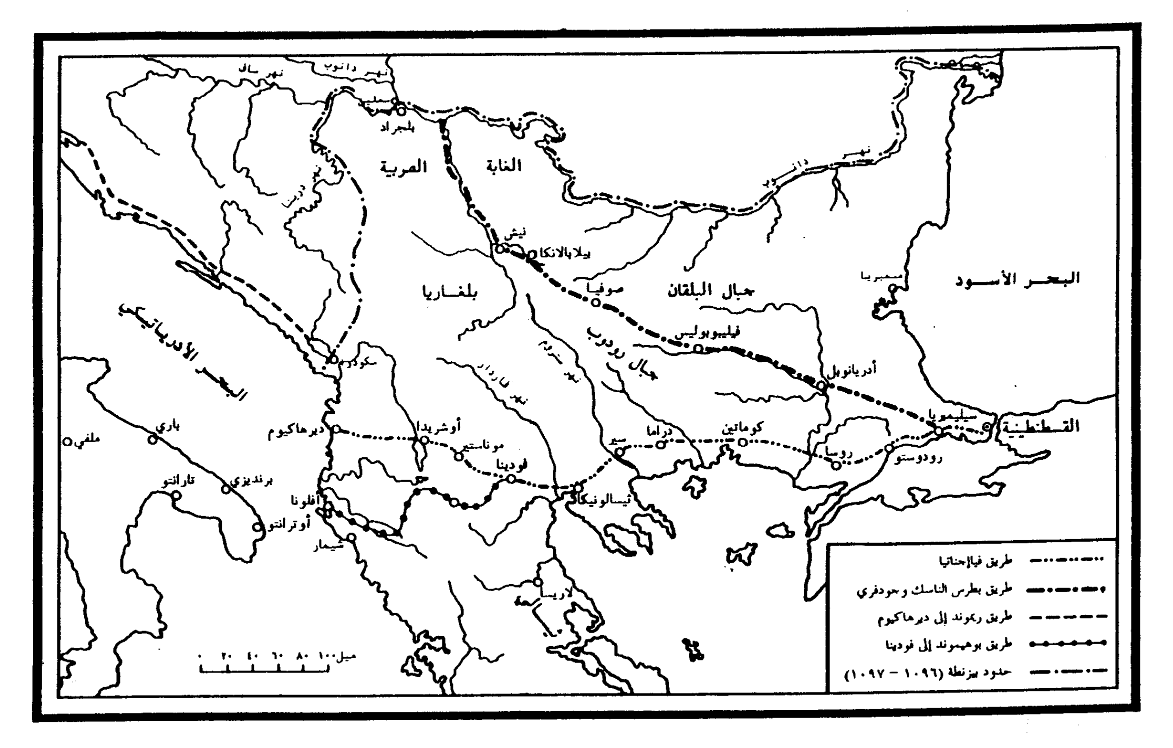
---

(١) Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 20; Cosmas of Prague, *Chronicon*, III, 4, p. 103

(المترجم) : بوهيميا : تشيكوسلوفاكيا الحالية .

(٢) Albert of Aix, 1, 23, pp. 289-90; Ekkehard, *op. cit.* p. 20

(٣) Albert of Aix, 1, 27, 28, pp. 292-4, 30, p. 295, 31, p. 299; Ekkehard, *op. cit.* p. 20-1



خريطة رقم (٢) : شبه جزيرة البلقان في وقت الحملة الصليبية الأولى

المذابح الأولى

وربما كان صنيع بطرس والدوق جودفري هو الذي أوحى إلى إيميش بمدى سهولة استغلال الحميّة الدينية لتحقيق مصلحته الذاتية ومصلحة رفاقه, فتجاهل الأوامر الخاصة التي أصدرها الإمبراطور هنري, وحثّ اتباعه على الشروع في حملتهم الصليبية في الثالث من مايو (آيار) بهجوم على الأقلية اليهودية في ناحية سباير القريبة من مترله. ولم يكن هجومه مؤثرًا, فقد أسبغ أسقف سباير حمايته على اليهود الذين استأثروا بتعاطفه معهم بعد أن قدموا إليه هدية قيمة. ولم يقع في أسر الصليبيين سوى اثني عشر يهوديًا ذبحوا بعد رفضهم اعتناق المسيحية. وانتحرت واحدة من اليهوديات لتحافظ على عفتها, وأنقذ الأسقف الباقين, بل واستطاع القبض على عدد من القتلة وقُطعت أيديهم جزاء ما فعلوا.(١)

وبرغم ضآلة مذبحة سباير إلاّ أنها فتحت الشهية; فقد وصل إيميش وجنوده إلى ورمز في الثامن عشر من مايو (أيار), وسرعان ما انتشرت شائعة بأن اليهود خطفوا مسيحيًا وأغرقوه واستخدموا الماء الذي حفظوا فيه جثته في تسميم آبار المدينة. ولم يكن اليهود محبوبين في ورمز ولا في المناطق الريفية المحيطة, وترتب على الشائعة أن انضم أبناء المدينة والفلاحون إلى رجال إيميش في هجومهم على حيّ اليهود, وقُتل كل من أُلقي القبض علية من اليهود. وكما حدث في سباير, تدخل الأسقف وفتح قصره ليلوذ به اليهود, على أنّ إيميش والجموع الغاضبة اقتحمت البوابات واندفعت إلى

(١) Salomon bar Simeon, Eliezerbar Nathan and Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Ncubauer and Stern, *op. cit.* vol. ii, pp. 84, 154-6, 171; Bernold, *Chronicon*, p. 465

الكنيسة حيث قتلوا ــ رغم اعتراضات الأسقف ــ كل ضيوفه البالغ عددهم نحو خمسمائة. (١)

مذابح في ميتز وكولونيا

وقعت مذبحة ورمز في العشرين من مايو (أيار), وفي الخامس والعشرين وصل إيميش أمام مدينة ميتز العظيمة, ووجد بواباتها مغلقة دونه بأوامر من رئيس الأساقفة روثارد, إلاّ أنّ أخبار مجيئة أثارت أعمال الشغب المناهضة لليهود داخل المدينة وقُتل أثناءها أحد المسيحيين. وهكذا فتح أصدقاء إيميش بوابات المدينة من الداخل في السادس والعشرين من مايو (أيار), وأرسل اليهود المتجمعين في معبدهم هدايا عبارة عن مائتيّ مارك فضي لرئيس الأساقفة ورئيس المدينة اللورد الدنيوي متوسلين أخذهم إلى قصريهما. وفي نفس الوقت ذهب مبعوث يهودي إلى إيميش وابتاع منه وعدًا بالإبقاء على حياتهم في مقابل سبعة جنيهات ذهبية. لكن النقود ذهبت هباء; فقد هاجم في اليوم التالي قصر رئس الأساقفة روثارد الذي أسرع بالفرار مع مساعديه كلهم بعد أن استشعر الخطر من حماس المهاجمين الذين اقتحموا المبنى فور رحيله, وحاول اليهود المقاومة لكنهم سرعان ما غلبوا وقتلوا. وربما كان حاميهم الدنيوي الذي اندثر اسمه أكثر شجاعة, ولكن إيميش نجح في إشعال النيران في قصره وأجبر نزلاءه على إخلائه, وأنقذ العديد من اليهود أرواحهم بالارتداد عن دينهم وقتل الباقون. واستمرت المذبحة ليومين آخرين, بينما كان يجري جمع الهاربين. وندم بعض المرتدين على ضعفهم فانتحروا, وقام أحدهم قبل أن يقتل نفسه وعائلته بحرق المعبد اليهودي ليدرأ عنه المزيد من التخريب, وهرب الحاخام الأكبر كالونيموس من المدينة ومعه نحو خمسين يهوديًّا

---

(٢) Salmon bar Simeon, p. 84; Eliezer bar Nathan, pp. 155-6; Anonymous of Mainz-Darmstdt,p. 172

إلى مدينة روديشيم, وتوسلوا إلى رئيس الأساقفة ــ الذي كان في القصــــر الريفــي الخاص به ــ أن يحميهم, ولمّا رأى رئيس الأساقفة الفزع باديًّا على زائريه بدا لــــه أنّ اللحظة مواتية ليراودهم عن دينهم, وكان ذلك فوق ما يتحمله كالونيموس, فاختطف سكينًا وانقض على مضيِّفه, غير أنه حيل بينه وبين ذلك. ودفع هو ورفاقه أرواحــــهم ثمنًا للتهور. وبلغ عدد الذين قتلوا في ميتز نحو ألف من اليهود.(١)

وتقدم إيمش بعد ذلك باتجاه كولونيا التي حدثت فيها بــــالفعل أعمــــال شغــب مناهضة لليهود في شهر إبريل (نيسان). وأصيب اليهود بالهلع لدى سماع أنباء ميـــتز, فتبعثروا في القرى المجاورة وفي منازل أصدقائهم من المسيحيين الذين أخفوهم يوم عيد العنصرة, أول يونية (حزيران), واليوم التالي له, أثناء وجود إيميش في الجـــوار. وقــد أحرق المعبد اليهودي وقتل يهودي ويهودية رفضا الارتداد, ولكن نفوذ رئيس الأساقفة حال دون التمادي في الاضطهاد.(٢)

وفي كولونيا قرر إيميش أن مهمته في أراضي الراين قد اكتملت, فانطلق في أوائل يونية (حزيران) مع سواد قواته أعلى نهر مين إلى المجر. ولكن جماعة من أتباعه رأت أن وادي نهر موسيل ينبغي تطهيره هو الآخر من اليهود, وانفصلوا عن جيشه في مدينـــة ميتز وواصلوا السير إلى ترابر في أول يونيه (حزيران), حيث كان أغلب اليهود آمنـــين لائذين بقصر رئيس الأساقفة. وما أن اقترب الصليبيون حتى أصيب بعـــض اليـــهود بالذعر فشرعوا يتقاتلـــون فيمـــا بينهـــم , بينما ألقى آخرون بأنفسهم في نهر موسيل

---

(١) Salomon bar Simeon, pp. 87-91; Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178-80; Albert of Aix, I, 27, pp. 292-3 يحدد المؤرخ ألبرت أوف آيكس مذبحة ميتز بعد مذبحة كولونيا .

(٢) Salomon bar Simeon, pp. 116-17; *Martyrology of Nuremburg*, p. 109; Albert of Aix, 1, 26, p. 292

وغرقوا. ثم تحرك مضطهدوهم إلى ميتز حيث قضوا على اثنـــين وعشريـــن يـــهوديًا. ورجعوا إلى كولونيا في حوالي منتصف يونية (حزيران) آملين الانضمام إلى إيميش مرة أخرى, ولمّا وجدوه قد رحل تقدموا أسفل نهر الراين وراحوا يقتّلون اليهود في نيوس , ووفيلنجوفن, وإللار, وكسانتين في الفترة من الرابع والعشرين إلى السابع والعشريـــن من يونية (حزيران), ثم تفرقوا فرجع البعض إلى بيوتهم, وربما التحق آخـــرون بجيـــش جودفري أوف بويلون.(١)

ووصلت أنباء أعمال القتل المجيدة التي حققها إيميش إلى الجماعات التي كانت قد رحلت بالفعل من ألمانيا إلى الشرق. ووصل فولكمار وأتباعه إلى براغ في نهاية مـــايو (أيار). وفي الثلاثين من يونية (حزيران) بدأوا في تقتيل اليهود في المدينـــة, ولم تكـــن السلطات الدنيوية قادرة على السيطرة عليهم, كما لم يكـــن لاعتراضـــات الأســـقف كوسماس العنيفة أيّ صـــدى. وسار فولكمار من براغ إلى داخل المجر, ويبـــدو أنـــه حاول في مدينة نيترا, وهي أول مدينة كبيرة عبر الحدود, أن يسير على نفس الـــدرب, لكن المجريين لم يسمحوا بمثل هذه التصرفات, ولمّا وجدوا الصليبيين على هذا النحو من المشاكسة التي تستعصي على الإصلاح هاجموهم وشتتوا شملهم, فقتل كثيرون ووقـــع آخرون في الأسر, ولم يُعرف مصير فولكمار والباقين على قيد الحياة.(٢)

وأما جوتشوك ورجاله, الذين اتخذوا الطريق الذي يمضي خلال بافاريـــا, فقـــد توقفوا في راتيسبوند ليذبحوا اليهود هناك. وبعد ذلك بأيام قليلة دخلـــوا المجـــر عنـــد فيسلبورج (موسون) , وأصدر الملك كولومان أوامره بمنحهم تسهيلات لإعادة تموينهم طالما كانوا ملتزمين بالنظام. لكنهم كانوا قد بدءُوا نهب البلاد منذ البدايـــة, وراحـــوا

---

(١) salomon bar Simeon, pp. 117-37; Eliezer bar Nathan, pp. 160-3

(٢) Cosmas of Prague, *loc. cit.*

يسرقون النبيذ والغلال والأغنام والثيران, وقاوم الفلاحون المجريون هذا النهب. وحدث قتال وسقطت أعداد كثيرة, وقتل الصليبيون صبيًّا مجريًّا صغيرًا بالخازوق, فأرسل كولومان جنودًا للسيطرة عليهم, وأحاطوا بهم في قرية ستولفيزنبرج الواقعة إلى الشرق قليلاً, وأرغموهم على تسليم أسلحتهم والأمتعة التي سرقوها كلها. ولكن المتاعب استمرت, فربما حاولوا المقاومة, وربما سمع كولومان آنذاك بأحداث نيترا, ومن ثمّ لم يمكنه أن يثق بهم حتى وإن ألقوا سلاحهم. وانقض عليهم الجيش المجري وهم تحت رحمته وكان جوتشوك أول الهاربين ولكنه سرعان ما وقع في قبضتهم وقُتل وتم القضاء على جميع رجاله في المذبحة.(١)

نهاية حملة إيميش

وبعد تلك الأحداث بأسابيع قليلة, اقترب جيش إيميش من الحدود المجرية, وكان أعظم من جيش جوتشوك وأكثر هولاً, واستشعر الملك كولومان الخطر الجسيم بعد تجاربه تلك بالأمس القريب, ولذا رفض السماح بعبور إيميش خلال مملكته حينما طلب الإذن بذلك, وأرسل جنودًا لحماية الجسر الموصل إلى فيسيلبرج فوق رافد لنهر الدانوب. ولم يكن إيميش بالرجل الذي يحيد عن قصده وحارب المجريين على مدى ستة أسابيع في سلسة من المناوشات الصغيرة أمام الجسر بينما كان يبني جسرًا بديلاً آخرًا, وفي نفس الوقت كان رجال إيميش ينهبون البلاد في ضفة النهر التي في حوزتهم. وأخيرًا تمكن الصليبيون من شق طريقهم عبر الجسر الذي بنوه, وحاصروا قلعة فيسيبرج ذاتها, وكان جيشهم جيد التجهيز, ولديهم من أسلحة الحصار القوية ما جعل سقوط المدينة يبدو وشيكًا. غير أنه يحتمل أن شائعة انتشرت بأن الملك قادم بكامل قواته,

---

(١) Ekkehard, *op. cit.* pp. 20-1; Albert of Aix, 1, 23-4, pp. 289-91

فأصاب الصليبيين ذعر مفاجئ تركهم في فوضى عارمة, وعلى الأثر خرجت الحامية وانقضت على معسكرهم, و لم يستطع إيميش أن يعيد تنظيم رجاله, ودارت معركة قصيرة احتثت فيها شأفتهم تماما, وسقط أغلبهم في الميدان, واستطاع إيميش نفسه وقليل من الفرسان الهرب على خيلهم السريعة. وأخيرا عاد إيميش ورفاقه إلى بيوتهم. أما الفرسان الفرنسيون كلارامبالد أوف فيندويل, وتوماس أوف لافير, ووليم النجار فقد التحقوا بحملات أخرى متجهة إلى فلسطين.(١)

وكان لانهيار حملة إيميش الصليبية, في أعقاب انهيار حملتي فولكمار وجوتشوك, اثر عميق في العالم المسيحي الغربي. وبدا الأمر للمسيحيين الطيبين على أنه عقاب نزل عليهم من السماء جزاء قتلهم اليهود. وأما الآخرون الذين كانوا يرون أن الحركة الصليبية كلها حمق وخطأ, فقد رأوا في هذه الكوارث استنكارا صريحا من الرب للحركة الصليبية كلها. و لم يحدث بعد أي شيء يبرر الصيحة التي ترددت أصداؤها في كليرمونت "الرب يشاؤها".(٢)

---

(١) Ekkehard, *op. cit. loc. cit.*; Albert of Aix, 1, 28-9, pp. 293-5

(٢) Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 21 ويقول Albert of Aix, 1, 29, p. 259 إن أناسا كثيرين ظنوا أن فكرة الحملة الصليبية فكرة حمقاء لا طائل من ورائها .

الفصل الثالث:

الأمـــراء والإمبراطـــور

الأمـــــراء والإمبراطـــور

"أَيُكْثِــرُ التَّضَرُّعَاتِ إِلَيْكَ أَمْ يَتَكَلَّمُ
مَعَــكَ باللِّــينِ، هَلْ يَقْطَعُ مَعَكَ
عَهــداً"

(سفر أيوب: إصحاح ٤١، ٣ ـــ ٤)

كان الأمراء الغربيون الذين أخذوا الصليب أكثر صبرًا من بطـــرس وأصدقائـــه. وكانوا على استعداد للالتزام بالجدول الزمني الذي وضعه البابا; إذ كان يجـــب تجميـــع جنـــودهم وتجهيزهـــم ، وينبغي جمع الأموال لهذا الغرض، وعليهم أن يضعوا الترتيبات

لإدارة الحكم في أراضيهم أثناء غيبتهم التي قد تطول لسنوات، و لم يكن أحد منهم على استعداد للرحيل قبل نهاية شهر أغسطس (آب).

وكان أول من غادر موطنه هو هيو، كونت فيرماندوا، المعروف باسم الأصغر. وهو الابن الأصغر للملك هنري الأول الفرنسي، وإبن الأميرة آن أوف كييف ذات الأصل الإسكندنافي، وقد جاوز عمره آنذاك الأربعين بقليل. ويتميز بالمنزلة الرفيعة أكثر ممـــا يتميز بالثروة، وقد حصل على مقاطعته الصغيرة بزواجه من وريثتها، و لم يكن لـــه أيّ دور بارز في السياسة الفرنسية، وكان فخوراً بنسبه، و لم يكن من ذوي القدرة علـــى العمل الفعال. ولا نستطيع أن نستشف دوافعه للانضمام إلى الحملة الصليبية، ولا شكّ في أنه ورث قلق أسلافه الإسكندنافيين، وربما شعر أنّ باستطاعته في الشرق الحصـــول على القوة والثراء الخليقين بمنبته الرفيع. وربما شجعه أخوه الملك فيليب على اتخاذ قراره هذا لتفوز الأسرة بالحظوة لدي البابويّة. ولقد ترك أراضيه في رعاية الكونتيسة، وانطلق في أواخر أغسطس (آب) إلى إيطاليا على رأس جيش صغير من أتباعه وبعض الفرسان التابعين لأخيه. وقبل رحيله أرسل رسولاً خاصًا يسبقه إلى القسطنطينية يطلـــب مـــن الإمبراطور أن يتهيأ لاستقباله بمظاهر الحفاوة التي تليق بأمير تجري في عروقـــه دمـــاء ملكية. وفي طريقه إلى الجنوب انضمّ إليه دروجو أوف نيســـــل، وكلارامبـــالد أوف فندويل، ووليم النجار وغيرهم من الفرسان الفرنسيين العائدين مـــن كارثـــة حملـــة إيميش.(١)

ومرّ هيو وصحبته بروما ، ووصلوا باري في أوائل أكتوبر (تشريـــن الأول) ، وفـــي

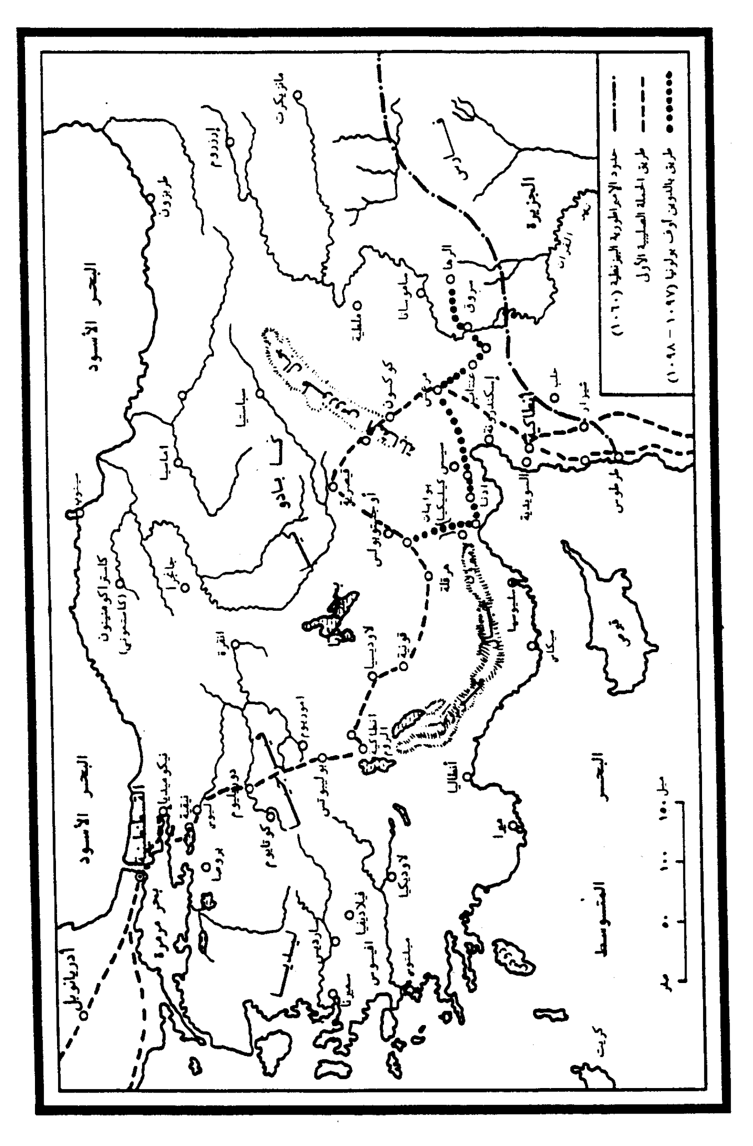
---

(١) Anna Comnena, *Alexiad,* x, vii, II, p.213; *Gesta Francorum*, p.14; Fulcher of Chartres, p. 144-5 وتخبرنا أنا كومنينا أن كونتا يونانيا صاحب الحملة (x, vii, 3, p. 213) ، ويقـــول ألبرت أوف آيكس إن Drogo and Carambald كانا معـــه . وتطلق أنا كومنينا علي هيو Hugh إسم " أوفوس Uvos "

جنـــوب إيطاليا وحدوا الأمراء النورمانديين يستعدون للحرب الصليبية. وقرر وليم ـــ إبن أخت بوهيموند ـــ ألا ينتظر أقاربه وأن يعبر البحر مع هيو. ومن باري أرســـــل هيو سفارة من أربعة وعشرين فارسا بقيادة وليم النجـــار إلي ديرهـــاكيوم لإخطـــار حاكمها بأنه على وشك الوصول، وأعاد طلبه بإعداد استقبال يليـــق بـــه، وهكـــذا استطاع الحاكم جون كومنينوس إخطار الإمبراطور بقدومـــه، واســـتعد هـــو نفســـه لاستقباله. بيد أن وصول هيو لم يحظ بالتكريم الذي منى نفسه به; إذ هبت عاصفـــة حطمت أسطوله الصغير الذي استأجره للعبور وغرقت بعض سفنه بجميـــع ركابهـــا، ولفظ اليم هيو على الشاطئ عند كاب بالي إلى الشمال من ديرهاكيوم بأميال قليلـــة حيث وجده مبعوثو الحاكم ذاهلا غطاه الوحل، ورافقوه إلى سيدهم الذي أعاد تجهيزه على الفور وأو لم له وأحاطه بكامل الرعاية، لكنه وضعه تحت مراقبة دقيقة. واغتبـــط هيو لما وجده من رعاية وتملق، وإن بدا لبعض أتباعه وكأنه سجين. وبقـــى هيـــو في ديرهاكيوم إلى أن جاء من قبل الإمبراطور مسئول على مستوى عال هو أمير البحـــار متنويل بوتوماتيس لمصاحبته إلى القسطنطينية. وكانت رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقا دائريا حول فيليبوبوليس; إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياإجناتيا. وفي رحلته مريحة رغم أنـــه اضطـــر إلى أن يسلك طريقا دائريا حول فيليبوبوليس; إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجـــاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياإجناتيا. وفي القسطنطينية حياة ألكســـيوس بحـــرارة وأغرقه بالهدايا ، لكنه استمر في تقييد حريته . (١)

---

(١) Anna Comnena, x, vii, 2-5, vol. II, pp. 213-15 ، التي تعترف بأن جون كومنينوس لم يترك هيو في كامل حريته وقصتها كاملة ومقنعة . أما المصادر الغربية - *Gesta Francorum* و Fulcher و Albert - فتعلن أنه احتجز سجينـــا سجنا مطلقا لا حول له ولا قوة . ولا تـــدل تصرفاته اللاحقة علي ذلك .



خريطة رقم (٣) : آسيا الصغرى في وقت الحملة الصليبية الأولى

وعند وصول هيو اضطر ألكسيوس إلى الإعلان عن سياسته تجاه الأمراء الغربيين. فقد اقتنع من المعلومات التي توفرت لديه، وتذكره لمصير روسيل أوف بيلويل، أنه مهما تكن الأسباب الرسمية المعلنة للحرب الصليبية، فإنّ الهدف الحقيقي للفرنج هو أن يحصلوا على إمارات في الشرق. و لم يكن ليعترض على ذلك. ومادامت الإمبراطوريّة قد استردت جميع الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزوات التركية، فهناك تفكير آنذاك في أن تكون تلك الدويلات مستقلة. ذلك أنّ ألكسيوس أراد التأكد من أنه سيكون من الواضح أنه السيد الأعلى لأيّة دويلة قد تنشأ. ولعلمه أنّ الولاء في الغرب يؤخذ بقسم غليظ، فقد قرر أن يطلب من جميع القادة الغربيين أن يقسموا هذا القسم كيّ يساندهم في غزواتهم المقبلة. ولكيّ يضمن التزامهم بالقسم كان على استعداد لأن يغمرهم بعطاياه وإعاناته مما يؤكد ثراءه ومجده فلا يشعرون انتقاصًا لكرامتهم إذا ما أصبحوا رجال الإمبراطور. وانبهر هيو بعظمة الإمبراطور وكرمه، فوافق على خططه عن طيب خاطر. على أنه لم يكن من اليسير إقناع من جاء بعده من الغرب بذلك.

جودفري أوف لورين

وأمّا جودفري أوف بويلون، دوق اللورين الأسفل، فيظهر في الأساطير المتأخرة على أنه الفارس المسيحي المثالي والبطل الفذّ في الملحمة الصليبية بكاملها. بيد أن الدراسة المدققة للتاريخ لابدّ لها من أن تعدّل هذا الحكم. وُلد جودفري سنة ١٠٦٠ ميلادية تقريبًا وهو الابن الثاني للكونت إيوستاس الثاني أوف بولونيا وإيدا، ابنه جودفري الثاني دوق اللورين الأسفل الذي ينحدر من ناحية أمه من شارلمان. واختير وريثًا لممتلكات عائلة أمه، ولكن بعد موت والدها صادر الإمبراطور هنري الرابع الدوقيّة، و لم يترك لجودفري سوى كونتيه أنتويرب ولورديه بويلون في آردن(١).

---

(١) (المترجم) آردن (Ardennes): هضبة مشجرة شمال شرق فرنسا وجنوب بلجيكا ولوكسمبورج .

ومع ذلك كان جودفري مخلصا للإمبراطور في حملته الألمانية والإيطالية سـنة ١٠٨٢ ميلادية ، حتى خلع عليه الإمبراطور الدوقيه ولكن كمنصب وليس كإقطاعية موروثة . وكانت اللورين غارقة في النفوذ الكلاني، ومن الجائز أن تكون التعاليم الكلونية بما فيها من تعاطف بابوي قوي، بدأت تسبب الاضطراب في ضمير جودفري، برغم إخلاصه للإمبراطور. و لم تكن إدارته للورين إدارة تتصف بالكفاءة، ويبدو أنه كـانت هنـاك بعض الشكوك فيما إذا كان الإمبراطور هنري الرابع سوف يسـتمر في اسـتخدامه. وهكذا، فإن تلبيته لنداء الحرب الصليبية تنبع من يأسه من مستقبله في اللوريـن مـن ناحية، ومن مشاعر القلق المتعلقة بإخلاصه الديني من ناحية أخـرى، ومـن حماسه الأصيل من ناحية ثالثة. وأعد ترتيباته إعدادا شاملا; فبعد أن جمع الأموال ابتزازا مـن اليهود باع ضياعه في روزاي وستيناي الواقعة على نهر ميوز(١)، ورهن قلعته في بويلون لدى أسقف ليج. وبذا تمكن من تجهيز جيش ضخم، فكان ذلك بالإضافة إلى منصبه الرفيع السابق يسبغان عليه هيبة زاد منها طبعه اللطيف ومظهره الوسيم، إذ كان طويل القامة، قوي البنية، أشقر اللون، أصفر شعر اللحية والرأس، أي الصورة المثالية للفارس الشمالي. ولكنه كان جنديا غير مكترث، وأما شخصيته فقد توارت في ظل شخصية أخيه الأصغر بالدوين.

وأخذ أخوه الصليب أيضًا. فأما الأكبر إيوستاس الثالث كونت بولونيا، فكـان صليبيًّا غير متحمّس، في شوق دائم إلى العودة إلى أراضيه الخصبة على جـانبي القنـال الإنجليزي، وكان عدد الجنود الذين قدمهم يقل بكثير عما أسهم به جودفري، واكتفى بأن يتطلع إلى جودفري على أنه القائد. ربما ارتحل بمفرده عـبر إيطاليـا. وأمّـا الأخ الأصغر بالدوين الذي صاحب جودفري، فكان من نمط مختلف; إذ كان مُقدراً له من قبل أن يصبح قسيسًا، ولذا لم يخصص له أيّ شيْء من ممتلكات الأسرة. وعلى الرغم

---

(١) (المترجم) ميوز Meuse: نهر يتدفق من شمال شرق فرنسا عبر بلجيكا وهولندا إلى بحر الشمال .

من أن تدريبه في المدرسة الكبرى في ريم أكسبه تذوقا للثقافة، فلم تكن طباعه طبـــاع رجل الكنيسة. فعاد إلى الحياة الدنيوية ومن الواضح أنه التحق بالخدمـــة مـــع أخيـــه جودفري في اللورين. وكان الأخوان يشكلان تناقضا مذهلا; فكان بالدوين أطول من جودفري، وكان شعره داكنا بقدر ما كان شعر أخيه أشقرا، ولكن جلده أبيض شديد البياض، وبينما نجد جودفري كريم الطبع كان بالدوين متعاليا باردا، وكانت ميـــول جودفري تتصف بالبساطة على عكس بالدوين الذي يحب الأبهة والترف برغم إمكانه تحمل المشاق الهائلة. وكانت حياة جودفري الخاصة هي حياة العفة، أما بالدوين فكان يطلق لنفسه العنان لتنغمس في الملذات الجنسية. ورحب بالدوين بـــالحرب الصليبيـــة باغتباط; فلم يكن له مستقبل في وطنه، أما في الشرق فربما يجد لنفسه مملكة. وعندمـــا شرع في الرحلة إلى الشرق اصطحب معه زوجته النورماندية جودفـــير أوف توســـني وأطفاله الصغار، فلم يكن ينوي العودة.

وانضم إلى جودفري وأخويه الكثير من الفرسان البارزين من أراضـــي والـــون ولوثارنج(١): فانضم إبن خالتهم بالدوين أوف ريثيل لورد لوبورج، وبالدوين الثـــاني كونت هينولت، وريتالد كونت تول، ووارنر أوف جراي، ودودو أوف كـــونز -

---

(١) (المترجم): والون ولو ثارنج : جنوب وجنوب شرق بلجيكا بالقرب من فرنسا .

ساربورج وبالدوين أوف ستافيلوت، وبطرس أوف ستيناي، والأخوان هنري وجيوفري أوف إيش.(١)

جودفري في المجر

و لم يشأ جودفري أن يسلك طريق إيطاليا الذي يسلكه القادة الصليبيون الآخرون. ربما لأنه شعر ببعض الحرج من البابوية لما له من مواقف مساندة للإمبراطور، وبدلا من طريق إيطاليا قرر الذهاب عن طريق المجر، بحيث يسلك الطريق الذي سلكته "حملة الشعب"، ليس ذلك وحسب، وإنما أيضا ــ وطبقا للأسطورة التي كانت تنتشر آنذاك في الغرب كله ــ الطريق الذي سلكه جده شارلمان نفسه في طريق حجه إلى القدس. وغادر اللورين في نهاية أغسطس (آب)، وبعد مسيرة أسابيع قليلة أعلى نهر الراين وأسفل نهر الدانوب، وصل في بداية أكتوبر (تشرين الأول) إلى الحدود المجرية على نهر ليثا. ومن هناك أرسل سفارة يرأسها جودفري أوف إيش، الذي كانت له تجارب سابقة في البلاط المجري، إلى الملك كولومان بطلب الإذن لعبور أراضيه.

---

(١) عن سيرة حياة Godfrey of Lorraine المبكرة، أنظر: Breysig, 'Gottfried von Boullion vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift fur Geschichte* vol. xvii, pp. 169 ff. ويورد Albert of Aix, II, I, p. 229 قائمة برفاقه. ويرد وصف مظهره لدي William of Tyre (IX, 5, p. 371) and Baldwin's *ibid.* (X,2,pp. 401-2) وطبقا لما أورده المؤرخ Albert (ii, 21, p. 314) خرج Eustace of Boulogne مرتحلا مع جيش فرنسي شمالي؛ لكن Fulcher، الذي ارتحل مع ذلك الجيش ولديه معلومات كاملة عنه لا يذكر حضوره. وربما كان أحد الفرسان الذين وصلوا بحرا إلي القسطنطينية بعد جودفري مباشرة.

لكن كولومان عانى مؤخرًا أشدّ المعاناة من الصليبيين بحيث لم يكن بوسعه الترحيب بغزو جديد، فاحتجز السفارة ثمانية أيام، ثم أعلن أنه سيلتقي مع جودفري في أويدنبرج. وجاء جودفري مع بعض فرسانه، ودعاه الملك لقضاء بضعة أيام في البلاط المجري. وتولد لدى كولومان من هذه الزيارة انطباع بالموافقة على مرور جيش جودفري عبر المجر شريطة أن يبقى بالدوين وزوجته وأولاده عنده كرهائن، بعد أن استنتج بفراسته أنه أخطرهم. وعندما عاد جودفري إلى جيشه رفض بالدوين أولاً تسليم نفسه، لكنه رضخ آخر الأمر. ودخل جودفري وجنوده المملكة عند أويدنبرج، ووعد كولومان أن يمدهم بالمؤن بأسعار معتدلة بينما أرسل جودفري المنادين في أنحاء جيشه معلنًا أنّ الموت سيكون جزاء من يقترف عملا من أعمال العنف. وبهذه الاحتياطات الأمنية سار الصليبيون بسلام خلال المجر وهم تحت المراقبة الدقيقة من الملك وجيشه طوال الطريق، وتخلفوا في مانجيلوز بالقرب من الحدود البيزنطية لإعادة تموينهم بالمؤن. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) وصل جودفري إلى سيميلين، واقتاد جنده بنظام عبر نهر ساف إلى بلجراد، وما أن عبروا الحدود عاد الرهائن.

وكانت السلطات الإمبراطورية مهيأة للترحيب بالجيش، وربما علمت سلفًا بوصوله من المجريين. وكانت بلجراد ذاتها مهجورة منذ أن انتهبها بطرس قبل ذلك بخمسة أشهر. وأسرع البعض من حرس الحدود إلى نيش حيث يقيم الحاكم نيستاس ومعه الحرس في انتظار جودفري، وانطلق الحرس في الحال وقابلوه في الغابة الصربية الواقعة في منتصف الطريق بين نيش وبلجراد. وكانت الترتيبات قد اتخذت بالفعل لتموين الجيش. وهكذا تقدم الصليبيون عبر شبه جزيرة البلقان بلا مشاكل. وفي فيليبوبوليس علم الصليبيون بأنباء وصول هيو أوف فيرمندوا إلى القسطنطينية، وعن الهدايا الرائعة التي تلقّاها هو ورفاقه. وكان لتلك الأنباء أعمق الأثر لدى بالدوين أوف هينولت وهنري أوف إيش حتى أنهما قررا الإسراع ليسبقا الجيش إلى العاصمة ليضمنا

نصيبهما من الهدايا قبل وصول رفاقهم، ولكن ترددت شائعة ــ لا تخلو تماماً من الصحة ــ بأن هيو محتجز كسجين مما سبب بعض القلق لجودفري.(١)

وصول جودفري إلى القسطنطينية

وفي الثاني عشر من ديسمبر (كانون الأول) توقف جيش جودفري في سيليمبريا على بحر مرمرة. وهناك انفرط عقد نظامه فجأة بعد أن ظل منضبطا تماما حتى تلك اللحظة. ولثمانية أيام أخذ الجنود يعيثون في الأرض فسادا، وأما سبب هذه الفوضى فليس معروفا رغم أن جودفري حاول تبريرها كعمل من أعمال الثأر لسجن هيو. وعلى الفور أرسل الإمبراطور ألكسيوس اثنين من الفرنسيين كانا في خدمته هما رادولف بيلدلو وروجر إبن داجوبرت للاحتجاج لدى جودفري ولحثه على الاستمرار في مسيرته بسلام. ونجحا في مهمتهما ووصل جيش جودفري إلى القسطنطينية في الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون الأول)، وبناء على طلب الإمبراطور عسكر الجيش خارج المدينة أعلى مياه القرن الذهبي (٢).

واعتبرت الحكومة الإمبراطورية أن وصول جودفري على رأس جيش كبير جيد التجهيز يشكل معضلة عسيرة. فسياسة الإمبراطور تقضي بالتأكد من ولاء جودفري وإخراجه على وجه السرعة من العاصمة درءا للمخاطر، ومن المشكوك فيه ما إذا كان ألكسيوس قد ارتاب حقا في أن يكون لدى جودفري مطامع في القسطنطينية ، لكن

---

(١) يرد وصف رحلة جودفري وصفا كاملا في تاريخ Albert of Aix, II, 1-9, pp. 299-305 ويرد وصف قصير في تاريخ زيمرن The *Chronicle of Zimmern*, pp. 21-2 ولا ترد الرحلة الفعلية في أية مصادر يونانية .

(٢) (المترجم) : القرن الذهبي : جزء من اسطنبول يعتبر " اسطنبول الحديثة " ولا يزال يعتبر " حي الأجانب " كما كان منذ القرن العاشر .

ضواحي المدينة سبق وأن عانت الأمرين من أتباع بطرس الناسك المفسدين، ومن الخطورة أن تتعرض تلك الضواحي لجيش لا يقلّ فوضوية عن سابقه ويفوقه تسليحًا.

وكان على الإمبراطور أن يحصل أولاً على يمين الولاء من جودفري الذي ما أن استقر في معسكره حتى أرسل إليه الإمبراطور هيو أوف فرمندوا يدعوه لمقابلة الإمبراطور، وقد قبل هيو القيام بهذه المهمة وهو أبعد ما يكون عن الاستياء من معاملة الإمبراطور له.

ورفض جودفري دعوة الإمبراطور. لقد استعصت الأمور عليه. إذ شعر بالحيرة من موقف هيو، واتصل جنوده ببقايا قوات بطرس، الذين عزا أغلبهم الكارثة التي لحقت بهم مؤخرًا إلى الخيانة الإمبراطورية مما كان له أثر عليه. وقد سبق أن أقسم جودفري قسم ولاء شخصي للإمبراطور هنري الرابع باعتباره دوقًا للورين الأسفل، وربما ظنّ أنّ ذلك يحول دون القسم بالولاء للإمبراطور الشرقي الغريم، وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يرغب في اتخاذ أية خطوة هامة قبل استشارة القادة الصليبيين الآخرين وهو يعلم أنهم على وشك الوصول، فرجع هيو إلى القصر دون أن يحمل معه ردًا لألكسيوس.

وغضب ألكسيوس. وبحركة تخلو من الحكمة أوقف الإمدادات التي سبق أن وعد جودفري بها حتى يمتثل. وبينما تردد جودفري في الإغارة على الضواحي شرع بالدوين على الفور في ذلك إلى أن وعد ألكسيوس برفع الحظر عن الإمدادات، ووافق جودفري على نقل معسكره إلى جنوب الرأس الذهبي عند بيرا حيث المأوى من رياح الشتاء أفضل وحيث تتمكن الشرطة الإمبراطورية من مراقبته عن كثب بشكل أكبر. ولبعض الوقت لم يتخذ أيّ من الجانبين أيّ إجراء آخر، وسمح الإمبراطور بتموين جنود الغرب بما يكفيهم من المؤن، وتمكن جودفري من جانبه من أن يحفظ النظام. وفي نهاية يناير (كانون الثاني) أعاد ألكسيوس دعوة جودفري، لكنه كان ما يزال غير راغب في الالتزام قبل أن يشترك معه قادة آخرون من الصليبيين ، فأرسل إبن عمه بالدوين أوف

لوبورج ومعه كونون أوف مونتيجو وكذلك جيوفري أوف إش إلى القصر ليسمعوا مقترحات الإمبراطور، ولكنه بعد عودهم لم يرسل أيّ رد إلى الإمبراطور. و لم يكن ألكسيوس راغبًا في استثارة جودفري حتى لا يعاود تخريب الضواحي. وبعد أن استيقن من عزلة أهل اللورين عن العالم الخارجي انتظر آملا أن يفرغ صبر جودفري ويتفق معه.

معركة الأسبوع المقدس

وفي نهاية مارس (آذار) علم ألكسيوس باقتراب وصول جيوش صليبية أخرى إلى القسطنطينية، فلم يجد مَنْدُوحَة من تصعيد الموقف، وأمر بتقليل الإمدادات المرسلة إلى معسكر الصليبيين فبدأ بمنع إرسال الأعلاف لخيولهم، وباقتراب أسبوع الآلام منَع الأسماك، وأخيرًا منَع الخبز. ورد الصليبيون بشن غارات يومية على القرى المجاورة، واشتبكوا في نهاية الأمر مع جنود البتشنج الذين كانوا يقومون بدور رجال الشرطة في المنطقة. وانتقم بالدوين بأن نصب كمينًا للشرطة أسر فيه ستين رجلا وأعدم الكثير منهم، وأما جودفري فقد شجعه ذلك النجاح الضئيل وأحس بأنه ملتزم بالقتال فقرر أن ينقل معسكره وأن يهاجم المدينة نفسها. وبعد أن نهب بيوت بيرا، التي كان يقيم فيها رجاله، نهبًا كاملاً وأحرقها، قاد قواته عبر جسر يعلو القرن الذهبي وانتهى بهم إلى أسوار المدينة وبدأ يهاجم الحي الذي يقع فيه قصر بلاتشرني. ومن المشكوك فيه أنه كان يستهدف ما يجاوز الضغط على الإمبراطور، ولكن اليونانيين ظنوا أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على الإمبراطورية.

وكان يوم الخميس من أسبوع الآلام الموافق للثاني من إبريل (نيسان)، و لم تكن القسطنطينية مهيأة لمثل هذا الهجوم، وقد بدت مظاهر الذعر في المدينة و لم يلطّف من حدها سوى وجود الإمبراطور الذي كانت تصرفاته تدل على أنه غير عابئ بذلك

الهجوم. وإنّما صدم ألكسيوس صدمة عميقة لاضطراره إلى القتال في مثل هذا اليـــوم المقدس، فأمر جنوده بالقيام باستعراض عسكري خارج البوابات دون أن يشتبكوا مع العدو بينما أصدر تعليماته إلى الرماة على الأسوار بأن يرموا ســـهامهم فـوق رؤوس الصليبيين. و لم يشدد الصليبيون هجومهم وسرعان ما تراجعوا و لم يقتلوا سوى ســبعة من البيزنطيين. وفي اليوم التالي خرج هيو أوف فرمندوا مرة أخرى ليعاتب جودفـــري الذي رد عليه بأن عيره بالعبودية التي اتسم بها قبوله أن يكون تابعًا للإمبراطور. وأرسل ألكسيوس بعد ذلك مبعوثين إلى المعسكر يقترحون أن تمضـــي قـــوات جودفـــري في طريقها إلى آسيا، حتى قبل أن يقسم جودفري القسم. لكن الصليبيين تقدموا لمهاجمـــة المبعوثين دون تريث وقبل أن ينصتوا لما جاءوا به. وعلى ذلك قرر ألكســـيوس إنهـــاء الأمر، واندفع بقوات أكبر للتصدي للهجوم، و لم يكـــن الصليبيـــون أنـــدادًا لجنـــود الإمبراطورية المتمرسين، فبعد قتال قصير استداروا مولين الأدبار، وتحقق جودفري من ضعفه بعد هزيمته، فرضخ للطلبين: قسم الولاء، ونتقال جيشه عبر البوسفور.

احتفال التكريم

وبعد ذلك بيومين على الأرجح، أيّ في يوم أحد الفصح، أُقيمـــت احتفـــالات حَلف اليمين، فأقسم جودفري وبالدوين ولورداتهـــم الرئيســـيون علـــى الاعـــتراف بالإمبراطور سيدًا أعلى في جميع غزواتهم، وعلى أن يسلموا إلى مسئولي الإمبراطور جميع الأراضي المستردة التي كانت تابعة للإمبراطور فيما سبق، ثم تسلموا هدايا وفـــيرة مـــن الأموال، وبعد ذلك أو لم لهم الإمبراطور وليمة أظهر فيها ضروب الحفاوة، وفور انتهاء الاحتفـــالات انتقـــل جودفري وجنوده في السفن إلى خلقدونية وواصلوا سيرهم إلى

مضرب خيام في بيليكانوم على الطريق إلى نيكوميديا.(١)

ولم يكن لدى ألكسيوس وقت يضيّعه، فقد وصل بالفعل إلى ضواحي المدينة جيش مخلّط يتكون على الأرجح من مختلف أتباع جودفري الذين فضلوا الارتحال عن طريق إيطاليا والأغلب أنهم كانوا تحت إمرة كونت تول، ووصلوا إلى بحر مرمرة بالقرب من سوثينيوم. وأظهروا نفس الشراسة التي أظهرها جنود جودفري، ورغبوا في انتظار بوهيموند والنورمانديين الآتين وراءهم، وفي ذات الوقت قرر الإمبراطور منعهم من اللحاق بجودفري، لكنه لم يستطع ضبط تحركاتهم إلاّ بعد شيء من القتال. وبعدما عبر جودفري البوسفور بسلام نقلهم الإمبراطور بحرًا إلى العاصمة حيث انضموا إلى جماعات أخرى من الصليبيين كانت قد هامت على وجهها عبر البلقان. وكان على

---

(١) هناك روايتان عن سلوك جودفري في القسطنطينية تعتبران الأكثر اكتمالا وهما الواردتان في تاريخين : Anna Comnena, *Alexiad,* x, ix, 1 - 11, vol. II, pp. 220-6 and Aibert of Aix, II, 16, pp. 305-11. وكما أشار Chalandon, في تاريخه *Histoire de la première Croisade,* pp. 119-29 فإن رواية أناكومنينا أكثر إقناعا بكثير من رواية ألبرت ، وفي الإمكان قبولها على أنها رواية حقيقية ، بخلاف مبالغتها في قوة جيش جودفري . وتري رواية أقصر يشوبها الكثير من التحامل في *Gesta Francorum,* 1,3, pp. 14-18 وموقع بيليكانوم Pelecanum الدقيق غير يقيني.ويحدده Leib في طبعته لأنا كومنينا (vol. II, p. 226 n. 2) بأنه Herek على بعد حوالي ستة عشر ميلا غرب نيكوميديا . ويقول Ramsay ضمنا في *Historical Geography of Asia Minor,* p. 185 إنه كان أقرب إلى Chalcedon ويتضح من أنا كومنينا (أنظر ما يلي ص ٢٢٦) أن الموقع كان قريبا من مكان العبور إلى سيفيتوت وأنه مصمم في ذلك المكان بصورة ملائمة لدوام الإتصال بالقسطنطينية . والمؤرخ الآخر الوحيد الذي ذكره John Contacuzenus يحدد مكانه شرقي داسيبيزا Dacibyza وهي جبيز الحديثة (vol. 1, pp. 342 ff)--

الإمبراطور أن يستعمل كل ما أوتي من لباقة إلى جانب الهدايا الكثيرة لإقناع قـــادتهم بأن يقسموا قسم الولاء. وعندما رضخوا في نهاية الأمر زاد ألكسيوس من أهمية المناسبة بـــأن أحضر جودفري وبالدوين ليشهدا الاحتفال. واللوردات الغربيون أهـــل غـــل وتمرد، إذ جلس أحدهم على عرش الإمبراطور، فانتهره بالدوين بحدة وذكره بأنه أصبح لتوه من أتبـــاع الإمبراطور، وطلب منه أن يراعي تقاليد البلاد، فتمتم الغربي حانقـــا أنه من الجلافة أن يجلس الإمبراطور بينما يقف الكثير من الضبـــاط المغـــاوير. وسمـــع ألكسيوس تلك الملاحظة، وبعد أن أمر بترجمتها طلب محادثة الفارس، وعندما بدأ ذلك

Gebze وتغـــادرالعبـــــارة Aegiali الواقعة في منتصف الطريق بين Gebze و Herek على بعد حوالي ستة أميال من كل منهما . وبحسب رواية أنا كومنينا (XI, iii, 1, vol. III, p. 16) استقبـــل ألكسيوس الصليبييـــن في بيليكانوم بعد سقوط نيقيـــة ؛ غـــير أن ستيفـــن (أوف بلـــوا) يقـــول (Hagenmeyer, Die *Kreuzzugsbriefe*, p. 140) إن ألكسيوس كان على جزيرة عندما قابله في تلك المناسبة . ويتضـــح أن Pelecanum ، أيا ما كان موقعها ، لم تكن جزيرة ، ولا يمكن أن تكون هي شبه جزيرة أجيالـــي egiali التي تعطيها أنا كومنينا إسمها الصحيح . ويعتبر الدليل الـــذي ساقه ستيفن فـــي هـــذه النقـــطة دليلا يعتمد عليه . ولذلك ، يرجح أن Pelecanum نفسهـــا كانـــت قريبـــة مـــن Aegiali ، وأن ألكسيوس قد انتقل عائدا إلى إحدى الجزر المقابلة للساحل ، إما الجزيرة المواجهة لـــ تـــوزلا Tuzla (على بعد اثني عشر ميلا غرب Aegiali) ، حيث لاتزال توجد بقايـــا كثيرة يرجـــع تاريخهـــا إلى العصر البيزنطي ، أو جزيرة القديسين بطرس وبولس المواجهة لـــ Pendik التي كانت منتجعـــا بيزنطيا شهيرا .

الفارس يفاخر ببسالته التي لا تقهر في المبارزة الفردية، نصحه ألكسيوس بلطف أن يبحث عن تكتيكات أخرى عندما يقاتل الأتراك.(١)

وتمثل هذه المحادثة نمط العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الفرسان الأحلاف القادمون من الغرب بأبهة القصر ومراسمه التي تؤدى في عناية وسلاسة، وسجايا رجال البلاط المهذبة والهادئة، لكنهم تبرموا من ذلك كله، ودفعهم كبرياؤهم الجريح إلى الصخب والغلظة كالأطفال الأشقياء.

وبعدما أقسم الفرسان قسم الولاء نُقِلوا مع رجالهم عبر المضيق ليلحقوا بجيش جودفري على شاطئ آسيا. وهكذا تصرف الإمبراطور في الوقت المناسب تمامًا، إذ وصل بوهيموند أوف تارانتو إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان).

---

(١) Anna Comnena, x,x, 1-7, vol. II, pp. 226-30 وهي تطلق علي قائد هذه المجموعة " الكونت راؤل Count Raoul " وهويته غير معروفة إذ لم يذكر في أي مكان آخر . ومن الحقيقة التي مفادها أن الإمبراطور ظن أنه من الأجدي أن يساعده جودفري في حفل أخذ القسم من هذه المجموعة ، أعتقد أنها كانت تتألف من رجال من أجزاء من اللورين وليس من فرنسا ، لتوليد الإنطباع لديهم بأن حضور هيو كان مناسبا بصورة أفضل . ونحن نعلم أن رينالد (أوف تول) جاء إلي الحملة الصليبية تحت رعاية جودفري . ويذكره ألبرت أوف آيكس علي أنه واحد من جماعة جودفري منذ البداية ؛ غير أنه ليس من الضروري أن يؤخذ دليله بحذافيره . ولم تكن أنا كومنينا متمرسة في معرفة الأسماء الفرنجية ، وكما في حالة ريموند الذي تطلق عليه "إيزانجيليس Isangeles" فإنها أحيانا تذكر الكونتات بألقابهم . علي أنها ذات خبرة سابقة بالإسم " راؤل Raoul " من سفير جيسكار الذي يدعي راؤل كذلك . ولذلك ، ربما التقطت عدسة ذاكرتها " Rainald de Toul " وأحالته إلي شكل مألوف لديها .

و لم يكن النورمانديون في جنوب إيطاليا قد أولوا بادئ الأمر اهتمامًا كبيرًا لتبشير إيربان بالحرب الصليبية. إذ تواصلت حروب أهلية متقطعة هناك منذ أن مات روبرت جيسكارد الذي كان قد طلق زوجته الأولى، أم بوهيموند، وترك دوقية أبوليا لابنه من زوجته الثانية سيجلجايتا وهو روجر بورصا. فثار بوهيموند على أخيه وتمكن من الاحتفاظ بدوقتي تارانتو وتيرا-دي-أوترانتو الواقعتين في كعب شبه الجزيرة الإيطالية قبل أن يتمكن عمهما روجر الصقلي من عقد هدنة مزعزعة بينهما، و لم يقبل بوهيموند بأية حال تلك الهدنة على أنها نهائية، واستمر خفية في مناوشة أخيه روجر بورصا. على أنه في صيف ١٠٩٦ ميلادية تكاتفت الأسرة كلها لمعاقبة مدينة أمالفي المتمردة، وكانت القرارات البابويّة المتعلقة بالحرب الصليبية قد أُعلنت بالفعل. كما كانت جماعات صغيرة من الإيطاليين الجنوبيين قد عبرت البحر إلى الشرق، ولكن بوهيموند لم يتحقق من أهمية الحركة إلاّ عندما وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين المتحمسين من فرنسا. وحينئذ أدرك أن بوسعه استغلال الحركة الصليبية لمصلحته، لاسيّما وأنّ عمه روجر الصقلي لم يكن ليسمح له البتة بضم دوقية أبوليا كلها. ولسوف يجني ثمارًا أفضل إذا ما وجد لنفسه مملكة في المشرق. وكان لحماس الصليبيين الفرنسيين أثره في الجنود النورمانديين أمام مدينة أمالفي. وشجعهم بوهيموند بأن أعلن أنه سيأخذ الصليب هو الآخر ودعا جميع المسيحيين الطيبين إلى الانضمام إليه. وأمام جيشه المحتشد خلع رداءه القرمزي ومزقه قطعًا صنع منها صلبانًا لضباطه، وأسرع أمراؤه التابعون له فحذوا حذوه ومعهم الكثير من أمراء أخيه وأمراء عمه الصقلي الذي تركوه شاكيًا من أن هذه الحركة قد سلبته جيشه.(١)

---

(١) *Gesta Francorum,* I, 4, pp. 18-20. See Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie*, vol. II, p. 302

مسيرة بوهيموند عبر البيندوس

وفي الحال انطلق وليم، إبن أخت بوهيموند، مع الصليبيين الفرنسيين ولكن بوهيموند نفسه كان في حاجة إلى بعض الوقت لتجهيز قواته. فترك أراضيه بضمانات في رعاية أخيه وجمع ما يكفي من أموال للإنفاق على كل من صحبه، وأبحرت الحملة من باري في أكتوبر (تشرين الأول). وكان مع بوهيموند تانكريد ابن أخته إما والمركيز أودو وهو الأخ الأكبر لوليم، وأبناء خؤلته ريتشارد (١) ورينولف أوف ساليرنو وابنه ريتشارد، وجيوفري كونت روسينيولو وإخوته، ومن بين نورمانديّي صقلية: روبرت أوف أنسا وهمفري أوف مونت سكابيروزو وألبريد أوف كاينانو والأسقف جيرارد أوف أريانو، بينما كان روبرت أوف سيردفال وبويل أوف تشارترز من بين النورمانديين القادمين من فرنسا الملتحقين بجيش بوهيموند، وكان جيشه أصغر من جيش جودفري لكنه كان جيد التجهيز والتدريب.(٢)

ونزلت الحملة على الشاطئ في إبيروس على نقاط متفرقة بطول الساحل بين ديرهاكيوم وألونا، ثم تجمعت مرة أخرى في قرية دروبولي الواقعة أعلى وادي نهر فيوسا. ولا شك في أن ترتيبات النزول إلى الشاطئ قد أجريت بعد التشاور مع السلطات البيزنطية في ديرهاكيوم والتي لم ترغب في إجهاد ما تعتمد عليه المدن الواقعة على طول طريق فياإجناتيا من موارد غذائية أكثر من ذلك. بيد أن الطريق الذي سلكه الجيش كان من اختيار بوهيموند على الأرجح؛ إذ أن حملاته التي قام بها قبل ذلك بخمسة عشر عاما أكسبته بعض الدراية بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من الطريق الرئيسي، وربما كان يأمل في تجنب مراقبة البيزنطيين حينما اتخذ طريقا أقل استخداما . ولم

---

(١) Kown as Richard of the Principate.

(٢) Gesta Francorum, I, 4, p. 20.

يكن بوسع جون كومنينوس الاستغناء عن أي من جنوده، ومن ثم بدأ بوهيموند في رحلته دون مصاحبة الشرطة البيزنطية. ويبدو أنه لم تكن هناك مشاعر سلبية، فقد تلقى النورمانديون إمدادات وفيرة في الوقت الذي شدد بوهيموند على جميع رجاله الامتناع عن النهب والفوضى لأنهم سيعبرون أراض مسيحية.

وبارتحال الجيش فوق ممرات البيندوس مباشرة وصل إلى كاستوريا الواقعة غرب مقدونيا قبل عيد الميلاد بزمن وجيز. وليس في الإمكان تتبع الطريق الذي سلكه، وبالقطع لم يكن طريقا سهلا، ولابد أن يكون أدى به إلى مرتفعات تزيد على أربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. وفي كاستوريا سعى إلى توفير المؤن، لكن السكان كانوا عازفين عن الاستغناء عن أي شيء من مخازنهم الصغيرة لهؤلاء الزائرين الذين هبطوا عليهم فجأة، وقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا أعداءهم الألداء منذ بضع سنوات. وبالنظر إلى أن الكثير من دواب الحمل هلك فوق ممرات البيندوس، فقد استولى الجيش على حاجته من الماشية والخيل والحمير. وأمضى الجيش أعياد الميلاد في كاستوريا، ثم قاد بوهيموند رجاله شرقًا باتجاه نهر فاردار، وأثناء مسيرتهم توقفوا قليلاً وهاجموا قرية الهراطقة البوليين (١) القريبة من الطريق، وأشعلوا النار في المنازل وقاطنيها، وأخيرًا وصلوا إلى النهر في منتصف فبراير (شباط). وهكذا أمضوا سبعة

---

(١) الهراطقة البوليون : طائفة مسيحية تؤمن بالثنوية ، نشأت في أرمينيا في القرن السابع ، وأسمها مشتق من أسم بول أو بولس الذي مازال هناك خلاف علي شخصيته . ويقوم معتقدها علي وجود إله للشر وإله للخير : الأول خلق هذا العالم ويحكمه ، والثاني للحياة الآخرة . ومن ثم استنتجوا أن عيسى ليس إبن مريم حقيقة لأن إله الخير لا يمكن أن يصبح بشرا . وهم يبجلون إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس وينكرون العهد القديم ورسائل القديس بطرس كما ينكرون الكنيسة القائمة بأسرارها وعباداتها وهرميتها .

أسابيع تقريبًا ليقطعوا مسافة تزيد قليلا على مائة ميل.(١)

وصول بوهيموند إلى القسطنطينية

وربما أدى الطريق الذي سلكه بوهيموند عبر إيديسا (فودينا) إلىفيا إجناتيا. ومن هذه النقطة صحبه حرس من جنود البتشنج ومعهم أوامر الإمبراطور المعتادة بمنع الإغارة والانتشار والعمل على ألاّ يبقى الصليبيون في مكان واحد لأكثر من ثلاثة أيام. وعبر القسم الرئيسي من الجيش نهر فاردار دون إبطاء، لكن كونت روزينيولو وإخوته تخلفوا على ضفة النهر الغربية ومعهم جماعة صغيرة. لذا هاجمهم البتشنج ليستحثوهم على المضي، وعندما سمع تانكريد بالمعركة عبر النهر راجعًا لإنقاذهم. وطارد البتشنج وأسر بعضهم وأحضرهم أمام بوهيموند الذي استجوبهم، وعندما عرف أنهم كانوا ينفذون الأوامر الإمبراطورية أطلق سراحهم على الفور; إذ كانت سياسته أن يحسن التصرف تجاه الإمبراطور.(٢)

ورغبة منه في أن تكون تصرفاته سليمة أرسل، عندما نزل إلى الشاطئ في إيبروس أول الأمر، سفراء سبقوه إلى الإمبراطور. وعندما كان جيشه مارًا بأسوار ثيسالونيكا وهو في طريقه إلى سيريس قابله هؤلاء السفراء في طريق عودتهم من القسطنطينية، ومعهم مسئول إمبراطوري على مستوى عال سرعان ما أصبحت علاقته ببوهيموند علاقة ودودة . وقُدم الطعام للجيش بوفرة ، وإزاء ذلك وعد بوهيموند

---

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 20-2 وربما اتخذ بوهيمند الطريق الذي يخترق الحدود الألبانية الحالية ، من خلال Premeti and Koritsa ثم اتبع منحنى شماليا قبل أن يعبر الحدود ثم هبط باتجاه الجنوب الشرقي إلى Castoria

(٢) *Ibid.* pp. 22-4

بعدم محاولة دخول أيّة مدينة في طريقه، ليس هذا وحسب وإنّما وافق على إعادة كل الدواب التي استولى عليها رجاله أثناء رحلتهم، وفي أكثر من مرة أظـــهر أتباعــه الرغبة في الإغارة على البلاد لكنه منعهم منعًا صارمًا.

وفي أول إبريل (نيسان) وصل الجيش إلى روسا (وهـــي كيشـــان الحديثـــة) في ثريس. وهنا قرر بوهيموند أن يسرع الخطى إلى القسطنطينية ليعرف ما الذي يتفاوض عليه الإمبراطور مع القادة الغربيين الذين وصلوا إلى هناك بالفعل، فترك رجاله تحـــت إمرة تانكريد الذي أخذهم إلى واد خصيب يبعد عن الطريق الرئيسي حيث أمضوا نهاية أسبوع الفصح. ووصل بوهيموند إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان) حيث نزل خارج الأسوار في دير القديسين كوسماس وداميان، وفي اليوم التالي سُـــمح لـــه بالمثول بين يدي الإمبراطور.(١)

وبدا لـــألكسيوس أنّ بوهيموند هو أخطر الصليبيين جميعًا. فقد تعلم البيزنطيون من التجارب السابقة أنّ النورمانديين أعداء أشداء، طموحـــون، مـــاكرون، منعدمـــو الضمير. وقد سبق أن ظهر بوهيموند في حملات سابقة كقـــائد ذي كفـــاءة، وكـــان جنوده منظمين تنظيمًا جيدًا، ومجهزين تجهيزًا حسنًا، وملـــتزمين في تصرفـــاتهم، وقـــد استحوذ على ثقتهم الكاملة. وربما كان صاحب إستراتيجيّة، مفرط الثقة بنفســـه، وإن لم يتصف بالحكمة دائمًا، على أنه كان دبلوماسيًّا حاذقًا قوي الحُجة وسياســـيًّا بعيـــد النظر، ذا شخصية قوية التأثير؛ ذلك أنّ المؤرخة أنّا كومنينا(٢) التي عرفتـــه وكرهتـــه كراهيـــة مريرة لم تملك إلاّ أن تعترف بجاذبيته، وكتبت بحرارة عن مظهره الخلاب ، إذ

---

(١) *Gesta Francorum*, II, 5, pp. 24-8 ويتأكد تاريخ وصول بوهيمند إلى القسطنطينية في تاريخ *Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade*, p. 64

(٢) أنا كومنينا : مؤرخة بيزنطية عاصرت تلك الفترة ، وهي إبنه الإمبراطور " ألكسيوس كومنينوس" .

كان فاره الطول له هيئة الشباب رغم تخطيه الأربعين، عريض المنكبين، نحيل الخصر، ذا بشرة رائقة، وضّاح الوجنتين في تورد، وكان شعره أصفر وأقصر مما اعتـاده فرسـان الغرب، حليق اللحية. واحدودب في طفولته على نحو طفيف دون أن يفقـد مسـحة الصحة والقوة، وتقول آنّا كومنينا إنّ هناك شيئًا جافًا في ملامحـه وبعـض الشـرّ في ابتسامته، ولأنها ـ كشأن اليونانيين منذ القدم ـ تتأثر بالجمال البشريّ، لم تستطع أن تواري إعجابها به.(١)

واتخذ ألكسيوس الترتيبات لمقابلة بوهيموند بمفرده أولاً ليتسـنى لـه اكتشـاف موقفه. فلما وجده بالغ الود والاستعداد للمساعدة استقبل جودفري وبالدوين، اللذين كانا ما يزالان في القصر، ليشتركا في المناقشة. وكان السلوك الحسـن لـذي أبـداه بوهيموند مفتعلاً؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره من الصليبيين الآخريـن أنّ بيزنطـة لاتزال قوية جدًا وأنه لن يتحقق شيْء بغير مساعدتها، ولن تـؤدي مناطحتـها إلاّ إلى كارثة، ولكن حسن استغلالها كحليف يؤدي إلى تحقيق صالحه. وكان يـسود قيـادة الحملة، ولكن البابا لم يخوله ذلك، ويبقى عليه أن يتصدى لمنافسة الأقطاب الصليبيـين الآخرين، وإن استطاع الحصول على تكليف رسمي من الإمبراطور يصبـح في وضـع يمكّنه من إدارة العمليات، ويتأتى له أن يتحكم في تعامل الصليبيين مع الإمبراطور فيما بعد، وأن يكون المسئول الذي يتعين على الصليبيـين تسـليمه الأراضـي المسـتردة للإمبراطورية، ويغدو المحور الذي يدور حوله التحالف المسيحي كله، ومن ثمّ أقسـم قسم الولاء للإمبراطور بلا تردد، واقترح تعيينه في منصب الحاكم المحلي الشرقـي، أيّ القائد العام لجميع القوات الإمبراطورية في آسيا.

وشعر ألكسيوس بالحرج من هذا الطلب، وارتاب في بوهيموند وخشى جانبـه،

---

(١) أنظر Anna Comnena, *Alexiad*, XIII, x, 4-5, vol. III, pp. 122-4 للإطلاع علـى صورة شكل بوهيمند .

غير أنه كان حريصا على الاحتفاظ بحسن نواياه ، وقد سبق أن أولاه كرمه وتشريفه واستمر في إغوائه بالمال. بيد أنه راوغه في مطلبه قائلا إن اللحظة ليست مواتية بعد لمثل هذا التعيين. ولكن لا شك في أن بوهيموند سيناله بجهده وإخلاصه، وكان على بوهيموند أن يرضى بهذا الوعد المبهم الذي شجعه على الاستمرار في سياسة التعاون التي رسمها. وفي ذات الوقت وعد ألكسيوس بإرسال جنوده لمصاحبة الجيوش الصليبية لتسديد ما تتكبده من نفقات، ولتأمين إعادة تموينها واتصالاتها.(١)

واستدعي جيش بوهيموند بعد ذلك إلى القسطنطينية ونقل عبر البوسفور في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) ليلحق بجيش جودفري الرابض في بيليكانوم. وأما تانكريد، الذي لم يستسغ سياسة خاله و لم يفهمها، فقد اجتاز المدينة ليلا مع إبن خاله ريشارد أوف ساليرنو كي لا يضطر إلى أن يقسم قسم الولاء (٢)، وفي نفس اليوم وصل الكونت ريموند أوف تولوز إلى القسطنطينية واستقبله الإمبراطور.

---

(١) *Ibid.* xi, 1-7, vol. II, pp. 230-4 وكالمعتاد يورد تاريخ *Gesta Francorum*, II, 6, pp. 28-32 رواية معادية جداً للإمبراطور . والفقرة التي تذكر معاهدة سرية بين الإمبراطور وبوهيمند حول أنطاكية (autem ... preteriret p.30, II. 14-20, Fortissimo) عبارة عن حشر لاحق في النص ، تم بناء علي أوامر بوهيمند . أنظر Krey, A Neglected Passage in the *Gesta* pp. 57-78 , ويقول ألبرت أوف آيكس II, 18, p. 312 إن بوهيمند أقسم القسم علي مضض ويبدو أن ذلك غير صحيح .

(٢) *Gesta Francorum*, II, 7, pp. 32-4; Albert of Aix, II, 19, p. 313

ريموند أوف تولوز

كان ريموند الرابع ــ كونت تولوز ــ الذي يفضل كونتية سان جيل على غيرها من ممتلكاته، ولذلك كان يسمى عادة (كونت أوف سان جيل)، قد بلغ بالفعل ســـن النضج وربما كان يقارب عامه الستين. وكانت مقاطعته التي ورثها عن أسلافه واحدة من أغنى المقاطعات الفرنسية، وقد ورث مؤخرًا ماركيزيته في إقليم بروفانس الفرنسي والتي لا تقل ثراء عن مقاطعته. وبزواجه من الأميرة ألفيرا أوف أراجون انتســــب إلى البيوتات الملكية الإسبانية؛ كما اشترك في عدة حروب مقدسة ضد مسلمي إســـــبانيا. وكان هو الوحيد من بين النبلاء العظام الذي ناقشه البابا إيربان شخصيًّا في مخططه عن الحرب الصليبية، وكان أول من أعلن انضمامه لها، ومن ثمّ فلديه ما يبرر أهليته لقيادتها غير الدينية. ولكن البابا ــ الذي كان حريصًا على أن تظل الحركة تحــــت الســـيطرة الروحانية ــ لم يعترف أبدًا بمطلبه هذا، وربما كان ريموند يأمل في أن تتضح الحاجة إلى قائد دنيوي، هذا في الوقت الذي تدبر فيه أَمرَه كيّ يخرج إلى الشرق بصحبة الرئيـــس الروحاني أسقف لوبوي.

وأخذ ريموند الصليب في وقت انعقاد مؤتمر كلــيرمونت، في نوفمـــبر (تشريـــن الثاني) سنة ١٠٥٩ ميلادية، لكنه لم يتمكن من الانتهاء من استعداداته لمغادرة أراضيـــه إلاّ في أكتوبر (تشرين الأول) من العام التالي. وأخذ على نفسه عهدًا بأن يقضي بقيـــة أيامه في الأراضي المقدسة، ويمكن أن يكون قد أخذ ذلك العهد مع تحفظ؛ فبينما ترك أراضيه الفرنسية لابنه غير الشرعي برتراند لإدارتها، كان حريصًا على ألاّ يتنازل عــــن حقوقه، وصحبته زوجته ووريثه الشرعي ألفونسو، وباع بعض أراضيه أو رهنها لتوفير المال اللازم لحملته، ولكن يبدو أنه اقتصد في تجهيزها على نحو ما. ومن الصعب تقييم شخصيته؛ ففي أفعاله ما يدل على الغرور والعناد وبعض الجشع، علــــى أنّ ســـجاياه المهذبة أحدثت أثرها في البيزنطيين الذين وجدوه أكثر تحضرًا من زملائه، كما أذهلهم أن يجدوه شخصًا يُعتمد عليه ويتصف بالأمانة. وامتدحت آنّا كومنينا سمو طبيعته

وطهارة حياته كما تبين مما تلى من أحداث. واعتبره أديمار أوف لوبوي، الذي كـــان على خُلق رفيع صديقًا جديرًا بالصداقة.

وانضم إلى حملة ريموند الصليبية العديد من نبلاء جنوب فرنســـا، مـــن بينـــهم: رامبالد كونت أوف أورانج، وجاستون أوف بيارن، وجيرارد أوف روسيلون، ووليم ـــ هيو أوف مونتيل وكل رجاله، وكانت الشخصية الكنسية الرئيسية بعد أديمار هي وليم أسقف أورانج.(١)

رحلة ريموند

وعبرت الحملة جبال الألب عن طريق كول دي جنيفر وارتحلـــت عـــبر شمـــال إيطاليا إلى رأس البحر الأدرياتيكي. وقرر ريموند عدم السفر بحرا وإنما ســـار بمحـــاذاة شاطئه الشرقي عبر إيستريا ودالماتيا وربما كان مدفوعا في ذلك بدوافع اقتصاديـــة. ولم يكن ذلك بالقرار الحكيم؛ إذ كانت طرق دالماتيا غاية في الســـــوء وســـكانها غـــلاظ يفتقرون إلى الكياسة. وعبرت الحملة إيستريا دون وقوع حادثة، وتلى ذلك أربعـــــون يوما من أيام الشتاء كافح فيها الجيش في دروب الماتيا الصخرية وهـــو في مناوشـــات مستمرة مع القبائل السلافية التي تعلقت بمؤخرته. وبقى ريموند نفسه مع حرس المؤخرة لحمايتها، وفي إحدى المرات لم يستطع إنقاذ رجاله إلا بإقامة حاجز على الطريق مـــن

---

(١) عن سيرة حياة Raymond المبكرة ، أنظر Vaissète, *Histore de Languedoc*, vol. III, pp. 466-77 and Manteyer , *La Provence du Ier au XIIe Si ècle*, pp. 303 ff . وترد أسماء أهم اللوردات الفرنسيين الجنوبيين الذين رافقوا الحملة الصليبية في قائمة مشوشة نوعـــا ما في تاريخ Albert of Aix, II, 22-3, pp. 315-16 وعن Adhemar وأسرته أنظر المراجع المذكورة فيما سبق في الصفحتين ١٩٢ و ١٩٣ .

الأسرى السلافيين الذين أسرهم ثم مزق أوصالهم في قسوة شنعاء. وقد بدأ الرحلة وهو مزود بالطعام الوفير، ولم يهلك أحد من رجاله في الرحلة بسبب الجوع أو القتال. وعندما وصلوا أخيرًا إلى سكودورا بدأ تموينهم يتناقص، وتمكن من مقابلة الأمير الصربي المحلي بودين الذي وافق، بعد أن حصل على هدايا ثمينة، على السماح للصليبيين بحرية الشراء من أسواق المدينة، على أنه لم يكن هناك طعام متاح، فاضطر الجيش إلى مواصلة مسيرته وهو في حالة من الجوع والبؤس تتزايد يومًا بعد يوم حتى وصل إلى الحدود الإمبراطورية شمال ديرهاكيوم في وقت مبكر من شهر فبراير (شباط). وعند ئذ ودّ ريموند وأدهمار أن تكون متاعبهما قد وصلت إلى نهايتها.

ورحب جون كومنينوس بالصليبيين في ديرهاكيوم حيث كان مبعوثو الإمبراطور وحرس البتشنج في انتظارهم لمصاحبتهم عبر طريق فياإجناتيا، وأرسل ريموند سفارة سبقته إلى القسطنطينية للإعلان عن وصوله. وبعد أيام قليلة من الراحة في ديرهاكيوم انطلق الجيش مرة أخرى، وتخلف شقيق أدهمار — لورد أوف بيران إلى أن يشفى من مرض أصيب به نتيجة لمشاق الرحلة. وكان رجال ريموند مطبوعين على التمرد وعدم الالتزام. وقد شعروا بالاستياء من شرطة البتشنج التي تحيط بهم من كل جانب. وأدى ميلهم العنيد للنهب إلى صدام تكرر مع حراسهم، وقبل انقضاء فترة طويلة قتل إثنان من بارونات بروفانس في إحدى هذه المناوشات. وبعد ذلك مباشرة ضل أسقف لوبوي نفسه الطريق وجرح وأسره البتشنج قبل أن يعرفوا هويته وأعيد على الفور إلى الجيش، ويبدو أنه لم يشعر بالاستياء من الحادثة، غير أن الجنود صدموا صدمة عميقة الأثر. وزادت شراستهم عندما هوجم ريموند نفسه في ظروف مشابهة بالقرب من إيديسا.

وفي ثيسالونكا تخلف أسقف لوبوي عن الجيش كي يجد عناية أفضل بجراحه، وبقى هناك إلى أن تمكن أخوه من اللحاق به من ديرهاكيوم. وفي غيبة الأسقف وما يتمتع به من قدرة على كبح جماح الجنود، تدهور النظام في الجيش وازداد سوءًا،

ولكن لم تقع حوادث خطيرة إلى أن وصل إلى روسا في ثريس. وسبق لرجال بوهيموند أن ابتهجوا للحفاوة التي استقبلتهم بها المدينة قبل ذلك بأسبوعين، أما الآن فربما لم يكن لدى أهل المدينة مؤن يبيعونها، لذا استاء رجال ريموند، وصاحوا "تولـــوز... تولـــوز" وهاجموا الأسوار واقتحموا المدينة ونهبوا البيوت كلها. وبعد ذلك بأيام قليلة قابلـــهم مبعوثو ريموند في رودوستو في طريق عودهم من القسطنطينية مع مندوب الإمــبراطور ومعه رسائل ودية يستحث فيها ريموند علـــى الإســـراع إلى العاصمـــة، مضيفًـــا أنّ بوهيموند وجودفري في شوق للقياه. وربما كان الجزء الأخير من الرســـالة، وخشيـــة الغياب أثناء اتخاذ قرارات هامة، هما اللذان دفعا ريموند إلى قبول الدعوة، فترك جيشــه وأسرع إلى القسطنطينية التي وصلها في الحادي والعشرين من إبريل (نيسان).

وبرحيله لم يبق أحد لحفظ النظام في الجيش الذي بدأ على الفور في الإغارة على الريف. على أنّ الأحوال تغيرت الآن وأصبح هناك ما يكفي مـــن شرطـــة البتشنـــج للتصدي له وتحركت فصائل من الجيش البيزنطي كانت متمركزة في الجـــوار لمهاجمـــة المغيرين. وأسفرت المعركة عن هزيمة رجال ريموند هزيمة نكراء فولوا الأدبار تـــاركين أسلحتهم وأمتعتهم للبيزنطيين، ولم يعلم ريموند بالكارثة إلاّ في اللحظـــة الـــتي كـــان يتأهب فيها لمقابلة الإمبراطور.(١)

ريموند والإمبراطور

وقد اُستقبل ريموند في القسطنطينية استقبالاً حسنًا ونزل في قصر خارج الأسوار مباشرة وجاءه من يرجوه الذهاب إلى القصر الإمبراطوري بأسرع ما يمكن ليقسم قسم

---

(١) يورد Raymond of Aguilers, I-II, pp. 235-8 رحلة Raymond إلى القسطنطينية بإسهاب في ملحوظة تقطر مرارة من البيزنطيين .

الولاء. بيد أنّ ما صادفه في الرحلة والأنباء التي تلقاها لساعته جعلته في حالة مزاجية سيئة، وانتابته الحيرة والامتعاض من ذلك الوضع الذي وجده في قصر الإمبراطور; إذ أنّ الهدف الذي لا يبارح خياله هو الاعتراف به قائدًا عسكريًا للحملة الصليبية كلها.

على أن سلطته تنبثق من البابا على النحو الذي حدث، ومن علاقته بالمندوب البابويّ أسقف لوبوي، وبغياب الأسقف وجد ريموند نفسه يفتقد العون والمشورة، ولم يكن ريموند راغبًا في أن يلزم نفسه في غيابه، زد على ذلك أنه لو أقسم قسم الولاء كما فعل غيره من الصليبيين فإن ذلك يعني تخليه عن علاقته الخاصة بالبابويّة، والهبوط إلى مستوى الآخرين. وهناك خطر آخر، فقد كان ريموند من الذكاء بحيث أدرك في الحال أنّ بوهيموند هو أخطر غريم له، وبدا أنّ بوهيموند يحظى بود الإمبراطور. وسرت شائعة أنه سيعين في منصب في القيادة الإمبراطورية العليا، فإذا ما أقسم قسم الولاء فإن ذلك لا يعني أن يفقد أولويته وحسب، وإنّما سيكون كذلك تحت ولاية بوهيموند باعتباره ممثلاً للإمبراطور. فأعلن أنه إنّما جاء إلى الشرق لينفذ عمل الرب، وأنّ الرب الآن هو سيده الأعلى الوحيد، ملمحًا بذلك أنه المندوب الدنيوي للبابا. على أنه أضاف أنه في حالة ما إذا كان الإمبراطور نفسه سيقود القوات المسيحية المتحدة فإنه يقبل العمل تحت إمرته، وأظهر بهذا التنازل استياءه من بوهيموند وليس الإمبراطور. ولم يسع الإمبراطور إلاّ أن يجيب بأن حالة الإمبراطورية لا تسمح له — لسوء الحظ — بتركها. وخشى القادة الغربيون الآخرون من أن يتعرض نجاح الحملة كلها للخطر، فتوسلوا إلى ريموند كيّ يغير رأيه، ولكن دون جدوى. وأما بوهيموند الذي كان يأمل في القيادة الإمبراطورية والذي كان تواقًا إلى إرضاء الإمبراطور، فقد ذهب إلى حد القول بأنه سوف يؤازر الإمبراطور إذا ما دخل معه ريموند في صراع علني. في حين أشار جودفري إلى الضرر الذي سيلحق بالقضية المسيحية نتيجة لموقفه هذا. وابتعد ألكسيوس عن تلك المناقشات ومنع عن ريموند الهدايا التي سبق أن أهداها للأمراء الآخرين. وأخيرًا، وفي اليوم السادس والعشرين من إبريل (نيسان) وافق ريموند على أن

يقسم قسمًا معدلاً وعد فيه بأن يحترم حياة الإمبراطور وشرفه، وأن يراعي هو ورجاله عدم الإضرار به. و لم يكن من غـير العادي أن يقسـم الأتباع بهذا النوع من القسم لسادالهم في جنوب فرنسا، وقد ارتضاه ألكسيوس.

وبعد انتهاء المفاوضات عبر بوهيموند وجيشه إلى آسيا. وفي تلك الأثناء تجمّـع جيش ريموند مرة أخرى في رودوستو وقد أمسى مهيض الجناح، وانتظر وصول أسقف لوبوي الذي كان من المقرر أن يقوده إلي القسطنطينية. ولا ندري شيئًا عـن نشـاط الأسقف أديمار في القسطنطينية، والمفترض أنه قابل رؤساء الكنائس اليونانيـة ومـن المؤكد أنه قابل الإمبراطور. وكانت هذه المقابلات ودية للغاية وربما أسهم في المصالحة بين ريموند وألكسيوس; إذ سرعان ما تحسنت العلاقة بينـهما والأغلـب أنّ ترحيـل بوهيموند أسهم إسهامًا كبيرًا في ذلك، واستطاع الإمبراطور أن يقابل ريمونـد علـى انفراد وأن يشرح له أنه هو الآخر لا يحب النورمانديين، وأن بوهيموند لن يحصل أبدًا على أية قيادة إمبراطورية في واقع الأمر. وعَبَر ريموند بجيشه مضيق البوسفور بعد يومين من أدائه القسم، لكنه عاد لقضاء أسبوعين في البلاط، ورحل وهو على صلة حميمـة بالإمبراطور الذي وجد فيه حليفًا قويًا ضد بوهيموند. وتغير موقفه من الإمبراطور.(١)

---

(١) ترد مفاوضات Raymond مع الإمبراطور عند Raymond of Aguilers, II, p. 238 and *Gesta Francorum*, II, 6, p. 52 وتتفق الروايتان علي أن ريموند كان تواقا لأن ينتقم لنفسه من هـزيمة جيشـه في رود وستو ، وأن الأمراء الآخرين أقنعوه بصعوبة بأن يقسم قسما ما . كما تتفق الروايتان علي بنود القسم الذي أقسمه . والمؤرخ ريموند أوف أجيلير فقط الذي يذكر المعلومـات الهامة التي تفيد بأن الكونت كان علي استعداد لأن يعمل في خدمة الأمبراطور شخصيا .وأعتقـد أن التفسير اليسير لذلك الدافع هو غيرته من بوهيمند . أما أنا كومنينا ، التي دفعتها الأحداث اللاحقة إلي التحامل لصالح ريموند ، فلا تذكر شيئاً قط حول تلك المفاوضات وإنما تقول فقط إن والدها--

روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا

وأما الجيش الكبير الرابع الذاهب إلى الحرب الصليبية فقد رحل من شمال فرنسا في أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٠٩٦ ميلادية بعد رحيل ريموند بفترة وجيزة، تحت القيادة المشتركة لـروبرت دوق نورماندي ـــ زوج أخت ستيفن كونت أوف بلوا ـــ وابن خاله روبرت الثاني كونت أوف فلاندرز. وروبرت أوف نورماندي هو الابن الأكبر لـوليم الغازي، وهو رجل في الأربعين من عمره، ذو طباع هادئة، تعوزه الفعالية بعض الشيْء، إلاّ أنه لا يفتقر إلى الشجاعة والجاذبية. ومنذ أن مات أبوه وهو منشغل في حروب بين الحين والآخر مع أخيه وليم روفوس في إنجلترا الذي كان يعاود غزو دوقيته مرة بعد مرة. وكان لتبشير إيربان بالحرب الصليبية أثر عميق في نفسه، وسرعان ما أعلن انضمامه لها، وفي مقابل ذلك رتب البابا ـــ بينما كان ما يزال في شمال فرنسا ـــ مُصالَحة بينه وبين أخيه. على أنّ الإعداد للرحلة إلى الحرب الصليبية استغرق من روبرت عدة أشهر، ولكي يحصل على المال اللازم لها لم يكن بوسعه إلاّ أن يرهن دوقيته لدى أخيه وليم في مقابل عشرة آلاف مارك فضي، وتم توقيع الوثيقة التي

--كان يعرب عن مشاعر الحب والإحترام لـ ' Isangeles' - أي the Count of Saint-Gilles لدماثته وأمانته . وتضيف أن ألكسيوس أجري مناقشات مطولة مع الكونت ، وتقتبس خطبة لهذا الأخير يحذر فيها الأمبراطور من بوهيمند ويعد بأن يعمل مع البيزنطيين .(*Alexiad*, x, xi, 9, vol. II, pp. 234-5) وليس هناك ما يدعوني لأن أفترض أنها قد خلطت هذه الزيارة مع الزيارة التي قام بها ريموند لأكسيوس سنة ١١٠٠؛ ويوافق ألبرت أوف آيكس - الذي حصل علي معلوماته من أحد جنود Godfrey - علي أن ريموند غادر القسطنطينية وهو علي أتم حالات الود مع ألكسيوس بعد أن تخلف أسبوعين (II, 20, p. 314). وهناك حالات من استخدام قسم عدم الإنحياز في Languedoc ترد لدي Vaissète, *Histoire de Languedoc*, vols. V, pp. 372, 381, and VII, pp. 134 ff.

تعتمد الرهن في سبتمبر (أيلول) ١٠٩٦ ميلادية. وبعد أيام قليلة خرج روبرت بجيشه إلى بونتارلييه حيث انضم إليه ستيفن أوف بلوا وروبرت أوف فلاندرز، وكان معـــه أودو أسقف بايو، وولتر كونت أوف سانت فاليري، وورثــة كونــت مونتجمـــري وكـــونت مورتاني وجيرارد أوف جورني، وهيو أوف سانت بول، وأبناء هيو أوف جرانت ميسنيل، وعدد من الفرسان والمشاة، من نورماندي ومن إنجلــترا واســكتلندا وبريتاني كذلك; رغم أن النبيل الإنجليزي الوحيد الذي كان مقررا أن يصاحب الحملة الصليبية وهو رالف جودير — إيرل أوف نورفوك — كان آنــذاك منفيــا يعيــش في ممتلكات والدته في بريتاني.(١)

وكان ستيفن أوف بلوا عازفا عن الانضمام إلى الحرب الصليبية، لكن زوجتـــه أديلا إبنة وليم الغازي كانت هي صاحبة القرار في بيتها، وأرادته أن يذهب فذهـــب. وكان معه من أتباعه الرئيسيين: إفيرارد أوف لوبولوا، وجويران جويرونات، وكـــارو آسيني، وجيوفري جيرن، وواعظ كنيسته ألكسندر. وكان من بين المجموعة القســـيس فولشر أوف تشارتر الذي أصبح مؤرخا فيما بعد. ولقد تمكن ستيفن من جمع المـــال اللازم للرحلة دون صعوبة كبيرة، إذ كان واحدا من أغنى الأثرياء في فرنسا. وقد ترك أراضيه لزوجته لتديرها بما لها من اقتدار.(٢)

بالدوين أوف ألوست

وكان كونت أوف فلاندرز شابا في مقتبل الشباب نوعا ما، وكان ذا شخصيـــة

---

(١) عن Robert of Normandy أنظر David, *Robert Curthose, passim.* In Appendix D, pp. 221-9, he gives a full list of Robert's companions

(٢) عن Stephen of Blois أنظر Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe,* pp. 48-56

مرهوبة على نحو أكبر. وحج أبوه روبرت الأول إلى القدس سنة ١٠٨٦ ميلادية، والتحق في طريق عودته بخدمة الإمبراطور ألكسيوس لفترة من الوقت، وداوم الإمبراطور الاتصال به إلى أن وافته المنية سنة ١٠٩٣ ميلادية، ولذا كان من الطبيعي أن يرغب روبرت الثاني في مواصلة العمل ضد "الكفرة". وكان جيشه أقل حجمًا من جيش ريموند أو جيش جودفري وإن كان من نوعية تفوقهما، وصحبه جنود من برابانت تحت إمرة بالدوين أوف ألوست كونت جينت، وتقرر أن تقوم زوجته الكونتيسة كليميتيا أوف برجاندي بإدارة أراضيه أثناء غيابه.(١)

وتحرك الجيش المتحد من بونتارلييه جنوبًا عبر جبال الألب إلى إيطاليا، وأثناء مروره بمدينة لوكا في نوفمبر (تشرين الثاني) قابل البابا إيربان الذي كان يقضي هناك أيامًا قليلة وهو في طريقه من كريمونا إلى روما. واستقبل البابا القادة في اجتماع منحهم فيه بركاته الخاصة. وسار الجيش جنوبًا إلى روما لزيارة قبر القديس بطرس، غير أنه رفض التدخل في الصراع القائم بين أتباع البابا إيربان وأتباع البابا الزائف جيبرت، الذين كانوا يسببون الاضطراب في المدينة بسبب ذلك الصراع. ومن روما مرّ الجيش بمدينة مونت كاسينو إلى الدوقية النورماندية في الجنوب حيث لقى استقبالاً حسنًا من روجر بورصا، دوق أبوليا الذي كانت زوجته أديلا — ملكة الدانمارك الأرملة — وأخت كونت أوف فلاندرز، وقد اعترف بورصا بدوق نورماندي زعيمًا لبني جلدته. وقدم روجر بورصا هدايا ثمينة لأخي زوجته، الذي لم يقبل سوى هدية واحدة وهي

---

(١) عن Robert and Clmentia of Flanders أنظر *ibid.* pp. 247-9. وترد أسماء الفرسان الفرنسيين الجنوبيين المشتركين في الجيش الصليبي في قائمة Albert of Aix (II,22-3, pp. 315-16).

البقايا المقدسة: شعر العذراء، وعظام القديس ماثيو والقديس نيكولاس، وأرسلها إلى زوجته لتضعها في دير واتين.(١)

وقرر روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلـــوا قضـــاء الشتـــاء في كلابريـــا للاستجمام، ولكن روبرت أوف فلاندرز تحرك مع رجاله على الفور قـــاصدا بـــاري حيث عبر البحر إلى إيبيروس في وقت مبكر من ديســـمبر (كـــانون الأول)، ووصـــل القسطنطينية في نفس الوقت الذي وصل فيه بوهيموند تقريبا دون وقوع حادثة سيئة. أما كونت أوف ألوست الذي حاول النزول بالقرب من شيمارا الأبعد إلى الجنوب عن الموانى المعدة لاستقبال سفن الصليبيين، فقد وجد طريقه مسدودا بأســـطول بـــيزنطي صغير، ونشبت معركة بحرية خفيفة ذكرتها أنا كومنينا بإسهاب في تاريخها؛ إذ أن بطل تلك المعركة ماريانوس مافروكاتالكون ـــ إبن الأدميرال البيزنطي ـــ كان صديقا لها. وصدم البيزنطيون صدمة شديدة لدى رؤيتهم قسيسا لاتينيا محاربا مـــن الصليبيـــين لا يولي اعتبارا لائقا لملابسه الدينية، وعلى الرغم من شجاعته وإقدامه تمكـــن البيزنطيون مـــن الاستيـــلاء علـــى السفيـــنة الصليبيـــــية بربانســـون ، وأنـــزلـــوا الكونـــت

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, pp. 163-8; charter of Clementia, Countess of Flanders, in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 142-3

ورحاله في ديرهاكيوم.(١) ولم يكن لدى جماعة الفلمنكيين فيما يبدو آيـــة صعوبـــة في أداء قسم الولاء للإمبراطور، وكان الكونت روبرت من بين الأمراء الذين حثّوا ريموند على الاستجابة . (٢)

وتمهل روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا في جنوب إيطاليا إلى أن جاء الربيع، وانتقل فتُور حماسهما إلى أتباعهما الذين أخذ كثير منهم يعودون هـــائمين إلى أوطانهم. وأخيرًا، تحرك الجيش إلى برنديزي في شهر مارس (آذار) وفي الخـــامس مـــن إبريل (نيسان) أخذ يعد العدة لركوب البحر، ولسوء الحـــظ انقلبـــت أول ســـفينة وغاصت في القاع وخسر الجيش نحو أربعمائة راكب بخيلهم وبغالهم وكثير من خزائن الأموال. وجرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ. وببراعة اكتشفوا معجزة ظهور علامـــة الصليـــب على عظام الكتف في كل جثة . إذ رفع ذلك الاكتشاف البارع معنويـــات

---

(١) Fulcher of Chartres, *loc*. cit. p. 168; Anna Comnena, *Alexiad*, x, viii, 2-10,
vol. II, pp. 215-20 وبصورة مرضية فإن المؤرخ Maricq, في مقالته "Un Comte de "
Barabant et des "Brabançons" dans deux textes byzantins المنشـــورة في *the*
Bulletin de la Classe des Lettres للأكاديمية الملكية لبلجيكا ، ff vol. xxxiv, pp. 463
يحدد ذلك الذي ذكرته أنا كومنينا علي أنه بلدوين الثاني كونت ألوست ، وبذا يبطل افتـــراض
Grégoir السابق بأنه كان Notes sur Anne Comnene, in *Byzantion*, vol. III, pp.
312-13) Richard of the Principate
التي تتضمن كذلك مناقشة مثيرة حول الكلمة التي ذكرتها أنا) ونظرية Ducange أن الكلمة هي
Reymond of Toulouse الذي كان أيضا arquis of Provence والتي تأخـــذ بها Mrs
Buckler, *Anna Comnena*, p. 465 إنما هي نظرية مستحيلة إذ دأبت أنا كومنيـــنا علـــي
تسمية Raymond باسم 'Isangeles' وتحركاته معروفة تماما لنا .

(٢) Raymond of Aguilers, II, p. 238

سواد الجيش ركب السفن بأمان، وبعد أربعة أيام عصيبة في البحر نــــزل إلى الـــبر في ديرهاكيوم، واستقبلتهم السلطات البيزنطية استقبالاً حسنًا وأمدتهم بحرس لمصاحبتــــهم عبر طريق فياإجناتيا إلى القسطنطينية. وكانت رحلة طيبة لولا حادثة ســـيئة حدثــت حينما كان الجيش يعبر ممرًا مائيًا في البيندوس وحدث فيضان مفاجئ اكتسح العديــــد من الحجاج. وبعد تأخير استغرق أربعة أيام أمام أسوار ثيسالونيكا وصل الجيــــش إلى القسطنطينية في وقت مبكر من مايو (أيار)، وخيّم خارج الأسوار مبـــاشرة، وسُـــمح لمجموعات من خمسة أو ستة أشخاص في المرة الواحدة بالدخول يوميًا لمشاهدة معالمها والتعبّد في مزاراتها. وكانت الجيوش الصليبية السابقة في الحضور قد نقلت كلها عـــبر البوسفور، ولذا لم يكن هناك ساخطون يفسدون العلاقة بين الوافدين الجــــدد وبـــين البيزنطيين. ولقد ذهلوا إعجابًا بجمال المدينة وروعتها، وتمتعوا بما قدمته لهم من راحــــة ومتعة، وشعروا بالامتنان للإمبراطور على ما منحهم من عمـــلات نقديــة وملابـــس حريرية وأطعمة وخيول، وعلى الفور أقسم قادتهم قسم الـــولاء للإمـــبراطور الـــذي كافأهم بهدايا رائعة. وفي الشهر التالي كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته، وقد كان يراعي واجبه في مراسلتها، يعرب عن نشوته لاستقبال الإمبراطور له; إذ بقى في القصر عشرة أيام عاملَه الإمبراطور فيها كما لو كان ابنه، وبذل له من النصح المفيد الشيْء الكثير، ووهبه من الهدايا النفيسة العدد الوفير، وعرض عليه أن يعلم ابنه الأصغر. وتأثر ستيفن بوجه خاص بما أظهره الإمبـــراطور من كرم نحو جميع جنود الجيش الصليبي، وبما أبداه من كفاءة في تنظيم عمليات إمداد الجنود في الميدان بالمؤن الوفيرة، فكتب مشــــيرًا إلى حميـــة وليم الغازي: "إنّ أباك، يا حبيـــبتي، أغدق الكثـــير من الهدايـــــا العظيمــــة، لكنـــه لا يكاد يُذكر بمقارنته بهذا الرجـــل".

نجاح تنظيم الإمبراطور

وانقضى أسبوعان قبل أن يُنقل الجيش إلى آسيا. وأدخل عبور البوسفور البهجة على ستيفن الذي كان قد سمع أنّ المضيق خطر، لكنه لم يجده أكثر خطورة من نهر السين أو نهر المارن. وساروا بمحاذاة خليج نيكوميديا، مرورًا بنيكوميديا ذاتها، ليلحقوا بالجيوش الصليبية الرئيسية التي بدأت بالفعل حصارها لمدينة نيقية.(١)

وتنفس ألكسيوس الصعداء. كان يرغب في مرتزقة من الغرب، ولكن بدلاً من ذلك جاءته جيوش جرارة بقادتها. وواقع الحال أن أيّة حكومة لا ترغب في وجود أعداد من قوات مستقلة متحالفة معها تغزو أراضيها، لاسيّما إذا كانت تلك القوات في مستوى حضاري دون مستواها، إذ يتعين توفير الطعام لها، ومنعها من السلب والنهب. وليس في الإمكان معرفة الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية إلاّ تخمينًا؛ وتقديرات العصور الوسطى مبالغ فيها دائمًا، على أنّ غوغاء بطرس ـ بما فيها الكثير من غير المقاتلين ـ ربما كان عددها يقارب عشرين ألفًا. وأمّا الجيوش الصليبية الرئيسية، وهي جيوش كل من ريموند، وجودفري، والفرنسيين الشماليين، فقد زاد عدد كل منها كثيرًا على عشرة آلاف بما فيهم غير المقاتلين، وكان جيش بوهيموند أصغر قليلاً، كما كانت هناك جماعات أخرى أقل. وجملة من دخلوا الإمبراطورية بين صيف ١٠٩٦ ميلادية وربيع ١٠٩٧ ميلادية لابد وأنه يتراوح بين ستين ومائة ألف شخص.(٢) وإجمالا، كانت ترتيبات الإمبراطور للتعامل معهم ناجحة، فلم يعان أيّ من

---

(١) Fulcher of Charetres, II, viii, pp. 168-76 خطاب ستيفن أوف بلوا لزوجته المذكور عند Hagenmeryer, *op. cit.* pp. 138-40 وقد كتب هذا الخطاب من نيكوميديا . ولسوء الطالع ضاع خطاب سابق كتبه من القسطنطينية يصف الرحلة فيها ويشير فيه ستيفن إليها .

(٢) أنظر Appendix II .

الصليبيين من نقص الطعام أثناء عبور البلقان، والغارات الوحيدة التي حدثت من أجل الطعام كانت تلك الغارات التي قام بها والتر المفلس في بلجراد، وبطرس في بيلابالانكا، وقد حدث ذلك في ظروف استثنائية، وغارة بوهيموند في كاستوريا أثناء رحلته عبر طريق غير ملائم في منتصف الشتاء. ولم يكن في الإمكان منع غارات صغيرة على المدن وهجوم عابث أو اثنين عليها؛ فلم يكن لدى ألكسيوس العدد الكافي من الجنود، على أنّ فصائله من البتشنج، بطاعتهم العمياء الصارمة للأوامر، والتي أثارت سخط الصليبيين، أثبتت كفاءتها كقوة شرطة، بينما كان مبعوثوه الخصوصيون يعاملون الغربيين معاملة تتصف باللباقة. وليس أدلّ على نجاح الأساليب التي اتبعها الإمبراطور من عبور الجيوش الأخيرة عبوراً سلسًا، وهي المؤلفة من الفرنسيين الشماليين المفتقرين إلى النظام، وهم تحت إمرة قادتهم الضعفاء العاجزين.

مصالح الإمبراطور

ولقد حصل ألكسيوس في القسطنطينية على قسم الولاء من جميع الأمراء فيما عدا ريموند الذي توصل معه إلى تفاهم خاص؛ ولم ينخدع في قيمة القسم من الناحية العملية، أو في مصداقية الرجال الذين أقسموه وإن كان ذلك القسم قد أعطاه على الأقل شرعية ربما تثبت أهميتها. ولم يكن من اليسير بلوغ الغاية المقصودة بذلك القسم؛ فعلى الرغم من أنّ القادة الأكثر حكمة مثل وهيموند، والمراقبين الأذكياء من أمثال فولشر أوف تشارترز كانوا يدركون ضرورة التعاون مع بيزنطة، فإنّ الفرسان الأقل شأنًا وعوام الجنود رأوا في القسم إهانة وخيانة للأمانة،(١) وقد تحاملوا على البيزنطيين لما لقوه من أبناء البلاد من استقبال يتصف بالبرود، بينما كان الصليبيون يظنون

(١) Fulcher of Chartres, 1, viii, 9, pp. 175-9 1, ix, 3, p. 179 .

أنهم جاءوا ليخلصوهم. والقسطنطينية مدينة شاسعة رائعة، ثروتها وفيرة، وسكانها من تاجر وصانع في حركة دائبة، ونبلاؤها يتحلون بدماثة الخلق، ويزدانون بأردية المدنّية والملابس الفاخرة، والسيدات الفضليات قد تزينّ وتجمّلن، وفي ركاب كل واحدة منهن حاشيتها من الخصيّ والعبيد; كل ذلك أثار في نفوس الصليبيين احتقاراً يخالطه إحساس مقلق بالنقص، وما كان بمقدورهم أن يفهموا لغة البلاد ولا عاداتها، كما كانت الطقوس الكنسية غريبة عليهم.

وبادلهم البيزنطيون نفوراً بنفور. فكان مواطنو العاصمة يعتبرون هؤلاء الجامحين الغلاظ الذين طالت عسكرتهم في الضواحي مصدر إزعاج شديد. بينما ينعكس موقف إبناء البلاد حيالهم في خطاب كتبه ثيوفيلاكت، كبير أساقفة بلغاريا من مقره في أوركريدا على طريق فياإجناتيا، الذي لا يَخفي على أحد سعة أفقه تجاه الغرب، عن المتاعب التي سببها مرور الصليبيين في أراضي أسقفيته، ويضيف أنه ورعيته كانوا يتعلمون كيف يحتملون الصبر.(١) إنّ افتتاح الحرب الصليبية لم يكن بشيرًا بعلاقات حسنة بين الشرق والغرب.

ومع ذلك، ربما كان ألكسيوس راضيًّا; فقد زال الخطر عن القسطنطينية، وانطلق الجيش الصليبي الكبير ليحارب الأتراك، وتوفرت لديه النية الصادقة في التعاون مع الصليبيين، ولكن بشرط واحد: إنه لن يضحي بمصالح الإمبراطورية من أجل مصالح الفرسان الغربيين; فواجبه الأول هو واجبه نحو شعبه. وفضلاً عن ذلك، كان يؤمن — كشأن البيزنطيين جميعًا — بأن رفاهية العالم المسيحي تتوقف على رفاهية الإمبراطورية المسيحية التاريخية. وكان اعتقاده صحيحًا.

---

(١) Letter of Theophylact of Bulgaria, in *M.P.G.* vol. cxxvi, cols. 324-5 .

الباب الرابع :

الحرب ضد الأتراك

الفصل الأول :

الحملة فى اسيا الصغــرى

الحملة في آسيا الصغرى

"وَتَأْتِي مِنْ مَوْضِعِكَ مِنْ أَقَاصِي الشِّمَالِ
أَنْتَ وَشُعُوبٌ كَثِيرُونَ مَعَكَ كُلُّهُمْ
رَاكِبُونَ خَيْلاً جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ وَجَيْشٌ
كَثِيرٌ."

(سفر حزقيال، ٣٨ ـــ ١٥)

أيًا ما يكون حجم الخلاف بين الإمبراطور وأمراء الصليبيين على الحقوق النهائية وتوزيع ما سوف يتم الاستيلاء عليه من أراض، فلم يكن هناك خلاف حول المراحل الأولى للحملة ضد الكفرة; فإذا أرادت الحملة الصليبية الوصول إلى القدس فينبغي تطهير الطرق التي تمر عبر آسيا الصغرى ومن الناحية الأخرى كان الهدف الرئيسي

للسياسة البيزنطية هو دحر الأتراك خارج آسيا الصغرى، وإذن فهناك اتفاق تام على الإستراتيجية. وحتى ذلك الحين كان الصليبيون على استعداد للإذعان للقادة المحنكين في الجيش البيزنطي القريب منهم في مسائل التكتيك.

وكان الهدف الأول هو العاصمة السلجوقية نيقية الواقعة على شواطئ بحيرة أسكانيا على مسافة غير بعيدة من بحر مرمرة، والتي يمر خلالها الطريق البيزنطي العسكري القديم، برغم وجود طريق بديل يقع إلى الشرق قليلا. ولا شك في أن بقاء هذه القلعة العظيمة في أيدي الأعداء يعرض جميع الاتصالات عبر البلاد للخطر. وكان ألكسيوس متلهفا على رحيل الصليبيين بأسرع وقت ممكن خاصة وأن الصيف على الأبواب، والصليبيون أنفسهم قد نفد صبرهم؛ فصدرت الأوامر في الأيام الأخيرة من إبريل (نيسان) — وقبل وصول جيش الفرنسيين الشماليين إلى القسطنطينية — بالاستعداد لهدم معسكر بيليكانوم والتقدم إلى نيقية (١).

اختيرت اللحظة اختيارا موفقا؛ إذ كان السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول بعيدا على حدوده الشرقية يناضل أمراء الدانشمند من أجل السيادة على ملطية التي كان حاكمها الأرميني جابرييل مشغولا بالإفساد بين الأمراء الحكام في المنطقة. ولم يأخذ قلج أرسلان هذا التهديد الجديد القادم من الغرب مأخذا جادا؛ إذ سبق وهزم غوغاء بطرس الناسك بغاية اليسر، فتعلم أن يحتقر الصليبيين، وربما أراد جواسيسه في القسطنطينية أن يدخلوا السرور عليه فبالغوا في تصوير الخلافات بين الإمبراطور

---

(١) من الصعب اقتفاء أثر الأمراء ؛ فقد كان جيش جودفري في بيليكانوم منذ أوائل إبريل (نيسان) ، ولحق به جيش بوهيمند هناك وربما تحرك الجيشان : جيش جودفري قبل جيش بوهيموند بثلاثة أيام ، وقبل وصول جيش ريموند إلى هناك ، يوم ٢٩ أو ٣٠ من إبريل (نيسان) لا جتناب شدة ازدحام المعسكر، وبقي جيش ريموند في بيليكانوم ينتظره أثناء عودته إلى القسطنطينية لزيارة الإمبراطور .

والأمراء الغربيين. واستبعد قلج أرسلان أن يتوغل الصليبيون إلى نيقية استبعادا تامـــــا، فترك زوجته وأولاده وجميع أمواله داخل الأسوار، و لم يحرك ساكنا إلا عندما جاءتـــــه الأنباء بتمركز الأعداء في بيليكانوم، فأعاد جزءا من جيشه بسرعة إلى الغرب، على أن يتبعه بنفسه حالما يتمكن من تدبير شؤونه في الشرق، ولكن جنوده وصلوا متـــــأخرين بحيث لم يتمكنوا من التدخل في مسيرة الصليبيين إلى نيقية.(١)

تجمع الصليبيين أمام نيقية

وتحرك جيش جودفري أوف لورين من بيليكانوم في السادس والعشريـــــن مـــن إبريل (نيسان) تقريبا، وسار إلى نيكوميديا حيث انتظر ثلاثة أيام لحق به بعدها جيـــش بوهيموند بقيادة تانكريد، وكذلك بطرس الناسك وبقايا غوغائه. وكان بوهيموند قد تخلف في القسطنطينية لأيام قلائل ليرتب مع الإمبراطور تموين الجيـــــش بـــالإمدادات. وصاحبت الجيش فصيلة بيزنطية صغيرة من المهندسين ومعها آلات الحصـــــار بقيـــادة مانويل بوتوميتيس، وقاد جودفري الجيش من نيكوميديا إلى سيفيتوت، ثم تحول جنوبا عبر المضيق الذي هلك فيه رجال بطرس، وكانت عظامهم ما تزال تغطي مدخل الممر. وتحرك جودفري بحذر، وقد استعاد في ذهنه مصير رجال بطرس ونصيحة الإمبراطور، فأرسل الكشافين والمهندسين في المقدمة لتطهير الطريق وتوسيعه، ثم وضعت فيه سلسلة من الصلبان الخشبية لإرشاد حجاج المستقبل. وفي السادس من مايو (أيار) وصـــل إلى مدينة نيقية، المحصنة تحصينا قويا منذ القرن الرابع; إذ كان البيزنطيون دائبين على صيانة أسوارها التي يبلغ طولها حوالي أربعة أميال بأبراجها البالغ عددها مائتين وأربعين برجا.

---

(١) Matthew of Edessa, II, cxlix-cl, pp. 211-12 ، يصف هجوم قلج أرسلان على ملطيـــة ويقوم إنه كان مشغولاً هناك عندما هاجم الفرنج نيقية .

وتقع المدينة على الطرف الشرقي لبحيرة أسكانيا وتبرز أسوارها الغربية من المياه الضحلة مباشرة، وكان شكلها خماسيا غير منتظم.وعسكر جودفري أمام السور الشمالي، وتانكريد أمام السور الشرقي، وأما السور الجنوبي فقد تركوه لجيش ريموند.

وكانت الحامية التركية كبيرة ولكن في حاجة إلى تعزيزات، فأُرسلت الرسل إلى السلطان تستحثه على أن يدفع بالجنود إلى داخل المدينة من البوابات الجنوبية قبل إتمام الإحاطة بها، وأمسك الصليبيون واحدًا من هؤلاء الرسل. وعلى أن الجيش التركيّ كان ما يزال بعيدًا للغاية، وقبل أن تتمكن طلائعه من الاقتراب وصل ريموند في السادس عشر من مايو (أيار) وانتشر جيشه أمام السور الجنوبي، وكان بوهيموند قد لحق بجيشه قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وحتى ذلك الوقت كانت الإمدادات القليلة غير الكافية قد أضعفت الصليبيين، ولكن بفضل ترتيبات بوهيموند مع ألكسيوس بدأت الإمدادات تتدفق على المحاصِرين برًّا وبحرًا. وبوصول روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا بقواتهما في الثالث من يونية (حزيران)، يكون الجيش الصليبي كله قد تجمع. وأخذ يعمل كوحدة واحدة برغم عدم وجود قائد أعلى له، وكانت القرارات تصدر من الأمراء أثناء اجتماعهم، وحتى ذلك الحين لم يقع خلاف جديّ فيما بينهم، كما انتقل الإمبراطور إلى بيليكانوم حيث يتمكن من الاتصال بكل من عاصمته ونيقية.(١)

---

(١) يرد في *Gesta Francorum*, II, 7, p. 34 وصف مسيرة جودفري إلي نيقية . وتقول Anna Comnena, XI, I, I, vol.III, p.7 إن جزءا من الجيش ذهب مباشرة بحرا من بيليكانوم إلي سيفيتوت. ويقول ألبرت أوف آيكس إن جودفري وصل " روفينيل Rufinel " في الليلة التي ترك فيها المعسكر (في بيليكانوم) وتوقف هناك لتسلم رسالة من ريموند في القسطنطينية ولكي ينضم إليه بطرس الناسك (Albert, II, 20, pp. 313-14) . وبكلمة " Rufinel " فلا بد وأنه يقصد نيكوميدما التي تبعد عن بيليكانوم بمسافة يوم . ويرد وصول ريموند يوم ١٦ مايو في *Gesta Francorum*, II, 8, p.36 كما يرد وصول فرنسيي الشمال في P.38 . *ibod* وكذلك يرد في تاريخ Fulcher of Chartres, 1, x, 3, p. 182. الذي يذكر التاريخ .

ووصلت أول قوة إغاثة تركية إلى نيقية بعد وصول ريموند مباشرة لتجد المدينة وقد حوصرت تماما من البر. وبعد مناوشة قصيرة غير ناجحة مع جنود ريموند انسحبت لتنتظر الجيش التركي الرئيسي الذي كان يقترب وعلى رأسه السلطان نفسه. وكان ألكسيوس قد أصدر تعليماته لبوتوميتيس بإجراء اتصال مع الحامية المحاصرة، وعندما رأت الحامية أن قوة الإغاثة تنسحب وجه قادتها الدعوة إلى بوتوميتيس ليدخل المدينة آمنا لمناقشة شروط التسليم، وبعد أن قبل جاءت الأنباء في الحال بأن السلطان ليس ببعيد فانهارت المفاضات.

المعركة خارج نيقية

وفي حوالي الحادي والعشرين من مايو (أيار) وصل السلطان وجيشه من الجنوب وهاجم الصليبيين على الفور في محاولة لاقتحام المدينة. وتحمل ريموند — الذي كان جناحه الأيمن بقيادة أسقف لوبوى — وطأة الهجوم. إذ لم يكن بوسع أي من جودفري أو بوهيموند المجازفة بترك الجزء الذي يتولاه من الأسوار دون حراسة، على أن روبرت أوف فلاندرز خف مع جنوده لنجدة ريموند، واتقدت المعركة بشراسة طوال اليوم دون أن يحرز الأتراك تقدما. وعندما حل الظلام قرر السلطان الانسحاب; إذ كان الجيش الصليبي أقوى مما يظن وعند مواجهة المقاتلين بعضهم البعض في الميدان أمام المدينة لم يكن رجاله أندادًا للغربيين حسني التسليح. فالإستراتيجيّة الأفضل، إذن، هي الانسحاب إلى الجبال وترك المدينة لمصيرها.(١)

---

(1) توضح أناكومنينا XI, I, 3-4, vol.III,pp. 8-9 أن الأتراك أرسلوا قوتين منفصلتين لإنقاذ نيقية .

ويذكر ألبرت أوف آيكس II,25-6,pp. 318-19 القبض علي جواسيس أتراك قبل الهجوم التركي مباشرة . ويرد وصف المعركة في *Gesta Francorum* II,8,pp. 36-8 وفي التاريخ **Raymond of Aguilers, III, p. 239** وفي تاريخ ألبرت أوف آيكس **II, 27, pp. 319-20**

وكانت خسائر الصليبيين فادحة، إذ قتل كثيرون من بينهم بـــالدوين كونـــت أوف جينت وجرح الناجون من المعركة كلهم تقريبًا. غير أنّ النصر ملأهم زهـــوًا وتيـــهًا، وأبهجهم أن وجدوا بين موتى الأتراك حبالاً لتقييد الأسرى الذين كان السلطان يـــأمل في أسرهم، ولكي يثبّطوا من عزيمة الحامية المحاصَرة قطعوا رُءُوس الكثير مـــن جثـــث الأتراك وألقوا بها من فوق الأسوار أو ثبتوها في حـــراب ومشـــوا بهـــا في اســـتعراض عسكري أمام البوابات.(١) ثم أنهم بعد أن زال ما يخشون من خطر خارجي ركزوا على الحصار، ولكن التحصينات كانت هائلة، وعبثًا حاول ريموند وأديمـــار نســـف أحـــد الأبراج الجنوبية بإرسال متسللين للحفر تحت البرج وإشعال نيران كبيرة تحته. فكـــانت الحامية تصلح الأضرار الصغيرة الناجمة أثناء الليل. وإلى جانب ذلك اتضح أنّ الحصـــار لم يكن محكمًا؛ إذ كانت الإمدادات تصل باستمرار إلى المدينة عبر البحيرة.(١) واضطر الصليبيون إلى أن يطلبوا من الإمبراطور الحضور لمساعدتهم وإمدادهم بقـــوارب كـــيّ يعترضوا الطريق المائي. وربما كان ألكسيوس مدركًا للموقف إدراكًا تامًّا، لكنـــه أراد أن يكتشف الأمراء الغربيون مدى أهمية تعاونه بالنسبة لهم. وأجابهم إلى طلبـــهم بـــأن أمدهم بأسطول صغير في البحيرة تحت قيادة بوتوميتيس.(٣)

---

(١) *Gesta Francorum,loc. cit.;* Albert of Aix, II, 28, pp. 320-1. وقد أبلغ ستيفن آوف بلوا عن موت Baldwin of Ghent، كما يرد في Hagenmeyer, *op. cit.* p. 139

(٢) *Gesta Francorum, loc. Cit.;* Albert of Aix, II, 31,pp. 322-3; Anna Comnena, XI, I, 6-7, vol. III, pp. 9-10

(٣) *Gesta Francorum, ibid.* p.40; Albert of Aix, II, 32, pp. 323-4 . وتشير أناكومنينا XI, ii, 3-4, vol.III, pp. 11-12 إلي دوافع والدها في إرسالة سفن إلي البحيرة في نهاية الأمـــر، وتقول إنه أرسل في ذات الوقت الجنود تحت إمرة تاتيسيوس وتزيتاس لمساعدة الصليبيين علي الأرض

الاستيلاء على نيقية

وكان السلطان قد أخبر الحامية قبل انسحابه بأن تفعل ما تظنه الأفضل، إذ ليس بمقدوره تقديم المزيد من العون. فعندما رأت الحامية السفن البيزنطية في البحيرة أدركت أنّ الإمبراطور يعاون الصليبيين معاونة كاملة وقررت التسليم. وكان ذلك هو ما يأمل فيه ألكسيوس، فلم يكن يرغب في أن يضيف إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه مدينة شبة مهدمة، ولا أن يعاني رعاياه الجدد أهوال السلب، لاسيّما وأن أغلب المواطنين كانوا مسيحيين، فالأتراك في المدينة لا يجاوزون الجنود وطبقة صغيرة من نبلاء البلاط. وعادت الاتصالات بين الحامية وبوتوميتيس ونوقشت شروط التسليم. ولكن الأتراك ظلوا مترددين وربما كانوا يأملون في عودة السلطان، ولم يستسلموا إلاّ عندما جاءتهم الأنباء بأنّ الصليبيين يُعدّون العدة لهجوم عام.

وكانت الأوامر قد صدرت بأن يكون الهجوم في التاسع عشر من يونية (حزيران)، ولكن عند انبلاج الصباح شاهد الصليبيون رايات الإمبراطور ترفرف على أبراج المدينة; لقد استسلم الأتراك أثناء الليل ودخل جنود الإمبراطور — وهم أساسًا من البتشنج — من البوابات الواقعة في جانب البحيرة. ومن غير المحتمل ألاّ يكون القادة الصليبيون على علم بالمفاوضات، أو عارضوها، إذ كانوا يعلمون أنّ لا مغزى من إضاعة الوقت والرجال في الهجوم على مدينة لن تكون لهم، ولكن ألكسيوس تعمد إخفاء المراحل الأخيرة، وأما باقي الجنود فقد اعتبروا أنهم خدعوا وحيل بينهم وبين فريستهم. إذ كانوا يأملون في نهب ثروات نيقية. وبدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم وقد سُمح لهم بمجرد دخول المدينة في جماعات صغيرة وهم تحت المراقبة الشديدة من شرطة الإمبراطور، وكانوا يأملون في احتجاز نبلاء الأتراك للحصول على فدية، وبدلاً من ذلك شاهدوهم وهم يُنقلون تحت الحراسة مع منقولاتهم إلى القسطنطينية أو إلى

الإمبراطور في بيليكانوم. فازدادت مرارة استيائهم من الإمبراطور.(١)

وقد خفف كرم الإمبراطور من حدة هذه المرارة إلى حد ما; إذ أمر ألكسيوس على الفور بمنح كل جندي صليبي هدية طعام، بينما استدعى القادة إلى بيليكانوم لإهدائهم ذهبا وجواهر من خزانة السلطان. وأذهل ستيفن أوف بلوا وهو في حضرة الإمبراطور مع ريموند أوف تولوز جبل الذهب الذي كان من نصيبه، وكان يعارض رأي رفاقه من الصليبيين الذين يقولون أنه كان ينبغي للإمبراطور أن يجيء إلى نيقية بنفسه; لأنه يعرف أن استقبال المدينة المحررة لسيدها ربما أدى إلى إحراجه. وفي مقابل الهدايا طلب ألكسيوس من الفرسان الذين لم يقسموا له قسم الولاء بعد أن يقسموه الآن، واستجاب الكثير من اللوردات الأقل شأنا الذين لم يعبأ ألكسيوس بهم أثناء عبورهم القسطنطينية. ويبدو أنه لم يطلب من ريموند شيئا غير ما حدث من قبل، على أن حالة تانكريد اتخذت شكلا أكثر خطورة; إذ كان تانكريد بادئ الأمر مشاكسا، فقد أعلن أنه ما لم يأخذ خيمة الإمبراطور الكبيرة مملوءة ذهبا إلى حافتها، فضلا عن مقدار آخر من الذهب يساوي كل الذهب الذي أخذه الأمراء الآخرون، فإنه لن يقسم على شيء. وعندما اعترض زوج أخت الإمبراطور جورج باليولوجوس على فظاظته

(١) تورد أناكومنينا XI, ii, 4-6, vol. III, pp.12-13 رواية كاملة عن استسلام المدينة ، وتعترف صراحة بأن البيزنطيين خدعوا الصليبيين . ولا تزيد المصادر الغربية على أن نيقية استسلمت للإمبراطور.

تحول إليه في خشونة وأمسك بتلابيبه، ونهض الإمبراطور ليتدخـــل، وراح بوهيموند يوبخ إبن أخته توبيخًا شديدًا، وفي النهاية خضع تانكريد على مضض.(١)

وصدم الصليبيون لمعاملة الإمبراطور لأسراه من الأتراك. إذ سمح لمسئولي البـــلاط والقادة بأن يشتروا حريتهم، أما السلطانة — وهي إبنة الأمير شاكا — فقد استقبلت بالتشريفات الملكية في القسطنطينية حيث تقرر أن تبقى هناك إلى أن يرســـل زوجـــها رسالة بالمكان الذي يرغب أن تلحق فيه به، وعندئذ سوف ترسل إليه هي وأولادها

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, III, pp. 239-40 إن الإمبراطور كان قد وعد الأمراء بكافـــة الأسلاب المأخوذة من نيقية وتعهد بإنشاء دير لاتيني ونزل هناك ؛ وتسبب عدم تحقيق وعده في الشعور بمرارة بالغة . غير أن هناك من تحدث عن كرمه العظيم في تواريخ Fulcher of Chartres, 1,x,10, pp. 188-9 و Anselm of Ribemont, وهاجنماير op. cit. 145 وســـتيفن أوف بلـــوا في هاجنماير op. cit. p. 140 ويقول هذا الأخير إن الإمبراطور قد وزع في الواقع أجود الأســـلاب (Gesta Francorum, III, 9, p. 42) وتذكر أناكـــومنينا (XI, III, 1-2, vol.III, p.16-17) واقعة القسم للمرة الثانية . ويفترض جروسيت في : *Histoire des Croisades, vol.1,p.31* وبدون سبب واضح لإفتراضه هذا أن تانكريد كان ما يزال رافضا لأخذ القسم بل أن Chalandon يستبعد ذلك لأن ألكسيوس لم يتهمه فيما بعد قط بأنه حنث بقسم ما . على أن قصة أنا كومنينـــا واضحة ومقنعة . ومـــن الناحية الأخري تتضح صحة تخيل Radulph of Caen عـــن الحكايـــة (XVIII-XIX,pp.619-20) وتقدم القصة علـــي أن تانكريد أحـــب أن يتخيـــل ذلـــك . أنظـــر Nicholson, *Tancred*, p. 32 n. 5 ويعترف *Anselm, loc.cit.* بأن بعض الأمراء كانـــوا مستـــائين من الإمبراطور . ويورد ألبرت أوف آيكس II,28, p. 321 توزيع ألكسيوس للهدايا أثناء الحصار . أنظر ما سبق صفحة ٢٠٢ الحاشية ١ ، فيما يتعلق بمكان الإحتمال .

دون فدية. لقد كان ألكسيوس رجلا شفوقا، وكان يعي جيدا قيمة التلطف مع عـــدو مهزوم، بيد أن موقفه هذا بدا للأمراء الغربيين موقف المنافق الخئون.(١)

ومع ذلك، وبرغم خيبة الأمل التي شعر بها الصليبيون لعدم استيلائهم هم أنفســـهم على المدينة، وحرمانهم من ثروتها، فإن تحرير نيقية ملأهم بهجة وأمـــلا في المســـتقبل. وأرسل البريد إلى الغرب معلنا أن هذا المكان المبجل أصبح مســـيحيا مـــرة أخـــرى. واستقبل الغرب تلك الأنباء بحماس، فقد أثبتـــت الحـــرب الصليبيـــة نجاحـــها، وزاد استجلاب الجنود، وبدأت المدن الإيطالية، التي كانت تتوخى الحذر وترجئ مســـاعدتها الموعودة، تأخذ الحركة الصليبية مأخذا جادا. وفي معسكر الصليبيين كـــان الفرســـان متلهفين على مواصلة الرحلة، وكان ستيفن أوف بلـــوا في غايـــة التفـــاؤل، وكتـــب لزوجته: "سنكون في القدس في مدى خمسة أسابيع"، وأضاف في تنبؤ يجاوز معرفتـــه: "ما لم يعوقنا عائق في أنطاكية".(٢)

الطرق خلال آسيا الصغرى

ومن نيقية انطلق الصليبيون في الطريق البيزنطي القديم عبر آسيا الصغرى، وكان الطريق القادم من خلقدونية، ونيكوميديا يلتقي بالطريق القادم من هيلينوبوليس ونيقية على ضفاف نهر سنجاريوس. وسرعان ما يترك النهر ليصعد واديًا آخر لرافد يقـــع إلى الجنـــوب، تاركًا وراءه مدينة بيليجيك الحديثة، ثم يلتف فوق أحد الممرات إلى دريليوم

---

(١) يعلن كاتب تاريخ *Gesta Francorum* (II, 8, pp.40-2) أن الإمبراطور عامل الأسرى معاملـــة كريمة، ببساطة لكي يجعلهم يضايقون الصليبيين فيما بعد.وعن تحركات السلطان اللاحقة أنظر ص٢٤١.

(٢) Stephen of Blois, *loc. cit.* سمح للصليبيين زيارة نيقية فـــي مجموعـــات من عشرة أشخاص (XI,ii, Anna Comnena, 10, vol. III, p. 16)

بالقرب من إسكيشهر الحديثة، وهناك يتفرع إلى ثلاثة طرق: فيمضي الطريق البيزنطي العسكري الكبير باتجاه الشرق، وربما كان يمر بالقرب من أنقرة إلى الجنوب مرة أخرى بعد عبوره نهر هاليس، فيستمر فرع منه عابرًا سباستيا (سيفاس) مباشرة إلى داخل أرمينيا، ويلتف الآخر باتجاه قيصرية مازاكا. ومن هناك كانت عدة طرق تمضي عبر ممرات منطقة جبال طوروس المقابلة إلى داخل وادي الفرات، بينما يلتف طريق آخر مرتين عائدًا إلى الجنوب الغربي خلال تيانا إلى بوابات كيليكيا. ويمضي الطريق الثاني من دوريليوم مباشرة عبر صحراء الملح الكبرى في وسط آسيا الصغرى، جنوب بحيرة تاتا ومن أموريوم إلى بوابات كيليكيا. و لم يكن هناك من يستخدم ذلك الطريق سوى الجماعات التي تتحرك بسرعة لأنه كان يمر عبر منطقة مقفرة تخلو من الماء تمامًا. وكان الطريق الثالث يمر بأطراف صحراء الملح الجنوبية ممتدًا من فيلوميليوم، وهي إكسيشهر الحديثة، إلى إيكونيوم وهرقلة وبوابات كيليكيا. وكان هناك طريق فرعي يجري بادئًا على مقربة من فيلوميليوم إلى البحر المتوسط عند أنطاليا، وآخر من مكان عبر إيكونيوم إلى البحر المتوسط عند سيليوشيا.(١)

وأيًا ما يكون الطريق الذي كان على القوات الصليبية أن تتخذه، فلابد لها من الوصول أولاً إلى دوريليوم. وفي السادس والعشرين من يونيـة (حزيـران)، أيّ بعد أسبوع من سقوط نيقية، بدأت الطلائع تتحرك وتبعتها في اليومين التاليين فرق الجيش المختلفة ليتجمع الجيش مرة أخرى عند جسر عبر النهر الأزرق حيث يترك الطريق وادي سنجاريوس ليصعد إلى الهضبة. وصاحبت الصليبيين فصيلة بيزنطية صغيرة بقيادة الجنرال المحنك تاتيسيوس، وتخلف عدد من الصليبيين أغلبهم من المصابين في نيقية ،

---

(١) عن الطرق في آسيا الصغري أنظر Ramsay, *Historical Geography of Asia Minor,* pp.74-82

والتحقوا بخدمة الإمبراطور ووضعوا تحت إمرة بوتوميتس لإصلاح ما تهدم من نيقية والالتحاق بحاميتها.(١)

وعند الجسر، وفي قرية تدعى ليوس، اجتمع الأمراء للتشاور وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين يلحق أحدهما بالآخر بعد مسيرة يوم واحد لتسهيل مشكلة الإمدادات. يتكون الجيش الأول من النورمانديين القادمين من جنوب إيطاليا وشمال فرنسا مع جنود كونت أوف فلاندرز وكونت أوف بلوا بالإضافة إلى البيزنطيين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين. ويضم الجيش الثاني الفرنسيين الجنوبيين وأبناء اللورين مع جنود كونت أوف فيرماندوا. وتولى بوهيموند قيادة المجموعة الأولى، وريموند أوف تولوز المجموعة الثانية، ولما تم التقسيم انطلق جيش بوهيموند على الطريق إلى دوريليوم.(٢)

وكان السلطان قلج أرسلان، بعد أن فشل في إنقاذ نيقية، قد انسحب شرقا ليجمع قواته ويحقق السلام والتحالف مع أمير الدانشمند ضد هذا التهديد الجديد. فكانت خسارة نيقية إنذارا له، كما كانت خسارته لخزانته خسارة فادحة، ولكن الأتراك كانوا ما يزالون بدوا رحلا بالغريزة. وكانت عاصمة السلطان الحقيقية هي خيمته . وفي أواخر يونية (حزيران) عاد باتجاه الغرب ومعه جميع قواته والأمير حسن

---

(١) انطلق جيش بوهيمند يوم ٢٦ يونية (*Gesta Francorum*, III, 9, p.44) وانطلق جيش ريموند يوم ٢٨ يونية (Raymond of Aguilers, III, p. 240; Anselm of Ribemont, *loc.cit.*)، وانطلق الجيش الفرنسي الشمالي يوم ٢٩ يونية (Fulcher of Chartres, 1, xi, 1,p. 190) وتذكر Anna Comnena, XI, iii, 3, vol. III,pp. 16-17 أن بعض الفرنج بقوا مع بوتوميتس Butumites.

(٢) Anna Comnena, XI, iii, 4, vol. III, p. 18; *Gesta Francorum*, III, 9, p. 44; Albert of Aix, II, 38, pp. 328-9

التابع له وهو أمير أتراك كبادوكيا، وجيش الدانشمند وعلى رأسه أميره. وفي الثلاثين من يونية (حزيران) كان ينتظر في أحد الأودية على مقربة من دوريليوم وقد أعدّ عدته لمهاجمة الصليبيين أثناء هبوطهم من الممر.

معركة دوريليوم

وفي ذلك المساء عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل غير بعيد عن دوريليوم. وعند شروق الشمس انقضّ الأتراك هابطين جانب التل وهم يصيحون صيحات الحرب. ولم يكن بوهيموند غير مستعد; إذ تجمّع غير المحاربين من الحجاج بسرعة في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وعُهد إلى النساء بمهمة حمل الماء إلى الخط الأمامي، وهُيئت الخيام بسرعة، وطُلب من الفرسان الترجّل من على صهوات خيولهم، وفي نفس الوقت أرسل بوهيموند رسولاً على جناح السرعة إلى الجيش الثاني يستحثه على الإسراع، بينما طلب من قادته أن يستعدوا لمعركة عسيرة وأن يلزموا جانب الدفاع بادئ الأمر. وعصى أوامره واحد منهم فقط هو نفس الفارس الذي تجرأ وجلس على عرش الإمبراطور في القسطنطينية، إذ هاجم العدو في أربعين من رجاله، ليندحروا راجعين يجرون أذيال الخزي تغطيهم الجراح، وسرعان ما أحاط الأتراك بالمعسكر وقد بدت أعدادهم في أعين المسيحيين وكأنها لا نهاية لها. واستخدم الأتراك تكتيكهم المفضّل بأن يدفعوا بالرماة إلى الخط الأول لإطلاق سهامهم، وفي الحال يفسحون المجال لرماة آخرين.

وبارتفاع شمس يوليه (تموز) الحارة بدأ الصليبيون يتشككون في قدرتهم على الصمود أمام سيل القذائف الذي لا يتوقف، ولا سبيل إلى الهرب وهم هكذا محاطون، كما أنّ الاستسلام يعني تحولهم إلى رهائن وعبيد، فعزموا أمرهم على تحمل الاستشهاد مجتمعين إذا اقتضى الأمر. وأخيرًا، وعند منتصف النهار، شاهدوا رفاق الجيش الثاني

مقبلين، جودفري وهيو في المقدمة مع رجالهما، وريموند برجاله على مقربة خلفهم، و لم يكن الأتراك قد تحققوا من أنهم لم يوقعوا بالقوة الصليبية كلها، ولدى رؤيتهم القادمين الجدد خارت عزيمتهم و لم يتمكنوا من الحيلولة دون اتصال الجيشين. وشدد ذلك من عزم الصليبيين وبدأوا يأخذون زمام الهجوم، وأقاموا جبهة طويلة على ميسرتها بوهيموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا، وعلى ميمنتها جودفري وهيو، وفي القلب ريموند وروبرت أوف فلاندرز، وبدُءوا الهجوم وهم يذكّرون بعضهم البعض بالثروات التي سيفوزون بها إذا انتصروا. و لم يكن الأتراك مهيأين لمواجهة الهجوم، والأغلب أنّ ذخيرتهم كانت تتناقص، وفجأة ظهر أسقف لوبوي على التلال الواقعة خلفهم ومعه فصيلة من الفرنسيين الجنوبيين، فتحول ترددهم إلى حالة من الذعر. وكان أديمار قد خطط بنفسه هذا التحول عن الطريق، ووجد مرشدين يدلونه عبر ممرات الجبل، وأدى تدخله إلى تأكيد انتصار الصليبيين. وانهارت خطوط الأتراك، وسرعان ما ولوا الأدبار شرقًا تاركين في عجلتهم مضرب خيامهم دون مساس، فوقعت خيمة السلطان وخيام الأمراء بكل ما فيها من كنوز في أيدي المسيحيين.(١)

---

(١) تذكر Anna Comnena, *loc. cit.* واقعة الفارس الفرنسي *Gesta francorum*, III, 9, pp.44-8 ويصف Raymond of Aguilers, IV, pp. 240-1 دور Albert of Aix, 42,pp.- Adhemar 329-32 Fulcher of Chartres, 1, xi, 3-10, pp. 189-98 II, 39؛ وخطاب من بعض الأمراء إلي إيربان الثاني ، مذكور لدي *Hagenmeyer, Dei Kreuzzugsbriefe*, p.161

وتقع دور يليوم – وعادة تسمي المعركة بأسمها – علي مسافة حوالي ميلين شمالي إسكيشهر الحديثة .

ومكان ميدان القتال الدقيق الذي شهد المعركة محل خلاف ؛ إذ تطلق عليه أنا كومنينا "سهل دور يليوم" ويطلق عليه الأمراء في خطابهم إلي البابا " وادي Dorotilla " ولا بد أن الاسم يعني دور يليوم ؛ ويطلق عليه المؤرخ Raymond of Aguilers إسم " Campus Floridus " وألبرت أوف آيكس-

الفرنج والأتراك

وكان نصرا كبيرا، راحت فيه أرواح الكثير من المسيحيين، من بينهم وليم أخو تانكريد، وهمفري أوف مونت سكابيوزو، وروبرت أوف باريس. وتعلم الفرنج كيف يحترمون الأتراك الاحترام اللائق بهم كجنود. وربما أرادوا أن يرفعوا من شأن إنجازهم فأعربوا طواعية عن إعجابهم بالأتراك، ذلك الإعجاب الذي أنكروه علي البيزنطيين الذين كان لهم من أساليب الحرب العلمية المتقدمة ما يعتبرها الفرنج أساليب بالية، كما أنهم لم يعترفوا بإسهام البيزنطيين في المعركة. ويعتبر المؤرخ النورماندي المجهول مؤلف "جيستا" أن الأتراك خليقون بأن يكونوا أحسن الأجناس البشرية لو أنهم كانوا مسيحيين. واسترجع الأسطورة التي جعلت الفرنج والأتراك ذوي قربى باعتبار أن

== Ozellis called the valley of Degorganhi which is now ويعتبر Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade, pp. 86-7 أن الصليبيين لم يتمكنوا من الوصول إلي دوريليوم نفسها في ليلة ٣٠ يونية ، إذ أنها تبعد عن Leuce مسيرة ٢٢ ساعة وهو يحدد مكان المعركة بالقرب من Bozuzuk (وهو يقصد Bosoyuk) أو إينونو Inönü غير أن الطريق البيزنطي المباشر كان يتجنب تلك الأماكن ويمضي خلال Sögüt ، ويدخل السهل الواقع علي مسافة حوالي ثمانية أميال شمال غرب دوريليوم . ولما قام الأتراك بهجوم مفاجيء فلا بد أنهم كانوا - من ثم - مختبئين وراء التلال ؛ بينما استخدم Ahemar هو الآخر بعض التلال لمهاجمة مؤخرة الأتراك . وقبل أن يدخل الطرق إلي السهل فإن الجبال تستوي الجبال بحيث تسمح بهذه المناورات . علي أن سهل Sari - su, الذي يسمى باليونانية Bathys والذي ينتهي إليه الطريق ، تقسمه سلسلة من التلال المنخفضة عند Parsuk أو يسمى باليونانية Tembris وهي تلال يسهل عبورها وتمتد حتي التقاء المجاري المائية فوق دوريليوم مباشرة . فإذا كان الصليبيون قد عسكروا في وادي ---

الفريقين من نسل أهل طروادة، وهي أسطورة تقوم على أســـاس عدائـــهم المشـــترك لليونانـــيين وليس على أساس ديني.(١) بيد أنه مهما كان الإعجاب بالعسكرية التركية فإنّ هزيمتهم ضمنت مروراً آمنًا للصليبيين عبر آسيا الصغرى. وأمّا الســـلطان، الـــذي استُلب أولاً من عاصمته، والآن من خيمته الملكية والقَدْر الأكبر من كنزه، فقد قرر أنه لا طائل من محاولة اعتراض الصليبيين. وقابل أثناء هروبه جماعة من السوريين الأتـــراك كانوا متأخرين و لم يشتركوا في المعركة، فشرح لهم أنّ أعداد الفرنجة وقوتهم أكبر ممـــا كان يتوقع، وأنه لا يستطيع الوقوف أمامهم، ثم لجأ هو ومواطنوه إلى الجبال بعـــد أن هجروا المدن التي كانوا قد استولوا عليها ونهبوها وخربوا داخل البلاد حتى يســـتحيل على الصليبيين أن يطعموا أنفسهم أثناء تقدمهم.(٢)

-- Porsukبينما تستطيع نقطة للمراقبة على مرتفعات Karadjashehir الواقعة جنوب Porsuk مباشرة أن تمكنهم من مراقبة تحركات الصليبيين . كما أنه من المرجح أن يكون Adhemar قد عبر إلى وادي Porsuk لمهاجمة الأتراك من خلفهم . ونتيجة لما قمت به شخصياً من تدقيق لتلك المنطقة فإنني أحدد مكان المعركة في سهل Sari-su حيث يدخله الطريق المباشر الآتي من Leuce . وللوصـــول إلى هذا المكان ، كان على الطليعة أن تقطع حوالي ٨٥ ميلا في أربعة أيام ، إذ غادرت نيقية صباح ٢٦ يونية ، وربما توقفت ليوم كامل في Leuce . وقد غادرت المؤخرة نيقيا بعد ذلك بيومين ولكن مـــن الواضح أنها لم تتوقف في Leuce . وبعد غذت السير تمكنت من اللحاق بقوات الطليعة بعد الظهر من يـــوم المعركـــة . ولما كان قادة قوات المؤخرة على صهوات جيادهم ، فالراجح أنهم وصلوا Leuce لمناقشة رفاقهم قبل وصول قوات المشاة .

(٢) *Gesta Francorum*, III, 9, pp. 50-2

(٣) *Ibid.* IV, 10, pp. 52-4

وأمضى الصليبيون يومين في دوريليوم للراحة ولاستعادة نشاطهم بعد المعركة وللتخطيط للمراحل التالية من مسيرهم. و لم يكن من الصعب اختيار الطريق; فالطريق العسكري المتجه شرقًا يمضي بعيدًا داخل بلاد يسيطر عليها الدانشمند وأمراء لم تكسر شوكتهم، وكان الجيش من الضخامة وثقل الحركة بحيث يتعذر عليه عبور صحراء الملح مباشرة; فكان عليه أن يتبع الطريق الأبطأ على جانب الجبال الواقعة جنوب الصحراء. ولا شكّ في أنّ هذا الاختيار كان بناء على نصيحة تاتيسيوس والمرشدين الذين أحضرهم، إلاّ أنّ الطريق، برغم ذلك، لم يكن مأمونًا; فبعد غزوات التركمان وعشرين عامًا من الحروب تهدمت القرى، وبقيت الحقول دون زراعة، وتلوثت الآبار أو تُركت لتجف، وسقطت الجسور أو دُمِّرت. وليس من الممكن دائمًا الحصول على معلومات من سكان مشتتين مرعوبين. وبالإضافة إلى ذلك، وإذا ما حدث أيّ خطأ، سرعان ما يرتاب الفرنج في المرشدين اليونانيين، بينما كان المرشدون يشعرون بالمرارة من فوضوية الفرنجة وجحودهم، ووجد تاتيسيوس أنّ دوره يزداد كآبة وصعوبة.(١)

عبر صحراء الأناضول

وفي الثالث من يولية (تموز) تحرك الجيش في كتلة واحدة متصلة ليتجنب المخاطر التي حدثت في دوريليوم، وراح يشق طريقه الصعب باتجاه الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول، إذ لم يستطع الاستمرار على الطريق الرئيسي القديم. وبعد عبوره بوليبوتوس تحول إلى أنطاكية الروم التي أفلتت من تخريب الأتراك على الأرجح، ومن ثمّ يمكن

---

(١) لم تحدث شكاوي من تاتيسيوس والبيزنطيين إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية ، على أنه بحلول ذلك الوقت أصبح عدائيا " inimicus " (*Gesta Francorum*, VI, 16, p. 78).أنظر ما يلي صفحة ٢٧٧ ، الحاشية ١. ولابد أن الاستياء منه كان يتزايد بحيث نجحت دعاية بوهيمند من فورها .

الحصـــول على إمدادات منها . ومن هناك عبر الصليبيون ممرات السلطان داغ المقفرة ليعودوا إلى الطريق الرئيسي الذاهب إلى فيلوميليوم، ومنها امتد الطريق خـــلال بـــلاد مقفرة بين الجبال والصحراء. وفي حمّارة قيظ الصيف الذي لا يرحم عـــانى الفرســـان بأسلحتهم الثقيلة وخيولهم ومُشاتهم أسوأ معاناة. فليس هناك في الأفق من ماء ســـوى غياض الصحراء المالحة، ولا خضرة إلاّ أحراش الشوك التي مضغوا فروعها في محاولـــة يائسة لامتصاص نداوتها، وكانوا يشاهدون صهاريج المياه البيزنطيـــة علـــى جوانـــب الطريق وقد دمرها الأتراك كلها؛ فكانت الخيل أول من هلك، واضطر الكثـــير مـــن الفرسان إلى مواصلة السير راجلين، وامتطى آخرون الثيران، بينما استخدموا الخـــراف والماعز والكلاب لجر الأمتعة، على أنّ معنويات الجيش بقيت مرتفعة، وكان فولشـــر أوف تشارتر يرى أنّ تزامل الجنود الآتين من شتى البقاع والمتحدثين مختلف اللغـــات، يبدو وكأنه إلهام من الرب.(١)

وفي منتصف أغسطس (آب) وصل الصليبيون إلى مدينة إيكونيوم. وهي مدينـــة قونية الحديثة، وقد ظلت في أيدي الأتراك لثلاث عشرة سنة، وأوشك قلـــج أرســـلان على اختيارها عاصمة جديدة له. وكانت في ذلك الوقت مدينة مـــهجورة إذ هـــرب الأتراك إلى الجبال بكل منقولاتهم. ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قنوات المياه والبساتين في وادي ميرام البهيج الواقع خلف المدينة. ولقد فتنت خصوبتـــه المســـيحيين المتعبـــين، فاستراحوا هناك ليستردوا قواهم، إذ كانوا جميعًا في حاجة إلى الراحة، وكـــان القـــادة منهم منهكين، وقد جرح جودفري قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كان يصيد دبًّا، ووقـــع ريموند أوف تولوز فريسة مرض خطير وشاع الظنّ بأنه يحتضـــر، ومســـحه أســـقف أورانـــج مسحة الموتى ، غير أنّ الإقامة في قونية أنقذته، واستطاع بعد ذلك أن يســـير

---

(١) *Gesta Francorum*, IV, 10, p. 55; Fulcher of Chartres, 1,Xiii, 1-5 pp. 199-203; Albert of Aix, III, 1-3, pp. 339-41

بالجيش حينما تحرك. وامتثل الصليبيون لنصيحة السكان الأرمن القلائل الذين كانوا يعيشون بالقرب من المدينة. فأخذوا معهم من الماء ما يكفيهم للوصول إلى وادي هرقلة الخصيب.(١)

وفي هرقلة وجدوا جيشا تركيا بقيادة الأمير حسن والأمير الدانشمندي، اللذين كانا يشعران بالقلق على أملاكهما في كبادوكيا، فكانا يأملان في أن يتسبب وجودهما في إجبار الصليبيين على محاولة عبور جبال طوروس إلى الساحل; ولكن الصليبيين هاجموا الأتراك فور رؤيتهم، وكان قائدهم بوهيموند يجد في طلب الأمير الدانشمندي نفسه، ولم يكن الأتراك يرغبون في خوض معركة كبيرة، فانسحبوا انسحابا خاطفا إلى الشمال تاركين المدن للمسيحيين، وتلألأ مذنب في السماء ليتألق النصر.(٢)

وأصبح من الضروري الآن إعادة مناقشة الطريق الواجب اتخاذه. فإلى الشرق من هرقلة كان الطريق الرئيسي يمضي عبر جبال طوروس خلال ممر كيليكيا الرائع إلى داخل كيليكيا ذاتها، وكان ذلك هو الطريق المباشر إلى أنطاكية، وإن كانت له بعض المساوئ. فلم يكن من اليسير عبور بوابات كيليكيا حيث يصبح الطريق أحيانا شديد الانحدار وضيقا للغاية بحيث يتسنى لجماعة صغيرة معادية على المرتفعات أن تدمر جيشا بطيء الحركة تدميرا سريعا. وكانت كيليكيا في حوزة الأتراك، وأفاد المرشدون

---

(١) *Gesta Francorum , ibid.* p. 56; Fulcher of Chartres , *ibid.* p. 200. ويذكر Raymond of Aguilers, IV, p. 241 مرض ريموند الذي لابد وأن يكون قد وقع له في هذا التاريخ ، ويذكر Albert of Aix, III, 4, pp.341-2 حادثة جودفري .

(٢) *Gesta Francorum, loc. cit.;* Anna Comnena, XI, iii, 5, vol. III, pp. 18-19 . وتذكر أنا كومنينا شجاعة بوهيمند في هذه المعركة . ولابد أن يكون تاتيسيوس هو الذي ويذكر Fulcher of Chartres, 1, xiv, pp. 203-5 المذنّب .

البيزنطيون بأن مناخها يكون في سبتمبر (أيلول) في أسوأ أحواله. وفضلا عـــن ذلــك، لابد لجيش ذاهب من كيليكيا إلى أنطاكية أن يعبر منطقة جبال أمانوس في الممر الوعر المعروف بالبوابات السورية. ومن ناحية أخرى تسببت هزيمة الأتراك في فتح الطريق إلى قيصرية مازاكا، ومن هناك تؤدي مواصلة السير في الطريق العسكري البيزنطي الكبـــير إلى عبور جبال طوروس المقابلة إلى مرعش (جيرمانيشيا)، ثم ينحدر فوق ممر بوابـــات أمانوس العريض والمنخفض إلى داخل سهول أنطاكية وكان هذا هو الطريـــق الـــذي يتخذه المرتحلون من أنطاكية إلى القسطنطينية في الغالب في السنوات التي سبقت الغزو التركي. وله الآن ميزة المرور عبر بلاد يسيطر عليها المسيحيون وصغار الأمراء الأرمن، وأغلبهم أتباع معينون من قبل الإمبراطور، وربما يكون موقفهم وديا. وأغلب الظن أن اختيار الطريق الأخير كان بتوصية من تاتيسيوس والبيزنطيين، غير أن هـــذه التوصيـــة لاقت معارضة من الأمراء المعادين للإمبراطور وعلى رأسهم تانكريد. وقررت الأغلبية المضي خلال قيصرية، ولكن تانكريد ومعه مجموعة من جنوب إيطاليا وبالدوين (أخو جودفري) وبعض الفنلنديين وأبناء اللورين، قرروا الانفصال عـــن الجيـــش الرئيســـي ليتخذوا الطريق الذي يعبر كيليكيا.

على حدود الأناضول

وفي العاشر من سبتمبر (أيلول) تقريبا انطلق تانكريد وبالدوين إلى ممرات جبال طوروس (١) في طريقين منفصلين. وتحرك الجيش الرئيسي باتجاه الشمال الشرقي يريـــد قيصرية ، وعند قرية أوجوستوبوليس أدرك الجيش جنود الأمير حسن وألحق بهم هزيمة أخرى . لكنه لم يحاول الاستيلاء على إحـــدى قلاع الأمير التي كانت تقع غير بعيـــد

---

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٤-٣١٥ .

من الطريق، وذلك تجنبًا للتأخير برغم احتلال العديد من القرى الصغيرة وتحويل إدارتها إلى اللورد الأرميني المحلي سيميون الذي طلب ذلك على أن يكون تابعًا للإمبراطور. وفي نهاية الشهر وصل الصليبيون إلى قيصرية التي هجرها الأتراك، ولم يتوقفوا فيها وإنما واصلوا سيرهم إلى كومانا (بلاسنتيا)، وهي مدينة مزدهرة يسكنها الأرمن، وكان الأتراك الدانشمند يحاصرونها آنذاك، لكنهم اختفوا لدى اقتراب الصليبيين، وانطلق بوهيموند في أثرهم ولكنه لم يلحق بهم. ورحب المواطنون المبتهجون بمخلصيهم، وطلبوا من تاتيسيوس تعيين حاكم للمدينة باسم الإمبراطور، فاختار بطرس أوف أولبس وهو فارس من بروفانس الفرنسية كان قد جاء في بداية الأمر إلى الشرق مع جيسكار، ثم التحق بخدمة الإمبراطور. وكان اختياراً حكيمًا; فقد أظهرت هذه الحادثة أن الفرنج والبيزنطيين كانوا ما يزالون قادرين على التعاون وعلى أن يشتركا معًا في تنفيذ المعاهدة المعقودة بين الأمراء والإمبراطور.(١)

وتقدم الجيش من كومانا باتجاه الجنوب الشرقي إلى كوكسون (جوكسون الحديثة) وكانت مدينة مزدهرة مليئة بالأرمن تقع في الوادي الخصيب جنوب منطقة جبال طوروس المقابلة. وبقي الجيش هناك ثلاثة أيام تمتع خلالها بحفاوة السكان الذين أمدوه بالإمدادات الوفيرة استعداداً للمرحلة التالية من مسيرته عبر الجبال. والآن وصلت إلى الجيش شائعة بأنّ الأتراك هجروا أنطاكية، وكان بوهيموند ما يزال غائبًا يطارد الدانشمند; ولذا قام ريموند أوف تولوز في الحال، ودون استشارة أحد سوى قواده، بإرسال خمسمائة فارس بقيادة بطرس أوف كاستيلون للإسراع أمام الجيش واحتلال المدينة. وانطلق الفرسان بأقصى سرعتهم، لكنهم عندما وصلوا إلى قلعة يشغلها الهراطقة البوليون غير بعيدة عن وادي الأُرند، علموا أنها شائعة زائفة وأنه

---

(١) *Gesta Francorum,* IV, II, pp.60-2; Stephen of Blois, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.150; Baudri, VII, pp.38-9; Anna Comnena, XI, iii, 6, vol. III, p. 19

على العكس تتدفق تعزيزات الأتراك على المدينـــة. ومـــن الواضـــح أنّ بطـــرس أوف كاستيلون اتخذ طريق العودة لينضم إلى الجيش، غير أنّ واحدًا من فرسانه (بطرس أوف رويكس) انسلّ مع قِلّة من رفاقه، وبعد مناوشة مع الأتراك المحليين استولى على بعـــض القلاع والقرى في وادي روسيا تجاه حلب بمعاونة الأرمن المحليين الفرحين. وربمـــا لم يكن ريموند يقصد بمناورته تلك أن ينال لنفسه السيادة على أنطاكية، وإنّما لمجرد المجد والغنيمة التي تهبط على أول القادمين. ولكن حينما عاد بوهيموند إلى الجيش ســـاورته الريبة من تلك الحادثة التي أظهرت الانشقاق المتزايد فيما بين الأمراء.(١)

وكانت الرحلة من كوكسون هي أصعب المراحل التي كـــان علـــى الصليبيـــين مواجهتها. فالوقت الآن وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وقد بـــدأت أمطـــار الخريف، وكان الطريق فوق جبال طوروس المقابلة في حالة بالغة من التـــهدم، ولعـــدة أميال لم يكن هناك سوى ممر صاعد موحل، به الكثير من المنعطفات المنحدرة وتحيط به هاوية من جانبيه. وانزلقت الخيول الواحد تُلو الآخر وسقطت من فالق، كما سقطت إلى الهاوية طوابير بأكملها من الحيوانات حاملة الأمتعة وهي مشـــدودة إلى بعضـــها البعض. و لم يجرؤ أحد على الركوب، وكان الفرسان الراجلون يناضلون تحت لباسهم العسكري الثقيل، يتلهفون على بيعه لمن كان أخفّ منهم حملاً، أو يلقون به يائسين. وبدت الجبال ملعونة؛ فقد أهلكت أرواحًا أكثر مما أهلك الأتراك. وأخيرًا عمّت البهجة عندما برز الجيش في الوادي المحيط بمدينة مرعش.

ومرة أخرى وجدوا في مرعش مظاهر الود من الأرمن، فلبثوا هناك لأيام قليلـــة. وكان حاكم المدينة أميرًا أرمينيًا يدعى ثاتول وكان فيما سبق مسئولاً بيزنطيًّا فثبت في

---

(١) *Gesta Francorum*, IV, II, p. 62

منصبه. وهناك عاد إليهم بوهيموند بعد مطاردته العقيمة للأتراك، كما جاء بالدوين مسرعا من كيليكيا ليرى زوجته جودفير التي كانت تحتضر. وبعد موتها رحل مرة أخرى ولكن إلى الشرق.(١) وفي الخامس عشر من أكتوبر (تشرين الأول) تحرك الجيش الرئيسي بعد أن قوى وانتعش مغادرا مرعش إلى سهل أنطاكية جنوبا. وفي العشرين من نفس الشهر وصل إلى الجسر الحديدي الذي يبعد عن المدينة بمسيرة ثلاث ساعات.(٢)

الصليبيون ومرشدوهم اليونانيون

ومضت أربعة أشهر منذ أن انطلق الصليبيون يريدون نيقية. وبالنسبة لجيش كبير تتبعه أعداد غفيرة من غير المقاتلين، ويرتحل في قيظ الصيف عبر بلاد جرداء في أغلبها، يتعرض دائما لهجوم عدو رهيب سريع الحركة، فإن ما حققه ذلك الجيش يعد إنجازا غير عادي. فقد ساعد الصليبيين إيمانهم ورغبتهم المشتعلة في الوصول إلى الأراضي المقدسة، كما حفزهم الأمل في اغتنام الغنائم، وربما إمارة. على أن بعض الفضل لا بد وأن يعزى أيضا للبيزنطيين الذين صاحبوا الحملة ومكنتهم خبرتهم في محاربة الأتراك من إبداء الرأي السديد، ولأنه من المستحيل المضي عبر آسيا الصغرى دون نصائحهم. وربما ارتكب المرشدون بعض الأخطاء كما حدث عند اختيار الطريق من كوكسون إلى مرعش، إلا أنه بعد عشرين عاما من إهمال الطرق وتعمد تدميرها بين الحين والآخر

---

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٥-٣١٦

(٢) يرد وصف الرحلة من كوكسون إلى أنطاكية في *Gesta Francorum*, IV, II, p.64 الذي يركز على أهوال الطرق الجبلية ، وكذلك Albert of Aix, III, 27-9, pp. 358-9 ويرد ذكر تنصيب ثاتول كحاكم لمرعش في تاريخ Matthew of Edessa, II, clxvi, pp. 229-30 .

كان من المستحيل معرفة الحالة التي كان عليها أيّ طريق. وكان الدور الذي لعبه تاتيسيوس دورًا صعبًا، غير أنّ علاقته بالأمراء الغربيين ظلت ودودة إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية. وربما كان الجنود الصليبيون البسطاء يرتابون في اليونانيين، ولكن، وفيما يتعلق باتجاه الحركة الصليبية ذاتها، سار كل شيء سيرا سلسا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور ألكسيوس يعزز الوضع المسيحي في مؤخرة الصليبيين، وهو المسئُول عن الحفاظ على المواصلات عبر آسيا الصغرى. ولقد أدى نجاح الفرنج إلى التصالح بين السلاجقة والدانشمند. ومن ثمّ، وبعد زوال صدمة الهزيمة الأولى، أمكن أن تبرز قوة تركية شديدة البأس في وسط وشرق شبه الجزيرة، ولذا كانت سياسة الإمبراطور هي استرجاع غرب شبه الجزيرة حتى يتمكن بمساعدة قوته البحرية المتزايدة من أن يفتح طريقًا إلى الساحل الجنوبي يمكن أن يظل تحت سيطرته الدائمة. وبعد إعادة تحصين نيقية، والاستيلاء على القلاع التي تتحكم في الطريق إلى دوريليوم، أرسل زوج أخته القيصر جون دوكاس، يعززه أسطول صغير بقيادة أمير البحر كاسباكس، لاستعادة أيونيا وفريجيا. وكان الهدف الرئيسي هو مدينة سميرنا حيث كان إبن شاكا ما يزال يحكم إمارة ضمت أغلب الخط الساحلي الأيوني وجزر ليسبوس وكايوس وساموس. بينما كان هناك أمراء تابعون لإبن شاكا يحكمون إفيسوس ومدن أخرى بالقرب من الساحل. وكانت فريجيا تحت حكم أعيان سلاجقة، قُطع الاتصال بينهم وبين السلطان الآن. وأراد جون دوكاس أن يترك أثرًا عميقًا لدى الأتراك، فأخذ معه السلطانة إبنة شاكا التي لم تكن الترتيبات قد تمت بعد لكي تلحق بزوجها. وكان الهجوم المشترك البري والبحري يفوق طاقة أمير سميرنا الذي سلم الولايات التابعة له على الفور في مقابل السماح له بالانسحاب في أمان إلى الشرق. ويبدو أنه أخذ معه أخته إلى بلاط السلطان حيث اختفى من التاريخ. ثم سقطت إفيسوس بعد سميرنا دون قتال يذكر، وبينما استولى كاسباكس وأسطوله على الساحل والجزر، تقدم جون دوكاس في البر مستوليًا على المدن الرئيسية في ليديا وهي: سارديس وفيلادلفيا ولاوديسيا الواحدة تُلو

الأخرى. وفي نهاية خريف ١٠٩٧ ميلادية كانت المقاطعة في حوزته، وأصبح على أهبة الاستعداد بعد انتهاء الشتاء للتقدم داخل فيريجيا حتى الطريق الرئيسي الـــذي ســلكه الصليبيون. وربما كان هدفه هو إعادة السيطرة البيزنطية على الطريـــق الموصـــل مـــن بوليبوتس وفيلوميليوم جنوبًا إلى أنطاليا، ومن هناك شرقًا بطول الساحل الجنوبي حيث يمكن للقوة البحرية أن توفر الحماية، وحيث يسهل الاتصال بالأمراء الأرمـــن الذيـــن استقروا الآن في جبال طوروس. وهكذا يصبح في الإمكان تـــأمين طريـــق لوصـــول الإمدادات إلى الصليبيين المحاربين في سوريا، كما يصبح من الميسور استمرار الجـــهود المتحدة للعالم المسيحي.(١)

(١) Anna Comnena XI. V 1-6. vol. III. pp. 23-7

الفصل الثاني :

الفاصـــل الأرمينـــى

الفاصـــــل الأرمينـــــي

"لا تأتمنوا صاحباً لا تثقوا بصديق."

(سفر ميخا: إصحاح ٧ : ٥)

بدأت الهجرة الأرمينية إلى الجنوب الغربي بسبب الغزوات السلجوقية التي جعلت الحياة غير آمنة في وادي أراكسيس وحول بحيرة فان. وتواصلت على مدى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر. وعندما وصل الصليبيون إلى شرق آسيا الصغرى، كانت هناك سلسلة من الإمارات الأرمينية الصغيرة الممتدة من وراء أواسط الفرات إلى قلب جبال طوروس. وكان فيلاريتوس الأرميني قد أسس دولة قصيرة الأجل سرعان ما تفتت قبل وفاته سنة ١٠٩٠ ميلادية ، لكن ثوروس كان ما يزال يحتفظ بإمارة الرها حيث تمكن قبل ذلك بقليل من طرد الحامية التركية من الحصن ، وكان زوج أمه

جابرييل ما يزال يحتفظ بملطية.(١) وفي مرعش اعترفت السلطات البيزنطية بـــالمواطن المسيحي البارز ثاتول حاكمًا للمدينة، وقد أبقى الصليبيون له على المدينة.(٢) وأمّا في رعبان وقيسون، الواقعتين بين مرعش والفرات، أنشأ أرميني يدعى كوغ فازيل، وهو المعروف باسم فازيل اللص، إمارة صغيرة،(٣) وكان ثوروس وجابرييل وربمـــا ثـــاتول أيضًا، ضباطًا لدى فيلاريتوس، بدَءُوا حياتهم العامة ـــ شأنهم شأن فيلاريتوس نفسه ـــ في الخدمة الإدارية البيزنطية. وكانوا من أتباع الكنيسة الأرثوذوكسيّة وليسوا من أتباع الكنيسة الأرمينية المنفصلة، ليس هذا فحسب، وإنّما ظلوا يستخدمون الألقاب الـــتي خلعها عليهم الإمبراطور منذ زمن بعيد، وكلما سنحت لهم الفرصة أعادوا العلاقـــات مع بلاط القسطنطينية لتأكيد ولائهم، وقد خلع ألكسيوس في الواقع على ثوروس لقب الرفيع (كوروباليت). ونتيجة لهذه الصلة الإمبراطورية اكتسب حكمهم نوعًـــا مـــن الشرعية، لكن الأساس الأقوى الذي كان حكمهم يرتكز عليه هو استعدادهم لقبـــول سيادة الزعماء الأتراك في الجوار. وسعى ثوروس بالوقيعة بين هؤلاء الذيـــن يمكـــن أن يصبحوا من ذوي الشأن في براعة تبعث على الدهشة ، بينما أرسل جابرييل زوجته إلى

---

(١) عن ثوروس ، أنظر Laurent, Des Grecs aux Croises, pp. 405-10 وعن جابرييل أنظـــر ibid. p. 410 وكذلك مادة Malatya by Honigmann in the *Encyclopaedia of* أنظر ما سبق الصفحتين ١٤٠ و ٢٨٥ .

(٢) أنظر ما سبق الصفحتين ٣٠٢ و ٣٠٤ .

(٣) عن كوغ فازيل ، أنظر Chalandon, *Les Comnènes*, pp. 99 ff. . ولأن رئيس أمراء الأرمن ينتمي إلي الكنيسة الأرمينية فقد وفر الملاذ لبطريق الأرمـــن "كـــاثوليكوس" جريجـــوري فـــاهرام of Edessa, II, clxxxviii, p.258) وكان هناك بطريق غريم ، أو "كاثوليكوس ند" ، وهو بازل الذي كان موجوداً الآن في آني (*ibid.* II, cxxxiv, pp. 201-2) .

بغداد في بعثة للحصول على اعتراف من أعلى السلطات الإسلامية، بيد أن هؤلاء الأمراء جميعا كانوا في موقف مزعزع; إذ كان اختلاف الدين يفصلهم جميعا ــ باستثناء كوغ فازيل ــ عن أغلب أبناء جلدتهم، ويكرههم المسيحيون السوريون الذين يعيشون في أراضيهم بأعداد كبيرة. ولم يكن هؤلاء جميعا محل ثقة لدى الأتراك الذين ساعدت فرقتهم وحدها على بقاء الأرمن.

وكان الأرمن المقيمون في منطقة جبال طوروس أقل تعرضًا للخطر; إذ كان من الصعب الوصول إلى الأراضي التي استوطنوا فيها، كما كان الدفاع عنها ميسورًا. وسيطر أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيا، واتخذ حصن لامبورن المنيع القائم أعلى الجبل والذي يطل على طرطوس وسهل كيليكيا مقرًا لقيادته، وتمكن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية، ومنحه الإمبراطور لقب ستراتوبيدارك أوف كيليكيا. ويبدو أنه كان في خدمة ألكسيوس فيما مضى رغم أنه لم يكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسيّة، والأرجح أنه حصل، بموافقة الإمبراطور، على لامبورن من الحامية البيزنطية التي لا تقهر، وقام بغارات متكررة في سهل كيليكيا. وفي سنة ١٠٩٧ ميلادية انتهز انشغال الأتراك بتقدم الصليبيين واستولى على جزء من مدينة أدنا. (١) وكانت الجبال الواقعة إلى الشرق من بوابات كيليكيا تحت سيطرة قسطنطين إبن روبين الذي اتخذ مقر رئاسته قلعة بارتزربرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس. ومنذ أن مات والده، مد سلطانه شرقا باتجاه جبال طوروس المقابلة واستولى على قلعة فاكا العظيمة على نهر جوسكو من حاميتها البيزنطية المعزولة. وكان من الأتباع

---

(١) ترد سيرة حياة أوشين عند Matthew of Edessa, II, cli, p. 216. أنظر Laurent, "Les Arméniens de Cilicie" في *Mélanges Schlumberger*, vol. 1, pp. 159-68 واستنادا إلي ما أورده Mathew كان أخو أوشين - Pazouni - لا يزال علي قيد الحياة . وفي Radulph of Caen, XI, pp. 634-5 فإن أوشين يدعي أورسينوس Ursinus .

الغيُورين للكنيسة الأرمينية المنفصلة، وسيرًا على درب أبيه، وكوريث للأسرة المالكـــة الباجراتية، لم ينس عداء أسرته لبيزنطة، وكان يأمل هو الآخر في أن ينتهز ما وقع فيه الأتراك من حرج ليقيم لنفسه سلطانًا في سهل كيليكيا حيث أغلـــب الســـكان مـــن الأرمن بالفعل.(١)

بالدوين وتانكريد يغزوان كيليكيا

وكان بالدوين أوف بولونيا مهتمًا في وقت مضى بالمسألة الأرمينية، وفي نيقيـــة أقام صداقة وثيقة مع أرميني كان من قبل في خدمة الإمبراطور، وهو بـــاجرات أخـــي كوغ فازيل، الذي انضم إلى رجاله. وربما كان باجرات يـــأمل في الحصـــول علـــى مساعدة بالدوين من أجل الإمارات الأرمينية القريبة من الفرات والتي له فيها صـــلات عائلية.(٢) غير أنه حينما أعلن تانكريد في هرقلة عن نيته في تـــرك الجيـــش الرئيســـي ليجرب حظه في كيليكيا، رأى بالدوين أنه ليس من الحكمة السماح لأيّ أمير غـــربي آخر بأن يكون أول من يبدأ مغامرة أرمينية لأنه أراد أن يجني ثمار كونه الصديق البارز لهذا الجنس من الناس. ومن المستبعد أن يكون هو وتانكريد قد توصلا إلى أيّ تفاهم، فكلاهما عضو صغير في عائلة من الأمراء وليس لأيّ منهما أيّ مستقبل في الوطن، كما أفصح كلاهما عن رغبته في تأسيس لوردية في الشرق. بينما عقد بالدوين العزم بالفعل على أن يقيم دولة أرمينية ، كان تانكريد علـــى استعداد لأن يَقرّ في أيّ مكان يتيح له أكـــبر قدر من الراحة ، وعارض اتخاذ الطريق الدائري إلى قيصرية لأن ذلـــك كـــان

---

(١) عن قسطنطين أنظر Matthew of Edessa, *loc. cit.;* Sembat, *Chronicle*, p. 610.

(٢) يذكر Albert of Aix, III, 17, pp. 350-1 سيرة حياة باجرات المبكرة وعلاقته ببالدويـــن . ويرد ذكر علاقته بكوغ فازيل لدي William of Tyre, VII, 5, vol. 1, pp. 383-4.

اقتراحا بيزنطيا يعود بالفائدة على البيزنطيين. وأتاح له وجود سكان مسيحيين ودودين على مقربة منه فرصة يغتنمها وفي حوالي الخامس عشر من سبتمبر (أيلـــول) غــادر تانكريد معسكر الصليبيين في هرقلة ومعه جماعة صغيرة من مئة فارس ومئتـــين مـــن المشاة، وتوجه مباشرة إلى بوابات كيليكيا. وانطلق بالدوين بعده على الفور ومعه ابن عمه بالدوين أوف لوبورج ورينالد أوف تول وبطرس أوف ستيناى وخمسمائة فارس وألفين من المشاة. و لم تثقل أي من الحملتين نفسها باصطحاب غير المقاتلين، وبقيـــت جوديفيير زوجة بالدوين وأولادها مع الجيش الرئيسي. ويبدو أن تانكريد اتخذ الطريق المباشر إلى الممر وهو حتى اليوم نفس طريق السكك الحديدية عبر أولوكيشلا، ولكـــن بالدوين ومعه جيشه الثقيل فضل الطريق الرئيسي القديم الذي كان يمضي جنوبـــا إلى بوداندوس على رأس الممر من تيانا والواقع إلى الشرق قليلا. ولذلـــك كـــان خلــف تانكريد بمسيرة ثلاثة أيام في المضي خلال المضيق.

وعندما هبط تانكريد إلى السهل واصل سيره إلى مدينة طرطوس التي كانت مـــا تزال المدينة الرئيسية في كيليكيا. وفي نفس الوقت أرسل إلى الجيش الرئيســـي طالبــا التعزيزات. وكانت هناك حامية تركية تسيطر على طرطوس خرجت على الفور لطرد الغزاة، لكنها ردت على أعقابها، واتصل سكان المدينـــة المســيحيون مـــن الأرمـــن واليونانيين بـــتانكريد متوسلين إليه أن يحتلها ولكن الأتراك صمدوا ثلاثة أيـــام إلى أن ظهر في الأفق بالدوين وجيشه. فلما وجدوا أن عدوهم يفوقهم عددا انتظروا هبـــوط الليل وهربوا تحت جنح الظلام، وفي الصبـــاح التـــالي فتـــح المســـيحيون البوابـــات لـــتانكريد، ووصل بالدوين ليجد رايات تانكريد ترفرف على الأبراج. و لم يكـــن في صحبة تانكريد أي مسئول بيزنطي. ويقينا لم تتوفر لديه النية في تسليم الإمبراطور أيـــة أراض يغزوها، غير أنه اكتشف أن بالدوين منافس أكثر خطورة لا يعبأ، مثلـــه تمامـــا، بالاتفاقية المعقودة فـــي القسطنطينيـــة . وطلـــب بالدوين أن يكون له السلطان على

طرطوس، وامتلأ تانكريد حنقًا، ولكنه وجد نفسه ضعيفًا أمام غريم يفوقه قوة، فاضطر إلى الموافقة وسحب جنوده وسار شرقًا باتجاه أدنا.

جونيمير أوف بولونيا

ولم يكد بالدوين يستولي على طرطوس حتى وصل ثلاثمائة من النورمانديين أمام المدينة مرسلين من الجيش الرئيسي كمدد لتانكريد، ورفض بالدوين السماح لهم بالدخول إلى المدينة برغم توسلهم. وبينما كانوا معسكرين خارج المدينة هاجمتهم الحامية التركية السابقة أثناء الليل التي كانت تجوب المنطقة وقتلتهم عن آخرهم. وصدمت الحادثة الصليبيين، وأُلقي اللوم على بالدوين لما لاقوه من مصير ولم يعفه حتى جنوده وأوشك موقفه أن يتضعضع تمامًا لولا أن وصلت أنباء عن ظهور أسطول مسيحي غير متوقع في خليج ميرسن عند مصب نهر سيدنوس أسفل المدينة تمامًا بقيادة جوينمير أوف بولونيا.

وكان جوينمير قرصانًا محترفًا، ومن الفطنة بحيث أدرك أنّ الحرب الصليبية ستكون في حاجة إلى مساعدة بحرية، فجمع رفاقًا له من القراصنة الدانمركيين والفريزين(١) والبلجيكيين، وأبحر من هولندا في وقت متأخر من الربيع، وحينما وصل إلى بحار الشرق أخذ يسعى في إجراء اتصال بالصليبيين. وكان يحمل عاطفة إخلاص لمدينته، ولذلك سره أن يجد جيشًا قريبًا منه يقوده أخو كونت مدينته، فأبحر أعلى النهر إلى طرطوس، وقدم احترامه لبالدوين. وردًا على ذلك أخذ منه بالدوين ثلاثمائة من رجاله ليكونوا حامية المدينة، وربما جعل جوينيمير نائبًا عنه في المدينة بينما أعد العدة

---

(١) (المترجم) : سكان فريزلاند ، وهي مجموعة من الجزر بالقرب من ساحل بحر الشمال ، ومقسمة بين الدانمرك وألمانيا وهولندا .

لمواصلة السير إلى الشرق.

وفي تلك الأثناء وجد تانكريد مدينة أدنا في حالة من الاضطراب. إذ أن أوشين أوف لامبرن أغار عليها مؤخرا وترك هناك قوة تنازع الأتراك عليها. بينما كان هناك فارس بورجندي يدعى ويلف، ربما بدأ الرحلة مع جيش بالدوين ثم انشق عليه ليرى ماذا يمكنه أن يجني لنفسه واشترك هو الآخر في الصراع على أدنا، واستطاع أن يشق طريقه إليها ويحتل القلعة. وعند وصول تانكريد انسحب الأتراك، ورحب ويلف بجنود تانكريد في القلعة وتعززت سيطرته على المدينة، وأغلب الظن أن أوشين لم يكن مهتما سوى بإخراج رجاله من مغامرة لا تخلو من خطورة، وشعر بالامتنان لتدخل تانكريد، لكنه استحثه على مواصلة المسير إلى ماميسترا (موبسويستا القديمة)، حيث يتلهف السكان الأرمن كلهم إلى الخلاص من الأتراك. وكان تواقا لرؤية الفرنجة ينتقلون إلى مجال النفوذ الذي يطمع فيه غريمه قسطنطين الروبيني.

ووصل تانكريد إلى ماميسترا في وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وكما حدث في أدنا هرب الأتراك فور ظهوره ورحب به المسيحيون وأدخلوه المدينة. وأثناء وجوده أتى بالدوين وجيشه، ويبدو أن بالدوين قرر بالفعل أن إمارته التي يريدها لن تكون في كيليكيا; ومن الجائز أن صرفه مناخ سبتمبر (أيلول) بما فيه من أبخرة وملاريا، وربما شعر أنها على مقربة من قوة الإمبراطور المتزايدة. واستحثه مستشاره بباجرات على المضي شرقا حيث أن الأرمن يطلبون عونه. ومهما يكن الأمر فقد قضى على الفرصة التي أتيحت لتانكريد لتأسيس دولة كيليكية قوية. واتخذ طريق العودة إلى الجيش الرئيسي ليتبادل المشورة مع أخيه وأصحابه قبل الشروع في حملة جديدة. على أن الريبة داخلته، ولذا لم يدع بالدوين يدخل ماميسترا، وأجبره على أن يضرب معسكره على الجانب البعيد من نهر جيهان. وكان على استعداد، مع ذلك، لأن يسمح بإرسال الأطعمة من المدينة إلى المعسكر . ولكن الكثيرين من النورمانديين ، وعلى

رأسهم ريتشارد أوف برينسيبات زوج أخت تانكريد، لم يحتملوا أن يفلت بالدوين دون عقاب على جريمته في طرطوس. فحرضوا تانكريد على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره. وكانت خطوة تخلو من الحكمة; فجنوده بلغوا من العدد والقوة ما لا قبل لهم به وسرعان ما ردهم على أعقابهم في فوضى عبر النهر. وأدى الصراع الذي لا طائل منه إلى ردة فعل، فأفسح بالدوين وتانكريد المجال للصلح فيما بينهما. ولكن الضرر وقع. إن من دواعي الألم أن يصبح جليا أن الأمراء الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير العالم المسيحي حينما تلوح فرصة اغتنام ممتلكات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون ـــ من أبناء البلاد ـــ من أن تحرك مخلصيهم الفرنجة من منطلق مشاعر الإيثار إن هو إلا تحرك مصطنع، وتعلموا أن خير وأيسر وسيلة للاستفادة من الفرنجة هي الإيقاع بينهم.(١)

بالدوين وتانكريد يغادران كيليكيا

وبعد التصالح الذي حدث في ماميسترا أسرع بالدوين إلى الجيش الرئيسي في مرعش عند مجيئ الأنباء بأن زوجته تحتضر. ويبدو أنّ أولاده كانوا مرضى كذلك، ولن يطول بقاؤهم على قيد الحياة، ولبث بالدوين أيامًا قليلة مع إخوته وغيرهم من قادة الجيش. وعندما شرعت القوة الرئيسية للجيش في الارتحال جنوبًا إلى أنطاكية

---

(١) ترد قصة الحملة علي كيليكيا مفصلة عند Albert of Aix, III, 5-17, pp. 342-50 ، وكذلك Radulph of Caen, XXXIII .XLVII. pp. 629-41 وهناك رواية أقصر تتعاطف مع تانكريد ترد في *Gesta Francorum*, IV, 10, pp. 55-60 ويقول Radulph (p. 634) إن أورسينوس (أوشين) احتفظ بأدنا بعد ذلك ، لكن Albert (p. 346) يقول إنها كانت من إملاك ويلف Welf ويذكر Albert (pp. 348-9) وصول Guynemer .

تركه وذهب إلى الشرق ليجرب حظه في وادي الفرات والأراضي الواقعة ورائه.

وارتحلت معه جماعة أصغر بكثير من تلك التي صحبته في حملة كيليكيا. ربما لأنه لم يسترد شعبيته كقائد بسبب أحداث طرطوس، وربما لأن إخوته لم يتمكنوا من التخلي عن الجنود لتلهفهم على احتلال أنطاكية، فصحبه مائة فارس فقط. على أن مستشاره الأرميني باجرات كان ما يزال معه، وقد أضاف إلى أتباعه قسيسا جديدا هو المؤرخ فولشر أوف تشارترز.(١)

و لم يمكث تانكريد طويلا في ماميسترا بعد رحيل بالدوين. وبعد أن ترك فيها حامية صغيرة تحول جنوبا حول رأس خليج إيسوس إلى الإسكندرونة. وأرسل أثناء الرحلة مبعوثين إلى جوينمير طالبا تعاونه، وأغلب الظن أن مقر رئاسة جوينمير كان ما يزال في طرطوس. واستجاب جوينمير في سعادة وجاء مع أسطوله ليلحق تانكريد أمام الإسكندرونة. وأسفر الهجوم المشترك عن استيلاء تانكريد على المدينة. فترك فيها حامية ثم مضى فوق سلسلة جبال الأمانوس عبر البوابات السورية ليلحق بالجيش المسيحي أمام أنطاكية.(٢)

و لم يكن لمغامرة كيليكيا سوى القليل من النفع لبالدوين أو تانكريد. إذ وجد كل منهما أن الأمر لا يستحق تأسيس دولة هناك، فلن تتمكن الحاميات الفرنجية الصغيرة في المدن الثلاث : حامية جوينمير في طرطوس ، أو حامية ويلف في أدنا ، أو

---

(١) طبقا لما ذكره Matthew of Edessa, II, cliv, p. 219 كان مع بالدوين ١٠٠٠ خيال عندما استولي علي تل بشير و٦٠ عندما واصل مسيرته إلي الرها . ويقول فولشر أوف تشارترز الذي كان برفقته (1,xiv, 2, p.206, 15,p. 215) إنه كان معه القليل من الجنود "milites paucos"عندما انطلق (1, xiv, 4, p.208) وثمانين عندما عبر نهر الفرات (1, xiv, 7, p. 210).

(٢) William of Tyre, III, 25, 1, p. 149 يقول إن البحارة بقوا مع تانكريد .

حامية تانكريد في ماميسترا، من أن تتحمل هجوما جادا. ومع ذلك، كان لتبعثر الحاميات التركية بعض النفع للحرب الصليبية عموما، فذلك يحــــول دون اســتخدام كيليكيا كقاعدة يستطيع الأتراك أن يشنوا منها هجوما جانبيا علـــى الفرنجــة أثنــاء عملياتهم الحربية في أنطاكية، بينما أتاح الاستيلاء على الإسكندرونة ميناء نافعا للفرنجة تستطيع الإمدادات أن تمر من خلاله. على أن المنتفعين الرئيسيين من هذا الأمــــر هــم الأمراء الأرمن في التلال. إذ أن انهيار القوة التركية في السهل مكنهم مــن التوغــل في القرى والمدن شيئا فشيئا، ومن ترسيخ دعائم مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا.

وكان الجيش الرئيسي على وشك الانطلاق من مرعش جنوبا إلى أنطاكية عندما تركه بالدوين الذي اتخذ في بداية الأمر طريقا موازيا على بعد أميال قليلة إلى الشــرق حتى يمكن حماية الميسرة. وربما حصل بالدوين على الإذن بالانفصـــال عــن الجيــش الرئيسي للقيام بتلك المهمة. وفي واقع الأمر كان بإمكانه تبرير حملته كلها على أنهــــا توفر الحماية للحرب الصليبية; فأسهل طريق لوصول الإمــدادات مــن خراســان إلى الأتراك في أنطاكية يخترق المناطق التي ينوي غزوها، وفضلا عن ذلك فهي مناطق غنيــة يمكن أن تزود الحرب الصليبية بما تتطلبه من إمدادات الطعام.

بالدوين يتقدم إلى الفرات

وفي عنتاب تحول بالدوين إلى الشرق. ومن المشكوك فيه ما إذا كانت لديه أيــة خطة عمل مدروسة بخلاف تصميمه عموما على تأسيس إمارة في الفرات تكــون ذات نفع له وللحركة الصليبية كلها. وكانت الظروف مواتية; فلن يكون لزامــا عليــه أن ينتزع البلاد من الكفرة، فهي بالفعل في حوزة الأصدقاء الأرمن، وهو علــى اتصــال بأمرائها منهم. فمن خلال باجرات لابد وأن يكون قد أقام علاقات مع أخيــه كــوغ فازيل الذي كانت لورديته تقع إلى الشرق من مرعش . وربما كان جابرييل في ملطيــة

متلهفا على مساعدة الفرنجة وأمامه الخطر الدائم من الأتراك الدانشمند، بينما من المؤكد أن ثوروس في الرها على اتصال بالصليبيين. وقيل إن قرار بالدوين بالرحيل عن كيليكيا كان بسبب رسالة تلقاها هو أو باجرات من ثوروس يدعوه فيها إلى الرها بصفة عاجلة، وكان الأرمن منذ زمن طويل يأملون في أن يغيثهم الغرب. فقبل ذلك بعشرين عاما، حينما عرف أن البابا جريجوري السابع يفكر في إرسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي، سافر أحد الأساقفة الأرمن إلى روما ليحظى باهتمامه.(١) وكان الخلفاء الغربيون يحظون بجاذبية عند الأرمن — بمن فيهم الأمراء الذين يحملون ألقابا بيزنطية — تفوق أي شيء يزيد من اعتمادهم على الإمبراطورية البيزنطية المقيتة. ووجود جيش من الفرنجة يحرز انتصارات للعالم المسيحي على حدودهم ذاتها أتاح لهم فرصة كانوا يبتهلون من أجلها كي يحققوا استقلالهم النهائي عن السيطرة التركية والبيزنطية على السواء؛ فرحبوا ببالدوين ورجاله بشدة على أنهم محرروهم.

ونحن على علم في الوقت الحاضر بألا نثق في لفظة التحرير التي توحي بالأمل، وهذا درس تعلمه الأرمن من قبلنا. وعندما تحرك بالدوين نحو الفرات هب السكان الأرمن لتحيته، وفرت بعض الحاميات التركية التي كانت في المنطقة وقضى المسيحيون على بعضها الآخر. وحاول الأمير التركي الوحيد ذو الأهمية في المنطقة، بلدق أمير سميساط، الذي يسيطر على الطريق المؤدية من الرها إلى ملطية أن يتدبر أمر المقاومة ولكنه لم يستطع اتخاذ أي إجراء هجومي. وانضم إلى بالدوين اثنان من النبلاء الأرمن المحليين مع قواتهما الصغيرة، وكان اللاتينيون يطلقون عليهما فير ونيكوسوس. وفي وقت مبكر من شتاء ١٠٩٧ ميلادية استكمل بالدوين غزوه للأراضي الممتدة حتى الفرات ، واستولى على القلعتين الرئيسيتين رفندل وتيربسيل ، وهذان الاسمان

---

(١) Letter of Gregory in Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, VIII, I, *Bibliotheca Rermanicarum*, vol. II, pp. 423-4

حورهما اللاتينيون عن الأسماء العربية رواندان وتل بشير، وعيّن مستشاره الأرميني باجرات حاكمًا على رواندان التي كانت تتحكم في طريق مواصلاته مع أنطاكية، بينما عيّن الأرميني فير حاكمًا على تل بشير. وهي قلعة هامة لأنها تقع بالقرب من المخاضة ذات الأهمية التاريخية التي تعبر نهر الفرات عند كارشيميش.(١)

وعندما كان بالدوين في تل بشير في أول السنة الجديدة، وصلته سفارة من الرها؛ إذ نفد صبر ثوروس لتأخر وصول الفرنجة الذين يراهم متباطئين على الضفة الغربية لنهر الفرات، وكان موقفه مزعزعًا، واشتد شعوره بالخطر حينما علم أنّ كربوقا، أمير الموصل التركي المرعب، يحشد جيشًا هائلاً لنجدة أنطاكية وبإمكانه أن يكتسح في طريقه دون مشقة الرها وغيرها من الدويلات الأرمينية. بيد أنّ بالدوين لم يكن ليذهب إلى الرها إلاّ بشروط تناسبه، وكان ثوروس يتوقع أن يستغل بالدوين كمرتزق يكافئه بالمال والعطايا، ولكن أصبح جليًا الآن أنّ بالدوين يريد أكثر من ذلك. فخُوِّلت سفارة الرها في تل بشير بأن تعرض المزيد الذي يتمثل في أن ثوروس سوف يتخذ بالدوين ابنًا ووريثًا، وفي أنه سوف يشركه من فوره في حكم أراضيه. ولما كان ثوروس لم يعقب ولدًا وأخذ يطعن في السن بدا له ذلك على أنه الحل الوحيد. ولو وسعه الاختيار لما اختار، بيد أنه كان يفتقد الشعبية في وطنه، ويتهدده جيرانه.(٢) وبخلاف غالبية الأرمن قصيري النظر استشعرت القِلّة الباقية منهم القلق من جرّاء ذلك؛ فليس من أجل ذلك سعى باجرات إلى تطويع بالدوين في الشُؤُون الأرمينية، فكان باجرات نفسه أول من أظهر عدم موافقته على ذلك. وعندما كان الفرنجة في تل بشير قال فير — الذي كان بلا شكّ يرغب في أن يخلف باجرات في استحواذه على ثقة

---

(١) Albert of Aix, III, 17-18, pp. 35-1

(٢) Albert of Aix, III, 19, p. 352; Fulcher of Chartres, 1, xiv, 5-6, pp. 209-10; Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 Laurent, *op. cit.* pp. 418-23

بالدوين ـــ إن باجرات يحيك الدسائس مع الأتراك، والأرجح أن دسائسه تلك لم تكن سوى مشاوراته المتبادلة مع أخيه كوغ فازيل حول ذلك التـــهديد الجديـــد للحريـــة الأرمينية. وربما كان يأمل كذلك في أن يجعل نفسه أميرا على روانـــدان. و لم يـــتردد بالدوين فدفع بالجنود إلى رواندان وألقوا القبض على باجرات وأحضـــــروه للمثـــول أمامه، وعذبوه ليعترف بما اقترفه. و لم يكن لديه ما يعترف به، وسرعان مـــا هـــرب متخذا من الجبال ملاذا تحت حماية أخيه كوغ فازيل إلى أن اضطر هو الآخر أن يلحق به في البرية.(١)

الحملة على سميساط

وفي بداية فبراير (شباط) سنة ١٠٩٨ ميلادية غادر بالدوين تل بشير إلى الرهـــا، و لم يكن معه سوى ثمانين فارسا. وأعد له أتراك سميساط كمينا في المكان الذي كـــانوا يتوقعون أن يعبر فيه نهر الفرات، والأغلب أنه في برجيك، غير أنه خدعهم وانحرف إلى مخاضة أخرى أبعد إلى الشمال. ووصل إلى الرها في السادس من فبراير (شباط) حيث استقبله ثوروس والسكان المسيحيون كلهم ببالغ الحماس، وتبناه ثوروس رسميـــا مـــن فوره. وكان الاحتفال تبعا للطقوس الأرمينية المعتادة ـــ في ذلك الوقت ـــ يلائم تبني الطفل الصغير وليس الرجل اليافع، فقد جرد بالدوين من ملابسه إلى الوسط، بينمـــا ارتدى ثوروس قميصا فضفاضا يتسع لشخصين، ثم قام بتمرير القميص من فوق رأس بالدوين بحيث يمكن للأب والابن الجديدين أن يحكا صدريهما العاريين المتقـــابلين. ثم أعاد بالدوين هذا المشهد مع الأميرة زوجة ثوروس.(٢)

---

(١) Albert of Aix, III, 18, p. 351

(٢) Albert of Aix,III,19-21,pp.352-4; Fulcher of Chartres, 1,xiv,7-12,pp.210-13

كما أن Guibert, xiv, p. 165 يصف احتفال التبني .

وبعد تنصيب بالدوين وريثا وشريكا في الوصاية على الملك في الرها، رأى أن أول ما ينبغي عمله هو تدبير الإمارة التركية في سميساط، إذ أنها تستطيع بغاية اليسر أن تعترض اتصاله مع الغرب. وشجع أبناء الرها في غبطة خطته لتجريد حملة، لاسيما وأن الأمير بلدق كان أقرب أعدائهم وأكثرهم عنادا، وكان دائم الإغارة على قطعان دوابهم وحقولهم وأحيانا يجبي الجزية من المدينة ذاتها. وخرجت ميليشيات الرها تصاحب بالدوين وفرسانه إلى سميساط، ولم تنجح الحملة التي تمت فيما بين الرابع عشر والعشرين من فبراير (شباط)؛ إذ كان أهل الرها ضعفاء من الناحية العسكرية. وفاجأهم الأتراك وقتلوا منهم ألفا مما اضطر الجيش إلى الانسحاب. غير أن بالدوين استولى على قرية سان جون الواقعة بالقرب من عاصمة الأمير، وحصنها وأبقى فيها الجزء الأكبر من فرسانه لمراقبة تحركات الأتراك؛ ونتيجة لذلك تناقص عدد الغارات التركية مما حدا بالأرمن إلى إرجاع الفضل في ذلك إلى بالدوين.(١)

بالدوين وثوروس

وبعد عودة بالدوين إلى الرها بوقت قصير سرعان ما تولدت في المدينة مؤامرة ضد ثوروس بتشجيع من قسطنطين أوف جارجار. ولا نعرف إلى أي مدى كان بالدوين متورطا في تلك المؤامرة؛ إذ أنكرها أصدقاؤه، ولكن طبقا لشهادة الكاتب الأرميني ماثيو فإن المتآمرين أخبروا بالدوين بنيتهم في خلع ثوروس عن العرش لصالحه. ولم يكن أهل الرها يكنون حبا لثوروس، أو امتنانا لكل ما بذله من أجل المحافظة على استقلال مدينتهم ، وقد كرهوه لتبعيته للكنيسة الأرثوذكسية ولكونه مسئولا ذا

---

(١) Albert of Aix, III,21,pp.353-4 ويقول Matthew of Edessa, II,cliv,pp.218-21 إن الحملة كانت كارثة .

لقب في الإمبراطورية . وكان عاجزًا عن حماية محاصيلهم وبضائعهم من المغيرين، وكان ينتزع منهم ضرائب باهظة، غير أنه لم يكن بوسعهم الاستغناء عنه إلى أن ظهر بالدوين الذي رأوا فيه حاميًا أكثر اقتدارًا. ولذلك لم يكن الفرنجة في حاجة إلى التحريض على مؤامرة، على أنه من الصعب الاعتقاد بأنّ المتآمرين لم يكونوا ليذهبوا إلى هذا الحد دون أن يحصلوا على موافقة الفرنجة. وفي يوم الأحد السابع من مارس (آذار) ضرب المتآمرون ضربتهم، فحركوا الدهماء لمهاجمة منازل المسئولين التابعين لثوروس، ثم ساروا إلى قصر الأمير في القلعة. ونظر ثوروس فوجد أنّ جنوده قد هجروه، ولم يخفّ ابنه الذي تبناه لنجدته وإنما قدم له نصيحة بالاستسلام، فوافق ولم يطلب سوى السماح له ولزوجته بالذهاب إلى أبيها في ملطية. وبرغم أن بالدوين ضمن حياته في الظاهر فإنه لم يسمح له بالرحيل، وهكذا وجد نفسه سجينا في قصره، فحاول الفرار من النافذة يوم الثلاثاء، ولكن الجماهير أمسكت به وقطعته إربا. ولا يعرف مصير الأميرة أم بالدوين بالتبني، وفي يوم الأربعاء العاشر من مارس (آذار) وجه أهل الرها الدعوة إلى بالدوين ليتولى الحكومة.

ولقد حقق بالدوين ما كان يطمع فيه من الحصول على إمارة. وليست الرها في واقع الأمر في الأراضي المقدسة، ولكن وجود دولة فرنجية في وسط الفرات قد يكون عاملا ذا قيمة من عوامل الدفاع عن أية دولة تقام في فلسطين. واستطاع بالدوين أن يبرر مسلكه في إطار مقتضيات السياسة العامة للحملة الصليبية، ولكنه لا يستطيع أن يبرر مسلكه تبريرا شرعيا أمام العالم المسيحي كله. إذ أن الرها كانت تابعة للإمبراطور قبل الغزوات التركية وينسحب عليها قسم الولاء الذي أقسمه في القسطنطينية. وفضلا عن ذلك، فإنه قد حصل عليها بعزل حاكمها والإغضاء عن قتله، وقد كان من الناحية الرسمية على الأقل خادما للإمبراطورية معترفا به من قبلها. غير أن بالدوين أظهر بالفعل في كيليكيا أن القسم الذي أقسمه لا يعني شيئا بالنسبة له، بينما في الرها كان ثوروس نفسه على استعداد لأن يتخلى عن حقوقه دون الرجوع إلى سيده البعيد. ومع ذلك،

فإنّ الأمر لم يفت على ألكسيوس الذي احتفظ بحقوقه إلى أن يصبح في وضع يمكنه من فرضها بالقوة.

وعندما أصبح من الواضح أنّ سيطرة الفرنجة تسببت في الدمار الشامل للأرمن المقيمين في الفرات، أدان المؤرخون الأرمن المتأخرون بالدوين إدانة قاسية، ولكنهم لم يتوخّوا العدالة; لاقتصارهم على هذا السبب دون غيره. فليس ثمة مبرر أخلاقي لصنيع بالدوين بثوروس على نحو ما يظهره المؤرخون اللاتينيون الذين يستشعرون الحرج. وتصرف ثوروس بطريقة مماثلة مع الفيلاق التركي عندما دعاه قبل ثلاث أو أربع سنوات ثم تسبب في قتله، ولكن تصرفه ذاك كان لإنقاذ مدينته وشعبه من طغيان الكفرة. و لم يكن لفيلاق أباه بالتبني، ومن الحق أنّ التبني في الأعراف الأرمينية يقل خطورة عنه في القانون الغربي، وليس ذلك بالمبرر الذي يخفف مما اقترفه بالدوين من إثم أخلاقي. على أنه لا ينبغي للأرمن أن يلقوا عليه باللائمة; ذلك أن مقتل ثوروس تم في واقع الأمر بأيدي الأرمن أنفسهم الذين دعوا بالدوين ليحل محله بموافقة توشك أن تكون إجماعية من الجنس الأرميني كله. وأما الأمراء الأرمن الذين لم يثقوا في جدوى المساعدة الصليبية، والذين أبعدهم الصليبيون، فكانوا في خدمة الإمبراطور في الأيام الخوالي، وكانوا مكروهين من أبناء جلدتهم بسبب ولائهم للإمبراطور، بل والأكثر من ذلك لأنهم من أتباع الكنيسة الأرثوذوكسية. و لم يكن هناك من يتوفر لديه القدر الكافي من خبرة الحكم للحفاظ على بقاء الاستقلال الأرميني في الفرات سوى المسئولين البيزنطيين السابقين من أمثال ثوروس وجابرييل. ولكن رعاياهم الجاحدين، بما يحملونه من كراهية لبيزنطة، وباستعدادهم لأن يغفروا للاتيني ما لا يستطيعون

اغتفاره لليوناني من أخطاء هرطقية تسمه بالإدانة الأبدية، لا يلومون إلا أنفسهم عندما يغويهم أصدقاؤهم الفرنجة ويجرونهم إلى الكارثة.(١)

وتوردت الحياة في عيني بالدوين الذي اتخذ لنفسه لقب كونت الرها. وبات واضحا أنه ينوي أن يحكم بمفرده. ولكن جنوده من الفرنجة كانوا قليلي العدد ولابد له من الاعتماد على الأرمن ليعملوا في خدمته. ووجد البعض ممن يضع فيهم ثقته. وأصبح الأمر أيسر بعد اكتشاف مخزن مليء بالكنوز في القلعة يرجع تاريخ الكثير منها إلى أيام البيزنطيين، وكان ثوروس قد زاد من ضخامتها بما فرضه من ضرائب. ومكنت هذه الثروة الجديدة بالدوين من شراء المؤيدين، ليس هذا وحسب، وإنما مكنته كذلك من تحقيق ضربة دبلوماسية كبيرة؛ إذ أن الأمير بلدق، أمير سميساط، تملكه الخوف من أنباء تولي بالدوين الحكم. وعندما رأى الترتيبات تجرى على قدم وساق لشن هجوم جديد على عاصمته أسرع بإرسال مبعوثيه إلى الرها عارضا بيع إمارته بمبلغ عشرة آلاف بيزنتة(٢)، فقبل بالدوين ودخل سميساط دخول الفاتحين. ووجد في قلعتها الكثير من الرهائن الذين أخذهم بلدق من الرها، فأعادهم إلى عائلاتهم من فوره. وكان لهذا التصرف، فضلا عن القضاء على التهديد التركي لسميساط، أن أضاف إلى شعبيته إضافة هائلة. ووجه الدعوة إلى بلدق وحرسه الخاص للإقامة في الرها كمرتزقة للكونت.(٣)

---

(١) يؤكد *Matthew of Edessa, loc. cit.* خيانة بالدوين ؛ Fulcher of Chartres, 1,xiv,13-14,pp. 213-15 الذي تتصف روايته بأنها قصيرة وبالأحري محرجة ؛ Albert of Aix,III,22-3,pp. 354-5 أنظر Laurent, *op. cit.*. pp . 428-3 وهو يري علي نحو مقنع أن ماثيو كان حاضرا في الرها في ذلك الوقت .

(٢) (المترجم) : بيزنته Bezant : عملة ذهبية أو فضية واسمها مشتق من بيزنطة .

(٣) Albert of Aix, III, pp. 355-6

زواج بالدوين

وذاعت أنباء نجاح بالدوين في الآفاق. وتحول بعض فرسان الغرب عن طريقهم لتعزيز الجيش الصليبي في أنطاكية ليشاركوا بالدوين مغنمه. بينما ترك فرسان آخرون حصار أنطاكية الكئيب ليلحقوا به، وكان من بينهم دروجو أوف نيسل ورينالد أوف تول وجاستون أوف بيارن تابع ريموند، وكافأهم بالدوين بهدايا لائقة من خزانته. ولكي يساعدهم على الاستقرار شجعهم على الزواج من الأرمينيات الوارثات ذوات الثروات وضرب هو بنفسه المثل، فهو الآن أرمل لا ولد له. وكانت زوجته الجديدة هي إبنة أحد الأعيان الذي يعرفه المؤرخون اللاتينيون باسم تافنوز أو تافروك، وكان أميرًا ثريًا يمتلك الأراضي في الجوار. ومن الواضح أنه كانت له علاقة بقسطنطين أوف جارجار، كما كانت له علاقات بالقسطنطينية التي لجأ إليها في نهاية الأمر، وربما كان هو نفسه ثاتول حاكم مرعش. ولا شكّ في أن التحالف معه سيكون ذا قيمة كبيرة لبالدوين، الذي منح ابنته مهرًا قدره ستين ألف بيزنتة ووعدًا مبهمًا بأنها سترث أراضيه، غير أنّ الزواج لم يسعدها، كما لم يثمر ذريّة.(١)

---

(١) ليس في الإمكان تحديد شخصية حمي بالدوين في الواقع ؛ فيطلق عليه Albert of Aix, III, 31,p.361 تفنوز Taphnuz ويقول إنه كان أخا قسطنطين . ويطلق عليه William of Tyre, x, I, 1,p. 402 تفروك Tafrocويفترض Dulaurier,p.431n. 2 في نشرته لماثيو الأورفي ، أنه لابد وأن يكون أخا لقسطنطين الروبيني الذي يدعي ثوروس Thoros ؛ لكنه يعترف بأن قسطنطين لم يكن يعرف لـه أخ بذلك الاسم . ويقبل Hagenmeyer,p.421n 7 في نشرته لفولشر أوف تشارترز ، هذا الوضع . على أنه من الواضح أن قسطنطين الذي كان يعنيه ألبرت هو قسطنطين الجارجاري Constantine) Gargar) ويوحي مقال Honigmann المعنون " مرعش Marash " في دائرة المعارف الإسلامية *Encylopaedia of Islan* إن تفنوز Taphnuz هو في الواقع ثاتول Thatoul ويؤيد ذلك أننا نعرف أن ثاتول تقاعد في القسطنطينية سنة ١١٠٤م (Matthew of Edessa, III,clxxxvi,p.257)-

وهكذا وضع بالدوين المبادئ الأساسية التي أرساها فيما بعد لمملكة القدس. وتقضي هذه المبادئ بأن يظل زمام الحكومة في يد الأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج، على أن يدعى الشرقيون من المسيحيين والمسلمين لكي يقوموا بدورهم في دولة تنصهر فيها أجناس شتى انصهارا شاملا بحيث تمتزج في النهاية في كيان واحد متكامل. كانت تلك سياسة رجل دولة ذي بصيرة ثاقبة. على أنه بالنسبة للفرسان القادمين حديثا من الذين تعهدوا بأن يهبوا أنفسهم للصليب ويجتثوا شأفة الكفرة؛ فقد رأوا أن هذا الأمر يوشك أن يكون خيانة للعهد عند الصليبي. على أن البابا إيربان لم يكن ليستنهض المؤمنين في كليرمونت كي يقيم ملكا لـبالدوين وأمثاله في ممالك شبه شرقية.

وفي بادئ الأمر، لم تكن تلك بالسياسة التي يسهل اتباعها. إذ نظر المسلمون إلى بالدوين على أنه مغامر عابر قد يُستفاد به. وكانت مدينة سروج المسلمة تقع جنوب غرب الرها باتجاه الفرات، وكانت مدينة تابعة للأمير الأرتقي بلق إبن بهرام ولكنها تمردت عليه مؤخرًا، فكتب بلق إلى بالدوين طالبًا استئجار خدماته لإخضاعها. ووافق بالدوين على إنجاز تلك المهمة وقد ابتهج لتلك الفرصة التي أتيحت له على هذا النحو. وأرسل مواطنو سروج إلى بلدق سرًّا لكي يأتي لإنقاذهم، فخرج بلدق من الرها متسللاً واستقبله أبناء سروج. ولكن بالدوين تبعه مصطحبًا معه عددًا من آلات الحصار، فأصيب بلدق ورجال سروج بالهلع؛ وعرضوا على الفور تسليم مدينتهم إليه

-- وأن زوجة بالدوين طلبت الإذن بالانضمام إلي والديها في القسطنطينية فور أن نبذها سنة ١١٠٤م (William of Tyre,XI, I, 1, pp. 451-2) وليس هناك ما يدعو إلي افتراض أن كان لها اسم أردا Arda الذي يطلق عليها أحياناً . أنظر Hagenmyer's edition of Fulcher, *loc. cit.* ويذكر Albert of Aix, v, 15,pp. 441-2 أسماء الفرسان الذين انضموا إلي بالدوين .

ودفع إتاوة. وخرج بلدق لمقابلته معلنا أنه إنما أسرع أمامه ليستولي له على المدينة. ولم ينخدع بالدوين، وإنما قبل اعتذار بلدق وأظهر له الود، ولكنه طلب بعد أيام قلائل تسليم زوجته وأولاده كرهائن، وعندما اعترض بلدق اعتقله وأطاح برأسه. وفي تلك الأثناء وضعت حامية فرنجية في سروج بقيادة فولك أوف تشارترز، وهو شخص آخر غير فولشر المؤرخ. وقد تعلم بالدوين من تلك الحادثة أنه لا يسعه أن يثق في المسلمين، وعمل منذ ذلك الحين على ألا يسكن القادة منهم في أراضيه وسمح لهم بحرية العبادة. ولا يسعه أن يفعل غير ذلك في حالة استيلائه على مدينة مثل سروج يتألف سكانها كلهم تقريبا من العرب والمسلمين، على أن تسامحه هذا صدم الرأي العام الغربي.(١)

وتعززت كونتية بالدوين بعد الاستيلاء على سروج، ثم الاستيلاء بعد ذلك بأشهر قليلة على برجيك بمخاضتها على نهر الفرات، ثم بتطهير الطرق بين الرها وقلعتي تل بشير ورواندان، مما أدى إلى تأمين خطوط مواصلاته مع الحملة الصليبية الرئيسية. وفي ذات الوقت تعلم المسلمون أن كونت الرها قوة لا يستهان بها وركزوا على تدميره. وتبينت قيمة تصميمهم، وما يمكن أن يكون لسيطرة الفرنجة على الرها من أثر في الحروب الصليبية، عندما توقف كربوقا في مايو (أيار) — وهو في طريقه إلى انقاذ أنطاكية — ليقضي على بالدوين. ذلك أنه قضى ثلاثة أسابيع يقاتل دون جدوى أمام أسوار الرها ثم تخلى عن هجومه عليها. فزاد فشله من هيبة بالدوين; وأدى ضياع الوقت في حصاره للرها إلى إنقاذ الحملة الصليبية.(٢)

المؤامرة ضد بالدوين

واستاءوا من تدفق الفرسان الفرنجة على أراضيهم ومما كان يتفضل به بالدوين

---

(١) Albert of Aix, III, 25, pp. 356-7.

(٢) *Idem*, IV, 10-12, pp. 396-7; Fulcher of Chartres, 1, xix, pp. 242-3; Matthew of Edessa, II, clv, p. 221.

عليهم. و لم يكن الفرسان الفرنجة يتلطفون مع الأرمن وإنّما كانوا يعاملونهم بـــالازدراء حينًا وبالعنف أحيانًا. ووجد وجهاء الرها أنفسهم مبعدين من مجلس الكونـــت الـــذي كان يضم الفرنجة فقط، ووجدوا أنّ الضرائب لا تقل عما كانوا يدفعونه أيام ثوروس، وفضلاً عن ذلك كانت الضياع الأرمينية داخل البلاد تُمنح للقادمين الجدد، والمزارعون مجبرون على العمل فيها كما تقضي الأعراف الإقطاعية الغربية المتشـــددة. وفي وقـــت متأخر من سنة ١٠٩٨ ميلادية كشف أحد الأرمن لـــبالدوين عن مؤامرة تســـتهدف حياته، وقيل إن اثني عشر مواطنًا من مواطني المدينة البارزين كانوا على اتصال بأمراء الأتراك في منطقة ديار بكر. وكان تافنوز صهر بالدوين في الرها آنذاك ولم يكن قـــد مضى على زفاف إبنته سوى فترة وجيزة، وتردد أنّ المتآمرين كانوا يريدون تنصيبه في مكان بالدوين أو على الأقل إجبار بالدوين على إشراكه في الحكـــم. ومـــا أن سمـــع بالدوين بتلك المؤامرة حتى ضرب ضربته في الحال; فتم القبض على زعيمي المتـــآمرين وفُقئت أعينهما، وأمّا شركاؤهما الرئيسيون فقطعت أنوفهم أو أقدامهم، وألقي بعـــدد كبير من الأرمن الذين حامت حولهم الشكـــوك في غيـــاهب الســـجون وصـــودرت أملاكهم، لكنهم جريًا على ما طبع عليه الشرقيون من المتصفين بالحكمة كـــانوا قـــد أخفوا أموالهم بعناية تسبب الحيرة لمفتشي بالدوين. لذا كان بالدوين كريمًـــا معـــهم فسمح لهم بشراء حريتهم بمبالغ تتراوح بين عشرين ألف إلى ستين ألف بيزنتة للفـــرد. وعلى الرغم من عدم إثبات اشتراك تافنوز في المؤامرة فقد رأي أنه مـــن الحكمـــة أن يسرع عائدا إلى الجبال بعيدا عن زوج ابنته المرعب، وأخذ معه الجزء الأعظم من مهر الكونتيسة الذي لم يسبق أن دفع منه سوى سبعمائة بيزنتة.(١)

وهكذا سحق بالدوين المؤامرة بشراسة فوضع حدا لمخاطر رعيته الأرمن، واستمر مـــع ذلـــك فـــي الاستعانـــة بالقليل منهم في المناصب العليا مثل أبي الغريب الذي جعلـــه

---

(١) Albert of Aix, v, 16-18, pp. 442-3.

حاكمًا على برحيك. على أنه بانضمام المزيد من الفرنجة الذين جذبتهم شهرته إليه كان بوسعه تجاهل الشرقيين، وها هي شهرته الآن، بعد أقل من سنة من مجيئه إلى الرها، قد غدت هائلة بالفعل. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي الرئيسي يشـــق طريقـــه الصعب نحو القدس، كان بالدوين قد أرسى دعائم دولة غنية قوية في عمق آسيا ممـــا جعل العالم الشرقي كله ينظر إليه برهبة واحترام. وذلك بعد أن كان أصغر الأبنـــاء، عندما خرج مع الحملة الصليبية، وهو مفلس يعتمد على تصدق اخوته ولا يكاد يذكر بجانب كبار النبلاء من أمثال ريموند أوف تولوز أو هيو أوف فيرمندوا أو المغـــامرين المتمرسين من أمثال بوهيموند، وها هو الآن عاهل يفوق أيهم عظمة، وفيه تســـتطيع الحرب الصليبية أن تجد أقدر ساستها وأكثرهم دهاء.

الفصل الثالث :

أمـــام أســـوار أنطاكيـــة

أمام أسوار أنطاكية

"وَأَمَّا الشَّجَرُ الذي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ شَجَرًا
يُؤْكَلُ مِنْهُ فَإِيَّاه تُتْلِفُ وَتَقْطَعُ وَتَبْنِي
حِصْنًا عَلَى الْمَدِينَةِ التِي تَعْمَلُ مَعْكَ
حَرْبًا حَتَّى تَسْقُطَ"

(التَّثْنِيَّة: ٢٠ — ٢٠)

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي وتبعد عن البحر اثني عشر ميلاً تقريبًا. وكان سلوقون الأول السوري قد أسسها سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسميت باسم أبيه، وسرعان ما برز شأنها لتصبح المدينة الرئيسية في آسيا. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية كانت هي المدينة الثالثة في العالم. وكانت في نظر المسيحيين مدينة مقدسة على نحو خاص، ففيها أطلق عليهم اسم "المسيحيين" لأول مرة، وفيها أسس القديس بطرس أول أسقفية له.

وفي القرن السادس الميلادي تناقص بهاء المدينة بسبب الزلازل وما ألحقه الفرس بها من خراب. وبعد الفتح العربي تدهورت لصالح مدينة حلب الداخلية المنافسة لها، وبعد أن استعادتها بيزنطة في القرن العاشر عادت إليها بعض عظمتها، وغدت الملتقى الرئيسي للتجارة اليونانية والإسلامية وأكثر القلاع ضخامة على الحدود السورية. وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية استولى عليها سليمان بن قتلمش، ثم انتقلت إثر وفاته إلى السلطان ملكشاه الذي نصب عليها حاكمها التركماني ياغي سيان. وظل ياغي سيان يحكم المدينة لعشر سنوات. ومنذ أن مات ملكشاه أصبح الوالي الأسمى لياغي سيان هو الأمير رضوان الحلبي. على أن ياغي سيان لم يكن تابعًا مخلصًا لواليه وحافظ عمليًا على استقلاله عن طريق الوقيعة بين رضوان الحلبي وأنداده دقاق الدمشقي وكربوقا الموصلي. وفي سنة ١٠٩٦ ميلادية بلغ الأمر بياغي سيان حد خيانة رضوان أثناء حربه ضد دقاق الدمشقي، وحوّل تبعيته من رضوان الحلبي إلى دقاق الدمشقي، ولكن مساعدته تلك لم تفلح في تمكين دقاق من الاستيلاء على حلب. ولم يغفر له أميرها رضوان فعلته هذه أبدًا.

وشعر ياغي سيان بالخطر من أنباء تقدم المسيحيين لاسيما وأن أنطاكية هي الهدف المعلن للصليبيين. وفي واقع الأمر لم يكن لهم من أمل في مواصلة السير جنوبا باتجاه فلسطين ما لم تقع القلعة العظيمة في أيديهم. وكان أغلب سكانها من المسيحيين اليونانيين والأرمن والسوريين، ونظرا إلى أن المسيحيين السوريين يكرهون اليونانيين والأرمن على السواء، فربما يظلون على ولائهم لياغي سيان، لكنه لم يسعه أن يثق في الآخرين. ويبدو أنه كان حتى ذلك الوقت متسامحا مع المسيحيين، فقد سمح للبطريق الأرثوذوكسي حون الأوكسيتي بالإقامة في المدينة وفيها كنائس ضخمة لم تتحول إلى مساجد. على أنه باقتراب الحملة الصليبية بدأ في وضع تدابير تقييدية، فألقى بالبطريق في السجن رغم أنه كان رئيسا لأهم جالية في أنطاكية، وطرد الكثير من المسيحيين البارزين من المدينة وهرب آخرون. وانتهكت كاتدرائية القديس بطرس وصارت

إسطبلا لخيول الأمير، وحدثت بعض حالات اضطهاد في القرى الواقعة خارج المدينة، وما أن اقترب الصليبيون حتى ذبح القرويون على الفور الحاميات التركية.(١)

ياغي سيان يبحث عن حلفاء

وأخذ ياغي سيان يبحث عن حلفاء. ورفض رضوان الحلبي مساعدته، من قبيـــل الانتقام منه لخيانته في العام الماضي وإن كان انتقاما قصير النظر. بيد أن دقاق الدمشقي جرد حملة لنجدته بعد أن أرسل إليه ياغي سيان ابنه شمس الدولة يستغيثه، كما عرض المساعدة كل من أتابج دقاق (طغتكين التركماني) والأمير جناح الدولـــة الحمصـــي. ورحل مبعوث آخر إلى بلاط كربوقا هو أتابج الموصل الذي كان آنذاك أبرز الأمـــراء في أعالي العراق والجزيرة وكان من الحكمة بحيث أدرك أن الحملة الصليبية تهدد العالم الإسلامي كله. وكانت عينه على حلب منذ زمن طويل. فإذا استطاع الحصول علـــى أنطاكية يصبح رضوان محاطا وتحت سلطانه، فجهز هو الآخر جيشا لنجدة المدينة ومن خلفه وعود بالمساعدة من سلاطين بغداد وفارس. وفي تلك الأثناء جمع يـــاغي ســـيان قواته الكبيرة داخل القلعة وبدأ في إمدادها بالمؤن تحسبا لحصار طويل.(٢)

ودخل الصليبيون أراضي ياغي سيان عند مدينة مراتا الصغيرة التي هربت منـــها حاميتها التركية عند اقترابهم. ومن مراتا انطلقت فصيلة من الجند بقيادة روبـــرت أوف فلاندرز باتجاه الجنوب الغربي لتحرير مدينة أرطا التي ذبح سكانها المسيحيون حاميتها. وفي تلك الأثناء، وفي العشرين من أكتوبر (تشرين الأول)، وصل الجيش الرئيسي إلى

---

(١) Abu'l Feda, *Annales,* p. 3; Ibn al-Athir, *Kamil at-Tawarikh,* p. 192; Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo,* pp. 578-9

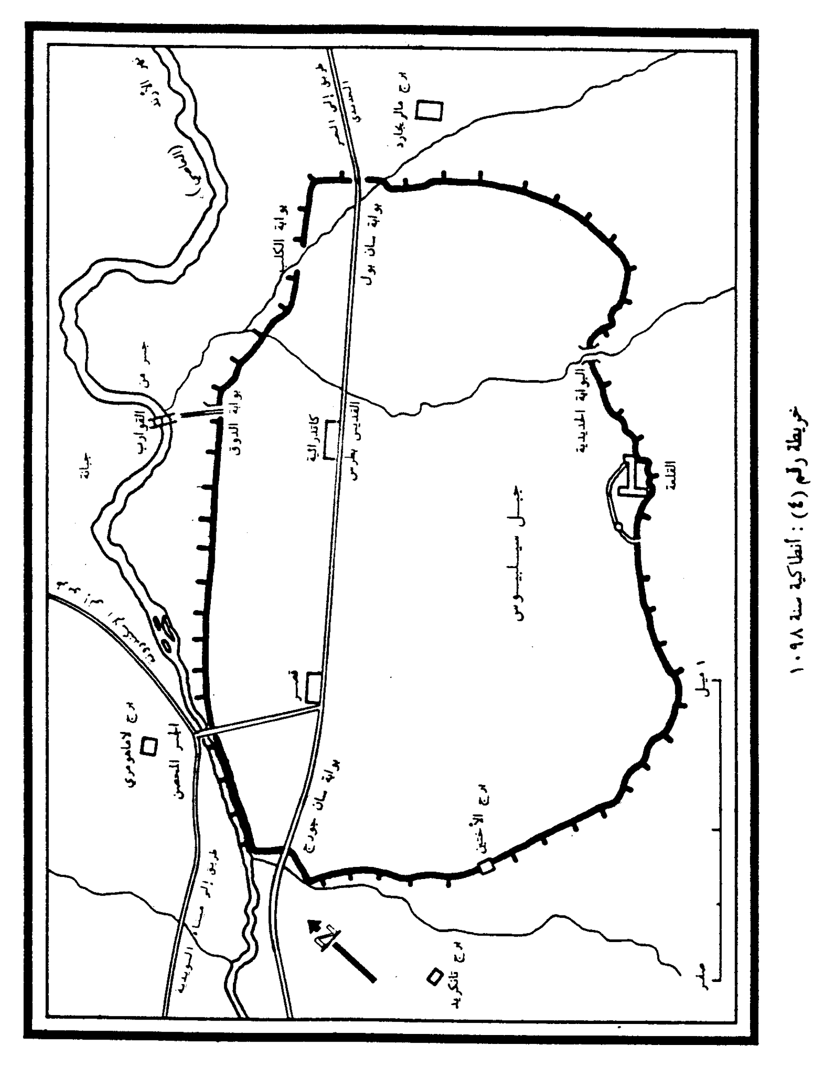
(٢) Kemal ad-Din, *loc. cit.*

نهـــر العاصي عند الجسر الحديدي حيث تلتقي الطرق القادمة من مرعش وحلب لتعبر النهر، وكان الجسر محصنا تحصينا قويا وله برجان على جانبي مدخله. ولكن الصليبيين هاجموه من فورهم وعلى رأسهم أسقف لوبوي يدير العمليات الحربية، وتمكنوا بعـــد قتال شديد من أن يشقوا طريقهم عبره. ومكنهم النصر من الاستيلاء على قدر هـــائل من الماشية والأغنام والغلال في طريقه لتموين جيش ياغي سيان. والآن أصبح الطريق إلى أنطاكية مفتوحا وباستطاعة الصليبيين مشاهدة قلعتها على مرمى البصر، وفي اليوم التالي وصل بوهيموند على رأس طليعة الجيش أمام أسوار المدينة ومن ورائـــه الجيـــش كله.(١) .

وامتلأ الصليبيون رهبة من تلك المدينة العظيمة. إذ كـــــانت منـــازل أنطاكيـــة وأسواقها تشغل سهلا طوله حوالي ثلاثة أميال وبعمق ميل واحد بين العاصي وجبـــل سلبيوس. وتناثرت قصور الأغنياء ومنازلهم على جانب التل. وحول كل ذلك ظهرت التحصينات الهائلة التي شيدها جستنيان وأصلحها البيزنطيون منذ قرن واحد فقط بآخر ما توصلوا إليه من إبداع مهاراتهم الفنية، ففي الشمـــال بـــرزت الأســـوار واعتلـــت منحدرات الجبال، وفي الجنوب امتدت الأسوار بطول القمة عند الحافة لتعبر في جسارة شقا يندفع منه سيل يعرف باسم أنوبنكل ليشق طريقه داخل السهل، ثم تمتد الأســـوار لتعبر مدخلا خلفيا يطلق عليه البوابة الحديدية، ثم تبلغ الأسوار ذروة ارتفاعـــها عنـــد القلعة الرائعة التي ترتفع لألف قدم فوق المدينة. ومن هذه الأسوار شمخ أربعمائة بـــرج بينها مسافات تسمح بجعل كل ياردة في مرمى السهام. وفي الركن الشمالي الشرقـــي كانت بوابة القديس بول تستقبل الطريق القادم من الجســـر الحديـــدي وحلـــب. وفي الركن الشمالي الغربي كانت بوابة القديس جورج تستقبل الطريق القادم من اللاذقيـــة

---

(١) Albert of Aix, III, 28-35, pp. 358-64; *Gesta Francorum,* V, 12, pp. 66-7 .



خريطة رقم (٤) : أنطاكية سنة ١٠٩٨

****

خريطة أنطاكية ١٠٩٨ ميلادية

****

سيميون، وهو حاليا ميناء السويدية، فكان هناك بوابات أصغر، مثل بوابة السوق وبوابة الكلب، تؤدي إلى النهر وتقع إلى الشرق. وكانت المياه داخل الأسوار وفيرة بالإضافة إلى حدائق الخضر والفاكهة ومراعي لقطعان الماشية. وتستطيع هذه المدينة أن تأوي جيشا بأكمله وتمده بالمؤن فيصمد لحصار طويل، من المحال تطويق المدينة تطويقا كاملا لتعذر وضع الجنود في مراكز على البقعة الجنوبية الموحشة شديدة الانحدار.(١)

ولم يستطع الأتراك الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٨٥ ميلادية إلا بالخيانة. والخيانة هي الخطر الوحيد الذي كان على ياغي سيان أن يواجهه، لكنه كان عصبيا. ولئن كان الصليبيون عاجزين عن تطويق المدينة، فكان هو الآخر غير قادر على وضع الجنود على جميع الأسوار لعدم كفاية عددهم. ولم يكن بوسعه أن يخاطر بأي من رجاله إلى أن يصل المدد؛ فلم يقدم على أية محاولة لمهاجمة الصليبيين أثناء تحركاتهم لأخذ مواقعهم، وتركهم هكذا أربعة عشر يوما دون أن يتحرش بهم.

المعسكرات أمام أنطاكية

واتخذ الصليبيون مواقعهم عند وصولهم خارج الركن الشمالي الشرقي من الأسوار، فشغل بوهيموند القطاع المقابل لبوابة القديس بول، وريموند القطاع المقابل لبوابة

---

(١) Fulcher (1,xv, 2-4, pp .217-18) and Raymond of Aguilers (v, pp. 241-2) وكلاهما يورد وصفا موجزا الأنطاكية ويصفها (William of Tyre (iv,9-10,1,pp.165-9 بصورة أكبر اكتمالا . ونهر العاصي أو الأرند Orontes يطلق عليه المؤرخون الغربيون Ferrins (Fulchrt of Chartres, 1, xv. 1, p. 216- 'Orontes of Ferrins) أو يطلقون عليه The Far (William of Tyre, iv, 8, 1, p. 164 ويسميه غلطة بذيئة) أو (*Gesta* Farfar *Francorum,* x, 34, p. 180) أو Pharpar (Albert of Aix, *loc. cit.*)

الكلب وعلى يمينه جودفري أمام بوابة الدوق. وانتظـــرت الجيـــوش الباقيـــة خلـــف بوهيموند على استعداد للتحرك وقتما يتطلب الموقف. وأما بوابة الجسر وبوابة القديس جورج فتركتا دون تغطية. وفي الحال بدأ العمل في بناء جسر من القوارب ليعبر النهر من معسكر جودفري إلى قرية تالنكي حيث تقع مقابر المسلمين، وساعد هذا الجســـر على تمكين الجيش من الوصول إلى الطرق الذاهبـــة إلى الإســـكندرونة والســـويدية، وسرعان ما أقام الجيش معسكرا شمالي النهر.(١)

وتوقع ياغي سيان هجوما عاجلا على المدينة. ولكن لم يكن بين قادة الصليبيـــين من نصح بمحاولة اقتحام الأسوار سوى ريموند الذي قال إن الرب الذي شملهم بحمايته حتى الآن لخليق بنصرهم.(٢) ولم يشاركه القادة الآخرون إيمانه هذا لأن التحصينـــات أرهبتهم ولأن جنودهم مرهقون وليس بوسعهم تحمل خسائر جسيمة الآن. فضلا عن أن التعزيزات ستلحق بهم إذا انتظروا، فـــــتانكريد علـــى وشـــك الوصـــول مـــن الإسكندرونة، وربما يحضر الإمبراطور ومعه آلات الحصار العجيبة، وقـــد يوفـــر لهـــم أسطول جوينمير المزيد من الرجال. وكانت هناك شائعة بوجود أسطول من جنـــوا في عرض البحر. أما بوهيموند الذي كان لنصيحته الأثر الأكبر بينـــهم، فلديـــه أســـبابه الخاصة به التي تجعله يعارض اقتراح ريموند; إذ تركزت طموحاته الآن علـــى الانفـــراد بامتلاك أنطاكية لنفسه، فكان يفضل الإبقاء عليها حتى لا ينهبها جيش يتوق إلى نهـــب مدينـــة غنية. ليس هذا وحسب، وإنما الأخطر بالنسبة له أنه كان يخشـــى استحالـــة

---

(١) يورد Albert of Aix,III, 38-9, pp. 365-6 وصـــف الجنـــود . ويصـــف تـــاريخ *Gesta Francorum*, v, 12,pp. 66-8 تراخي الحامية ، ويصف Raymond of Aguilers بناء الجسر وضرب معسكر ريموند .

(٢) Raymond of Aguilers, iv, p. 241

المطالبة بها لنفسه دون غيره إذا ما تم الاستيلاء عليها بالجهد الصليبي الموحد، وكان قد وعى الدرس الذي لقنه إياه ألكسيوس في نيقية، فإذا ما استطاع تدبير استسلام المدينة له فسيكون من أصعب الأمور التنازع على حقه فيها. ولسوف يتمكن من تدبير ذلك في وقت قصير، فلديه بعض المعرفة عن طرق الشرقيين في الخيانة. وهكــــذا اســـتخدم نفـــوذه لإهمال نصيحة ريموند الذي تعاظمت كراهيته له. وضاعت الفرصة الوحيـــدة للاستيلاء على أنطاكية بسرعة؛ فلو أن الهجوم الأول صادف أي نجاح لضعفت مقاومة ياغي سيان الذي كان مضطربا، ومن ثم أدى ذلك التأخير إلى أن يستعيد ثقته بنفسه.

ولم يجد بوهيموند وأصدقاؤه صعوبة في العثور على وسطاء يستطيعون من خلالهم الاتصال بالأعداء. فكان اللاجئون المسيحيون ومعهم المبعدون عن المدينة على اتصـــال وثيق بأقاربهم الموجودين داخل الأسوار بسبب الثغرات في كل من الحصار والدفـــاع. فتوفرت لدى الصليبيين معلومات عن كل ما كان يحدث داخل أنطاكية. ولقد سارت هذه العملية في الاتجاهين معا، ذلك أن الكثير من المسيحيين المحليين، لاسيما السوريين، راودتهم الشكوك فيما إذا كان الحكم البيزنطي أو الفرنجي يفضل الحكـــم الـــتركي. وكانوا على استعداد لأن ينالوا الحظوة لدى ياغي سيان بأن يقدموا لـــه هـــو الآخـــر المعلومات الوفيرة عما كان يحدث في معسكر الصليبيين، فعلـــم منـــهم بعـــدم رغبـــة الصليبيين في الهجوم. فبدأ ينظم خروج جماعات لمهاجمتهم بحيث يتسلل رجالـــه مـــن البوابة الغربية لمهاجمة أية جماعة فرنجية صغيرة، للقضاء عليها وهي تبحث عن الأعلاف بعيدا عن الجيش. وأقام اتصالات مع حاميته في حارم عبر الجسر الحديدي على الطريق إلى حلب وحثها على مناوشة الفرنج في مؤخرتهم، وفي ذات الوقت علم بنجاح سفارة ابنه في دمشق وأن هناك جيشا آتيا لنجدته.(١)

(١) Gesta Francorum, v, 12, p. 68; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 577.

ولقد ابتهج الصليبيون، في غفلة من أمرهم، باسترخاء ياغي سيان بادئ الأمر. وعندما أعقب الشتاء الخريف بدَءُوا يشعرون بالخوف على الرغم من أنهم حققوا بعض النجاح الضئيل; ففي منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) تمكنت حملة بقيـــادة بوهيمونـــد مـــن استدراج حامية حارم من حصنها وأبادتها تمامًا،(١) وفي نفس اليوم تقريبًا ظهر أسطول صغير من جنوا قوامه ثلاث عشرة سفينة في ميناء السويديّة، مما ساعد الصليبيين علـــى احتلاله. وقد جاء هذا الأسطول بتعزيزات من الرجال والسلاح استجابة متأخرة للغاية لنداء البابا إيربان لمدينة جنوا قبل ذلك بحوالي عامين. وشعـــر الصليبيـــون بالارتيـــاح لمعرفتهم أنهم بوسعهم الآن الاتصال بأوطانهم بطريق البحر. على أنّ مشكلـــة توفـــير الطعام للجيش غطت هذا النجاح كله. وعندما دخل الصليبيون سهل أنطاكية بـــادئ الأمر وجدوه مليئًا بالمؤن، فالأغنام والماشية كثيرة، وصوامع القرى ما تزال مليئة بمعظم حصاد العام، فطُعموا جيدًا وأهملوا تخزين الإمدادات لشهور الشتاء، ولم يجد الجنـــود مفرًّا من التجوال في الأنحاء بحثًا عن الطعام في دائرة من الأرض تتسع شيئًا فشيئًا. ممـــا جعلهم أكثر تعرضًا للقتل من جانب الأتراك الهابطين من الجبال. وسرعان ما اكتشف الصليبيون تسلل المغيرين عبر مضيق أنوبنكل وانتظارهم فوق التل المشرف على معسكر بوهيموند لمهاجمة الصليبيين المنتشرين العائدين إلى معسكرهم متأخرين. وللتصدي لهذا الخطر قرر القادة بناء برج محصّن فوق التل واتفقوا فيما بينهم على أن يضع فيه كـــل منهم حامية من عنده بالتناوب، وسرعان ما شُيّد البرج وأطلق علية بـــرج مالريجـــارد Malregard (٢).

---

(١) *Gesta Francorum, ibid.* pp. 68-70.

(٢) *Ibid.* v, 13,p.70; Raymond of Aguilers, v,p. 242; Caffaro, *De Liberatione*, p.50

نفاذ إمدادات الغذاء

وأوشك مخزون الجيش من الطعام أن ينفد بحلول عيد الميلاد سنة ١٠٩٧ ميلادية. ولم يعد هناك في الريف المجاور ما يمكن الحصول عليه، فعقد الأمراء مجلسا تقرر فيه إرسال قسم من الجيش بقيادة بوهيموند وروبرت أوف فلاندرز أعلى وادي نهر العاصي باتجاه ماه للإغارة على القرى وانتزاع كل ما تصل إليه أيديهم من مؤن. وفي ذات الوقت عهدوا بأمر الحصار إلى ريموند وأسقف لوبوي، إذ كان جودفري آنذاك تحت وطأة المرض الشديد. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) انطلق بوهيموند وروبرت ومعهما حوالي عشرين ألف رجل، وفي الحال علم ياغي سيان برحيلهم، فانتظر إلى أن ابتعدوا تماما. وفي ليلة التاسع والعشرين خرج في هجمة قوية عبر الجسر وانقض على الصليبيين المعسكرين شمالي النهر، وربما كان جنود ريموند هم الذين انتقلوا من مكانهم الأول بسبب أمطار الشتاء التي جعلت المنطقة الواقعة بين النهر والأسوار غير صالحة للإقامة، وبوغتوا بالهجوم، ولكن يقظة ريموند أنقذت الموقف، فقد جمع بسرعة عدد من الفرسان وهاجم الأتراك في الظلام فارتدوا عائدين عبر الجسر وهو يطاردهم بكل ما أوتي من حمية حتى أن رجاله تمكنوا من أن يتخذوا لأنفسهم في لحظة وجيزة موطئ قدم عبر الجسر قبل إغلاق البوابات. وبدا أن ريموند على وشك تحقيق ظنه في إمكان اقتحام المدينة، ولكن حصانا ألقى بالفارس من على ظهره وجمح مرتدا تجاه الفرسان المحتشدين على الجسر فأحدث بينهم الاضطراب، وكان الليل حالك الظلمة بحيث يتعذر معرفة ما كان يحدث، فانتشر الذعر بين الصليبيين فهربوا بدورهم وطاردهم الأتراك إلى المدينة. وسقط قتلى كثيرون من الجانبين خاصة فرسان الفرنج الذين سقط منهم ما لا يستطيع الصليبيون تعويضه، ومن بينهم حامل راية أديمار أسقف لوبوي.(١)

---

(١) Raymond of Aguilers, v, pp. 243-4; *Gesta Francorum*, vi, 14, pp. 74-6.

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند متجها إلى الجنوب مع روبرت أوف فلاندرز وهـو يجهل تماما أن أنطاكية كانت على وشك السقوط في يد غريمه ريموند، كما كان يجهل وجود نجدة إسلامية كبيرة تتحرك شمالا باتجاهه. فقد غادر دقاق عاصمته دمشق ومعه أتابجة طوغتكين وشمس الدولة إبن ياغي سيان في جيش كبير، حوالي منتصف الشهر. وفي حماه انضم إليهم أميرها مع قواته، وفي الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) وصلوا شيزار حيث علموا أن هناك جيشا صليبيا على مقربة منهم، فواصلوا السير من فورهم وانقضوا عليه في الصباح التالي في قرية البرة. وأخذوا الصليبيين على حين غفلة وطوقوا روبرت الذي كان جيشه يتقدم جيش بوهيموند بمسافة قصيرة، ولكن بوهيموند الذي كان يشاهد ما يحدث حجز السواد الأعظم من جنوده كقوات احتياطية يلقي بهـا في هجومه على المسلمين في اللحظة التي يظنون فيها أنهم انتصروا، وأدى تدخله إلى إنقاذ روبرت، وخسر الدمشقيون خسائر جسيمة فارتدوا إلى حماه. وبرغـم أن الصليبيـين انتصروا وحالوا ـــ بلا شك ـــ دون إغاثة أنطاكية فإنهم كانوا متعبين إلى حد بعيـد وتعذر عليهم المضي في البحث عن الطعام فنهبوا قريتين وأحرقوا مسجدا وعـادوا إلى المعسكر أمام أنطاكية بخفي حنين.(١)

المجـاعة

ووجدوا رفاقهم في غم عظيم. وفي التاسع والعشرين وهو اليوم التالي للمعركـة المشئومة حدث زلزال بلغ من الشدة أن شعر به أهل الرها. وفي الليلة التاليـة أضـاء الشفق القطبي الشمالي السماء، وخلال الأسابيع التالية هطلت السـيول دون توقـف وازدادت البرودة شيئا فشيئا، و لم يفهم ستيفن أوف بلوا لماذا يشكو المرء مـن شمـس

---

(١) *Gesta Francorum,* v, 13,pp. 70-2; Albert of Aix, III, 50-1, pp. 373-4; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 580

سوريا دائمة الإشراق. وكان من الواضح أن الرب غير راض عن محاربيه لكبريائهم ورفاهيتهم ولصوصيتهم، فأمر أديمار أسقف لوبوي بصوم خشوع لثلاثة أيام، ولكن مع اقتراب المجاعة وحلولها لم يحدث الصوم فرقا يذكر. والآن بعد أن فشلت حملة استجلاب الطعام لم يكن بد من أن يموت الكثيرون جوعا، فكان رجل من كل سبعة رجال يسقط ميتا من الجوع. فرحل المبعوثون للبحث عن الطعام إلى مسافات بعيدة وبلغوا جبال طوروس التي ارتضى أمراؤها الروبيون تقديم ما يقدرون عليه، وجاءت بعض الإمدادات من الرهبان الأرمن المستوطنين في جبال الأمانوس. بينما جمع المسيحيون الأرمن والسوريون كل ما يؤكل وأحضروه إلى المعسكر، يدفعهم إلى ذلك حب المال وليس حب البشر. فكان ثمن حمل حمار من المؤن ثماني قطع من البيزنتة، ولا يقدر على دفع تلك الأسعار سوى الأثرياء من الجنود، وكانت معاناة الخيول أعظم من معاناة الرجال حتى أن ما تبقى مع الجيش منها كان حوالي سبعمائة حصان فقط.(١)

ووجد الصليبيون في جزيرة قبرص معينا أكثر كرما. ذلك أن أديمار أسقف لوبوي — الذي كان يتصرف بناء على تعليمات البابا إيربان — ثابر على إقامة علاقات طيبة مع الرؤساء الدينيين الأرثوذوكس في الشرق وأظهر لهم احتراما يدحض النظرية القائلة بأن البابا فكر في الحرب الصليبية كوسيلة لإخضاعهم لسيطرته . أما بطريق أنطاكية السجين داخل المدينة فلم يجد فائدة من تلك الصداقة، وكان الأتراك يضعونه في

---

(١) Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe,* p. 157 (يذكر الطقس (especially mentioning the horses); Stephen of Blois, *ibid.* p. 150 الردىء)؛ Fulcher of Chartres, 1, xv, 2-xvi, 6, pp. 221-8 (يورد نصا بلاغيا يلوم فيه الصليبيين على آثامهم)؛ Raymond of Aguilers, vi, p. 245 (يذكر الشفق القطبي وصوم الخشوع)؛ *Gesta Francorum,* vi, 14, p. 76 (يذكر الأسعار التي كان يتقاضاها المضاربون المحليون)؛ Matthew of Edessa, II, cli, p. 217 (يذكر كرم الأمراء الأرمن والرهبان) .

قفص من حين لآخر ويعلقونه على الأسوار. أما سيميون بطريق القدس فكان آنذاك في قبرص وقد تخلى عن كرسيه الأسقفي بعد أن أصبحت الحياة في القدس غير آمنة مطلقا إثر موت أرتق. لكنه كان يكره الأعراف اللاتينية التي نشر بحثا ضدها يتسم بالصرامة والاعتدال. على أنه أقبل على التعاون مع الكنيسة الغربية بسرور من أجل صالح العالم المسيحي، وكان قد اشترك مع أدهمار في أكتوبر (تشرين الأول) في إرسال تقرير عـــن الحرب الصليبية إلى مسيحيي الغرب. والآن وقد أعيدت الاتصالات بقبرص واتصل به أدهمار وسمع بورطة الجيش، بدأ في إرسال كل الطعام والنبيذ الفائض عن حاجة الجزيرة تباعا بطريق البحر.(١)

بطرس الناسك يحـــاول الهرب

وعلى الرغم من وفرة مقادير الطعام المرسلة من البطريق إلا أنها لم تخفـــف مـــن وطأة البؤس السائد؛ فبدأ الرجال الذين يشرفون على الموت في الهرب من المعسكر ليلاذوا بمناطق أغنى أو في محاولة لقطع طريق العودة الطويل إلى أوطانهم، وكان الفارون بادئ الأمر جنودا مغمورين. على أنه تبين في صباح أحد أيام يناير (كانون الثاني) أن بطرس الناسك نفسه هرب ومعه وليم النجار الذي كان مغامرا ولم يعد يرغب في إضاعة وقته فـــي حـــرب صليبية ميئوس منها وسبق له أن هرب من حملة في إسبانيا ، بيد أنه من

---

(١) Albert of Aix, VI, 39, p. 489. وأرسل Symeon إلى الصليبيين هدايا الرمان " تفاح شجـــر الأرز اللبناني" ، ولحم الخنزير المجفف والنبيذ . وتاريخ الرسالة شهر أكتوبر ، وأرسلت من أنطاكية إلى الكنيسة الغربية بشأن تقدم الحملة الصليبية ، مرسلة باسم سيميون وأدهمار "وبصورة رئيسية هذا الأخير الذي عهـــد إليـــه البابـــا إيربان بمسؤلية الجيش المسيحي" Hagenmeyer , *op. cit.* pp. 141-2 وعـــن Symeon أنظر ما سبق الصفحات ١٤٤ و ١٨٠ .

العسير علينا أن نفهم لماذا أصاب الخوّر بطرس الناسك. وطـــارد تـــانكريد الفـــارين وأعادهم والخزي باد عليهم. ورؤي أنه من الصواب الإبقاء على سمعة بطرس الناسك، ومن ثم أعفوا عن ذنبه في صمت. وأمّا وليم النجار فقد أجبر على الوقوف طوال الليل في خيمة بوهيموند الذي وبّخه في الصباح توبيخًا ملؤه الحدة والوعيد، فأقسم ألاّ يترك الجيش مرة أخرى مطلقًا حتى يصل إلى القدس، ولكنه نكث بقسمه فيمـــا بعـــد. و لم يكن بد من أن تتأثر هيبة بطرس الناسك، لكنه سرعان ما منح الفرصة لاستعادتها.(١)

ونظر أديمار فإذا الجيش يتقلص يومًا بعد يوم بسبب المجاعة وفرار الجنود، فـــرأى من الضروري توجيه نداء قوي إلى الغرب لإرسال التعزيزات. ولكي يضفي على ندائه أعلى سلطة صاغه باسم بطريق القدس، ويفترض أنه قد استأذنه في ذلـــك. ولصياغـــة ذلك النداء أهميتها الخاصة لما تلقيه من ضوء على سياسة أديمار الكنســـية; فـــالبطريق يوجه الخطاب إلى كل المؤمنين في الغرب باعتباره الآن قائدًا لأساقفة الشرق اليونـــانيين واللاتينيين على السواء، ويلقب نفسه بلقب (الرسولي)، ويأخذ على عاتقه أن يطرد من الكنيسة أيّ صليبي يحنث بعهوده المسيحية; وهذه لغة لا يصوغها إلاّ حـــبر لا يخضـــع لأحد. ومن غير المعقول بأية حال أن يورد أديمار مثل هذه اللغة على لسان من تتجـــه النية إلى إخضاعه للبابا في روما. وأيًّا كانت الغاية التي يستهدفها البابا إيربـــان مـــن مخططاته إزاء حكم الكنائس الشرقية فإن مبعوثه ــ أديمار ــ لم يكن يبشر بالســـيادة البابويّة عليها، ولا ندري رد الفعل الذي أثاره خطاب البطريق في الغرب (٢).

---

(١) *Gesta Francorum*, VI, pp. 76-8.

(٢) (المترجم)يتبين من سرد الكاتب "ستيفن رانسيمان" أن الكنيسة اللاتينية الغربية ، وهي تحاول أن تطرق مختلـــف السبل من أجل إكمال المسيرة الصليبية في الشرق ، تجاوزت كل الحدود المعقولـــة والمقبولـــة وتنازلت عن مطلـــب رئيسي ، أو عن المطلب الرئيسي ، لها والذي يتمـــثل فـــي بســـط سلطانهـــا علي الكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية التيتعتبر في نظر الكنيسة اللاتينية الغربية منشقة في قوانينها أعرافها عمـــا يتبـــع فـــي الكنيســـة الغربيـــة مـــن قوانين وأعرف علي نحو يدخلها في زمرة الهراطقة . --

وبينما كان الصليبيون يظهرون الاحترام اللائق لهرمية الأرثوذكسية الشرقية، تدهورت علاقاتهم بزعيمها الدنيوي. ففي وقت مبكر من فبراير (شباط) رحل تاتيسيوس مثل الإمبراطور فجأة تاركا الجيش بعد أن صاحب الحملة الصليبية من نيقية ومعه مجموعة صغيرة من موظفيه وفريق مكون من المرشدين والمهندسين. وكان تاتيسيوس على علاقة طيبة فيما يبدو بزعماء الصليبيين، ففي كومونا وكوكسون التزموا بتسليمه المناطق التي استردوها، وقد أشاد بكفاءاتهم القتالية في تقاريره. وهناك تفسيرات عديدة لرحيله المفاجئ آنذاك، ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى رفض القصة التي رواها في القسطنطينية لدى عودته؛ فاستنادا إلى روايته حدث في أحد الأيام عندما أصبح معروفا أن الأتراك على وشك القيام بمحاولة أخرى لنجدة أنطاكية أن استدعاه بوهيموند وأخبره في ثقة قاطعة أن الأمراء الآخرين يعتقدون أن الإمبراطور مسئول عن تشجيع الأتراك وأنهم يأتمرون لاغتياله انتقاما لأنفسهم، وتظاهر تاتيسوس بالاقتناع. وواقع الأمر أن المزاج العام للجيش وقتئذ يجعل من المرغوب جدا وجود كبش فداء، وفضلا عن ذلك كان تاتيسوس يعتقد أن الصليبيين قد أضعفهم الجوع وثبط من همتهم، وليس لهم الآن من

--ويبدي الكاتب في أسلوب سرده غاية دهشته واستعصاء فهمه لمسلك الكنيسة اللاتينية الغربية على هذا النحو ، ذلك أن الصدع بين هاتين الكنيستين قديم قدم ظهور المسيحية وباق حتي يومنا هذا . ولا يكاد المؤلف يتصور أن تهدر القيمة الدينية العليا في سبيل مصلحة يظهر المؤلف عبر كتابه كله أنها لا تكاد تمت إلي الدين بصلة وإنما ترتبط أيما ارتباط بأوجه النفع الشخصي الذي يتفاوت حجمه تفاوتا يبدأ من البابا نفسه - الذي كان يسعي إلي بسط سيطرته الدينية في الغرب والشرق بما يستتبعه ذلك من سلطان علي الملوك والأمراء - وينتهي إلي صغار المغامرين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية مدفوعين بنتائج الأوضاع التي كانت سائدة في أوروبا في ظل النظام الإقطاعي قبل أن يكونوا مدفوعين بهموم الخلاص المسيحي . .Letter Hagenmeyer. *op. cit.* pp. 146-9

أمل في الاستيلاء على القلعة العظيمة. وكانوا قد تجاهلوا نصيحة بقطع الطعام عنـــــها حتى تستسلم وذلك باحتلال الحصون المتحكمة في مداخلها البعيدة. ولذا أعلن ضرورة عودته إلى الأراضي الإمبراطورية ليتسنى له ترتيب مخطط أفضل للإمـــــداد، وأبحـــر في سفينة من ميناء السويدية إلى قبرص ، ولكي يظهر لهم نيته في العودة ترك أغلب أعوانه مع الجيش. ولكن ما أن رحل حتى انطلقت أبواق دعاية بوهيموند تؤكد أنه إنما هرب جبنا من مواجهة الهجوم التركي القادم، إن لم يكن بدافع الخيانة الحقيقيـــة، وعندمـــا يتصرف ممثل الإمبراطور على هذا النحو غير المشرف تصبح الحملة الصليبية في حل من أي التزام تجاه الإمبراطورية، أي أنه لا داعي لإعادة أنطاكية إليها.(١)

بوهيموند يهدد بالانسحاب

وكانت الخطوة التالية أن أشاع بوهيموند أنه يفكر هو نفسه في الرحيـــل عـــن الجيش لعدم استطاعته تجاهل التزاماته في الوطن أكثر من ذلك. وحتى ذلك الحين لعب دورا قيـــاديا في كل العمليات العسكرية التي قامت بها الحملة الصليبية . وفي تقديره أن

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, v, pp. 254-6 إن تاتيسيوس اقترح حصارا أكثر قربا . ولم يؤخذ باقتراحه ؛ ثم سرعان ما فر ذلك الفرار الخائن بعد أن عهد إلي بوهيمند بمدن المصيصة وطرسوس وأدنـــا ولابـــد أن بوهيمنـــد قـــد اخترع هذه الهدية المستبعدة للغاية ونشرها بين جنود الجيش . ويقول تاريخ *Gesta Francorum*, VI, 16, pp.78-80 إنه هرب من منطلق الجبن الخالص . ويقول ألبرت أوف آيكس إنه ضرب خيمته علي حافة المعسكر لأنه كان ينتوي الفرار دائما . وعندما هرب وعـــد وعـــدا كـــاذبا بأنه سيعود (III, 38, p. 366, IV, 38, p. 416). وتعتبر القصة التي أوردتها أناكومنينا – ولابد أنها تقوم علي أساس ما أبلغها به تاتيسيوس – أكثر الروايات إقناعا وأنا أقبلها هنا (XI,iv,3,vol. II, p. 20).

الفزع سوف يتملك الجيش إذا توقع رحيله عنه في تلك المرحلة الشائكة، ولذلك سمح بأن يكون مفهوما أنه لو منح لوردية أنطاكية فسيكون ذلك عوضا له عن أية خسائر يخسرها نتيجة تغيبه عن إيطاليا. و لم ينخدع رفاقه الأمراء بتلك المناورات غير أنه حظى بتعاطف كبير بين صفوف عامة الجند.(١)

وفي تلك الأثناء كان الأتراك يتجمعون مرة أخرى في حشـود غفـيرة لنجـدة أنطاكية. وبعدما أخفق دقاق في المساعدة التي وعد بها تحول ياغي سيان مرة أخرى إلى سيده الأول رضوان الحلبي الذي تأسى حينئذ على تراخيه، مما أدى إلى توغل الفرنـج إلى أنطاكية، وعندما أعاد ياغي سيان اعترافه بسيادته أعد العدة للحضور لنجدته ومعه إبن عمه سقمان الأرتقي من ديار بكر وحموه أمير حماه. وفي أوائل فبراير (شباط) أعاد الحلفاء احتلال حارم حيث تجمعوا توطئة لهجومهم على معسكر الصليبيين. ومـا أن سمع أمراء الصليبيين بتلك الأخبار حتى عقدوا مجلسا في خيمة أديمار حيـث أخـذوا بنصيحة بوهيموند بأن تبقى قوات المشاة في المعسكر لصد أي هجوم يخرج من المدينة بينما ينطلق الفرسان ـــ وقد تقلص عدد اللائقين منهم للحرب الآن إلى سبعمائة فارس وحسب ـــ في هجوم مفاجئ على الجيش المهاجم. وفي الثامن من فبراير (شباط) تسلل فرسان الفرنج أثناء الليل عبر جسر القوارب واتخذوا موقعهم بين النهر وبحيرة أنطاكية بحيث ينقضون من هذا الموقع على الأتراك أثناء تقدمهم لعبور الجسر الحديدي، وعنـد انبلاج الصبح ظهر الجيش التركي، فهاجم الصف الأول من الصليبيين على الفور قبل أن يتمكن رماة الأتراك من أن يصطفوا. و لم يستطع الهجوم أن يشتت حشود الأتراك وانسحب الفرسان مستدرجين العدو إلى أرض المعركة التي اختاروها حيـث وجـد الأتـراك البحيـرة عن يمينهم والنهر عن يسارهم فعجزت جموعهم الهائلة عن مهاجمة جناحـي الصليبيين . وفي هذه الساحة الضيقة عاود الفرسان الهجوم على نحو شامـل

(١) Raymond of Aguilers, *loc. cit.*

هذه المرة، وأمام ثقل هجومهم تحطم جنود الأتراك الأخف تسليحًا وولـــوا الأدبـــار ناشرين الفوضى في الصفوف المحتشدة خلفهم. وسرعان ما انسحب جيش رضوان كله في فوضى عائدًا إلى حلب، وعند مرورهم بحارب انضمت حاميتها إلى الفارين تاركـــة المدينة للمسيحيين المحليين الذين سلموها إلى الصليبيين.

وبينما كان الفرسان يفوزون بهذا النصر الكبير كانت المشاة تحـــارب معركـــة أصعب; إذ خرج ياغي سيان في هجوم شامل على المعسكر الذي كان المدافعون عنـــه يفقدون مواقعهم شيئًا فشيئًا إلى أن شاهدوا الفرسان المنتصرين يقتربون بعد الظـــهر. وباقترابهم أدرك ياغي سيان أنّ الجيش المغيث قد انهزم فأمر بعودة رجالـــه إلى داخـــل الأسوار.(١)

وارتفعت معنويات الصليبيين بهزيمة الجيش الثاني الذي جاء لنجدة أنطاكية، ومع ذلك لم يتحسن موقفهم وقتها. فالطعام ما يزال نادرًا رغم أنّ الإمدادات بدأت تصـــل إلى ميناء السويديّة وأغلبها من قبرص حيث جمع البطريق سيميون ـــ وربما تاتســـيوس أيضاً الذي جُحِد فضله ـــ كل ما كان متاحًا. وتسللت من المدينة جماعـــات تغـــير إغارات متكررة على الطريق الجنوبي الذاهب إلى البحر وتنصـــب الأكمنـــة للقوافـــل الأصغر، بينما كانت المدينة تحصل على تموينها من بوابة القديس جورج التي كانت ما تزال بلا حصار عبر الجسر المحصن. ولكي يتحكم الصليبيون في هذا الجسر، فيصبـــح الطريق إلى ميناء السويدية آمنا، اقترح ريموند بناء برج على الضفة الشمالية بـــالقرب منه، ولكن المشروع لم يتم لافتقاد المواد والبنائين. وفي الرابع من مارس (آذار) وصـــل إلى ميناء السويدية أسطول كل من عليه من الإنجليز بقيادة إدجار أثلنج المطالب المنفي بالعـــرش . وكان الأسطول يحمل حجاجا من إيطاليا وتوقف في القسطنطينية حيـــث

---

(١) *Gesta Francorum,* VI, 17, pp. 80-6;Raymond of Aguilers, VII, pp. 246-8 .

التحق به إدجار الذي كان قد وضع نفسه تحت أوامر الإمبراطور. وفي القسطنطينية تم شحن الأسطول بمواد وآلات الحصار، وهكذا وصل الأسطول في الوقت المناسب تماما. وتعمد الصليبيون إخفاء حقيقة أن الإمبراطور هو الذي أرسل تلك الإمدادات.

معركة على طريق السويدية

وعندما بلغت الصليبيين أنباء وصول الأسطول، انطلق ريموند وبوهيموند معـــا، لافتقاد كل منهما الثقة في الآخر، ليجندا أكبر عدد ممكن من بين الركاب وليصحبـــا العمال والمواد إلى المعسكر. وفي السادس من مارس (آذار)، وفي طريق عودتهما محملين من ميناء السويدية، وقعا في كمين نصبته فصيلة من حامية المدينة، وقد أجفل جنودهما من المفاجأة فولوا الأدبار مذعورين تاركين الأحمال في أيدي الأعداء، واندفع بعـــض الشاردين إلى داخل المعسكر وأشاعوا مقتل كل من ريموند وبوهيموند، وعلى الأثـــر أعد جودفري العدة للخروج لنجدة الجيش المهزوم. لكن الأتراك خرجوا فجـــأة مـــن المدينة لتغطية الفصيلة المثقلة بالأحمال حتى أوصلوها إلى البوابـــات. وتمكـــن رجـــال جودفري، الذين كانوا مستعدين بسلاحهم للخروج إلى البحر، مـــن صـــد الهجـــوم التركي المفاجئ وظهر ريموند وبوهيموند دون توقع ومعهما بقايا قواتهما. وبرغم حالة الضعف البادية عليهما مكنا جودفري من رد الأتراك إلى داخل المدينة. ثم اتحد الأمراء ليعترضوا الفصيلة أثناء عودتها. ونجحت تكتيكاتهم نجاحا تاما، وتغلبوا بمناوراتهم علـــى الفصيلة التي عاقتها أحمالها فانهزمت وقتل أفرادها أثناء كفاحهم للوصول إلى الجســـر. واستعاد الصليبيون مواد البناء الثمينة. وقيل إن ألفا وخمسمائة تركي لقـــوا حتفـــهم، غرق الكثير منهم أثناء محاولتهم عبور النهر، وكان من بين القتلى تســـعة أمـــراء. وفي تلـــك الليلة تسلل أفراد من حامية المدينة لدفن القتلى في مقابر المسلمين على ضفـــاف

النهر الشمالية، وقد شاهدهم الصليبون وتركوهم في أمان، لكنهم في الصباح التـالي نبشـوا القبور وانهكوا جثث الموتى من أجل الذهب والفضة التي كان الموتى يتقلدونها.(١)

وترتب على انتصار الصليبيين استكمال تطويق أنطاكية. وتم بناء البرج المطلوب إثـر توفر العمال والمواد، وأصبح يتحكم في مدخل الجسر المحصن. وقد شيد بالقرب من مسجد في المقابر الإسلامية وسمي رسميا بقلعة ماهومري، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة بمعنى "مسجد". ولكن الأمراء تنازعوا حول من يكون مسئولا عن هذا البرج، فطـالب بـه ريموند لأنه من بنات أفكاره، وعادة ما كان يعرف بـحصن ريموند.

واكتمل البناء فـي التاسـع عشـر مـن مـارس (آذار) ، وسـرعان ما أثبـت

---

(١) *Gesta Francorum*, VII, 18, pp. 88 - 96 ; Raymond of Aguilers, VII - VIII , pp. 248 - 9; Albert of Aix, III, 53 - 5, pp. 383 - 6; letter of Stephen of Blois in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 151 - 2; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp.158 - 9; letter of the clergy of Lucca in Hagenmeyer, *op. cit* pp. 165-7, حيث يذكر أن مواطنا من Lucca يدعى Bruno وصل ميناء السويدية في تلـك اللحظة وكان مسافرا مع أسطول انجليزي . David, *Robert Curthose*, pp. 236-7 يعـرب عن الشك فيما إذا كان Edgar Atheling مع هذا الأسطول الذي كان ما يزال في اسكتلندا في خريف سنة١٠٩٧م ولابد أنه غادر انجلترا قبل ذلك التاريخ بيد أن الأسطول كان مكونا بصورة شبه يقينية من الحرس " الفارانجي " الإنجليزي الذي غادر انجلترا منذ فترة طويلة وكان يبحر في مياه البحر الأبيض المتوسط بأوامر من الإمبراطور ، ونجدهم فيما بعد يعملون للإمبراطور . (أنظـر ما يلي ص ٣٠٨) . واستطاع إدجار سرعة الرحيل إلي القسطنطينية ليستأجره الإمبراطور مؤقتا ، والإنضمام إلي الأسطول هناك . ويقول Orderic Vitalis (x, II, vol. IV, pp. 70-2) إنه علي يقين مـن أنه كان مع الأسطول واستولي علي اللاذقية أيـام الحصـار ، علـي الرغـم مـن أن William of Malmesbury (II,p.310) يحدد استيلاءه علي اللاذقية في تاريخ أبكر قليلا . أنظر ما يلي *loc. cit.*

فائدته في منع الاقتراب من بوابة الجسر، غير أن بوابة القديس جورج كانت ما تــزال مفتوحة. ولجعلها هي الأخرى تحت المراقبة استقر الرأي على بناء حصن في مكان ديــر قديم على تل مواجه للبوابة، واكتمل تشييد الحصن في إبريل (نيسان) وعــهد بــه إلى تانكريــد الذي تقاضى ثلاثمائة مارك نظير الإنفاق عليه. ومنذ ذلك الوقت لم تتمكــن

قوافل الطعام من الوصول إلى المدينة، كما لم يستطع مواطنوها أن يرسلوا قطعانهم لترعى خارج الأسوار كما اعتادوا، وكان باستطاعة أفراد من المغيرين تسلق الأســوار على جبل سيلبيوس أو من خلال البوابة الحديدية الضيقة، ولكن أصبح من غير الممكن خروج هجمات منظمة. وبينما بدأت الحامية تعاني الجوع تيســرت مشكلــة إطعــام الصليبيين; فقد تحسن الجو بحلول الربيع، وأصبح في الإمكان التجول لجلب الطعام دون خطر الهجمات التركية المفاجئة، وتحول التجار الذين كانوا يبيعون بضائعهم للحاميــة بأسعار مرتفعة إلى التعامل مع معسكر الصليبيين. كل ذلك أتاح المزيد من الإمدادات للفرنج ورفع معنوياتهم. وسرعان ما استولى تانكريد بعد بناء حصنه على شحنة طعام هائلة كانت في طريقها إلى ياغي سيان تولى نقلها تجار مسيحيون سوريون وأرمنيون. وبعد كل هذا النجاح راود الصليبيين الأمل في أن تستسلم أنطاكية تحت وطأة الجوع، ويجب أن يكون الاستسلام سريعا، إذ أن كربوقا الموصلي المرعب كان يعبئ قواته.(١)

مفاوضات مع الفاطميين

وكان الإمبراطور ألكسيوس قد نصح الصليبيين أثناء وجودهم في القسطنطينيــة

---

(١) *Gesta Francorum*, VII, 18, VIII, 19, pp. 88, 96 - 8; Raymond of Aguilers, VIII pp. 249-50; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-9 ; letter of the clergy of Lucca, *ibid.* p. 166 .

بالتوصل إلى نوع من التفاهم مع الفاطميين في مصر لأنهم أعداء ألداء للأتراك ومـــن سمـاتهم التسامح مع المسيحيين من رعاياهم. وعلى استعداد دائما للتعامل مع القوى المسيحية. وربما لم يأخذ الصليبيون بهذه النصيحة، غير أنه في بداية الربيع وصلت سفارة مصريـــة إلى المعسكر الصليبي أمام أنطاكية أرسلها رجل مصر القوي الأفضل وزير الخليفة الصـــبي المستعلي. ويبدو أنه اقترح تقسيم الإمبراطورية السلجوقية فيأخذ الفرنج شمال ســـوريا وتأخذ مصر فلسطين. ولا شك في أن الأفضل كان يعتبر الصليبيين مجرد مرتزقة عنـــد الإمبراطور، ولذلك افترض أن هذا التقسيم، القائم على أساس الوضع السائد قبل الغزو التركي، سيكون مقبولا على الوجه الأكمل. واستقبل الأمـــراء الغربيـــون الســـفراء استقبالا وديا و لم يلزموا أنفسهم بأية ترتيبات محددة. وبقى المصريون في المعسكر بضعة أسابيع ثم عادوا إلى مصر تصحبهم سفارة فرنجية صغيرة محملة بالهدايا المأخوذة أصـــلا من الأسلاب التي استولوا عليها في معركة السادس من مارس (آذار). وتعلم الصليبيون من المفاوضات قيمة ما يمكن أن يخرجوا به من مزايا نتيجة للدس بين القوى الإسلامية، فنحوا جانبا تحاملاتهم الدينية وأرسلوا إلى دقاق الدمشقي، على أثر أنباء استعدادات كربوقـــا، طالبين منه الحياد ومعلنين أنه ليست لهم أطماع في أراضيه، ولكن دقاق الذي كان يعتبر أخاه رضوان الحلبي عدوة الرئيسي، لم يوافق على طلبهم لأنه رأى أخاه يعود إلى حياده السابق.(١)

---

(١) استنادا إلى the *Historia Belli Sacri (Tudebodus Imitatus)* p. 181 كان الصليبيون قـــد أرسلوا فعلا سفارة إلي مصر من نيقية بناء علي نصيحة ألكسيوس . وقائمة السفراء مثار شك ؛ وربمـــا شكلوا سفارة أرسلت من أنطاكية . علي أنه من الممكن أن يكونوا قد تذكروا نصيحة الإمبراطور . وقد جـــاء ذكـــر السفارة المصرية إلي أنطاكية عند Raymond of Aguilers, VII, p. 247 وبواسطة Stephen of Blois عند Hagenmeyer, *op. cit.* p. 151 وبواسطة Anselm of Ribemont وعند تاريخ *Gesta Francorum.* VI, 17,p. 86, VII, 19, p.96 ويذكر ابن الأثير مفاوضـــات الصليبيين مع الدقاق (*op. cit.* 193).

وفي أوائل مايو (أيار) أصبح من المعروف أن كربوقا بدأ مسيرته، وكـــان معـــه إلى جانب جنوده رجال أرسلهم سلاطين بغداد وفارس وأمراء الأرتق في شمال العـــراق، وكان دقاق في انتظاره في دمشق كي ينضم إليه، وكان ياغي سيان ما يزال صامدا في أنطاكية برغم الضغوط الشديدة الواقعة عليه. وازداد التوتر بين صفوف الصليبيين، إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا على المدينة أولا فإنهم سوف يسحقون بين الحامية وجيـــش الغوث الهائل. وفي ذلك الوقت كان الإمبراطور ألكسيوس يجرد حملة في آسيا الصغرى. فأرسل إليه الصليبيون نداء يائسا للإسراع لنجدتهم. أما بوهيموند الذي عقد العـــزم على الفوز بأنطاكية لنفسه فكان لديه ما يثير قلقه بصفة خاصة؛ فإذا وصل الإمبراطور قبل سقوط أنطاكية، أو إذا تعذرت هزيمة كربوقا إلا بمساعدة الإمبراطور، فسيصبح من المحال ألا تعاد أنطاكية إلى الإمبراطورية، وكان أغلب الأمراء على اســتعداد لإعطــاء المدينة لــبوهيموند فيما عدا ريموند أوف تولوز الذي رفض بموازرة — فيما يبـــدو — من أديمار أسقف لوبوي، وغالبا ما كان الأمراء الصليبيين يناقشون دوافع ريموند لأنـــه — دون غيره من الأمراء — لم يكن مرتبطا بقسم صريح مع الإمبراطور ولأنه غـــادر القسطنطينية وهو على وفاق معه؛ ولكنه يكره بوهيموند ويرتاب فيه، ويرى فيه غريمه الرئيسي في القيادة العسكرية للحملة الصليبية، وربما كان هو والمندوب البابوي يعتبران أنه إذا كان القسم باطلا فينبغي أن تكون الكنيسة التي يمثلها أديمار هي وحدها الـــتي يحق لها أن تخصص الأراضي لمن تشاء. وبعد مناقشات ودسائس تم التوصل إلى حـــل وسط: فإذا كان بوهيموند هو الأمير الذي يدخل جنوده المدينة قبل غـــيرهم، وإذا لم يحضر الإمبراطور، فإنها تؤول إليه. ومع ذلك اعترض ريموند، ولكـــن كـــان لـــدى بوهيموند من الأسباب ما يجعله راضيا. (١)

---

(١) *Gesta Francorum*, VIII, 19, pp. 100-2, corroborated by Anna Comnena , XI, iv, 4, vol. III, p. 21 ويرد تسجيل اعتراض بوهيمند في رواية William of Tyre (v, 17, 1, pp. 220-1).

تسبب سوء التقدير الذي وقع فيه كربوقا في منح الصليبيين فرصة لالتقاط الأنفـــاس. فلم يشأ أن يتقدم إلى أنطاكية تاركًا في الرها جيشًا فرنجيًا يهدد جناحــه الأيمـــن، ولم يدرك أنّ بالدوين كان بالغ الضعف بحيث لا يقدر على الهجوم، وأنه كان بالغ القـــوة في قلعته العظيمة بحيث يتعذر تنحيته، وهكذا توقف كربوقا أمام الرها طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من مايو (أيار) وهو يهاجم أسوارها دون جدوى، ثم قـــرر أنّ الجـــهد والوقت قد ضاعا بلا طائل.(١)

مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية

وفي تلك الأسابيع الثلاثة الثمينة كان بوهيموند يعمل بهمة كبيرة. ففي وقت مـــا أقام اتصالا بأحد الضباط داخل مدينة أنطاكية يدعى فيروز وهـــو أرميـــني تحـــول إلى الإسلام ورفعه ياغي سيان إلى منصب عال في حكومته. وعلى الرغم مـــن إخلاصـــه الظاهري كان يحمل مشاعر الغيرة من سيده، خاصة وأنه عاقبه مؤخرا بالغرامة لتخزينه الحبوب. وكان على اتصال بأبناء دينه السابق، وعن طريقهم توصل إلى تفـــاهم مـــع بوهيموند ووافق على أن يبيعه المدينة. وظل سر هذه الصفقة في طـــي الكتمـــان، ولم يأمن بوهيموند أحدا على هذا السر، وراح يركز علانية على الأخطار الداهمة ليضفـــي المزيد من القيمة على نصره المرتقب.(٢)

---

(١) أنظر ما سبق ص ٣٣٠ ، والمراجع المذكورة *ibid.* n. 2.

(٢) Gesta Francorum, VIII, 20, p. 100 ويطلق عليه صاحب هذا التاريخ "Pirrus" ويقول إنـــه كان تركيا . وتطلق عليه Anna Comnena, XI, iv,2,vol.II, p.19 أرميني معين "a certain Armenian" ويطلـــق عليـــه Radulph of Caen,LXII, pp.651-2 ثـــري أرميـــني "arich Armenian" ويطلق عليه Matthew of Edessa "واحد من زعماء المدينة" دون أن يحدد جنســـه (II,civ,p. 222) 'one of the chief men of the city' ؛ ويطلـــق عليـــه Raymond of Aguilers, VIII,p.251--

ولقد أفلحت دعايته للغاية. ففي أواخر مايو (أيار) تخلى كربوقا عن حصاره العقيم للرها وواصل تقدمه. فدب الذعر في معسكر الصليبيين، وبدأ الهاربون يتسللون من المعسكر بأعداد كبيرة لا تجدي معها محاولات منعهم، إلى أن هرب أخيرا في الثاني من يونيه (حزيران) حشد غفير من الفرنسيين الشماليين واتخذوا طريق الإسكندرونة يقودهم ستيفن أوف بلوا الذي كتب لزوجته من المعسكر وهو مفعم بالبهجة قبل ذلك بشهرين ليخبرها بأهوال الحصار ويصف لها كذلك الانتصار في معركة السادس من مارس (آذار) مركزا على أهميته الشخصية في الجيش. أما الآن، والمدينة ما تزال صامدة، وحشود كربوقا على مقربة منها، بدا له أن انتظار مذبحة أكيدة إن هو إلا محض حماقة، فهو لم يكن محاربا عظيما أبدا، وربما يعيش ليحارب في يوم آخر. وينفرد ستيفن من بين جميع الأمراء بحماسه الشديد في إعجابه بالإمبراطور، ولا بد أن بوهيموند ابتسم عندما رآه يرحل، غير أنه لم يكن ليتنبأ بمدى الفائدة التي سيضيفها رحيله على قضيته.(١)

-- عبارة 'quidam de Turcatis' وربما يعني بهذه العبارة مسيحي مرتد. أما المصادر العربية : كمال الدين (op.cit.pp. 581-2) وابن الأثير (op. cit. p. 192) فلا تحدد جنسه ، ويطلق عليه الأخير : فيروز . أما الأول فيقول إنه كان صانع أسلحة يعرف باسم "زراد" صانع الزرد أو الدروع ، كان ياغي سيان قد عاقبه لأنه كان يخزن المؤن . ويقول William of Tyre,v,II,1,pp. 212-13 – وهو يستند إلي المصادر العربية فيما يتضح – إنه كان ينتمي إلي طائفة "بني زرة" الحرفية (ترجمة مصطلح باللاتينية (quod in lingua latina interpretature *filii loricatoris*) . وكان من عائلة لا بأس بها . وتضيف ترجمة وليم الفرنسية القديمة أنه كان 'Hermin' أي أرمينيا .

(١) يقول Fulcher of Chartres, 1,xvi,7,p. 228 إن رحيل ستيفن حدث في اليوم السابق علي سقوط أنطاكية ، أي يوم ٢ يونية . وهو يقول ذلك بمشاعر الأسف ، لكنه لا يعزو رحيله إلي الجبن . ويقول-

ولو أن ستيفن تأخر في رحيله لسويعات قليلة لتخلى عن قراره بالرحيل. ففي نفـــس ذلك اليوم أرسل فيروز ابنه إلى بوهيموند ليخبره بأنه مهيأ لتنفيذ المهمة التي تنطـــوي علـــى الخيانـــة، وقـــد أشيـــع فيمـــا بعـــد أنه كان مترددا طوال الوقت وحتى الليلة السابقة حينما اكتشف أن زوجته على علاقة مشينة مع واحد من رفاقه الأتراك. وهـــو الآن قائد برج الأختين والقسم الملاصق له من سور المدينة المواجه لحصـــن تـــانكريد، ولذلك استحث بوهيموند على أن يجمع الجيش الصليبي بعد ظـــهر ذلـــك اليـــوم وأن يقوده خارجا باتجاه الشرق كما لو كان ذاهبا ليعترض طريق كربوقا، وبعد أن يـــهبط الظلام يزحف الجنود عائدين إلى سور المدينة الغربي ومعهم السلالم ليتســـلقوا الـــبرج وسيكون هو في انتظارهم مراقبا لما يجري، فإذا ما وافق بوهيموند على ذلك فســـوف يعيد إليه ابنه في المساء ليحتفظ به رهينة كعلامة على أنه على أهبة الاستعداد للتنفيذ.

-- تاريخ *Gesta Francorum,* ix,27, p.140 إنه هرب بسبب المـــرض . ويعـــزو Raymond of Aguilers, xi, p. 258 هروبه إلي الجبن الذي يبدو أنه كان الانطباع العام . ويعـــرب Guibert of Nogent, xxv, pp.199-200 عن شعوره بضرورة أن يعزي الهرب إلي مبررات . وكان ستيفن قـــد انتخب في منصب في الجيش ورد كما يلي :

'ductor' of the army (*Gesta Francorum, loc. cit.)* ; or

'dictator' (Raymond of Aguilers, *loc. cit.)* ; or

'dominus atque omnium actuum provisor atque gubernator' (Stephen of Blois, letter in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 149) .

ويقينا لا يمكن أن يعني ذلك أنه عين قائدا عاما للجيش أو زعيما سياسيا للحملة الصليبية ، إذ أنه لم يقم بالقيادة قط في أية عملية عسكرية ، بينما كان أدهمار هو الشخص الوحيد المعترف به علي أن له السلطة السياسية علي الأمراء الآخرين . والأرجح أن ستيفن قد عهد إليه بمسؤولية الجانب الإداري للجيش وكان مسؤولا عن تنظيم الإمدادات .

عشيّـــة الهجــوم

وأخذ بوهيموند بنصيحته. فعندما اقترب اليوم من نهايته أرسل واحدًا من مشاته يُدعى مال كورون يجوب المعسكر آمرًا الجنود بالاستعداد للانطـــلاق عنـــد غـــروب الشمس في غارة على أرض العدو. ثم أرسل إلى الأمراء الرئيسيين يدعوهـــــم لمقابلتـــه وهم: أديمار أسقف لوبوي، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز، وأخـــبرهم لأول مرة بمؤامرته قائلاً: "الليلة، إن كان الرب ناصرنا، ستصبح أنطاكية في أيدينــــا". و لم يفصح ريموند عما انتابه من شتى مشاعر الغيرة، وأيّد هو ورفاقه المخطـــط تـــأييدًا صادقًا.

وعند غروب الشمس شرع الجيش في المسير شرقا، والفرسان على ظهور جيادهم ميممين شطر أعلى الوادي أمام المدينة بينما جنود المشاة يكدحون على ممرات التـــلال من خلفهم، وشاهدهم الأتراك من داخل المدينة وهم ذاهبون فاسترخوا متوقعين قضـــاء ليلة هادئة. على أنه عند انتصاف الليل صدرت الأوامر في سائر أنحاء الجيش بـــالعودة إلى الأسوار الغربية والغربية الشمالية، وقبيل الفجر مباشرة وصل جنود بوهيموند أمام برج الأختين، ووضعوا سلما على البرج تسلقه ستون فارسا الواحد تلو الآخر يقودهم فولك أوف تشارترز، ودخلوا من نافذة عالية على الحائط إلى غرفة حيث كان فيروز ينتظر وهو في حالة من التوتر. وظن أول الأمر أن عددهـــم غـــير كـــاف، وصـــاح باليونانية: "إن ما لدينا من الفرنج قليل للغاية، أين بوهيموند؟"، و لم يكن هنـــاك مـــا يدعوه للقلق؛ فمن برج الأختين استولى الفرسان على البرجين الآخرين اللذين كانــــا تحت إمرته ليمكنوا رفاقهم من وضع السلالم على الأسوار الممتدة بين الأبراج، بينمـــا ذهب أحد المشاة الإيطاليين ليخبر بوهيموند أن الوقت قد حان ليتسلق الأسوار ويدخل المدينة، فتسلق السور وتحطم السلم من خلفه. وبينما كان بعض الجنود يهرعون بطول الأسوار مباغتين الحاميات في أبراجها، هبط آخرون داخل المدينة وأيقظـــوا الســـكان المسيحيين ليساعدوهم على فتح بوابة القديـــس جـــورج، وفـــتحوها على مصراعيها

وكذلك بوابة الجسر الضخمة حيث كان سواد الجيش ينتظر. وتدفق الصليبيون عبر البوابتين و لم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن في قتل كل تركي يشاهدونه من الرجال والنساء على السواء". واستيقظ ياغي سيان على ضوضاء الهرج والصخب، فأدرك أنه فقد كل شيء. فهرب مع حرسه الخاص على ظهور الخيل عبر المضيق المؤدي إلى البوابة الحديدية ثم إلى جانب التل. إلا أن ابنه شمس الدولة احتفظ برباطة جأشه وجمع ما استطاع من الرجال وشق طريقه إلى القلعة قبل أن يلحق به الفرنج، وتبعه بوهيموند لكنه فشل في اقتحام القلعة، ولذا رفع رايته الأرجوانية على أعلى نقطة استطاع الوصول إليها، وكانت رؤيتها وهي ترفرف في أشعة الشمس الآخذة في الإشراق تبعث البهجة في نفوس الصليبيين البعيدين أسفلها وهم يدخلون المدينة.

الاستيلاء على المدينة

وجمع بوهيموند ما يكفي من الرجال وحاول أن يشدد الهجوم على القلعة، لكنه عاد مدحورا وجرح هو نفسه. وقتل أثناء ذلك شقيق فيروز وهلك كثيرون من المسيحيين. وكان رجاله يفضلون أن يسلبوا المدينة وينهبوا متاجرها، بينما تعزى هو برأس ياغي سيان التي سلمها له أحد الفلاحين الأرمن. وكان ياغي سيان قد سقط من على ظهر جواده أثناء فراره في الممر الجبلي، فتخلى عنه حارسه، فرقد هناك وقد أخذ منه الإرهاق وبدا في حالة من الذهول، وعندئذ رآه بعض الأرمن وعرفوه فقتلوه في الحال. ونال الذي جاء برأسه إلى بوهيموند جائزة ثمينة، وباع الباقون حزامه وغمد سيفه بستين بيزنتة للقطعة.

وبهبوط ليل الثالث من يونية (حزيران) لم يبق تركي واحد على قيد الحياة في أنطاكية، بل إن السكان الأتراك في القرى المجاورة التي لم يدخلها الفرنج بعد أن هربوا

مستنجدين بـــكربوقا. وراح الفرنج ينهبون منازل مواطني أنطاكية، المسيحيين منـــهم والمسلمين على السواء، وبعثرت الكنوز والأسلحة التي عثروا عليها أو دمرت على نحو عابث. و لم يكن بوسع المرء أن يسير في شوارع المدينة دون أن يطأ الجثث التي تعفنت سريعا بفعل حرارة الصيف. لكن أنطاكية عادت مسيحية مرة أخرى.(١)

---

(١) ترد الرواية الأكثر نبضا بالحياة عن الإستيلاء علي أنطاكية في تاريخ *Gesta Francorum*, VIII, 20, pp. 100-10 علي الرغم من أن هذا التاريخ يخلو من ذكر فشل بوهيمند في الاستيلاء علـــي الحصـــن ويورد Raymond of Aguiler هذه المعلومات في روايته ، ويقو إن أول صليبي دخل المدينة كان هو Fulk of Chartres(IX, pp. 251-3) ويطلق عليه Radulph of Caen (LXVI,p. 654) اســـم 'Gouel of Chartres' ويورد فولشر أوف تشارترز رواية أكثر إيجازا . أمـــا روايـــة William of Tyre (v, 18-23, vol. 1, pp. 222-3) فهي رواية طويلة لكنها مليئة بتفصيلات لا يعتمد عليها وهو يورد القصة المتصلة بحادثة زوجته فيروز . ويذكر ابن الأثير فرار ياغي سيان وموته (*op.cit.* p. 193).

الفصل الرابع :

الإستيــلاء على أنطاكيــة

الاستيلاء على أنطاكية

"أَلْقَى يَدَيْهِ عَلَى مُسَالِمِيهِ، نَقَضَ عَهْدَهُ."
(سفر المَزَامِير: المَزْمُور ٥٥ ــ ٢٠)

كان الاستيلاء على أنطاكية إنجازاً أبهج قلوب المسيحيين. لكنهم بعدما خبت جذوة انتصارهم المسعور، وقيّموا أوضاعهم، وجدوا أن موقفهم إنّما تحسن تحسنًا طفيفًا عن ذي قبل. لقد فازوا بمزايا عظيمة؛ فلديهم تحصينات المدينة التي لم تهدم في المعركة تحميهم من حشود كربوقا، ووجدوا المأوى الذي يأوي أتباعهم المدنيين والكثيرين برغم المرض وبرغم الفرار فلم يعودوا يشكلون عائقًا كما كانوا في المعسكر، وقضوا تقريبًا على الجيش التركي في المدينة وانتهى بذلك تهديده المتواصل لهم. على أنّ الدفاع عن الأسوار الطويلة يستلزم رجالاً أكثر مما لديهم الآن، والقلعة ما تزال صامدة

وينبغي تطويقها، وبرغم أنّ حاميتها كانت بالغة الضعف بحيث لا تقدر على الهجوم إلاّ أنها تستطيع أن ترصد من قمتها كل حركة في المدينة، وقد استحال منعها من الاتصال بكربوقا. و لم يجد الصليبيون في المدينة ما كانوا يأملون فيه من مخازن طعام، بل إنهم قد دمروا هم أنفسهم أغلب ثرواتها في نشوة انتصارهم. وبالرغم من ذبحهم المسلمين فلم يكن المسيحيون محل ثقة وخاصة السوريون منهم الذين ثبت غدرهم من قبل وكانوا لا يتعاطفون مع اللاتينيين إلاّ بقدر ضئيل. لقد كان الغدر السوري أخطر بكثير على جيش داخل المدينة من خطورته على جيش يعسكر خارجها.

وفضلاً عن ذلك، أبرز الانتصار سؤالاً سبق أن أظهر بالفعل بوادر الانشقاق في الحملة الصليبية: "لمن تؤول المدينة؟".

اقتراب كربوقا

لم يكن هناك بادئ الأمر وقت يتسع لمناقشة مستقبل المدينة; إذ أن كربوقا يتقدم ولابد من حماية المدينة من هجومة الماثل. وأيا ما كانت الخطط التي يفكر فيها بوهيموند فليس لديه ما يكفي من الجنود لحراسة الأسوار بدون مساعدة زملائه، فينبغي للجميع المشاركة في الدفاع، ولذا تولى كل أمير مسئولية حراسة قسم من التحصينات. وكانت المهمة الملحة التي يتعين على الجيش القيام بها هي تطهير المدينة ودفن الموتى بغاية السرعة قبل أن يتسبب تحلل الجثث في انتشار الأوبئة. وبينما كان الجنود منهمكين في تلك المهمة اتخذ أديمار أسقف لوبوي التدابير لتنظيف كاتدرائية القديس بطرس والكنائس الأخرى — التي دنسها الأتراك — وإعادة اقامة الشعائر المسيحية فيها. وأطلق سراح جون من سجنه وأعيد إلى كرسيه البطريرقي. وكان جون يونانيا يمقت الشعائر اللاتينية، فهو البطريق الشرعي وإن كان كرسيه الكنسي ما يزال وثيق العلاقة بروما. و لم يكن أديمار ليسيء إلى الشرعية أو إلى العاطفة السائدة بين الناس بأن يتجاهل حقوق جون . كما لم يكن هناك من الصليبيين المدركين لآلام جون

من أجل العقيدة من يستاء من عودته، فيما عدا بوهيموند الذي تنبأ بأن ذلك ربما لا يتفق ومصالحه.(١)

وما أن استقر الصليبيون في المدينة حتى أقبل كربوقا الذي وصل في الخامس من يونية (حزيران) إلى نهر العاصي عند الجسر الحديدي. ثم ضرب معسكره بعد يومين أمام الأسوار في نفس الأماكن التي كان الفرنج يحتلونها مؤخرا، وعلى الفور أرسل شمس الدولة مبعوثين من القلعة يطلبون مساعدته، لكن كربوقا أصر على تسليم القلعة لجنوده، وتوسل إليه شمس كي يسمح له بالاحتفاظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة ولكن دون جدوى، فلم يجد مفرا من تسليم القلعة ومخازنها كلها إلى الضابط الحائز على ثقة كربوقا ـــ أحمد بن مروان.(٢)

وأول خطة اختطها كربوقا هي التوغل داخل المدينة من القلعة. وتوقع بوهيموند وريموند تلك الخطة الخطرة فشيدا سورا حول القلعة للفصل بينها وبين تحصينات المدينة. ولأن هذا السور هو أضعف قطاعات الدفاع فقد تناوب الأمراء حراسته برجالهم. وبعد أن قام أحمد بن مروان ببعض عمليات الاستطلاع شن هجوما على هذا القطاع ربما في باكورة التاسع من يونية (حزيران). وكان يتولى الدفاع عن هذا القطاع يومئذ هيو أوف فيرمندوا وكونت أوف فلاندرز، ودوق نورماندي، وكاد إبن مروان أن يتغلب عليهم لكنهم ردوه في نهاية الأمر بعد أن أنزلوا به خسائر جسيمة. ثم قرر كربوقا إحكام تطويق الفرنج على مسافة أقرب وإرجاء مهاجمتهم إلى أن يضعفهم الجوع، وبذا تكون خسائره أقل ما يمكن، فقام في العاشر من يونية (حزيران) بتغيير مواقع قواته لتطويق المدينة بالكامل، وحاول الصليبيون إعاقته فخرجوا في هجمة شرسة

---

(١) .Albert of Aix, IV, 3, p. 433. He calls John 'virum Christianissimum'

(٢) .Kemal ad-Din, *op. cit.* pp. 582-3; *Gesta Francorum,* IX, 21, p. 112

ولكنهم سرعان ما اضطروا إلى التقهقر مـــرة أخـــرى إلى حيـــث الســـلامة داخـــل الأسوار.(١)

وأدى بهم فشلهم إلى حالة من الغم الشديد. ذلك أنهم حينما استولوا على المدينة منذ أسبوع ارتفعت روحهم المعنوية لفترة وجيزة، ثم تدنت الآن إلى الحضيض. فها هو الطعام يتناقص مرة أخرى حتى بلغ سعر الرغيف الصغير بيزنتـــة واحـــدة، والبيضـــة بيزنتين، والدجاجة خمس عشرة بيزنتة، واضطر كثيرون إلى العيش على أوراق الشجـــر أو الجلود المجففة. وحاول أديمار أسقف لوبوي عبثا أن يدبر الأمـــر للتخفيـــف عـــن الحجاج الفقراء، وظن الكثير من الفرسان أن ستيفن أوف بلوا قد اختار بفراره المسار الأكثر حكمة. وأثناء ليل العاشر من يونية (حزيران) تمكنت جماعة يرأســـها ثلاثـــة: وليم، وأوبري أوف جرانت ـــ ميسينيل، ولامبرت كونت أوف كليرمونت من المرور خلال خطوط الأعداء والإسراع إلى ميناء السويدية حيث كانت السفن الفرنجية راسية في الميناء. وربما كانت بعض سفن جنوا والسفن الأخرى تابعة لأســـطول جوينيمـــر. وأعلن الهاربون أن الجيش الصليبي هالك لا محالة، فأسرعت الســـفن الراســـية برفـــع مراسيها وأبحرت بحثا عن ميناء آخر أكثر أمانا ومعها الهاربون إلى أن وصلـــوا مينـــاء طرسوس حيث التحقوا بقوات ستيفن أوف بلوا الذي كان يخطط للعودة إلى أنطاكية لدى سماعه بأنباء استيلاء الصليبيين عليها، لكنه ارتدع بعد أن رأى جيش كربوقا من بعيد. وكان وليم أوف جرانت ـــ مينسيل هو زوج أخت بوهيموند مابيلا، ولا شك

---

(١) Kemal ad-Din, *loc. cit.; Gesta Francorum,* XI, 21,p. 114; letter of princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.162; William of Tyre, VI,4,1,p.240

في أن فرار أحد الأقرباء القريبين بهذه الدرجة من رئيس النورمانديين يؤثر أيما تأثير على الجيش كله.(١)

ألكسيوس في طريقه إلى أنطاكية

وبدا للمحاصرين داخل أنطاكية أن فرصة الخلاص الوحيدة هي وصول الإمبراطور وقواته. وكان معروفا أنه انطلق بالفعل من القسطنطينية، وفي الربيع تقدم جون دوكاس من ليديا إلى داخل فريجيا حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي سبق أن سلكه الصليبيون الذين أعادوا في بعض الأحيان فتح الطريق إلى أنطاليا. ولذلك رأى ألكسيوس أنه من الأسلم أن يأخذ جيشه الرئيسي إلى قلب آسيا الصغرى حتى يوفر المساعدة للحملة الصليبية رغم أن كثيرين من مستشاريه لم يحبذوا حملة تأخذه إلى هذه المسافة البعيدة عن عاصمته في بلاد لم يتم تطهيرها بعد من الأعداء. وفي منتصف يونية (حزيران) وصل ألكسيوس إلى فيلوميليوم، وبينما كان يعد العدة لمواصلة مسيرته ظهر ستيفن ووليم في المعسكر، وكانا قد أبحرا معا من طرسوس وسمعا أثناء رحلتهما، ربما في أنطاليا، بمكان وجود الإمبراطور، فتركا رحالهما لمواصلة الرحلة بحرا وأسرعا شمالا إلى فيلوميليوم ليؤكدا للإمبراطور أن الأتراك في أنطاكية الآن، وأن الجيش الصليبي على وشك الإبادة. وفي نفس الوقت تقريبا لحق به بطرس أوف أولبس الذي ترك موقعه في كومانا شرقي قيصرية ليبلغه بأن هناك جيشا تركيا يتقدم ليضرب ألكسيوس قبل أن

---

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 256-8; *Gesta Francorum*, IX, 23, pp. 126-8; letter of clergy of Lucca, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 166, Where William of Grant-Mesnil is called 'cognatus Boemundi' أما Ducange في ملاحظاته على أنا كومنينا في *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Grecs*, vol. ii, p.27 فيورد مراجع حول زوجته Mabilla رغم أنه يفترض أن زواجها قد تم في تاريخ حديث . ويخبرنا Orderic Vitalis, VIII, 28, vol. ii, p. 455 . أنهما قد تزوجا في أبوليا قبل الحملة الصليبية .

يتمكن من الوصول إلى أنطاكية. و لم يكن لدى ألكسيوس ما يدعوه إلى الشـــك في تلـــك الروايات; إذ كان ستيفن صديقا يمكن الاعتماد عليه ، فضلا عن أن هذه الكارثة لـــم تكـــن بعيدة الاحتمال بأي حال من الأحوال. واضطرته تلك الأنباء إلى إعادة النظر في خططه، فإذا كان الأتراك قد استولوا على أنطاكية وقضوا على الفرنج فسوف يواصلون هجومهم لا محالة، وسوف يحاول السلاجقة بلا شك استرداد ما فقدوه ومن ورائهم العالم التركي المنتصر كلـــه، وفي مثل هذه الظروف يصبح استمرار الحملة ضربا من الجنون. وكانت مسيرة جيشه معرضة بحكم وضعها للهجمات التركية الخطرة، ولا مجال لأن يفكر في إطالة خطوط مواصلاتـــه في هذا المنعطف من أجل قضية خاسرة بالفعل. وحتى وإن كان مغامرًا كأمراء الحملة الصليبيـــة فإنّ المخاطرة ليست جديرة بالمحاولة، وإنّما هو مسئول عن رعاية إمبراطوريـــة كبـــيرة معرضة للهجوم، وواجبه الأول ينبغي أن يكون موجهًا نحو رعيته، فاستدعى مجلســـه وأخطر أعضاءه بضرورة الانسحاب. وكان هناك أمير نورماندي بين مساعديه يدعى جوي وهو أخ غير شقيق لـــبوهيموند، وظل في خدمة الإمبراطور لسنوات طويلـــة، واضطرمت نوازع الشفقة في صدره على الصليبيين الموروطين، فتوسل إلى الإمبراطور كي يستمر في مسيرته، فربما تكون هناك فرصة لإنقاذهم، غير أنه لم يكن هناك مـــن يؤيد طلبه. وانسحب الجيش البيزنطي العظيم باتجاه الشمال تاركًا نطاقًا مـــن الأرض الجرداء تحمي المناطق التي انتزعها الجيش مؤخرا من الأتراك.(١)

---

(١) *Gesta Francorum,* IX, 27, pp. 140-6 يذكر تدخل جوي Guy أخي بوهيمند ؛ Anna Comnena, XI, vi, 1-2, vol III, pp. 27-8 وتقول أنا كومنينا إن بطرس أوف أولب Peter of Aulps قد أتى مع هاربين آخرين من أنطاكية . بيد أنه قد ترك حاكما لـــ Placentia التي لا بد وأنه قد جاء منها ، ومعه أنباء اقتراب الجيش التركي من الشرق لكي يعترض طريق ألكسيوس في حال تقدمه . وتوضح أنا كومنينا أن هذه الأنباء هي التي جعلت ألكسيوس يتخذ طريق العودة وإذا كان الفرنج قد هزموا فعلا في أنطاكية فمن الجنون أن يستمر في تقدمه .

ولو أن ألكسيوس استجاب لتوسلات جوي لكان ذلك أفضـــل للإمبراطوريـــة ولسلام العالم المسيحي الشرقي برغم أنه لم يكن بوسعه أن يصل إلى أنطاكية قبـــل أن تنقضي المعركة الحاسمة. فعندما علم الصليبيون بشائعة عودة الجيش الإمبراطوري بلغت منهم المرارة مبلغها، وتصوروا أنفسهم كمحاربي المسيح ضد الكفرة، واعتبروا رفضـــه الإسراع لنجدهم ـــ مهما بدت ميئوسا منها ـــ عملا من أعمال خيانة العقيـــدة، و لم يكن بوسعهم تقدير واجبات الإمبراطور الأخرى، وبدلا من ذلك فإن إهماله يبرر كافة الشكوك والكراهية التي يحملونها بالفعل نحو اليونانيين. و لم يغتفر ذلك لبيزنطة البتـــة، ووجد بوهيموند الأمر كله في صالح طموحه (١).

وتحقق الصليبيون من أن اللوم يقع أيضا على ستيفن أوف بلـــوا الـــذي تناولـــه مؤرخوهم بمشاعر الغضب ونعتوه بالجبن، وسرعان ما سبقته القصة إلى أوروبا، وقـــد عاد ستيفن نفسه متمهلا على مراحل إلى وطنه حيث وجد زوجته وقـــد أخـــذ منـــها الخجل كل مأخذ و لم يهدأ لها بال حتى أعادته إلى الشرق مرة أخـــرى للتكفـــير عـــن خطيئته.(٢)

وفي تلك الأثناء كان كربوقا يواصل تشديد الحصار على أنطاكيـــة. وفي الثـــاني عشر من يونية (حزيران) شن هجوما مفاجئا كاد يستولي فيه على أحد أبراج الجـــزء الجنوبي الغربي من السور، لولا أن أنقذت البرج شجاعة ثلاثة فرسان من ماليتر، ولكي

---

(١) لم يكن من الممكن أن تصل إلي أنطاكية أخبار انسحاب الإمبراطور إلا بعد هزيمة كربوقا بزمن طويل . أنظر ما يلي الصفحتين ٣٨٣ و ٣٩٠

(٢) Orderic Vitalis, x, 19, vol . iv, p. 118 الذي يذكر خجل أديلا ، إلي أن تتمكن من إقناع ستيفن بالذهاب مرة أخري إلي الحملة الصليبية .

يتجنب بوهيموند تكرار تلك المخاطر أمر بحرق شوارع بأكملها في المدينة بالقرب من الأسوار حتى يتمكن الجنود من المناورة بشكل أيسر.(١)

تدخل ما وراء الطبيعة

وفي ذلك المنعطف حدثت سلسلة من الأحداث بدت للمسيحيين وكأن الـــرب يشملهم برعايته مما رفع من معنوياتهم. فقد كان الجنود جوعى وملهوفين، وقد أبقـــى إيمانهم عليهم حتى تلك اللحظة، وهو الآن إيمان مزعزع لكنه لم ينكسر. وفي مثل هـــذا الجو تنتشر الأحلام والرؤى. ولأبناء العصور الوسطى إيمانهم بـــأن الخـــوارق ليســـت مستحيلة ولا حتى نادرة جدا، ولم تكن أفكارنا المعاصرة المتصلة بقوى اللاشعور قـــد ظهرت بعد; وإنما يعتقدون أن الأحلام والرؤى تأتي من الرب أو ــ في بعض الحالات ــ من الشيطان. ولا يتأتى الشك في الحلم إلا إذا كان صاحبه موضع تكذيب صريح. وعلينا أن نتذكر هذا الموقف عندما نتأمل الحادثة التالية: ففـــي العـــاشر مـــن يونيـــة (حزيران) ١٠٩٨ ميلادية جاء إلى خيمة الكونت ريموند فلاح اسمه بطرس بارثولوميو في ملابسه البالية وطلب مقابلته مع أديمار أسقف لوبوي، وكان قد التحـــق بالحملـــة الصليبية خادما لواحد من حجاج بروفانس يدعي وليم ــ بطرس. ولم يكن الفـــلاح أميا تماما على الرغم من أصله الوضيع، وإنما كان معروفا بين أقرانه بأنه سيئ السمعة مفرط الانغماس في الملذات. وقصة ذلك الرجل أنه كان يتعذب خلال الأشهر الأخيرة بالرؤى التي كشف له فيها القديس أندرو عن أثر من أقدس آثار العالم المسيحي يمكن العثور عليها، ألا وهو الرمح الذي نفذ في جانب المسيح. وجاءته الرؤيا الأولى عندمـــا

---

(١) *Gesta Francorum*, IX, 26,p. 136; Radulph of Caen, LXXVI, pp. 660-1 ويقـــول راد ولف أوف كاين إن روبرت الفلندرزي أحرق الحي ؛ ويذكر Albert of Aix, IV,35,p.413 الفرسان الآتين من مالين Malines .

حدث زلزال الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) ; فبينما كان يصلي في رعب ظهر له فجأة رجل مسن فضي الشعر وبصحبته شاب طويل يأخذ جماله بالألبـــاب، وأخـــبره الرجل إنه هو القديس أندرو نفسه، وأمره بالذهاب من فوره لمقابلة أســـقف لوبـــوي والكونت ريموند ليوبخ الأسقف على إهماله في واجبه كواعظ، وليكشف للكونت عن مكان الرمح الذي اطلعه القديس عليه. وبعد ذلك وجد بطرس أنه محمول على الهـــواء بنفس الهيئة التي كان عليها، مرتديا قميصه وحسب، إلى داخل المدينة حيث كاتدرائية القديس بطرس التي حولها الأتراك إلى مسجد، وقاده القديس أندرو من المدخل الجنوبي إلى الكنيسة الصغيرة في الناحية الجنوبية، وهناك اختفى داخل الأرض ليظهر ثانية حاملا الرمح، وأراد بطرس أن يأخذه في الحال ولكن القديس أندرو أمره أن يعود مرة أخرى ومعه اثنا عشر من رفاقه بعد الاستيلاء على المدينة، وأن يبحثوا عن الرمـــح في نفـــس المكان. ثم وجد نفسه وقد حمله الهواء عائدا به إلى المعسكر.

رؤى بطرس بارثولوميو

وقال بطرس أنه تجاهل أوامر القديس خشية ألا يستمع أحد إلى رجل فقير مثله، وبدلا من ذلك رحل إلى الرها في حملة لجلب الطعام. وفي العاشر من فبراير (شبـــاط)، وبينما كان جالسا في الحصن القريب من الرها في وقت صياح الديكـــة، ظـــهر لـــه القديس أندرو ورفيقه مرة أخرى وزجره على عصيانه لأوامره وعاقبه بمرض مؤقت في عينية، كما ألقى عليه القديس أندرو محاضرة عن حماية الـــرب الخاصـــة مضيفـــا أن القديسين كلهم مشتاقون لاستعادة أجسادهم ليحابوا إلى جانبهم. واعـــترف بطـــرس بارثولوميو بذنبه وعاد إلى أنطاكية، ولكن شجاعته خذلته مرة أخرى و لم يجرؤ علـــى مفاتحة الأمراء العظام. وفي مارس (آذار) شعـــر بالارتيـــاح حينما أخذه سيده وليم ــ

بطرس في رحلة لشراء الطعام من قبرص. وفي مساء أحد السعف(١) العشرين من مارس (آذار)، وأثناء نومه مع سيده في خيمة بميناء السويدية، جاءته الرؤيا مرة أخرى، فأعاد بطرس بارثولوميو اعتذاراته، فقال له القديس أندرو ألا يخاف وأعطاه التعليمات التي ينبغي للكونت ريموند تنفيذها عندما يصل إلى نهر الأردن. وسمع سيده وليم - بطرس المناقشة ولكنه لم ير شيئا. وعاد بطرس بارثولوميو بعد ذلك إلى المعسكر في أنطاكية و لم يتمكن من مقابلة الكونت، ولذا رحل إلى ماميسترا ليواصل رحلته إلى قبرص. وفي ماميسترا جاءه القديس أندرو غاضبا وأمره بالعودة، وأراد بطرس أن يطيع الأوامر لكن سيده اضطره إلى الإبحار. وجرفت الأمواج السفينة ثلاث مرات عائدة بها، وأخيرا ألقتها على شاطئ جزيرة قريبة من ميناء السويدية حيث ألغيت الرحلة. ومرض بطرس فترة من الزمن، وبعدما شفي كان الصليبيون قد استولوا على أنطاكية، فدخل المدينة وشارك في معركة العاشر من يونية (حزيران) وكاد أن يقتل منسحقا بين حصانين، وعلى الأثر ظهر له القديس أندرو مرة أخرى وحادثه في صرامة بحيث لم يعد في مقدوره أن يعصى أوامره، فقص القصة على رفاقه أول الأمر، ورغم ارتيابهم فيها ها هو الآن يعيدها على الكونت ريموند وأسقف لوبوي.(٢)

---

(١) (المترجم) : أحد السعف : يوم الأحد السابق علي الفصح ، يحتفل فيه بذكري دخول المسيح القدس ظافرا وقد نثر سعف النخل في طريقه

(٢) وردت قصة بطرس بارثولوميو كاملة في Raymond of Aguilers, x, pp. 253-5 وهو يؤمن به إيمانا مطلقا . والرواية المقتضبة الواردة في تاريخ *Gesta Francorum*, IX, 35, pp. 132-4 والتي ربما كتبت في ذلك الوقت ، تظهر تصديقا بالقصة . وكذلك خطاب الأمراء المرسل إلي إيربان الثاني الوارد في Hagenmeyer, *op. cit.* p.163 وهو الخطاب الذي كتب بوهيمند مسودته .

و لم يتأثر أديمار بالقصة، واعتبر أن بطرس بارثولوميو شخصية مغمورة لا يعـــول على قصته وربما استاء من انتقاد حماسه كواعظ، وربما تذكر أنه شاهد في القسطنطينية رمحا مقدسا مشهود له بأصالته منذ زمن بعيد، ولكونه رجل كنيسة متمرس لم يكـــن ليثق في رؤى الجهلاء. أما ريموند، الذي كان في ورعه أكثر بساطة وأشـــد حماســا، فكان مهيئا للاقتناع، وأعد العدة للبحث الجاد عن الرمح خلال خمسة أيام، وفي نفـــس الوقت عهد إلى واعظ جيشه برعاية بطرس بارثولوميو.(١)

وتوالت الرؤى بسرعة. ففي ذلك المساء، وبينما كان الأمراء مجتمعين أعلى المدينة بجوار السور المحيط بالقلعة، طلب قسيس من فالنس (٢) يدعـــى ســتيفن مقابلتـــهم، وأخبرهم أنه في الليلة السابقة ظن أن الأتراك قد استولوا على المدينة، فاصطحب معـــه مجموعة من القساوسة إلى كنيسة السيدة العذراء لإقامة قداس شفاعة، وبعـــد انتـــهاء القداس استغرق الآخرون في النوم، وبينما كان مستلقيا رأى أمامه هيئة شخص بـــارع الجمـــال استفسر منه عمن يكون هؤلاء الرجال ، وسره أن يعلم أنهم مسيحيون طيبون وليسوا هراطقة، ثم سأل ستيفن عما إذا كان يعرفه، فأجاب بالنفي لكنه لاحظ هالـــة صليبية الشكل تحيط برأسه على النحو الذي يراه في صورة المسيح، وأقر الزائر أنه هو المسيـــح ثم سأل عمن يكون قائد الجيش، فرد ستيفن بأنه لا يوجد قائد للجيش وإنما

---

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.*p. 255 وعن الرمح الذي حفظ في القسطنطينية أنظر Ebersolt, *Les Sanctuaires de Byzance,* pp. 9, 24, 116 أنظر أيضا رانسيمان "الرمح المقدس الـــذي عثر عليه في أنطاكية 'The Holy Lance found at Antioch' فـــي " المختـــارات اليسوعيـــة "Analecta *Bollandiana* vol. LXVIII ويـــرد في Ralph of Caen, CII, p .678 سمعـــة بطرس السيئة كما أخبر عنها بوهيمند .

(٢) (المترجم) : فالنس : مدينة جنوب شرقي فرنسا على نهر الرون .

السلطة الرئيسية في يد أسقف، فطلب المسيح من ستيفن أن يخبر الأسقف أن قومه قد أثموا بشهواتهم واقترافهم الزنا، لكنهم إذا عادوا إلى سبيل الحياة المسيحية فسوف يرسل لهم الحماية في غضون خمسة أيام، ثم ظهرت سيدة وضاءة المحيا وقـــالت للمســـيح إن هؤلاء هم الناس الذين كانت تشفع لهم دائما، وانضم إليهما القديس بطرس كذلـــك، وحاول ستيفن أن يوقظ واحدا من رفاقه ليكون شاهدا على الرؤيا، لكـــن الزائريـــن ذهبوا قبل أن يتمكن من ذلك.

اكتشاف الرمح المقدس

وكان أديمار على استعداد لقبول هذه الرؤيا وتصديقها، إذ أن ســـتيفن قســـيس حسن السمعة، فضلا عن أنه أقسم على الإنجيل أنه صادق في قوله، ولما رأى أديمار أن الأمراء قد تأثروا بالقصة استحثهم في الحال على أن يقسموا بالسر المقدس ألا يترك أي منهم أنطاكية إلا برضاء الآخرين جميعا، فكان بوهيموند أول من أقسم، وتلاه ريموند، وروبرت النورماندي، وجودفري وروبرت أوف فلاندرز، ثم تبعهم الأمراء الأقل شأنا، ورفعت أنباء القسم من معنويات الجيش. وزيادة على ذلك، فإن ما ذكره ستيفن مـــن وجود علامة على رعاية إلهية ستحدث خلال خمسة أيـــام دعـــم مزاعـــم بطـــرس بارثولوميو. وازدادت التوقعات قوة.(١)

وفي الرابع عشر من يونية (حزيران) شوهد نيزك في السماء بدا وكأنه سيســـقط فوق معسكر الأتراك، وفي الصباح التالي توجه بطرس بارثولوميو إلى كاتدرائية القديس بطرس ومعه صحبة من اثني عشر شخصا تضمنت الكونت ريموند، وأسقف أورانج،

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 255-6; *Gesta Francorum*, IX, 24, pp. 128-32.

وريموند أوف أجيليه المؤرخ، وظل العمال يحفرون الأرض طوال اليوم، لكنهم لم يجدوا شيئا، فانصرف الكونت تسبقه خيبة الأمل. وأخيرا وثب بطرس نفسه وهـــو يرتـــدي قميصه في الخندق، وأمر الحاضرين جميعا بالصلاة، ثم أخرج قطعة من الحديد وعلـــى وجهه آيات الانتصار، وأعلن ريموند أوف أجيليه أنه رآها بينما كانت ما تزال مدفونة فـــي الأرض، وسرعان ما انتشرت قصة اكتشافه في أنحاء الجيش وتلقاهـــا الجميـــع بحماس وغبطة(١).

وإذا حاولنا الآن أن نحكم على حقيقة ما حدث فستكون المحاولة عقيمة. فقد تم تنظيف الكاتدرائية مؤخرا لإعادة تكريسها لخدمة الرب، وربما شارك بطرس بارثولوميو في هذا العمل بعد عودته إلى أنطاكية، فهو لم يكشف مطلقا عن تاريخ هذه العـــودة، وبذا تتوفر لديه الفرصة لدفن قطعة الحديد تحت الأرضية، أو ربما كانت لديـــه موهبـــة المستنبئ بالعصا الذي يعرف مواقع المعادن تحت الأرض. والجدير بالملاحظة أنه حتى في ذلك العصر الذي تعتبر المعجزات فيه ممكنة الحدوث بشكل عام، التزم أدهمار أســـقف لوبوي بوضوح بوجهة النظر القائلة بأن بطرس مجرد دجال، وكما يظهر مـــن تتمـــة القصة شارك كثيرون أدهمار في عدم ثقته التي لم تكن قد أعلنت بعد، فالعثور على هذا الأثر أثلج صدور المسيحيين، حتى اليونانيين والأرمن، بحيث لم يشأ أحد أن يفسد مـــا أحدثه من بهجة وغبطة. ومع ذلك، فإن بطرس بارثولوميو نفسه سبب بعض الصدمة لمؤيديه حينما أعلن بعد ذلك بيومين أنه تلقى زيارة أخرى من القديس أندرو، وربمـــا شعر بالغيرة من ستيفن الذي حادثه المسيح مباشرة ، ولذا أبهجه أن يسمع من القديس

---

(١) Raymond of Aguilers, XI, p. 257 وتذكر جميع المراجع قصة العثور علي الرمح ، بما في ذلك أناكومنينا XI, vi, 7, vol. III, p. 30 التي تقول إنه مسمار وليس رمحا ، وتنسب اكتشافـــه إلـــى بطـــرس الناسك ، كما ذكر القصة Matthew of Edessa, II, clv, p. 223 ويقول ابن الأثيـــر صراحة إن بطرس دفن رمحا بنفسه *op. cit.* p. 195. أنظر رانسيمان Runciman, *op. cit.*

أندرو أن رفيقه الصامت الذي ظهر معه في الرؤيا كان هو المسيح بالفعل، ثم أعطاه القديس تعليمات دقيقة عن الطقوس التي ستقام احتفالا بالاكتشاف وإحياء ذكراه السنوية، ولدى سماع أسقف أورانج بتلك الطقوس الدينية وتفاصيلها ارتاب في بطرس وسأله ما إذ كان يستطيع القراءة. وظن بطرس أنه من الحكمة أن يعلن أنه أمي، واتضح أنه كاذب، ولكن سرعان ما اطمأن أصدقاؤه إذ أنه منذ ذلك الوقت لم يعد قادرا على القراءة، وسرعان ما عاود القديس أندرو الظهور ليعلن عن معركة وشيكة مع الأتراك لا ينبغي لها أن تتأخر طويلا لأن خطر الموت جوعا يتهدد الصليبيين. وأوصى القديس بالصوم خمسة أيام، تكفيرا عن خطايا الناس. وعلى الجيش بعد ذلك أن يهاجم الأتراك وسوف يحظى بالنصر. ولا ينبغي لهم أن ينهبوا خيام الأعداء.(١)

ومرض الكونت ريموند، وبذا أصبح بوهيموند القائد الأعلى للجيش، وقرر أن المخرج الوحيد هو شن هجوم شامل على معسكر كربوقا، ومن الجائز أن يكون القديس أندرو قد استوحى نصيحته الأخيرة من مصادرها الأرضية. وبينما كانت معنويات الصليبيين تتحسن كان كربوقا يواجه صعوبات متزايدة في الحفاظ على تحالفاته; فمازال رضوان الحلبي متباعدا عن الحملة، لكن كربوقا شعر بالحاجة إلى مساعدته; فبدأ يتفاوض معه، مما أغضب دقاق الدمشقي الذي كان عصبيا بسبب العدوان المصري في فلسطين وهو يتلهف على العودة إلى الجنوب، وأما أمير حمص فكانت له ثارات عائلية مع أمير منبج ولم يسعه التعاون معه. وحدث احتكاك بين الأتراك والعرب في قوات كربوقا نفسه الذي حاول الحفاظ على النظام باستخدام سلطته الاستبدادية التي استاء منها كل الأمراء لمعرفتهم أنه مجرد أتابج. وباقتراب الشهر

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.* pp. 257-9

من نهايته كان الهاربون من المعسكر يزدادون أكثر فأكثر، وعاد الكثير مـــن الأتـــراك والعرب على السواء إلى بلادهم.(١)

سفارة بطرس الناسك

ولا شك في أن قادة الصليبيين علموا بمتاعب كربوقا فحاولوا إقناعه بالتخلي عن الحصار. ففي السابع والعشرين من يونية (حزيران) أرسلوا إليه سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وواحد من الفرنج يدعى هيرلوين كان يتحدث العربية والفارسية، ولاختيـــار بطرس الناسك دلالة على أنه استعاد سمعته التي كانت قد تلوثت بمحاولته الفرار قبـــل ذلك بخمسة أشهر، وربما لم يذهب في هذه السفارة أحد من القادة خشية ألا يحـــترم الأتراك حصانة المبعوثين، وقد اختير بطرس الناسك باعتباره أفضل المعروفين من غـــير المقاتلين مع الجيش، ويعتبر قبوله القيام بهذه المهمة دليل على شجاعتـــه، واســـهام في الحفاظ على هيبته. ولا ندري الشروط التي كان مسموحا لـــبطرس أن يعرضها، فمن الواضح أن الأحاديث التي يقولها المؤرخون المتأخرون على لسان كـــل مـــن بطـــرس وكربوقا مجرد تخيلات، وكما يقول بعض المؤرخين ربما أثير اقتراح إجراء سلسلة مـــن المبارزات الفردية تقرر مصير الأمر كله. وعلى الرغم من ضعف كربوقا المتزايد فقـــد استمسك بضرورة التسليم دون قيد أو شرط، ورجعت السفارة خاوية الوفاض، ولكن ربما اكتسب هيرلوين بعض المعلومات النافعة عن طبيعة الأحوال في المعسكر التركي.

ولم يعد هناك مفر من القتال بعد فشل السفارة. وفي باكورة يوم الاثنين الثـــامن والعشرين من يونية (حزيران) قام بوهيموند بتنظيم الجنود الصليبيين للعمـــل، فقســـم الجيـــش إلـــى ستة جيوش: الأول من الفرنسيين والفلاندرز بقيادة هيو أوف فيرمندوا

---

(١) Kemal ad-Din, *op. cit.* 583; Abu'l Feda, *Moslem Annals*, p. 4; Ibn al-Athir, *op. cit.* p. 194

وروبرت أوف فلاندرز، والثاني من اللوثارنجيين(١) بقيادة جودفري، والثالث من النورمانديين القادمين من نورماندي بقيادة الدوق روبرت، والرابع من أبناء تولوز وبروفانس بقيادة أسقف لوبوي بسبب مرض ريموند الشديد، والخامس والسادس من النورمانديين القادمين من إيطاليا بقيادة بوهيموند وتانكريد، ولكي لا تغيب القلعة عن أعينهم تركوا في المدينة مائتي رجل يقودهم ريموند من فراش مرضه. وصعد بعض القساوسة ووعاظ الجيش على الأسوار يقيمون قداس شفاعة، بينما سار البعض الآخر مع الجنود. ومنح ريموند أوف أجيليه شرف حمل الرمح المقدس في المعركة، ورفرفت رايات الأمراء المميزة لكل أمير عن الآخر، لكن دروع الفرسان كانت ملطخة بعض الشيء، واضطر كثيرون ممن فقدوا خيولهم إلى السير راجلين أو امتطوا دواب الحمل الأخرى، على أن شجاعة الجنود — التي عززتها علامات الرعاية الإلهية التي ظهرت مؤخرا — بدت مرتفعة وهم يخرجون الواحد تلو الآخر عبر الجسر المحصن.(٢)

الانتصار على كربوقا

وأثناء ظهورهم وهم يخرجون من البوابة حاول القائد العربي وثاب بن محمود إقناع كربوقا بمهاجمتهم على الفور، ولكن كربوقا كان يخشى إن هو هاجمهم بغاية السرعة فسيقضي على طليعة الجيش الصليبي وحسب، بينما لو انتظر فسوف يتخلص منهم جميعا بضربة واحدة. وكان يفضل عدم المضي في ذلك الحصار المرهق نظرا لحالة جنوده السيئة، لكنه عندما رأى جمع الفرنج تردد وأرسل مبعوثا، بعد فوات الأوان ،

---

(١) (المترجم) : نسبة إلى مملكة لوثارنجيا التي أسسها سنة ٨٥٥ ميلادية " لوثير " أصغر أبناء الإمبراطور الكارولينجي " لويس الأول " (الورع) ، وكانت تضم أجزاء من شمال شرق فرنسا وشرقها وما جاورها .

(٢) *Gesta Francorum*, IX, 28, pp. 146-50; Fulcher of Chartres, I, xxi, 1-2, pp. 247-9; Raymond of Aguilers, XI, p. 259; Albert of Aix, IV, 44-9, pp. 420-1

يعلن أنه يقبل مناقشة شروط الهدنة، وتجاهل الفرنج رسوله وواصلوا تقدمهم. واتبع كربوقا الوسيلة التركية المعتادة، فانسحب لاستدراجهم إلى أرض صعبة حيث يمطر رماته سهامهم فجأة على صفوفهم، وفي نفس الوقت أرسل فصيلة تلتف حولهم ليحصروا مسيرتهم بجوار النهر حيث لا تتوفر الحماية لهذا الجانب; غير أن بوهيموند كان مستعدا لذلك وكون جيشا سابعا بقيادة رينالد أوف تول لصد الهجوم. وعلى الجبهة الرئيسية التهب وطيس القتال وسقط من بين القتلى حامل راية أديمار الخاص، لكن رماة الأتراك لم يتمكنوا من وقف تقدم الصليبيين وبدأ الصف التركي يهتز، وشدد المسيحيون ضغطهم على الأتراك وقد شجعهم أن رأوا على جانب التل جماعة من الفرسان على خيول بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وتعرفوا على قادتها: القديس جورج، والقديس ميركوري، والقديس ديميتريوس. وأما العون العملي الأكبر فقد جاءهم من قرار الكثير من أمراء كربوقا بالتخلي عن قضيته لخشيتهم من أن يجعله الانتصار هائل القوة ويصبحون هم أول ضحاياه، فبدءوا ينسحبون من الميدان وعلى رأسهم دقاق الدمشقي مما نشر الذعر بين الجنود. وأشعل ربوقا النيران في الحشائش الجافة أمام خطوطه في محاولة عقيمة لإعاقة الفرنج إلى أن يستعيد النظام. وكان سقمان الأرتقي وأمير حمص هما آخر من بقي على إخلاصه له، وحينما لاذا بالفرار كذلك أدرك أن الأمر قد انتهى وتخلى عن المعركة، وتفتت الجيش التركي كله مذعورا، والتزم الصليبيون بنصيحة القديس أندرو بألا يتخلفوا لسلب معسكر الأعداء، وتتبعوا الفارين حتى الجسر الحديدي وهم يقتلون أعدادا غفيرة منهم، وحاول آخرون الاحتماء بحصن تانكريد فأحاط بهم الصليبيون وقضوا عليهم. واشترك أبناء البلاد من السوريين والأرمن في مذبحة قضوا فيها على كثيرين ممن نجوا من المعركة، ووصل كربوقا إلى الموصل ومعه بقايا قواته، ولكنه فقد قوته وهيبته إلى الأبد.

وكان أحمد بن مروان، آمر القلعة، يرقب المعركة من القلعة أعلى الجبل، وعندما رأى الأتراك ينهزمون أرسل رسولاً في المدينة يعلن استسلامه، واقتيد الرسول إلى خيمة ريموند الذي أرسل راية من راياته لرفعها على برج القلعة، لكن أحمد الذي علـــم أنّ الراية ليست راية بوهيموند رفض رفعها. ويبدو أنه كان قد أعدّ ترتيبًـا سـريًّا مـع بوهيموند يُنفّذ في حالة انتصار المسيحيين، ولم يفتح بوابته إلى أن ظـهر بوهيمونـد نفسه، وسمح لأفراد الحامية بالخروج سالمين بعد أن تحول البعض منهم إلى المسـيحية والتحقوا بجيش بوهيموند بما فيهم أحمد ذاته.(١)

ولم يكن انتصار الصليبيين متوقعا، ولكنه كان انتصارا كاملا حسم بقاء أنطاكية في حوزة المسيحيين، وإن لم يحسم مسألة من تؤول إليه المدينة من بين المسيحيين. ومن الواضح أن القسم الذي أقسمه جميع الأمراء للإمبراطور، عدا ريموند، يستوجب تسليم المدينة. لكن بوهيموند أظهر بالفعل نواياه في الاحتفاظ بها. وكان رفاقه، خلا ريموند، على استعداد لأن يرتضوا ذلك لأنه هو الذي خطط للاستيلاء عليـها وهـو الـذي استسلمت له القلعة، وإنما ضايقهم قليلا الاستخفاف بالقسم الذي أقسموه. غـير أن الإمبراطور بعيد جدا. ولم يخف لنجدتهم، وتركهم مندوبه، وقد استولوا على المدينـة وهزموا كربوقا دون مساعدة منه، وبدا لهم من غير العملي ترك حامية في المدينة إلى أن يتنازل ألكسيوس فيجئ بنفسه أو يرسل واحدا من ضباطه، كما بدا لهم أن الدفاع عن حقوق من هو غائب أمر يخلو من السياسة ومضيعة للوقت ومخاطرة بأن يعاديهم أبرز العسكريين من بينهم، وربما يتخلى عنهم. وكان من الواضح لـجودفري أوف لورين أن الوقوف في طريق طموحات بوهيموند أمر يتصف بالحماقة ، أما ريمونـد فكـان

---

(١) *Gesta Francorum,* IX, 29, pp. 150-8 (وهي أكـثر الروايـات حيويـة) ؛ Raymond of Aguilers, XII, pp. 259-61; Fulcher Chartres, XXII - XXIII, pp. 251-8; Albert of Aix, IV, 47-56, pp. 421 - 9; Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 160; Kemal ad-Din, *loc. cit.;* Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 195-6

دائما يعاني مرارة الغيرة من بوهيموند. وليس من الإنصاف أن نعتبر أن غيرته هي الدافع الوحيد وراء تأييده ألكسيوس في مطالبه; إذ كان قد أقام علاقة صداقة مع ألكسيوس قبل أن يغادر القسطنطينية، وكان من الحصافة بحيث أدرك أن تقصيرهم في إعادة أنطاكية إلى الإمبراطورية سيفقدهم حسن نوايا الإمبراطور التي تعتبر ضرورية بالنسبة لهم إذا ما أرادوا المحافظة على خطوط مواصلاتهم، وإذا ما أرادوا كبح جماح المسلمين الذين سيقومون بعمل مضاد لا محالة. فضلا عن أن الحرب الصليبية لن تصبح جهدا مبذولا من عالم مسيحي موحد. وشاركه أديمار أسقف لوبوي الرأي، إذ كان عاقد العزم على التعاون مع المسيحيين الشرقيين، وهذا بلا شك ما يريده سيده البابا إيربان الذي كان يدرك خطورة الإساءة إلى بيزنطة.(١)

طباع سيئة

وربما مارس أديمار أسقف لوبوي نفوذه لإرسال هيو أوف فرمندوا إلى الإمبراطور ليشرح له الموقف. وكان هيو، بعد أن أصبحت أنطاكية آمنة، يرغب في العودة إلى موطنه عن طريق القسطنطينية، وكان الصليبيون ما يزالون يعتقدون أن ألكسيوس في طريقه إليهم عبر آسيا الصغرى، ولم تكن قد وصلتهم بعد أنباء انسحابه في أعقاب مقابلته مع ستيفن أوف بلوا، وكان في مأمول أديمار وريموند أن ينجح هيو في إقناع ألكسيوس بالإسراع إليهم. وفي ذات الوقت تقرر أن يبقى الصليبيون في أنطاكية حتى أول نوفمبر (تشرين الثاني) قبل أن يشرعوا في المسير إلى القدس. وكان قرارا طبيعيا نظرا لما يعانيه الجيش من إجهاد، كما أن السير في قيظ صيف سوريا، وفي طريق تكاد أن تكون مجهولة تندر فيها المياه، بدا عملا من أعمال الحمق، وفضلا عن ذلك لا بد

---

(١) Albert of Aix, v, 2, pp. 433-4 دور أديمار تخميني .

أولا من حسم مسألة أنطاكية، ولا شك في أن أديمار كان يأمل في وصول الإمبراطور قبل ذلك الموعد. وانطلق هيو في وقت مبكر من يولية (تموز) بصحبة بـــالدوين أوف هينولت، وفي الطريق عبر آسيا الصغرى هاجم الأتراك جماعته وأوســـعوهم ضربـــا، واختفى بالدوين كونت هينولت ولم يعرف مصيره مطلقا. وحل فصـــل الخريـــف في القسطنطينية قبل وصول هيو إليها وقبل أن يقابل الإمبراطور ويخبره بالقصة الكاملـــة لأنطاكية. وأمسى من المتعذر إعداد حملة تعبر جبال الأناضول، ولذا رأى ألكسيوس أنه من غير المجدي الارتحال إلى أنطاكية قبل الربيع التالي.(١)

وفي ذات الوقت ازدادت الطباع حدة في أنطاكية. ففي بداية الأمر كانت قوات كل من بوهيموند، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز قوات تحتـــل القلعـــة بصورة مشتركة، واحتفظ بوهيموند بالسيطرة على الأبراج الرئيسية ونجـــح في طـــرد جنود زملائه. وربما تم ذلك بموافقة جودفري وروبرت وفرض الأمر على ريموند رغم اعتراضه، فاشتد حنقه ورد على ذلك بأن انفرد بالتحكم في الجسر المحصن وقصر ياغي سيان. غير أن ريموند كان مريضا جدا ولا يستطيع اتخاذ خطوات عملية، والآن سقط أديمار مريضا أيضا، ولقي الفرنسيون الجنوبيون، وقد غاب قائداهما، معاملة سيئة مـــن الجنود الآخرين ولا سيما النورمانديين، فتلهف الكثير منهم على أن يتم الصلـــح بـــين ريموند وبوهيموند الذي كان يتصرف وكأنه سيد المدينة بالفعل. وما أن انتشرت أنباء هزيمة كربوقا حتى أسرع الكثيرون من أبناء جنوا إلى أنطاكية متلهفين على أن يكونوا أول من يستولي على تجارتها. وفي الرابع عشر من يولية (تموز) أعطاهم بوهيموند موثقا يسمح لهم بسوق وكنيسة وثلاثين منزلا؛ ومن ثم أصبحـــوا يدافعـــون عـــن مطالبـــه واستطـــاع هو أن يعتمد على مساعدتهم كي تظل اتصالاته بإيطاليا مفتوحة، ووافقوا

---

(١) *Gesta Francorum,* x, 30, pp. 161-2; Albert of Aix, v, 3, pp. 434-5

على مؤازرته في أنطاكية ضد جميع الوافدين إليها باستثناء ريموند كونت تولوز، ففـــي حالةالصدام معه سوف يبقون على الحياد.(١)

وبينما كان ريموند وبوهيموند يتربص كل منهما بالآخر متحفزا، رحل النبـــلاء الأقل شأنا لينضموا إلى بالدوين في الرها، أو خرجوا في حملات للنهب والســـلب، أو ليقيموا لأنفسهم إقطاعيات صغيرة في الريف المحيط. وقام بأكثر هذه الغارات طموحا ريموند بيليت القادم من مقاطعة ليموزين الفرنسية، وهو من جيش ريموند، وقد خرج في السابع عشر من يولية (تموز) عبر نهر العاصي واتجه شرقا وبعد ثلاثة أيام احتل مدينة تل مناس حيث تلقاه سكانها السوريون مرحبين. وبعد استيلائه على حصن تركـــي في الجوار واصل تقدمه لمهاجمة مدينة أكبر هي معرة النعمان بجيش يتألف أساســـا مـــن المسيحيين المحليين، لكنهم لم يعتادوا حمل السلاح، وعندما واجـــهوا الجنـــود الذيـــن أرسلهم رضوان الحلبي لأنقاذ المدينة انقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار، ولكن رضـــوان لم يستطع طرد ريموند بيليت من تل مناس.(٢)

موت أديمار أسقف لوبوي

وفي يولية (تموز) انتشر وباء خطير في أنطاكية لا نستطيع أن نحدد طبيعته بدقـــة. وأغلب الظن أنه كان وباء التيفود نتيجة لحصار ومعارك الشهر الفائت وعـــدم درايـــة الصليبيين بالاحتياطات الصحية الضرورية في جو الشرق . وكانت حالة أديمار الصحية

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 261-2 ؛ اتفاق استئجار السفن الجنوية مع بوهيمند يرد فـــي Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 155-6

(٢) *Gesta Francorum,* x, 30, pp. 162-4, Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 584

متوعكة لبعض الوقت، فكان أول الضحايا البـــارزين هـــذا الوبـــاء، ومـــات في أول أغسطس (آب).(١)

كان موت أديمار مأساة من أعظم مآسي الحملة الصليبية. وهو على صفحـــات المؤرخين شخصية غامضة نوعا ما، لكنهم يصورونه على أنه قد مارس نفوذا شخصيـــا أكثر من أي صليبي آخر، وحظى بالاحترام كممثل للبابا، وفازت شخصيته بود الجيش كله، لشفقته ورعايته للفقراء والمرضى، ولتواضعه ولأنه لم يكن عدوانيا قـــط، وإنمـــا لديه الاستعداد الدائم لبذل النصيحة الحكيمة حتى في الأمور العسكرية. وكان كقـــائد عسكري يجمع بين الشجاعة والحصافة، وإليه وإلى استراتيجيته يعزى انتصار دوريليـــوم بدرجة كبيرة، وقد ترأس الكثير من مجالس الجيش أثناء حصار أنطاكية. ومن الناحيـــة السياسية كان يعمل على إيجاد تفاهم طيب مع المسيحيين الشرقيين، سواء مع بيزنطـــة أو مع كنائس سوريا الأرثوذوكسية. واستحوذ على ثقة البابا إيربـــان وعـــرف آراءه، وأمكن في حياته كبح التعصب الفرنجي العنصري والديني، كما أمكنه الحيلولة دون أن يتسبب الأمراء بطموحاتهم الأنانية وخلافاتهم في الإضرار بالحملة الصليبية إضـــرارا لا سبيل إلى إصلاحه. وبرغم حرصه على ألا يحاول السيطرة على الحركة الصليبية مطلقا، فقد اعتبر قائدا للحملة الصليبية ـــ كما نعلم من القسيس ستيفن الذي أبلغ المسيح بذلك في رؤياه. وبعد موته لم يعد هناك من له السلطة العليا المهيمنـــة، وقـــد ورث أفكاره ريموند كونت تولوز الذي سبق أن ناقش البابا إيربان في السياسة الصليبية منذ وقت طويل. على أن ريموند كونت تولوز لم يكن له ما لـــأديمار من اقتدار، وإن كان بوسعه التحاور مع بوهيموند حوار الند للند فإنه لم يكن المتحدث باسم الكنيسة، وفي

---

(١) *Gesta Fracorum,* x, 30, pp. 166; Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Fulcher of Chartres, 1, xxiii, 8, p. 258; letter of the princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 164

غيابه لم يكن لأي أمير من سعة الأفق ما يؤهله للحفاظ على وحدة العالم المسـيحي، وإن إحسان أديمار وحكمته وتكامل شخصيته لم تكن أبدا محل مساءلة من رفاقه، حتى أولئك الذين كان يعارض طموحاتهم. وقد بكاه أتباع بوهيموند بنفس القـدر مـن الإخلاص كأبناء جلدته من الفرنسيين وأقسم بوهيموند أن يحمل جثته إلى القدس ـــ لقد تأثر الجيش كله وانزعج لموته.

ومع ذلك، كان هناك رجل واحد لم يشعر بالأسف لموته وهو بطرس بارثولوميو الذي لم يغتفر أبدا للمندوب البابوي تكذيبه للرؤى التي رآها. وأخذ بثأره بعد موتـه بيومين; فأعلن أن القديس أندرو زاره مرة أخرى مصطحبا معه في هذه المناسبة أديمار الذي أعلن أنه قد عوقب على عدم تصديقه فقضى الساعات التي تخللت الفترة منـذ موته في الجحيم، و لم ينقذه سوى صلوات رفاقه، خاصة صلوات بوهيموند، والهبـات النقدية القليلة التي تبرع بها لصيانة الرمح، وقد نال الغفران وطلب أن يبقى جسده في كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية. ثم قدم القديس أندرو النصح للكونت ريمونـد قائلا إنه ينبغي إعطاء أنطاكية لذلك الذي يطالب بها حاليا إذا ما ثبت أنه رجل ورع، ذلك الورع الذي ينبغي أن يقرره بطريق يتم انتخابه من بين أتباع الطقوس اللاتينيـة، وعلى الصليبيين أن يندموا على خطاياهم وأن يواصلوا المسير إلى القدس التي لا تبعـد سوى مسافة عشرة أيام، لكن الرحلة قد تستغرق عشـرة أعـوام إن لم يعـودوا إلى العادات الأكثر ورعا. أي أن بطرس بارثولوميو وأصدقاءه من البروفانسال اعتبروا أنه ينبغي السماح لـبوهيموند بالحصول على أنطاكية طالما يتعهد بتقديم المسـاعدة إلى الحملة الصليبية، وأنه ينبغي للجيش أن ينطلق بسرعة إلى القدس، وألا يكـون هنـاك تعامل مع البيزنطيين ولا مع الكنائس الأرثوذوكسية المحلية.

وتسبب هذا الوحي في إحراج ريموند. فكان يعتقد اعتقـادا مخلصـا في الرمـح المقدس بالإضافة إلى أن وجود الرمح مع جنوده أضفى عليه الهيبة. ورغم أن كثـيرين ربما يقولون إن الانتصار في المعركة مع كربوقا يرجع إلى استراتيجية بوهيموند ، فكان

هناك كثيرون آخرون ينسبون الانتصار إلى الرمح المقدس وبالتالي إلى ريموند بطريق غير مباشر. على أن مصدر السلطة الرئيسية الآخر لـــريموند ينبــع لارتباطــه الطويــل بـــأديمار، وإذا كان للرسول الإلهي الذي كشف عن موضع الرمـــح أن ينـــاقش رأي أديمار، وينكر السياسة التي ورثها منه ريموند، والتي تتناسب مع أراء ريموند الخاصة به، فلابد له من ألا يعتمد على ما تضفيه عليه صداقته لـــأديمار، ومن ثم بدأ يحاور ويداور؛ فبينما ظل مخلصا لاعتقاده في الرمح أظهر تشككه في أن رؤى بطرس بارثولوميو مـــا تزال صحيحة. فعلى الرغم من كلمات القديس أندرو فهو ما يـــزال يؤكـــد، ومعـــه آخرون، أن أنطاكية ينبغي أن تعطى للإمبراطور. ونتيجة لذلك وجد نفسه في موقف يعارضه أغلب جنوده.

وتولد انطباع سيئ في صفوف عامة الجيش من جراء الهجوم على أديمـــار بعـــد وفاته. وهذا الهجوم وإن كان بمثابة إعلان عن عدم إيمان المندوب البابوي بالرمح فإنه أحيا الشكوك التي راودت الكثيرين في بادئ الأمر. وبدأ النورمـــانديون والفرنســـيون الشماليون بوجه خاص ـــ وهم دائمو الكراهية لأبناء بروفانس ـــ يشجبـــون الرمـــح ويستخدمون فضيحة التزوير لتكذيب الكونت ريموند ومخططاته. وبدفاعهم عن سمعـــة أديمار، استطاعوا العمل ضد السياسة التي كان ريموند يدافع عنها وما تنطوي عليه من إيمان بالرمح. ولنا أن نفترض أن بوهيموند كان مستمتعا بهذا الموقف(١).

مسألـــــة اللاذقيـــــة

وبانتشار الوباء في أنحاء أنطاكية لجأ قادة الصليبيين إلى مناطق أخرى من البلاد .

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 262-4 ويبدو أن بوهيمند قد بدأ في ذلك الوقت تقريبا يلقي ظلال الشك على أصالة الرمح (Radulph of Caen, *loc. cit.*)

فعبر بوهيموند جبال الأمانوس إلى داخل كيليكيا حيث عزز الحاميات التي تركها تانكريد هناك في الخريف الفائت والتي رحبت به، وكان في نيته أن تضم إمارته الأنطاكية مقاطعة كيليكيا. وذهب جودفري شمالا إلى مدينتي تل بشير ورواندان اللتين سلمهما له أخوه بالدوين، وكان جودفري غيورا من نجاح أخيه، وكان يود أن يكون له نصيبه من الأراضي بالقرب من أنطاكية شأنه شأن غيره من الأمراء، ولذلك ربما تعهد بإعادة المدينتين إلى أخيه بالدوين إذا ما سار الجيش إلى فلسطين. وأما تحركات ريموند فليست أكيدة. بينما ذهب روبرت النورماندي إلى اللاذقية.(١)

وكانت اللاذقية قبل الغزو التركي هي أقصى ميناء جنوبي للإمبراطورية البيزنطية، واستولى عليها الأتراك سنة ١٠٨٤ ميلادية، لكنها خضعت فيما بعد لأمير شيزر العربي، وفي خريف ١٠٩٧ ميلادية هبط جوينيمير أوف بولونيا على الميناء واستولى عليه وبقيت حاميته هناك إلى ما بعد الشتاء. ولكن حدث في مارس (آذار) أن أبحر أسطول إديجار أثلنج بعد تفريغ إمدادات الصليبيين في السويدية إلى اللاذقية وطرد رجال جوينيمير واستولى على المدينة باسم الإمبراطور، لكنه لم يستطع أن يترك فيها سوى فصيلة صغيرة لحمايتها، ولذا تلقى الجيش الصليبي نداء لاستكمال الدفاع، فما أن تم الانتصار على كربوقا حتى ذهب روبرت النورماندي ملبيا النداء حيث سلمت إليه اللاذقية توطئة لتسليمها إلى الإمبراطور. على أن مفهوم الحكم لم يكن يعني لروبرت سوى جباية أكبر قدر ممكن من الأموال من المحكومين، وبذا بات حكمه ممقوتا من عامة الناس حتى أجبر على ترك المدينة بعد أسابيع قليلة، والآن جاءتها حامية مرسلة من إيوستاسيوس فيلوكاليس حاكم قبرص التابع للإمبراطور.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Albert of Aix, v, 4, p. 435, 13, pp. 440-1.

(٢) عن مسألة اللاذقية أنظر :

Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 205-12, and :==

وفي سبتمبر (أيلول) خفت وطأة الوباء وعاد الأمراء إلى أنطاكية حيث اجتمعـــوا في الحادي عشر من الشهر لوضع مسودة خطاب إلى البابـــا إيربـــان ببيـــان تفصيـــلات الاستيلاء على أنطاكية ونبأ وفاة مندوبه البابوي. وشعورا منهم بالحاجة إلى سلطة عليا تسيطر على الفرق المتنازعة استحثوه على أن يأتي بنفســـه إلى الشـــرق مؤكديـــن أن أنطاكية دائرة أسقفية أسسها القديس بطرس، وباعتباره وريثا للقديس بطرس فينبغـــي تنصيبه فيها، كما ينبغي له زيارة المدينة المقدسة ذاتها، وهم على استعداد لأن ينتظـــروا

== David, *Robert Curthiose,* pp. 230 ff., and :

Albert of Aix, VI, 45, pp. 500-1.

ويقـــول هذا الأخير (ألبرت أوف آيكس) إن Guynemer أخذ اللاذقية من الأتراك في خريـــف سنـــة ١٠٩٧م واحتفظ بها باسم ريموند التولوزي Raymond of Toulouse ويقول Orderic Vitalis إن Edgar Atheling والإنجليز أخذوها من الإمبراطور ، في وقت ما من أوائل عام ١٠٩٨م ، وعهدوا بها إلى روبرت النورماندي (*loc. cit.* on p. 228n 1) Robert of Normandy . أما David, *loc. cit.* فيكذب قصة ألبرت ويقول إن الإنجليز لابد وأن أخذوها مباشرة من الأتراك وأن روبرت كان هناك في شتاء عامي ١٠٩٧-١٠٩٨م.ويخبرنا ريموند أوف أجيليه أن روبرت كان غائبا عن أنطاكية في وقت الحمـــلة في ديسمبر ١٠٩٧م . غير أنه من المشكوك فيه ما إذا كان الإنجليز قد جاءوا أمـــام الساحـــل السوري قبـــل شهـــر مارس . ويقول Radulph of Caen إن روبرت ذهب إلى اللاذقيـــة ، الـــتي كانت خاضعة لحكم الإمبراطور ، في وقت فرار ستيفن أوف بلوا (LVIII,p.649) . غير أنه اشترك في المعركة ضـــد كربوقا بعد ذلك بأيام قليلة ، في الوقت الذي تؤكد كافة المصـــادر وجـــوده .ويقـــول Guibert of Nogent (XXXVII, p. 254) إن روبرت كان قد حكم اللاذقية ذات مرة لكنه نحـــي بسبـــب ظلمه في الجباية المالية . وقد أوردت أنا الرواية التي أظنها مقنعة بأقصى درجة .

حضوره قبل أن يواصلوا المسير إلى فلسطين.(١) وتصدر اسم بوهيموند قائمة أسماء الأمراء، وأغلب الظن أن كاتم أسراره هو الذي كتب الخطاب. ويظهر أثر غياب المندوب البابوي فيما ألمح إليه ضمنا من نبذ لحقوق البطريق جون وفي الإشارة العدائية إلى الطوائف المسيحية الوطنية التي اتهمت بأنها طوائف هرطيقية. و لم يتوقع الصليبيون أن يتمكن البابا من الارتحال إلى الشرق، لكن هذه الدعوة مكنتهم مرة أخرى من تأجيل البت في مصير أنطاكية، فسيرسل البابا بلا شك مندوبا بابويا آخر يكون مسئولا عن القرار. ومن الواضح أن الإمبراطور لن يتوغل داخل سوريا في ذلك الفصل من العام، وربما علموا بانسحابه من فيلوميليوم.

غارات الصليبيين

وساءت أحوال الجنود والحجاج إلى حد بعيد. فلم يكن هناك حصاد لأية محاصيل في سهل أنطاكية بسبب الحرب وما يزال الطعام ناقصا. وبدأ ريموند في تنظيم غارات على أراضي االمسلمين تهدف إلى الحصول على الطعام، وقبل أن يستقر عزمه على ما يهدف إليه دعاه جودفري ليشترك معه في حملة على مدينة أعزاز الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يصل بين الرها وتل بشير وبين أنطاكية، وكان عمر — أمير أعزاز — في حالة تمرد على سيده رضوان الحلبي الذي كان في طريقه لمعاقبته، وكان أحد قادة عمر قد سبى سيدة فرنجية وأحبها، وهي أرملة أحد فرسان اللورين، واقترحت عليه أن يستنجد بجودفري لمساعدته، واستجاب جودفري مبتهجا; فكان يقلقه أن تبقى مدينة أعزاز تابعة لرضوان. وقد قبل ريموند دعوة جودفري لمساعدة عمر وأصر على تسلم إبن عمر كرهينة، كما أرسل بالدوين جنودا من الرها. وباقتراب الجيش المسيحي انسحب رضوان من أعزاز وثبت جودفري عمرا على المدينة بعد تقديمه الولاء، وتمكن ريموند من جمع المؤن من الجوار ولكنه مني بخسائر جسيمة من جراء الكمائن التركية التي نصبت في طريق عودته. وتدل هذه الواقعة على استعداد أمراء

---

(١) خطاب الأمراء الى إيربان الثاني في Hagenmeyer, *op. cit.* pp.161- 5 .

المسلمين للاستعانة بمساعدة الفرنجة في خلافاقم بين بعضهم البعض. ليس هذا وحسب، وإنما تدل أيضا على أن الفرنج على استعداد لقبول أمراء تابعين لهم من بين المسلمين، معدلين بذلك عقيدهم المسيحية المتشددة.(١)

وعلى الرغم مما أبلغ به بطرس بارثولوميو من أن القديس أندرو طلب مرة أخرى تبكير الرحيل إلى القدس، انطلق ريموند في أكتوبر (تشرين الأول) في غـــارة أخـــرى للحصول على المؤن. وكان ريموند قد احتل بالفعل بلدة روحة الواقعة على نمر العاصي على بعد حوالي ثلاثين ميلا من أنطاكية، ومن هناك هاجم مدينة الـــبرة الواقعـــة إلى الجنوب الشرقي، واستسلم سكانها ـــ وكلهم من المسلمين ـــ لكنهم إما قتلوا أو بيعوا عبيدا في أنطاكية، وأعيد تسكين المسيحيين في المدينة وحول المسجد إلى كنيسة، وعين ريموند أحد قساوستها بطرس أوف ناربون أسقفا للمدينة مما أدخـــل البهجـــة علـــى جيشها، وقد تم هذا التعيين لأنه لم تكن توجد أسقفية أرثوذوكسية رسمية في المدينـــة، ولم يكن أحد يتصور حتى ذلك الحين إمكان حدوث صدع بين الكنيستين اليونانيـــة واللاتينية يؤدي إلى ازدواجية الأسقفية. ورغم أن الأسقف الجديد كان لاتينيـــا فقـــد رسمه بطريق أنطاكية اليوناني جون، وقد كان رفع بطرس أوف نـــاربون إلى درجـــة الأسقفية علامة على بدء وجود كنيسة لاتينية مقيمة في الشرق، كمـــا كـــان بمثابـــة تشجيع للبعض من الصليبيين من أمثال بطرس بارثولوميو التواقين إلى استبدال رجـــال الكنيسة اليونانية المحليين بغيرهم من اللاتينيين(٢).

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 264-5; Albert of Aix, v, 5-12,p. 435-40; Kemal ad-Din, *op. cit.* p.586

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 266; *Gesta Francorum,* x, 31,pp.36-8 . ويقـــول تاريخ جستا فرانكورام إن الأسقف قد جيء به إلى أنطاكية لرسامته .

وفي المناقشات التي أعقبت هزيمة كربوقا تعهد الأمراء بالانطلاق إلى القدس في نوفمبر (تشرين الثاني)، وفي أول هذا الشهر بدءوا يتجمعون في أنطاكية لمناقشة خططهم. فجاء ريموند من البرة بعد أن ترك فيها أغلب جنوده، وجاء جودفري من تل بشير وقد أحضر معه رءوس جميع الأسرى الأتراك الذين أسرهم في سلسلة من الغارات الصغيرة في المقاطعة. وكان كونت فلاندرز ودوق نورماندي في أنطاكية بالفعل، ووصل بوهيموند ـــ الذي كان مريضا في كيليكيا ـــ بعد ذلك بيومين. وفي اليوم الخامس من نفس الشهر اجتمع الأمراء ومستشاروهم في كاتدرائية القديس بطرس، واتضح على الفور عدم وجود اتفاق بينهم؛ إذ افتتح أصدقاء بوهيموند الاجتماع بالمطالبة بأن تكون أنطاكية له، فالإمبراطور لن يأتي، وبوهيموند رجل يتصف بالمقدرة، وهو الصليبي الذي يخشاه الأعداء أشد ما يخشون. ورد ريموند الحجة بأن ذكر المجلس في حدة بقسم الولاء للإمبراطور الذي أقسمه الجميع باستثناءه هو، وكان معروفا أن جودفري وروبرت أوف فلاندرز يؤيدان بوهيموند في مطلبه لكنهما لم تتوفر لديهما الجرأة على الجهر بذلك خشية اتهامهما بالحنث باليمين، واستمر الجدل عدة أيام نفد خلالها صبر الجنود والحجاج الذين كانوا ينتظرون إعلانهم؛ فلم يكن لهم سوى رغبة واحدة وهي تنفيذ العهود التي قطعوها على أنفسهم والوصول إلى القدس. وكانوا تواقين إلى مغادرة أنطاكية التي تأخروا فيها طويلا وعانوا منها كثيرا. وحثهم بطرس بارثولوميو والرؤى التي تأتيه فقدموا إلى رؤسائهم إنذارا يعكس احتقارهم لطموحات كل من بوهيموند وريموند وقالوا فيه إن من يرغب في التمتع بخيرات أنطاكية فليتمتع بها، ومن يتطلع إلى هدايا الإمبراطور فلينتظر مجيئه، أما هم فإنهم سائرون إلى القدس، وإذا ما استمر قادتهم في المماحكة حول امتلاك أنطاكية فسوف يدمرون أسوارها قبل رحيلهم ويسوونها بالأرض. وفي مواجهة هذا الموقف خشي القادة الأكثر اعتدالا أن يلجأ ريموند وبوهيموند إلى السلاح، فاقترحوا إجراء مناقشة يسودها الود يشترك فيها الأمراء الرئيسيون فقط دون غيرهم. وبعد أن شهد الاجتماع المزيد من المشاهد الغاضبة

توصلوا إلى اتفاق مؤقت; وأعلن ريموند أنه يوافق على القرارات التي يتوصـــل إليـــها المجلس في نهاية الأمر بشأن أنطاكية شريطة أن يقسم بوهيموند على مصاحبة الحملـــة الصليبية إلى القدس، بينما أقسم بوهيموند أمام الأساقفة على عـــدم تأخـــير الحملـــة الصليبية أو الإضرار بها من أجل طموحاته الشخصية. وهكذا لم تحسم مسألة أنطاكية ولكن بقيت القلعة وثلاثة أحياء من المدينة في حوزة بوهيموند، بينما ظـــل ريمونـــد يسيطر على الجسر المحصن وقصر ياغي سيان وعهد بأمرهما إلى وليـــم إرمنجـــار. ولم يحدد المجلس تاريخا للانطلاق إلى القدس وإنما ـــ لكي يشغل الجنود في تلك الأثناء ـــ قرر مهاجمة مدينة معرة النعمان الحصينة، فمن المستصوب إخضاعها لحمايـــة ميســـرة الجيش عندما يتقدم جنوبا باتجاه فلسطين.(١)

الهجوم على معرة النعمان

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) خرج ريموند وكونت فلانـــدرز إلى روحة والبرة ووصلا إلى أسوار معرة النعمان في السابع والعشرين. وفشلت محاولـــة الهجوم على المدينة صباح اليوم التالي، وعندما وصل بوهيموند وجنوده بعد ظهر ذلك اليوم فشل الهجوم الثاني كذلك، فتقرر اتباع طريقة الحصار المعتادة ولم يكن هناك أي تقدم طوال أربعة عشر يوما رغم إحكام الحصار. فراح الصليبيون يطوفون في الأراضي المجاورة بحثا عن أخشاب يصنعون منها آلات الحصار. وتناقص الطعام، فتركت فصائل من الجيش مواقعها للبحث عن الحبوب والخضر. وأخيرا، وفي الحادي عشر من ديسمبر (كانـــون الأول)، وبعد أن أعلن بطرس بارثولوميو أن النجاح وشيك، دفعوا إلى أحد

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV,pp.267-8; *Gesta Francorum,* x,3,pp.168-70; *Historia Belli Sacri,* XCII,p. 208

أبراج المدينة بحصن خشبي ضخم على عجلات بناه رجال ريموند وكان آمـــره وليـــم أوف مونتبلييه. وفشلت محاولتهم تسلق البرج من الحصن الخشبي لكنهم تمكنـــوا مـــن نسف جدار البرج الملاصق للحصن الخشبي الذي وفر لهم الحماية، وفي المســـاء انهـــار جدار البرج وتمكن عدد من صغار الجنود من شق طريقهم إلى داخل المدينـــة وبـــدءوا السلب والنهب. وفي تلك الأثناء شعر بوهيموند بالغيرة من نجاح ريموند، وأراد تكرار ضربته الموفقة في أنطاكية فأرسل مناديا ينادي في المدينة أنه إذا استسلمت له المدينـــــة فسوف يحمى أرواح جميع المدافعين إذا لجأوا إلى القاعة الكبيرة بالقرب مـــن البوابـــة الرئيسية. وخمد القتال أثناء الليل، ورأى الكثير من أبناء المدينـــة أن الدفاعـــات قـــد احترقت فحصنوا منازلهم وصهاريج مياههم، لكنهم عرضوا دفع ضريبة يفتـــدون بهـــا أرواحهم، وهرب آخرون إلى القاعة التي أشار إليها بوهيموند. بيد أنه عندما استؤنف القتال في الصباح التالي لم يتبق أحد منهم على قيد الحياة; فقد اندفـــع الصليبيـــون إلى داخل المدينة وهم يجهزون على كل من يقابلهم واقتحموا المنازل ونهبوها ثم أحرقوها، أما الذين لجأوا إلى القاعة معتمدين على حماية بوهيموند فقد ذبح الرجال وبيع النساء والأطفال عبيدا.

وأثناء الحصار تعذر التعاون بين جنود بوهيموند وريموند إلا بصعوبـــــة. وبعـــد استيلاء بوهيموند ـــ بخيانته ـــ على النصيب الأعظم من الغنائم، رغم أن جيش ريموند هو الذي استولى على المدينة. تفجرت العداوة مرة أخرى بين الفرنسيين الجنوبيين وبين النورمانديين. وطالب ريموند بالمدينة ورغب في وضعها تحت إمرة أسقف البرة، لكـــن بوهيموند لم يكن ليجلو عن المدينة إلا إذا تخلى ريموند عن المنطقـــة الـــتي يحتلـــها في أنطاكية. وكهجوم مضاد، بدأ يتساءل علانية عن صحة الرؤى التي جاء بها بطـــرس بارثولوميو.

وفي تلك الأثناء تزايد السخط في الجيش كله، لاسيما بين جنود ريمونـــد الذيـــن طالبوا باستئناف المسير إلى القدس. وفي يوم عيد الميلاد تقريبا قابل ريموند ممثلون عـــن

الجنود، أوضحوا له أنهم سوف يعترفون به قائدا للحملة الصليبية كلها إذا مـــا قــام بتنظيم رحيلها، وشعر ريموند بعدم استطاعته الرفض، وبعد ذلك بأيام قليلة غادر معرة النعمان إلى روحة معلنا أن الحملة على وشك الرحيل إلى فلسطين، وعلى الأثر عــــاد بوهيموند إلى أنطاكية، وتركت معرة النعمان بين يدي أسقف البرة.(١)

على أنّ ريموند تأخر بعد إعلانه هذا، إذ لم يسعه الرحيل جنوبًا تاركًا أنطاكية في يد بوهيموند. وربما رأى بوهيموند أنه كلما تردد ريموند ازداد جنوده تمـــردًا، وكـــان يعرف أنّ الإمبراطور لن يهبط عبر آسيا الصغرى خلال شهور الشتاء، فاقترح تـــأجيل الحملة إلى عيد الفصح. ولكي يحسم ريموند الأمر استدعى جميع الأمـــــراء لمقابلتـــه في روحة حيث حاول شراءهم ليقبلوا قيادته; ويفترض أن تتناسب المبالغ التي عرضها مـــع ما لكل منهم من قوة، فعرض على جودفري عشرة آلاف سو، ونفس المبلغ لـــروبرت النورماندي، وستة آلاف لـــروبرت أوف فلاندرز، وخمسة آلاف لـــتانكريد، ومبالغ أقل للزعماء الأقل، و لم يعرض شيئا على بوهيموند، وكان يأمل بذلـــك في تنصيـــب نفسه رئيسا بلا منازع للحملة الصليبية، وبالتالي يستطيع كبح جماح بوهيموند، إلا أن عروضه قوبلت ببرود شديد.(٢)

وبينما كان الأمراء مؤتمرين في روحة قام الجيش بعمل مباشر في معرة النعمـــان; فقد كان يعاني التضور جوعا بعد أن استنفد إمدادات الجوار كلـــها، وبـــدا أن الحـــل الوحيد هو أكل لحوم البشر. وحتى الأتراك تأثروا غاية التأثر لإصرار الجيش على أكل لحوم البشر في هذه الظروف ويعلق المؤرخ ريموند أوف أجيليه في حزن وأسى قائـــلا: "لقـــد علمنـــا بموقـــف الأتـــراك بعـــد فوات الأوان بحيث لم نستطع الاستفادة به".

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 267-70; *Gesta Francorum*, x, 33, pp. 172-7; Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp.46-7; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 196-7

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p.271; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 178. See Appendix II

ومات أسقف أورانج نتيجة هذه الصعاب وكان له بعض النفوذ على أبناء بروفـــانس. وأخيرا، صمم الرجال على تدمير أسوار معرة النعمان ـــ رغم اعتراضات أسقف البـــيرة ـــ لإجبار ريموند على الرحيل. ولم يكد ريموند يسمع بذلك حتى أســـرع عـــائدا إلى المدينة، لكنه أيقن من عدم إمكان التأجيل أكثر من ذلك.(١)

جيش ريموند ينطلق إلى القدس

وفي الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٠٩٩ ميلادية خـــرج ريمونـــد ورجاله من معرة النعمان لمواصلة الحملة الصليبية. وسار الكونت عاري القدمين علـــى النحو الذي يليق بقائد الحج، وتأكيدا منه لعدم العودة ترك المدينة تأكلها النيران. وكان معه كل الأمراء التابعين له، كما رحل معه أسقف البرة، وريموند بيليت ـــ وهو لـــورد مدينة تل مناس ـــ بعد أن هجرا مدينتيهما، وأما الحامية التي كان يحتفظ بها في أنطاكية تحت إمرة وليم إرمنجار فلم تستطع الصمود أمام بوهيموند، لذا أســـرعت وراءه. ولم يخرج أحد للحاق به من أقرانه الأمراء سوى روبرت النورماندي يصحبه تانكريد الذي كان بوهيموند بلا شك يريده أن يراقب مصالح النورمانديين الإيطـــاليين في الحملـــة الصليبية. وتردد كل من جودفري أوف لورين وروبرت أوف فلاندرز قرابة شهر إلى أن أجبرهما الرأي العام على اللحاق بالحملة، على أن بالدوين وبوهيمونـــد بقيـــا في الأراضي التي استوليا عليها.(٢)

وهكذا، بدا أن الخلاف بين الأميرين العظيمين قد وجد حلا. وأصبح ريموند الآن قائد الحملة الصليبية بلا منازع، لكن بوهيموند امتلك أنطاكية.

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 270-2; *Gesta Francorum,* x, 33-4 , pp. 176 - 8

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 272; Gesta Francorum, x, 34,p.180 وكان صاحب تاريخ جستا مرافقا لكتيبة تانكريد .

الباب الخامس

أرض الميعـــــــاد

الفصل الأول

الطريق إلى القدس

الطريق إلى القدس

"وَالآنَ اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ"

(سفر الخُرُوج: ٣٢ : ٣٤)

عندما كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته من نيقية معربًا عن مخاوفه من احتمال تأخر الحملة الصليبية في أنطاكية، لم يكن يحلم البتّة بطول الفترة التي سيستغرقها التأخير; إذ انقضت خمسة عشر شهرًا منذ وصول الجيش إلى أسوار المدينة. وحدثت خلال هذه الفترة تغيرات هامة في العالم الإسلامي; إذ كان الفاطميون في مصر قبل بداية الحملة الصليبية قد أفاقوا — كشأن البيزنطيين — من الصدمة الأولى الناتجة عن الاكتساح التركي، وكانوا يأملون — كشأن البيزنطيين كذلك — في استخدام الحملة الصليبية لتعزيز أنفسهم بعد أن أفاقوا. وكان الحاكم الفعلي لمصر هو الشاهنشاها

الأفضل الذي خلف والده الأرميني بدر الجمالي الذي تحول من المسيحية إلى الإسـلام كوزير للخليفة الصبي المستعلي. و لم تحقق سفارة الأفضل إلى معسكر الصليبيين في أنطاكية أية نتائج، ورجع سفراء الفرنج إلى القاهرة مع مبعوثيه، ولكن سرعان ما اتضح أنهم لم يكونوا مخولين في أن يتفاوضوا على أيّ تحالف، وأنّ الصليبيين — البعيدين كل البعد عن تقديم العون طواعية للمصريين لاستعادة فلسطين — ينوون هم أنفسهم الزحف إلى القدس. ولذا عقد الأفضل العزم على الاستفادة من الحرب الدائرة شمالي سوريّا. فما أن سمع بهزيمة كربوقا في أنطاكية، وتحقق من أنّ حالة الأتراك في سائر أنحاء آسيا تحول دون مقاومتهم لهجوم جديد، حتى غزا فلسطين التي كانت ما تزال في أيدي ابني أرتق، سقمان والغازي، اللذين اعترفا بسيادة دقاق الدمشقي. وبينما كان الأفضل يتقدم، كانا يتقهقران خلف أسوار القدس لعلمهما أنّ دقاق لا يستطيع أن يخفّ لنجدتهما على الفور، وكان يراودهما الأمل في أن تمكنهما التحصينات العظيمة للقدس إلى جانب القدرة القتالية لجنودهما التركمان من الصمود إلى أن تصل النجدة. وكان جيش الأفضل مجهزًا بأحدث آلات الحصار التي تضم أربعين منجنيقًا، لكن ابني أرتق قاوما لأربعين يومًا إلى أن دُكت الأسوار أخيرًا واضطر الأخوان إلى التسليم، وسُمح لهما بالعودة إلى دمشق مع رجالهما، ومن هناك واصلا مسيرهما ليلحقا بأبناء عمومتهما في المنطقة المحيطة بديار بكر. ثم احتل المصريون فلسطين كلها، وبحلول الخريف كانوا قد حددوا حدودهم عند مصب نهر الكلب على الساحل جنوبي بيروت، وفي ذات الوقت قاموا بترميم دفاعات القدس.[1]

---

(1) .Ibn Al-Athir, *op. cit* pp. 197-8 أنظر مقال "القدس Al Kuds" الـذى كتبه Buhl ومقال "سقمان بن أرتق Sukman Ibn Ortok" الذى كتبه Zettersteen فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam*.

وفي شمال سوريّا ابتهجت جميع الأسر المالكة العربية المحلية لانهيار القوة التركيــة. وكانوا على استعداد للتفاوض مع الفرنج. بل إنّ أمير حماه وهو في نفس الوقت حمــو رضوان، وكذلك أمير حمص، وهما صاحبا البلاء الحسن في القتال مع كربوقا، تخليا عن أيّ تفكير في مقاومة الفرنج. وكانت العائلتان الأكثر أهمية للصليبيين همـــا العــائلتين العربيتين البارزتين: عائلة المنقذين في شيزر، وعائلة بني عمار في طرابلـــس؛ فكــانت الأولى تسيطر على البلاد الواقعة أمام الصليبيين مباشرة من نهر العاصي إلى الســـاحل، وكانت الثانية تسيطر على الخط الساحلي الممتد مـــن أواسـط لبنـــان إلى حــدود الفاطميين. فإذا أراد الصليبيون التقدم فإنّ صداقتهما، أوعلى الأقل حيادهما، يعتبر شيئًا أساسيًّا لتقدم الحملة الصليبية.[1]

وسار ريموند من معرّة النعمان إلى كفر طاب التي تبعد حوالي اثني عشر ميــلاً إلى الجنوب حيث انتظر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثاني) يجمع المــؤن لإعــادة تموين جنوده، وحيث لحق به تانكريد وروبرت النورماندي. وجاءه هناك سفراء مـــن شيزر التي يعرض أميرها تقديم المرشدين والمؤن الرخيصة في حالــة عبورهـــم أراضيــه بسلام، فقبل ريموند العرض. وفي السابع عشر سار مرشدو الأمير بالجيش عـــبر نهــر العاصي بين شيزر وحماه وقادوه أعلى وادي سروت. وكانت كل قطعـــان الماشـــية في المقاطعة قد أخفيت في أحد الأودية الملاصقة لوادي سروت، وبطريق الخطأ اقتاد أحـــد المرشدين الفرنج إلى هذا الوادي، ولم يكن الرعاة والقرويون المحليون من القوة بحيـــث يمنعون الفرنج من مواصلة الاستيلاء على البهائم. وفضّل قائد الحصن الذي يسيطر علــى

---

[1] أنظر مقال "شيذر Shizar" الذى كتبه Honigmann ، ومقال "إبن عمار Ibn Ammar" الذى كتبه Sobrnheim ، فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam*.

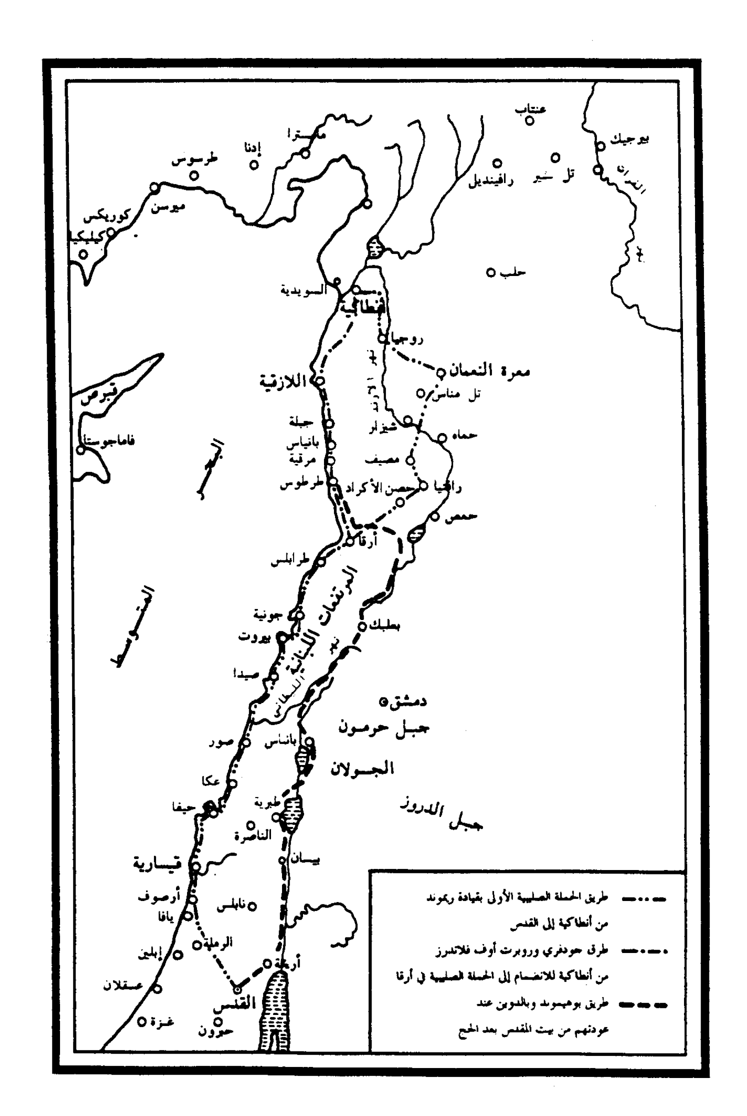
الوادي أن يشتري سلامته، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث ذهبت أعداد من الفرسان إلى شيزار وحماه لبيع الفائض منها في مقابل خيول الأحمال التي اشتروا منها ألفًا. لقد اختارت السلطات العربية السماح لهم بدخول مدنها والتسوّق فيها.(١)

وبينما كان الصليبيون يجمعون هذه الإمدادات اجتمع ريموند بقواد جيشه لمناقشة الطريق الذي سيسلكونه. وكان ريموند نفسه يؤيد الرأي القائل بأنه ينبغي للجيش أن يتجه إلى الغرب عبر سلسلة جبال النصيري ليصل إلى الساحل بأقصى سرعة ممكنة، لاسيّما وأنّ ميناء اللاذقيّة في أيدي المسيحيين بالفعل، وطالما ظلّ في طريق الساحل فسوف يكون على اتصال بأنطاكية ويستطيع الحصول على الإمدادات من السلطات البيزنطية في قبرص وهو على علاقة حسنة بها. على أنّ تانكريد أشار إلى ضرورة الاستيلاء على جميع القلاع الكبيرة الواقعة على الساحل لضمان سلامة الطريق. وكانت القوة القتالية للجيش الآن لا تجاوز ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة، فكيف يتسنّى لهذه القوة أن تقوم بأعمال الحصار الحربي؟ لذلك استحثهم تانكريد على المضي إلى القدس مباشرة لتجنب ضرورة الاستيلاء على القلاع الساحلية، وبعد الاستيلاء على القدس سوف تجلب أنباء الانتصار مزيدًا من الجنود من أوروبا. ليس هذا وحسب، وإنما لن تقاوم مدن أخرى مثل طرابلس، وصور وعكا، وعارضه آخرون بحجة أنّ كل البلاد الواقعة بين لبنان والصحراء في حوزة دقاق الدمشقي الذي سوف يتصدى بلا شك لتقدم الصليبيين على خلاف الأمراء العرب الصغار. وأخيرًا تقرر الانطلاق في طريق الساحل إلى الجنوب خلال وادي البقاع الواقع بين جبال النصيري ولبنان، وهو أيسر السبل الموصلة من داخل سوريا إلى البحر، كما تقرر استغلال أقل وقت ممكن في إخضاع القلاع المعادية.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, xiv, pp. 272-3; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 180-2.

(٢) Raymond of Aguilers, xiv, p. 273.



خريطة رقم (٥) : سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى

الصليبيون في حصن الأكراد

وفي الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني) وصل الصليبيون إلى مدينة مصيف التي سارع حاكمها بإبرام معاهدة معهم. ومنها اتجهوا إلى جنوب الجنوب الشرقي ليتجنبوا منطقة الحلو الجبلية، وفي اليوم التالي وصلوا مدينة الرفعانية فوجدوا أهلها قد هجروها، لكنها كانت مليئة بالإمدادات من كل نوع، فبقوا فيها ثلاثة أيام ثم نزلوا إلى سهل البقاع الذي تسيطر عليه قلعة حصن الأكراد الضخمة المشيدة على المرتفع الذي توجد فيه الآن أطلال حصن الفرسان (كرك دي شيفالييه). وجمع السكان المحليون قطعانهم كلها للاحتماء داخل أسوار القلعة. ولضرورات التموين — وليس لأهداف استراتيجية — قرر الصليبيون الاستيلاء عليها، فهاجموا التحصينات في الثامن والعشرين من يناير (كانون الثاني)، ولكن المدافعين كانوا مدركين لعاداتهم، ففتحوا إحدى البوابات وأخرجوا منها بعضًا من بهائمهم، فانصرف الفرنج إلى الإمساك بكل هذه الغنيمة حتى تبعثروا، وخرجت من القلعة قوة لم تحل دون تجمعهم وحسب، بل كادت أن تأسر الكونت ريموند نفسه بعد أن تركه حراسه. وشعر الفرنج بالعار بعدما انطلت الحيلة عليهم، فخططوا لشن هجوم جاد في اليوم التالي، لكنهم حينما وصلوا إلى الأسوار اكتشفوا أنّ السكان هجروا القلعة أثناء الليل، وما تزال فيها غنيمة كبيرة، فأقام الجيش ثلاثة أسابيع أجرى خلالها المزيد من المناقشات حول الإستراتيجيّة، واحتفلوا داخل القلعة بعيد التطهر.[1]

وأثناء إقامة ريموند في حصن الأكراد جاءه مبعوثون من أمير حماه محملين بالهدايا ووعدوه بعدم مهاجمة رجاله، وتبعهم مبعوثون من أمير طرابلس (جلال الملك أبوالحسن) من آل بني عمار، وهي أسرة مشهورة بثقافتها أكثر من شهرتها بفنون

---

(١) (المترجم): عيد التطهر: تقديم المسيح في المعبد بعد إكمال تطهير العذراء (أنظر إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني: ٢٢).

Raymond of Aguilers، xiv, pp. 272-5; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 182.

القتال. وقد تمكن هذا الأمير من الحفاظ على استقلال إمارته بالوقيعة بين السلاجقة والفاطميين. وبالنظر إلى تدهور القوة التركية كان على استعداد لتشجيع الفرنج ضد القوة المصرية التي ولدت من جديد. فوجه الدعوة إلى ريموند لإرسال ممثليه إلى طرابلس لمناقشة ترتيبات مرور الحملة الصليبية، وإحضار رايات تولوز لترفرف فوق المدينة. وتأثر مبعوثو ريموند إعجابًا بازدهار طرابلس وما حولها تأثرًا بالغًا. وبعد عودتهم إلى المعسكر أشاروا عليه بأنه إذا قام باستعراض للقوة أمام إحدى قلاع الإمارة، فسوف يدفع الأمير لا محالة مبلغًا كبيرًا ليؤمن باقي المناطق التي يبسط عليها سلطانه، فأخذ ريموند بنصيحتهم لحاجته إلى المال، وأمر جيشه بمهاجمة مدينة أرقا التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً من طرابلس حيث ينفتح سهل البقاع على الساحل، ووصل أمام أسوارها في الرابع عشر من فبراير (شباط).(١)

وفي تلك الأثناء كان ريموند متلهفًا على إقامة مواصلات إلى حامية اللاذقية والبحر، فشجع ريموند بيليت، وريموند فيكونت تورين على القيام بهجوم مفاجئ على طرطوس، وهو الميناء الوحيد الملائم على الساحل بين اللاذقيّة وطرابلس، فأسرعا غربًا ومعهما فصيلة صغيرة ووصلوا أمام أسوار المدينة بعد هبوط ظلام السادس عشر من فبراير (شباط)، وأشعلوا سلسلة من نيران المعسكر حول الأسوار كلها ليلقوا في روع المدينة أنّ هناك جيشًا أكبر بكثير مما كان في حقيقته. ونجحت الحيلة، إذ أنّ حاكم طرطوس الذي كان تابعًا لأمير طرابلس تملكه ذعر شديد، فرحل مع حاميته بحرًا أثناء الليل، وفي الصباح فتحت أبواب المدينة للفرنج. وعلى أثر أنباء الغزو سارع حاكم مدينة مرقية الواقعة على بعد عشرة أميال إلى الشمال بالاعتراف بسلطان ريموند. وقويت الحملة الصليبية كثيرًا باستيلائها على طرطوس التي فتحت لهم طريق مواصلات يسير عبر البحر إلى أنطاكية وقبرص وأوروبا.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers، xiv-xv, pp. 275; *Gesta Francorum,* x, 34, p. 184.

(٢) Raymond of Aguilers, xv, p. 276; *Gesta Francorum,* x, 34, pp. 184-6.

حصـــار أرقـــا

وأثار هذا النجاح غيرة الصليبيين الذين كانوا ما يزالون في أنطاكية ودفعـــهم إلى اللحاق بـــريموند في الجنوب. وفي نهاية فبراير (شباط) خرج جودفري أوف لوريــــن، وبوهيموند، وروبرت أوف فلاندرز من أنطاكية إلى اللاذقية، ولكن بوهيمونـــد عـــاد أدراجه بعد أن خطر له أن من الحكمة، برغم كل شيء، أن يعزز نفســـه في أنطاكيـــة خشية أن يسير الإمبراطور باتجاه سوريا في الربيع، أما جودفري وروبرت فقد اتجها إلى ميناء جبلة الصغير لمحاصرته، وأثناء تواجدهما هناك جاءهما أسقف البرة مرســـلا مـــن ريموند راجيا منهما اللحاق به في أرقا.(١)

ولم يكن حصار أرقا يسير على ما يرام، إذ كانت المدينة محصنة تحصينا قويا وقـــد استبسل حماتها في الدفاع عنها، ولم يكن جيش ريموند كبيرا بما يكفي لإحاطتها تمامـــا. ولقد كان تحذير تانكريد من أن الجيش ليس في حالة تسمح له بمحاولة غزو الحصـــون تحذيرا معقولا تماما. لكن ريموند بدأ الحصار ولم يسعه التخلي عنه خشية أن يعاديه أمير طرابلس عداوة صريحة بعد أن يلمس ضعفه. وربما لم يبذل الجنود الجهد الكبير الـلازم؛ فالحياة ناعمة في المعسكر، والبلاد المحيطة خصبة، وبدأ المزيد من الإمدادات يصل مـــن طرطوس، مما دفع الجنود إلى التمتع بالاسترخاء لفترة بعد كل ما عـــانوه. وفي أوائـــل مارس (آذار) انتشرت شائعة بتجمع جيش إسلامي لنجدة أرقا يقوده خليفـــة بغـــداد بنفسه، ثم اتضح أنها شائعة كاذبة، إلا أنها أشعرت ريموند بالخطر مما دفعه إلى اســتدعاء جودفري وروبرت أوف فلاندرز، فعقدا هدنة مع أمير جبلة الـــذي قبـــل ســـيادتهما وأسرعا جنوبا إلى أرقا. واحتفلا بوصولهما بالإغارة على ضواحي طرابلس وبالقيـــام

---

(١) *Gesta Francorum*, x, 35, p. 186; Albert of Aix, v, 33, p. 453.

بعدد من الغارات الناجحة الأخرى في البقيعة لجمع كافة أنواع الدواب بما فيها الجمال.(1)

وسرعان ما أسف ريموند لوصول زميليه، بعد أن ظل لشهرين القائد الوحيد للحملة الصليبية وبعد أن اعترف تانكريد بسلطته في مقابل خمسة آلاف سو. فأصبح عندئذ مضطرا إلى الاستعانة بخصومه لينصروه، وتركهتانكريد بعد أن تجاهل نصحه واتجه إلى معسكر جودفري قائلا إن ريموند لم يدفع له بما فيه الكفاية. وأظهر كل من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي ميلا قليلا للاعتراف بسيادته. كما أنه أثار الاستياء نتيجة محاولته تأكيد حقوقه، ومن ثم بدأت المنازعات. وعندما رأى رجال كل جيش أن قادتهم يتناطحون، حذوا حذوهم ورفضوا أن يتعاونوا مع بعضهم البعض.

وفي وقت مبكر من إبريل (نيسان) تفاقم الجدل بوصول خطابات من الإمبراطور يعلنهم فيها بأنه على أهبة الاستعداد للتوجه إلى سوريا، فإذا كان باستطاعتهم انتظاره حتى نهاية يونية (حزيران) فسيكون معهم في عيد القديس جون ويقودهم إلى فلسطين. ورغب ريموند في قبول هذا العرض، إذ أنه الحليف المخلص للإمبراطور، ولذا يمكنه أن يعول على الدعم الإمبراطوري في مساعدته على إعادة تأكيد سيادته على جيش الفرنج. وهناك الكثير من بين رجاله ــ مثل ريموند أوف أجيليه ــ يشعرون بأن وصول الإمبراطور سيوفر للحملة الصليبية ــ على الأقل ــ قائدا يقبله جميع الأمراء برغم كراهيتهم الشديدة للبيزنطيين. على أن سواد الجيش قد نفد صبره انتظارا للتحرك نحو القدس، ولم يكن هناك من الأمراء الآخرين من يرغب في أن يجد نفسه تحت السيادة الإمبراطورية، ولا تستطيع سياسة ريموند أن تحقق أهدافها في مواجهة هذا الرأي العام القوي. وأغلب الظن أن ألكسيوس لم يتوقع مطلقا أن ينتظره الصليبيون، لقد شعر بالاشمئزاز من تصرفهم في أنطاكية، فقرر أن يلتزم جانب الحياد. وليس هذا بالموقف السلبي عند الدبلوماسي البيزنطي، وإنما يعني إقامة علاقات مع الجانبين كي

---

(1) *Gesta Francorum*, loc.cit.; Raymond of Aguilers, xvi, pp. 277-8.

يجني الثمار كائنا من يكون المنتصر منهما. فكان على اتصال بالمصريين الذين ربما كاتبوه عندما تقدمت الحملة الصليبية باتجاه أراضيهم ليسألوه ما إذا كانت تلك الحملة لحسابه، فتبرأ في رده من تلك الحركة الصليبية، وكان لديه من الأسباب ما يبرر ذلك، إذ تعلم من سلوك بوهيموند ألا يعتمد على إخلاص الفرنج، ولم يكن مهتما بشكل خاص بفلسطين الواقعة خارج حدود الأراضي التي يأمل في استعادتها للإمبراطورية، والتزامه الوحيد في فلسطين هو التزامه قبل المسيحيين الأرثوذوكس باعتباره القوة التي تحميهم. وكان يحق له أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس في فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج الذين أظهروا بالفعل في أنطاكية عداوة واضحة نحو المسيحية المحلية، وفي ذات الوقت لم يكن راغبا في قطع اتصاله بالحملة الصليبية، فربما تكون ذات نفع للإمبراطورية. وفيما بعد وقعت مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم الدليل على خيانته صدمة عميقة،

رغم أن خيانتهم له بدت في نظرهم معقولة وصحيحة تماما، وألقوا عليه اللائمة عندما طالت فترة بقاء سفرائهم المرسلين من أنطاكية في القاهرة.(١)

وعاد هؤلاء السفراء إلى الجيش في أرقا بعد ذلك بأيام قليلة حاملين معهم عرضا من الفاطميين بتسوية نهائية مفادها أنه إذا تخلت الحملة الصليبية عن أية محاولة لشق طريقها بالقوة في الأراضي الفاطمية، فسوف يسمح لحجاجهم بحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وسوف تتخذ كل التدابير لتسهيل الحج. وقد رفض هذا العرض في الحال.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277, xviii, p.286.

(٢) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277; William of Tyre, vii, 19, vol. 1, pt. 1, pp. 305-6

مسألة الرمح المقدس

ورغم أنّ الأمراء الآخرين كانوا يرغبون في استئناف المسير، رفض ريموند التخلّي عن أرقا دون الاستيلاء عليها. وحسمًا للأمور أعلن بطرس بارثولوميو أنّ المسيح والقديس بطرس والقديس أندرو ظهروا له في الخامس من إبريل (نيسان)، وأعلنوا ضرورة الهجوم على أرقا فوراً. وكان سواد الجيش قد بدأ يمل رؤى بطرس التي اعتبروها حيلة سياسية من اختراع ريموند. وتزعم القس آرنولف أوف روهس التابع لروبرت النورماندي فريقًا من النورمانديين الشماليين الذين أعلنوا على الملأ أنهم لا يصدقون بطرس بارثولوميو، بل ويشككون في صحة الرمح المقدس مشيرين إلى أنّ أدبمار أسقف لوبوي لم يقتنع به أبدًا. فجمع أبناء بروفانس صفوفهم لمؤازرة بطرس، فذكّرهم ستيفن أوف فالنس برؤياه في أنطاكية، كما ذكّرهم ريموند أوف أجيليه بأنه قبّل الرمح وهو ما يزال مطموراً في الأرض، وأخبرهم قسيس آخر (بطرس دزيديريوس) أنّ أدبمار ظهر له بعد موته ووصف له سعير جهنم التي اصطلى بها بسبب تشككه في الرمح، وقال آخر يدعى ايفيرارد إنه عندما كان في زيارة عمل في طرابلسأثناء حصار الأتراك لأنطاكية أخبره أحد السوريين هناك عن رؤيا تحدّث فيها القديس مرقص عن الرمح، وذكر أسقف آبت رؤيا جعلته يغير من رأيه بعد أن كان متشككًا، وأعلن برتراند أوف لوبوي الذي كان من حاشية أدبمار أنّ الأسقف أدبمار وحامل رايته قد ظهرا له كلاهما في رؤيا ليعترفا له بأنّ الرمح هو الرمح الأصلي. وفي مواجهة كل هذه الدلائل المؤثرة اعترف أرنولف علانية بأنه قد اقتنع، ولكن أصدقاءه استمروا في إلقاء ظلال الشك على القصة كلها إلى أن طلب بطرس بارثولوميو أخيرًا وهو في سورة الغضب أن يُسمح له بالدفاع عن نفسه عن طريق الاحتكام إلى النار[1].

---

[1] (المترجم): المحاكمة بالتعذيب Ordeal أو الإحتكام إلى النار: وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أم مذنبا بإخضاعه لضروب التعذيب الخطر أو المؤلم، وكان يُظن أن تلك الوسيلة تخضع لتدخل الرب الذى ينجي البرئ من آثارها.

وأيا ما كانت الحقيقة، فمن الواضح أنه يعتقد اعتقادا راسخا في أنه كان يوحى إليه من السماء.

وتم الاحتكام إلى النار في يوم الجمعة الحزين الثامن من إبريل (نيسان)، فأحضروا كمية من الكتل الخشبية ووضعوها في صفين متقابلين بحيث تشكل ممرا ضيقا وأشعلت فيها النيران، وجاء بطرس بارثولوميو وعليه قميصه فقط والرمح في يده، وقفز بسرعة خلال اللهب، ثم برز من الناحية الأخرى وهو محترق احتراقا مرعبا، وأوشك أن يهوي إلى الخلف في النيران لولا أن أمسك به ريموند بيليت، وظل يعاني من الآلام اثني عشر يوما ثم مات متأثرا بجراحه. وأسفر هذا الاحتكام عن تكذيب الجميع لأصالة الرمح كلية، فيما عدا البروفنسال الذين أكدوا أن بطرس مر بسلام خلال النار ولكن المحتشدين المتحمسين دفعوه إلى الخلف في تلهفهم على لمس قميصه المقدس.

وظل الكونت ريموند يحتفظ بالرمح في كنيسته الصغيرة بكل التبجيل .[1]

الصليبيون أمام طرابلس

وبقي الجيش شهرا خارج أسوار أرقا إلى أن أمكن اقناع ريموند بالتخلي عن الحصار. وأزهقت أرواح كثيرة في القتال منها أنسيلم أوف ريبيمو الذي تضمنت

---

[1] Raymond of Aguilers,xvii-xviii, pp. 279-88 يؤيد بطرس بارثولوميو

Fulcher of Chartrs, 1, xviii, 4-5, pp. 238-41.

Radulph of Caen, cviii, pp.682;

Albert of Aix, v, 13, p.452.

ويتشكك كل من فولشر وألبرت لكنهما يتخذان موقفا سلبيا لا إلى التأييد ولا إلى الإنكار . ورادولف صريح العداء لبطرس. أما صاحب تاريخ جيستا فرانكورام فيحذف الرواية .

رسائله إلى مولاه رئيس أساقفة ريم سردًا حيًّا للحملة الصليبية.[١] وفي الثالث عشر من مايو (أيار) أذعن ريموند لإقناع رفاقه وأمر بهدم المعسكر والدموع تملأ مآقيه، وتحرك الجمع كله باتجاه الجنوب إلى طرابلس. ودارت مناقشات أخرى حول الطريق الذي سيسلكه الجيش، فأخبر السوريون ريموند أنّ هناك طريقًا سهلاً يمر بدمشق ولكن تنقصه المياه رغم وفرة الطعام فيه. أما طريق لبنان فالمياه فيه وفيرة ولكنه وعر لدواب الحمل، والبديل الثالث هو طريق الساحل لولا أنّ به بعض الأماكن تستطيع حفنة من الأعادي أن تقطعه فيها. ومع ذلك، أعلنت النبوءات المحلية أنّ مخلصي القدس سوف يرتحلون بطول الساحل. فاختار هذا الطريق لدواعي الاتصال بالأسطولين الجنوي والإنجليزي المبحرين في مياه الشرق وليس استجابة للتنبؤ باختياره.[٢] وعندما اقترب الصليبيون سارع أمير طرابلس ليؤمن عاصمته وضواحيها بأن أفرج عن ثلاثمائة سجين مسيحي كانوا في المدينة. ودفع لهم عوضًا عن احتلال المدينة خمس عشرة ألف بيزنتة وخمسة عشر جوادًا أصيلاً، وزود الجيش كله بدواب الحمل والطعام، وزاد على ذلك بأن عرض أن يتخذ المسيحية دينًا إذا هزم الصليبيون الفاطميين.[٣]

وفي يوم الاثنين السادس عشر من مايو (أيار) غادر الصليبيون طرابلس بصحبة المرشدين الذين قدمهم الأمير، فقادوهم في أمان عبر الطريق الملتف حول رأس الشقعة، وبعد أن مروا بسلام خلال مدينتي البترون وجبيل التابعتين للأمير وصلوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب في التاسع عشر من مايو (أيار). ولم يكن للفاطميين جنود

---

(١) Raymond of Aguilers, xvi, pp. 276-7; *Gesta Francorum,* x, 35, p. 188 ويخبرنا Fulcher of Chartres, 1 , xxv, 8, p.270 أنه قتل بحجر .

(٢) Raymond of Aguilers, xviii, pp. 288,290-1.

(٣) *Ibid.* p. 291; *Gesta Francorum,* x, 35-6, pp. 188-90.

على حدودهم الشمالية فيما عدا حاميات صغيرة في المدن الساحلية، لكنهم يملكون بحرية عظيمة تستطيع توفير دفاع إضافي لتلك المدن. وهكذا، وبرغم انعدام المقاومة على هذا الطريق، لم يكن في مأمول الصليبيين الاستيلاء على أيّ ميناء من الموانئ التي مروا بها، كما لم يعد في مقدور الأسطول المسيحي الاتصال بهم. وكان الخوف من تناقص الإمدادات يدفعهم إلى الإسراع بكل قوتهم إلى هدفهم النهائي.

وعندما اقتربوا من بيروت خشى السكان المحليون أن يقوم الصليبيون بتدمير الحدائق الباسقة وبساتين الفاكهة المحيطة بالمدينة، فسارعوا إلى تقديم الهدايا والسماح لهم بحرية المرور عبر أراضيهم شريطة عدم الإضرار بأشجار الفاكهة والكروم والمحاصيل، وقبِل الأمراء شرطهم واقتادوا الجيش بسرعة إلى ميناء صيدا فوصل هناك في العشرين من مايو (أيار). وكانت حامية صيدا أقوى شكيمة، فبينما كان الصليبيون معسكرين على ضفاف نهر الليطاني خرجت إليهم قوة من الحامية وهاجمتهم، لكن الصليبيين صدوا الهجوم وردوا على تلك الهجمة بأن نهبوا الحدائق في الضواحي. ولكنهم رحلوا بكل ما لديهم من سرعة إلى جوار صور حيث انتظروا يومين حتى يدركهم بالدوين أوف لوبورج وعدد من الفرسان من أنطاكية ومن الرها. وكان لجداول المياه والخضرة الزاهية ما جعل المكان خليقًا بأن يكون محطة رائعة للراحة. وبقيت حامية صور داخل أسوارها ولم تناوشهم إلى أن رحلوا في الثالث والعشرين من نفس الشهر، وعبر الجيش الممر المسمى (سلم صور) بلا صعوبة، وكذلك مرتفعات الناقورة، ووصل إلى مشارف عكا في اليوم الرابع والعشرين. وحذا حاكم عكا حذو حكام بيروت، فافتدى المزارع الخصيبة المحيطة بالمدينة بإهدائهم الإمدادات الوفيرة. وسار الجيش من عكا إلى حيفا، عبر الساحل على سفح جبل الكرمل إلى قيسارية حيث أمضى أربعة أيام من السادس والعشرين إلى الثلاثين من الشهر لكي يحتفل الاحتفال الملائم بأحد العنصرة.[1] وبينما هم في معسكرهم هناك انقض أحد الصقور

---

[1] (المترجم): أحد أو عيد العنصرة: يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليدا لذكرى هبوط الروح القدس فى عيد الخمسين (أنظر الإنجيل، العهد الجديد، سفر أعمال الرسل : 2) .

على حمامة محلقة فوقهم فقتلها وسقطت بالقرب من خيمة أسقف آبت، واتضح أنها حمامة زاجلة تحمل رسالة من حاكم عكا يستثير فيها مسلمي فلسطين ضد الغزاة.(1)

احتلال الرملة

واستأنف الصليبيون السير بطريق الساحل حتى أرصوف، ثم انحرف الجيش إلى داخل البلاد، فوصل في الثالث من يونية (حزيران) أمام مدينة الرملة. وكانت الرملة مدينة إسلامية بخلاف أغلب مدن فلسطين، وكانت قبل الغزو التركي العاصمة الإدارية للإقليم لكنها تدهورت في السنوات الأخيرة. وباقتراب الصليبيين شعر السكان بالذعر؛ فالحامية صغيرة، والمدينة بعيدة عن البحر بحيث لا تستطيع البحرية المصرية مساعدتهم، فهربوا من منازلهم في حشد واحد وساروا باتجاه الجنوب الغربي بعد أن دمروا من قبيل التحدي كنيسة القديس جورج التي كانت قائمة على أطلال قرية اللد التي تبعد عن الرملة مسافة ميل واحد. وعندما تقدم روبرت أوف فلاندرز وجاستون أوف بيلون في طليعة الجيش الصليبي وجدا الشوارع مهجورة والمنازل خاوية.

وأدى احتلال مدينة إسلامية في قلب الأراضي المقدسة إلى أن يشعر الصليبيون بالزهو. وفي الحال أقسموا على إعادة بناء كنيسة القديس جورج وتأسيس لوردية تضم اللد والرملة وجعلها وقفًا عليه، وإنشاء أسقفية جديدة يكون أسقفها هو سيد اللوردية، وعُين القسيس النورماندي روبرت أوف روين أسقفًا لهذه الدائرة الأسقفية. وكما كان في مدينة البرة، لم يكن ذلك يعني وضع أسقف لاتيني محل آخر يوناني، وإنّما كان يعني تأسيس أسقفية في بلد إسلامي مفتوح. ودلّ هذا التعيين على أنّ الرأي العام الصليبي يعتبر أنّ البلاد التي تؤخذ بالحرب ينبغي أن تعطى للكنيسة. وعهد بمدينة

---

(1) Raymond of Aguilers, xviii-xix, p.291; *Gesta Francorum,* x, 36, pp.190-2; Fulcher of Chartres, 1, xxv, 10.12, pp. 271-6.

الرملة إلى روبرت ومعه حامية صغيرة لحمايتها.[١] وفي تلك الأثناء ناقش الأمراء الخطوة التالية; فالبعض يعتبر أنّ الهجوم على القدس في قيظ الصيف عمل أحمق، وإنّما الأصوب هو التقدم نحو العدو الحقيقي، مصر. وبعد مناقشات رُفض الاقتراح واستأنفوا السير إلى القدس في السادس من يونية (حزيران).[٢]

ومن الرملة سلك الجيش الطريق القديم الذي ينتهي داخل تلال يهودا (حاليّا الضفة الغربية لنهر الأردن) إلى شمال الطريق العام الحالي، وأثناء مروره من قرية إيماوس وصل مبعوثون من مدينة بيت لحم لينقلوا إلى الأمراء توسلات جميع سكانها المسيحيين لتخليصهم من نير المسلمين، وعلى الفور ذهب تانكريد وبالدوين أوف لوبورج ومعهما فصيلة فرسان صغيرة إلى تلال بيت لحم حيث وصلوا في منتصف الليل. وفي أول الأمر ظنّ السكان الخائفون أنهم جزء من جيش مصري جاء لتعزيز دفاعات القدس. وعند بزوغ الفجر وبعدما تحققوا من أنهم فرسان مسيحيون، خرجت المدينة كلها في مواكب زِيَّاحية[٣] ومعها كل الآثار والصلبان من كنيسة الميلاد للترحيب بمنقذيهم ولتقبيل أياديهم.[٤]

وبعدما عاد مكان مولد المسيح (بيت لحم) إلى الحكم المسيحي أخذ الجيش الصليبي يشق طريقه طوال اليوم وخلال الليل نحو القدس. وخسف القمر، منذراً بخسوف الهلال مما قوّى من عزيمتهم، وفي الصباح التالي جاء مائة فارس من فرسان تانكريد من بيت لحم وانضموا إلى رفاقهم مرة أخرى. وعند الضحى وصل الصليبيون

---

(١) Raymond of Aguilers, xix, pp. 291-2; *Gesta Francorum, loc. cit.* William of Tyre, vii, 22, vol. 1, pt. 1, p. 313.

(٢) Raymond of Aguilers, xix, p. 292.

(٣) (المترجم): الموكب الزياحي: إحتفال يقوم به المسيحيون ، ويطوفون فيه الشوارع حاملين أشياء مقدسة يعرضونها على الجمهور .

(٤) Fulcher of Chartres, 1, xxv, 13-17, pp. 277-8; Albert of Aix, v, 44-5, pp. 461-3.

إلى أعلى نقطة في الطريق عند مسجد النبي صمويل، على قمة التـــل الــذي يســـميه الحجاج جبل الإرشاد، وظهرت القدس بأسوارها وأبراجها أمامهم على مرمى البصـــو. وفي مساء الثلاثاء السابع من يونية (حزيران) سنة ١٠٩٩ ميلاديـــة ضـــرب الجيـــش المسيحي خيامه أمام المدينة المقدسة.(١)

(1) *Gesta Francorum,* x, 37, p. 194; Raymond of Aguilers, xx, p. 292; Albert of Aix, v, 45, p. 463.



الفصل الثانى

إنتصـــــار الصليـــب

انتصار الصليب

"اهْتِفُوا لِلّهِ بِصَوْتِ الِابْتِهَاجِ. لِأَنَّ الرَّبَّ عَلِيٌّ مَخُوفٌ"

(سفر المَزَامِير: المزمور٤٧: ٢،١)

كانت مدينة القدس واحدة من القلاع العظيمة في عالم القرون الوسطى، ومنذ أيام اليبوسيين[1] اشتهر موقعها بالقوة التي عززتها مهارة الإنسان على مر القرون. فكانت الأسوار التي وجد الصليبيون أنفسهم تحتها مبينة على غرار الأسوار التي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، والتي بناها فيما بعد السلطان العثماني سليمان العظيم. ولقد وضع

[1] (المترجم): اليبوسيون Jebusites : سكان أورشليم على عهد داوود ، (أنظر الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس إلى الثامن) .

تخطيط الأسوار عندما أعاد هادريان بناء المدينة، ثم أضاف إليها البيزنطيون والأمويون والفاطميون كل بدوره وأصلحوها. فمن الشرق كان غدير قدرين الذي يجري في الوهد الصغير الضيق شديد الانحدار يحمي الأسوار، ومن الجنوب الشرقي كانت الأرض تنحدر إلى وادي جهنم، وكان هناك واد ثالث أقل عمقًا بقليل من الواديين الآخرين يحيط بالسور الغربي، وكانت منطقة الجنوب الغربي حيث تواجة الأسوار جبل صهيون، وكذلك المنطقة المقابلة للأسوار الشمالية، هما فقط المنطقتين الملائمتين للهجوم على التحصينات. وأما القلعة، واسمها برج داوود، فكانت تتوسط جنوب السور الغربي وتتحكم في الطريق الذي يصعد في جانب التل ليصل إلى بوابة يافا. وبرغم عدم وجود ينابيع داخل المدينة فإنّ صهاريج المياه الوفيرة كانت تضمن إمدادات المياه. وحافظ نظام الصرف الروماني على المدينة وهو ما يزال يستخدم في القرن العشرين.

الدفاع عن القدس

وكان الحاكم الفاطمي إفتخار الدولة هو قائد دفاعات المدينة، وكانت الأسوار في حالة جيدة، ولديه حامية قوية من الجنود العرب والسودانيين. وعلى أثر أنباء اقتراب الفرنج اتخذ احتياطاته؛ فهدم الآبار خارج المدينة أو سمّمها، ونقل قطعان الدواب من المراعي المحيطة بالمدينة إلى أماكن آمنة، وأمر السكان المسيحيين كلهم، من الأرثوذوكس والهراطقة على السواء، بالبقاء خارج الأسوار، ومع ذلك سمح لليهود بالبقاء داخلها. وكانت خطوة تتصف بالحكمة. ففي القرن العاشر فاق عدد المسيحيين في القدس عدد المسلمين، ورغم تناقص عددهم بسبب ما اقترفه الخليفة الحاكم من اضطهاد، ورغم أنّ كثيرين آخرين ــ وفيهم أغلب رجال الدين الأرثوذوكس ــ قد رحلوا مع البطريق أثناء الأوقات العصيبة التي أعقبت موت أرتق، كان ما يزال في القدس ألوف المسيحيين عديمي الفائدة كمقاتلين، فقد حُرِّم عليهم القتال ضدّ رفاقهم المسيحيين، بالإضافة إلى ذلك كان طردهم يعني تقليل عدد الأفواه التي ستطلب الطعام

أثناء الحصار. وفي نفس الوقت أسرع افتخار الدولة بإرسال المبعوثين إلى مصر لطلب العون المسلح.(١)

حتى وإن كانت طبيعة وضع الأرض المحيطة بالقدس تسمح بمحاصرة المدينة، فلم يكن لدى الصليبيين القوات الكافية لتطويق المدينة كلها. فركزوا على القطاعات التي يستطيعون فيها الاقتراب من الأسوار: فأخذ روبرت النورماندي موقعه بطول السور الشمالي في مواجهة بوابة الزهور (بوابة هيرود)، وعلى يمينه روبرت أوف فلاندرز في مواجهة بوابة العمود (بوابة القديس ستيفن أو بوابة دمشق)، وتولى جودفري أوف لورين المنطقة التي تغطي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة حتى بوابة يافا، ولحق به في هذا المكان تانكريد الذي جاء من بيت لحم ومعه قطعان الماشية التي استولى عليها في طريقه، وإلى الجنوب منه كان ريموند أوف تولوز الذي وجد أنّ الوادي يفصل بينه وبين الأسوار، فتحرك بعد يومين أو ثلاثة إلى جبل صهيون، وأمّا القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فقد تركا دون حراسة.(٢)

وبدأ الحصار في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون إلى الأسوار وهو السابع من يونية (حزيران)، ولكن سرعان ما اتضح أنّ الوقت في جانب المحاصَرين، فكان لدى افتخار كميات وفيرة من الطعام والماء، وكان تسليحه أفضل من تسليح الفرنج، واستطاع تقوية أبراجه بأجولة مليئة بالقطن والقش تخفف من وطأة قذائف المنجنيق التي يطلقها الفرنج. فإذا استطاع الصمود إلى أن يأتي جيش النجدة القادم من مصر

---

(١) Fulcher of Chartres (1,xxvii, 12, p. 300) يذكر وجود جنود "أثيوبيين Aethiopian". ويذكر كل من Raymond of Aguilers (xx, pp. 293-4) و *Gesta Francorum* (x, 37, p. 198). تسميم الآبار. وكان بطريق الكنيسة الأرمينية "الكاثوليكوس فارهام Catholicus Varham" موجودا في القدس في ذلك الوقت، ويبدو أنه تمكن من الفرار من المدينة (Matthew of Edessa, II, clvii, p. 225).

(٢) Raymond of Aguilers, xx, p. 293; *Gesta Francorum,* x, 37, p. 194; Albert of Aix, v, 46, pp. 463-4.

فسوف تنتهي الحملة الصليبية كلها. على أن الحامية، برغم حجمها، لم تكـد تكفـي لتمركز الرجال على الأسوار كلها. وسرعان ما واجهت الصليبيين صعوبـة إمـدادات المياه، فقد كانت التدابير التي اتخذها افتخار تدابير فعالة، وكان مصـدر الميـاه النقيـة الوحيد المتاح للمحاصرين يأتي من بركة سيلوم أسفل السور الجنوبي، وكانت معرضـة بشكل خطير لقذائف الحامية، ولكي يعوض الصليبيون نقص الميـاه كـان عليـهم أن يقطعوا ما لا يقل عن ستة أميال، وكانت الحامية تعلم ذلك، فكانت ترسل جماعـات صغيرة تخرج إلى الطرق المؤدية إلى الينابيع لتنصب الأكمنة; فـهلك جنـود وحجـاج كثيرون من تلك الهجمات المباغتة. وبدأ الطعام يتناقص هو الآخر، فلم يكن هناك مـن طعام بالقرب من المدينة سوى النذر اليسير، وأسهم القيظ والأتربة والافتقار إلى الظـل في المزيد من رهق الصليبيين الوافدين من أجواء أكثر برودة، وقد ارتدى الكثير منـهم عدة الحرب التي لا تلائم صيف يهودا (الضفة الغربية)، واتضح لهم جميعـا أنـه ليـس بوسعهم تحمل حصار طويل، وإنما ينبغي لهم الهجوم على المدينة بسـرعة والاسـتيلاء عليها.[1]

وفي الثاني عشر من يونية (حزيران) حج الأمراء إلى جبل الزيتون حيث خاطبـهم ناسك مسن طالبا منهم مهاجمة الأسوار في اليوم التالي، فاعترضوا لعدم وجـود الآلات الضرورية لنجاح الهجوم، لكن الناسك لم يقبل شيئا من اعتراضاتهم قائلا لو أنه كـان لديهم الإيمان فإن الرب ناصرهم. وأدخلت كلمته الجرأة في قلوبهم، فأمروا بهجوم عـام في صباح اليوم التالي. بيد أن الناسك كان مخطئا، أو أن إيمانهم كان بالغ الضعف; فقـد انطلق الصليبيون إلى الهجوم بحماس مستعر، وسرعان ما اكتسحوا دفاعـات السـور الشمالي الخارجية، لكن سلالمهم كانت أقل بكثير من أن تمكنهم من اعتلاء الأسـوار في

---

(1) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-4; *Gesta Francorum,* x, 37, pp. 194-8.

أماكن كافية في وقت واحد، وبعد عدة ساعات من القتال اليـــائس أدركـــوا عُقـــم محاولتهم فانسحبوا.(١)

وتسبب فشل الهجوم في خيبة أمل مريرة، غير أنه بيّن للأمراء حاجتهم الملحـــة إلى بناء المزيد من آلات الحصار، فقرروا في اجتماع عقدوه في الخامس عشر مـــن يونيـــة (حزيران) الكفّ عن أيّة هجمات أخرى إلى أن تتوفر لديهم المناجق والسلالم بصـــورة أفضل. لكنهم كانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنعها. وكمـــا حـــدث في أنطاكيـــة أنقذهم وصول العون بحرًا في الوقت الملائم تمامًا. ففي السابع عشر من يونية (حزيـران) رست ست سفن مسيحية في مرفأ يافا بعد أن هجره المسلمون، وكان الأسطول يتألف من غليونين(٢) من جنوا بقيادة الأخوين إمبرياكو، وأربع سفن ربما كانت من الأسطول الإنجليزي، وكانت السفن تحمل إمدادات الطعام والأسلحة بما في ذلك الحبال والمسامير والصماويل وكلها أشياء ضرورية لصنع آلات الحصار. وما أن سمع الصليبيون بوصـــول تلك السفن حتى أرسلوا في الحال فصيلة صغيرة للاتصال بالأسطول، ووقعـــت هـــذه الفصيلة في كمين نصبه فريق من المسلمين يعمل من عسقلان، ولم ينقذ الفصيلة ســـوى وصول ريموند بيليت ورجالة الذين كانوا في أعقابها. وفي ذات الوقت ظهر أســـطول مصري أغلق سواحل يافا، وتمكنت إحدى السفن الإنجليزية من أن تفلت مـــن هـــذا الحصار وأبحرت عائدة إلى اللاذقيَّة. وأمّا السفن الأخرى فقد هجرها بحارتها فور تفريـغ شحنتها وساروا في حراسة ريموند بيليت إلى معسكر الصليبيين خارج القدس حيـــث قوبلوا بترحاب حار هم والبضائع التي أحضروها معهم. على أنه كان ما يـــزال مـــن الضروري العثور على الأخشاب اللازمة لصنع الآلات، ولم يكن هناك سوى القليـــل منها في التلال الجرداء المحيطة بالقدس مما دفع الصليبيين إلى إرسال الحمـــلات مســـافة أميال عديدة لجمع الأخشاب المطلوبة. ولم يبدأ العمل في تلك الآلات إلاّ بعدما توغـــل

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 293; *Gesta Francorum,* x, 37, p. 196.

(٢) (المترجم): الغليون galley: سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف.

تانكريد وروبرت أوف فلاندرز بأتباعهما مسافات بعيدة إلى الغابات المحيطة بمدينة السامرة[1] وعادا محملين بكتل وألواح الأخشاب الضخمة المحمولة على ظهور الجمال، أو على أكتاف الأسرى من المسلمين. وصنعت السلالم، وبدأ كل من ريموند وجودفري في تشييد حصن خشبي مجهز بالمنجنيق مثبت على عجلات، وعهد إلى جاستون أوف بايرن بتشييد حصن جودفري، وإلى وليم ريكو بتشييد حصن ريموند.[2]

معاناة المحاصرين

وسار العمل ببطء بينما كان الفرنج يعانون المعاناة الرهيبة من حرارة الجو; فقد هبت رياح حارة مزعجة على مدى أيام كثيرة كان لها أثر مميت على أعصاب رجال لم يعتادوا عليها. وتفاقمت صعوبة إمدادات المياه حتى أن أعدادا من دواب الحمل والقطعان كانت تهلك في كل يوم من العطش، مما دفع الجيش إلى إرسال فصائل حتى الأردن للبحث عن المياه. وكانت تلك الفصائل تلقى غاية الحفاوة من السكان المسيحيين الذين أرشدوها إلى ينابيع المياه والغابات الواقعة في الجوار، على أنه كان من المحال منع غارات وكمائن الجنود المسلمين سواء أكانوا من الحامية أو من الجماعات التي تجوب أرجاء البلاد. وثارت المشاحنات بين الأمراء مرة أخرى، أولا بسبب امتلاك بيت لحم: فتانكريد هو الذي حرر المدينة وترك رايته ترفرف فوق كنيسة الميلاد، لكن رجال الدين وأنداده من الأمراء رأوا أنه من الخطأ أن يكون هذا المبنى المقدس تحت سلطان لورد علماني، ودافع تانكريد عن مطالبته ببيت لحم، وبرغم وقوف الرأي العام ضده فقد اتفقوا على تأجيل هذا الأمر. وثانيا، بدأ الجدل حول مستقبل القدس فاقترح بعض الفرسان تعيين ملك عليها، فعارض رجال الدين بالإجماع قائلين إنه لا يوجد مسيحي واحد بمقدوره أن يسمي نفسه ملكا في مدينة توج فيها المسيح وعانى الآلام،

---

[1] (المترجم): السامرة Samaria : منطقة في فلسطين بين الجليل ويهودا (في الضفة الغربية).

[2] Raymond of Aguilers, xx, pp. 294-7; *Gesta Francorum,* x, 37, pp. 196-200.



ومرة أخرى وقف الرأي العام إلى جانب رجال الدين وتقرر تأجيل المناقشات. وأدت المتاعب الجسمانية البائسة وما صاحبها من محاولة الهجوم الفاشلة وما ترتب على ذلك من تجدد المشاحنات بين الأمراء إلى تخلي الكثيرين عندئذ عن الحملة الصليبية. فذهبت جماعة منهم إلى نهر الأردن لإعادة تعميد أنفسهم في النهر المقدس، وبعد أن جمعوا سعف النخيل من ضفة النهر ارتحلوا إلى يافا مباشرة يحدوهم الأمل في العثور على قوارب تحملهم في رحلة العودة إلى أوروبا.[1]

وفي أوائل يولية (تموز) علم الصليبيون أنّ جيشًا عظيمًا قد خرج من مصر لنجدة القدس. وتحقق الأمراء من أنه لا وقت لديهم للتأخير، ولكن معنويات جنودهم كانت منخفضة، فأغاثتهم الرؤيا مرة أخرى; ففي صباح السادس من يولية (تموز) جاء بطرس دزيديريوس، الذي شهد من قبل برؤيته للأسقف أديمار بعد موته، إلى أخي أديمار، وهو وليم هيو أوف مونتييه وكذلك إلى سيده إيزوار أوف جاب وقال لهما إنّ الأسقف ظهر له مرة ثانية وأمر الصليبيين بأن يكفّوا عن مخططاتهم الأنانية وأن يصوموا ثم يسيروا بعد انتهاء الصوم في مواكب زيّاحية حول أسوار القدس وهم حُفاةِ الأقدام. فإذا فعلوا ما أُمروا به بقلوب تائبة فلسوف يستولون على القدس في غضون تسعة أيام. وعندما زعم بطرس دزيديريوس بأنه شاهد أديمار يُصلى نار جهنم لريبته في قصة الرمح المقدس كذّبه الصليبيون جميعهم، ولكن الآن ــ ربما لأن الأسقف ظهر في صورة أكثر إشراقًا، ولأن أسرة مونتييهمنحت مؤازرتها ــ فقد لقيت الرؤيا قبولاً فوريًا من الجيش كله على أنها رؤيا صحيحة. وقوبلت تعليمات أديمار بطاعة متلهفة; فقد صدرت الأوامر بالصوم، وروعي تنفيذها مراعاة متفانية خلال الأيام الثلاثة التالية، وفي يوم الجمعة الثامن من يولية (تموز) دار الموكب الزّياح الوقور حول المدينة، وسار الأساقفة والقساوسة في الطليعة حاملين صلبانًا وآثارًا مقدسة، وتبعهم الأمراء والفرسان، ثم الراجلون من الجنود والحجاج، وكان الجميع حفاة الأقدام. وتجمع المسلمون على

---

[1] Raymond of Aguilers, xx, pp. 295-6.

الأسوار يسخرون منهم، لكنهم تفاخروا بهذه السخرية، وبعد أن أتموا الـدورة حـول المدينة صعدوا جبل الزيتون حيث خطب فيهم بطرس الناسك، وبعده خاطبهم واعـظ ريموند أوف أجيليه، ثم واعظ روبرت النورماندي، آرنولف أوف روه الذي كان يعـدّ آنذاك أبلغ الوعاظ الموجودين مع الجيش، وحركت فصاحتهم الجمع الكبير وأثارته حتى نسي ريموند وتانكريد خلافاتهما وأقسما على أن يحاربا معًا من أجل الصليب.(١)

ترتيبات الهجوم

وتواصل الحماس. فخلال اليومين التاليين دأب رجال الجيش على العمل لإتمـام أبراج الحصار الضخمة برغم ما يعانونه من عطش، وكانت مهارة أبناء جنوا برئاسـة وليم امبرياكو ذات عون كبير، وحتى المسنين من الرجال والنساء كان لهم نصيبـهم في حياكة جلود الثيران والجمال وتثبيتها بالمسامير على الأجزاء المكشوفة مـن الأعمـال الخشبية لحمايتها من النيران الإغريقية التي يستعملها العرب.(٢) وفي العاشر مـن نفـس الشهر أصبحت الأبراج الخشبية جاهزة للعمل، وسُحبت على عجلاتهـا إلى مواقعـها فوضع أحدها في مواجهة السور الشمالي، وآخر فوق جبل صهيون، وثالث أصغر بقليل من سابقيه في مواجهة الركن الشمالي الغربي من الدفاعات. وأنجز الصليبيون أعمـال الإنشاءات بحذر شديد بعيدًا عن أعين جنود الحامية الذين أخذ منهم الذهول والذعـر لدى رؤيتهم تلك القلاع أمامهم، فسارع افتخار إلى تقوية الدفاعات الأضعف، وأخـذ في قذف أبراج الحصار قذفًا منتظمًا بالأحجار والسوائل الحارقة للحيلولة دون التصاقها بالأسوار.(٣)

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 296-7؛ خطاب ديامـبرت Diambert إلى البابـا ، في Hagenmeyer, *ob. Cit.* pp. 170-1; *Gesta Francorum,* x, 38, pp. 200-2.

(٢) (المترجم): النيران الإغريقية the Greek fire : مركب قابل للإحتراق يشتعل في الماء.

(٣) Raymond of Aguilers, xx, p. 298; *Gesta Francorum,* x, 38, p. 200.

وتقرر أن يبدأ الهجوم خلال ليلة الثالث عشر والرابع عشر من يولية (تموز)، على أن يكون الهجوم الرئيسي في وقت واحد من جبل صهيون وعلى القطاع الشرقي من السور الشمالي، وهجوم آخر للتضليل على الزاوية الشمالية الغربية. واستنادا إلى أرقام المؤرخ ريموند أوف أجيليه — وليس ثمة شك فيها — كانت قوة الجيش المقاتل الفعالة آنذاك اثني عشر ألفا من جنود المشاه وألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حجاج كثيرون لم يحاول تقدير أعدادهم، وهم رجال بلغوا من العمر أو من المرض ما يحول دون اشتراكهم في القتال، كما كان هناك نساء وأطفال. وكانت المهمة الأولى للمغيرين هي إحضار حصونهم الخشبية لتلاصق الأسوار تماما، وهي مهمة تتطلب ردم الخندق المحيط بالأسوار في ذلك القطاع، وركز الصليبيون على مهمتهم هذه طوال الليل وأثناء نهار الرابع عشر من الشهر، ولاقوا الأمرين من الأحجار والسوائل الحارقة التي كان المدافعون يقذفونها، وردوا على ذلك بقصف شديد من المناجق الخاصة بهم. وبحلول مساء الرابع عشر من يولية (تموز) أفلح رجال ريموند في دفع عجلات برجهم أعلى الخندق إلى أن أصبح في مواجهة السور، ولكن الدفاع كان شرسا، ويبدو أن افتخار نفسه كان آمر هذا القطاع، ولم يستطع ريموند أن يحصل على موطيء قدم على السور نفسه. وفي صباح اليوم التالي اقترب برج جودفري الخشبي من السور الشمالي القريب من البوابة التي تسمى حاليا بوابة الزهور، ومن الطابق الأعلى قاد جودفري وأخوه إيوستاس أوف بولونيا عمليات الهجوم. وفي منتصف النهار تقريبا نجحا في إقامة جسر بين البرج وقمة السور، حيث قام اثنان من فرسان الفلاندرز (ليتولد وجيلبرت أوف تورناي) بقيادة رأس حربة الجيش اللوثارنجي، وسرعان ما تبعهما جودفري نفسه، وما أن سقط قطاع من السور في أيدي المقتحمين حتى تدفق كثيرون آخرون إلى داخل المدينة عن طريق السلالم. وبينما بقي جودفري على السور يشجع المتسلقين الجدد ويرسل الرجال لفتح بوابة العمود لقوات الصليبيين الرئيسة، توغل تانكريد ورجاله وكانوا وراء أبناء اللورين في أعماق شوارع المدينة.

ورأي المسلمون دفاعاتهم تُخترق. فهربوا باتجاه الحرم الشريف حيث توجد قبـــة الصخرة، والمسجد الأقصى الذي لجأوا إليه ليتخذوه ملاذًا أخيرًا لهم. لكن لم يكن هناك وقت لتهيئة المكان للدفاع، وبينما هم يتزاحمون داخل المسجد وأعلاه هبـــط عليـــهم تانكريد فاستسلموا له في الحال ووعدوه بفدية عظيمة وأخذوا رايتـــه لرفعـــها فـــوق المسجد، لكنه كان قد دنس قبة الصخرة بالفعل ونهبها. وفي تلك الأثناء تراجع ســكان المدينة فرارًا وهم في حالة من الاضطراب إلى الأحياء الجنوبية حيث كان افتخار ما يزال صامدًا أمام ريموند. وفي وقت مبكر من بعد الظهر تحقق مـــن ضيـــاع كـــل شـــيء، فانسحب إلى داخل برج داوود وعرض تسليمه إلى ريموند مع مقدار كبير من المـــال في مقابل الإبقاء على حياته هو وحرسه الخاص، فقبل ريموند شروطه واحتل البرج وخـــرج افتخار ورجاله من المدينة سالمين تحت الحراسة وسُمح له بالذهاب إلى الحامية الإسلامية في عسقلان.(١)

المنتصرون يرتكبون المذابح

كان افتخار ورجاله هم وحدهم الذين بقوا على قيد الحيـــاة مـــن المســـلمين في القدس. فهذا النصر الكبير بعد تلك المعناة الشديدة أصاب الصليبيين بمس من الجنـــون، فاندفعوا في الشوارع واقتحموا المنازل والمساجد وأخذوا في تقتيل كل مـــن يقابلـــهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. واستمرت المذبحة طوال مـــا بعـــد الظـــهر وخلال الليل كله، و لم تشفع راية تانكريد في حماية اللاجئين بالمسجد الأقصـــى، ففـــي

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-300; *Gesta Francorum,* x, 38, pp. 202-4 وهذان المؤرخان كانا شاهدا عيان فى المعركة وتتفق مقالاتهما مع بعضهما. Fulcher of Chartres, 1, xxvii, 5-13, pp. 295-301. ويتفق فولشر أوف شارترز وريموند أو أجيليه فى توقيت دخـــول المدينة فى منتصف النهار . ويقول صاحب تاريخ جيستا فرانكورام إن دخول المدينة حدث فى ساعة وفاة المسيح. ويورد Albert of Aix (VI, 19-28, pp. 477-83) رواية طويلة ولكنها أقل فى مصداقيتها.

باكورة الصباح التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلوا كل من فيه. وعندما ذهب المؤرخ ريموند أوف أجيليه في وقت متأخر من ذلك الصباح لزيارة منطقة الحرم الشريف كان عليه أن ينتقي مواطيء قدميه بين الجثث والدماء التي وصل ارتفاعها إلى ركبتيه.(١)

وهرب يهود القدس في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيسي، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة للمسلمين، فلم يظهروا تجاههم أية رحمة، وأشعلوا النيران في المبنى واحترق اليهود كلهم بداخله.(٢)

وكان لمذبحة القدس وقع عميق على العالم كله. وليس في مقدور أحد أن يعرف عدد الضحايا، وإنّما أفرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين واليهود، وأصيب كثيرون، حتى من المسيحيين، بالهلع مما جرى. وحتى ذلك الوقت كان هناك من بين المسلمين من هم على استعداد لقبول الفرنج كعنصر آخر في سياسات ذلك الزمان المعقدة. بيد أنه بعد المذبحة أصبح هناك تصميم واضح على طرد الصليبيين، وكان هذا الدليل على التعصب المسيحي المتعطش للدماء هو الذي أدى إلى تعصب المسلمين. وفيما بعد، عندما حاول لاتينيو الشرق الأكثر حكمة السعي نحو إيجاد بعض الأسس لتعاون المسيحيين والمسلمين، كانت ذكرى المذبحة تقف دائمًا عائقًا في الطريق.

وبعدما فرغ الصليبيون من قتل المسلمين دون أن يبقوا على أي منهم، ذهب أمراء الحملة الصليبية في وقار إلى الحي المسيحي المقفر، الذي بات مهجوراً منذ أن طرد

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 204-6; letter of Diambert in Hagneneyer, *ob. cit.* p. 171؛ ويصف المذبحة كل من أبو الفدا *ob. cit.* p.4 وابن الأثير *ob. cit.* pp.198-9 ويثني الأخير على ريموند لحفاظه على كلمته. أنظر أيضا إبن القلانيسي، تاريخ دمشق Damascus Chronicle, p. 48.

(٢) Ibn Al-Qalanisi, *loc. cit.*

افتخار ساكنيه، ليشكروا الرب في كنيسة القبر المقدس. ثم اجتمعوا في السابع عشر من يولية (تموز) لتعيين حاكم للمدينة المغتصبة.(١)

ومات الحاكم الذي كان خليقا بأن يلقى الترحيب من أغلب الصليبيين، وتأسى الجيش كله لغياب أديمار أسقف لوبوي ليرى انتصار القضية التي طالما كافح من أجلها، فلم يصدق أحد أن أديمار لم يشهد حقا هذا الانتصار; فقد أدلى الجنود بشهاداتهم، الواحد تلو الآخر، بأنهم رأوا محاربا يقاتل في جبهة القتال المتقدمة وتعرفوا فيه على ملامح الأسقف.(٢) كما كان هناك آخرون لم يمتد بهم الأجل ليسمعوا بهذا النصر البهيج; فقد مات بطريق القدس سيميون في منفاه بقبرص قبل النصر بأيام قليلة(٣)، وفي إيطاليا على البعد يرقد مؤسس الحملة الصليبية مريضا. وفي التاسع والعشرين من يولية (تموز) سنة ١٠٩٩ ميلادية، وبعد دخول جنوده المدينة المقدسة بأسبوعين، قبل أن تصله أية أنباء عن النصر، يموت البابا إيربان الثاني في روما.(٤)

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum,* x, 38, p. 206; Fulcher of Chartres, 1, xxix, 1-4, pp. 304-6.

(٢) Raymond of Aguilers, *loc. cit.*

(٣) Albert of Aix, VI, 39, p. 489.

(٤) *Vita Urbani*, in *Liber Pontificalis*, II, p. 293.

الفصل الثالث

أدفوكاتوس سانكتى سيبالكرى

(حامى القبر المقدس)

أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري

(حامي القبر المقدس)

"فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ"

(سفر القُضَاة: ٢١ ــ ٢٥)

تم بلوغ المرام. واستُردت القدس إلى العالم المسيحي. ولكن كيف السبيل إلى الحفاظ عليها ؟وكيف تكون حكومتها ؟ ليس في الإمكان الآن تأجيل الإجابة على هذا السؤال الذي كان كل صليبي يفكر فيه بينه وبين نفسه. ويبدو أنّ الرأي العام قد تذكر أنّ الكنيسة هي التي خططت للحملة الصليبية لتمجيد المسيح، فشعر بأنه ينبغي أن تكون الكنيسة صاحبة السلطة النهائية. ولو أنّ أديمار أسقف لوبوي كان ما يزال على قيد الحياة فلا شكّ في أنه كان سيضع الدستور ويعين مسئولي الحكومة; فهو الشخصية المحبوبة التي يحترمها الصليبيون، وهو على دراية برغبات البابا إيربان، وربما كان يتصور دولة كنسية يرأسها البطريق سيميون ويكون هو نفسه مندوبًا بابويًا يعمل مستشاراً له،

وريموند أوف تولوز حاميًا دنيويًّا وقائدًا لجيوشها. على أننا لا ندّعي تفصيل نواياه التي دفنت معه. وفي واقع الأمر، كان البابا إيربان قد عين مندوبًا بابويًّا آخر يخلفه يعمل مستشارًا، هو دايمبرت أوف بيزا، ولم يكن الصليبيون قد علموا بذلك بعد[1]. لكن دايمبرت أثبت أنه شخصية طموحة للغاية، ويمكن في نفس الوقت التأثير عليه بحيث لا يمكن اعتباره مفسرًا للسياسة البابويّة. وليس مع الحملة الصليبية أحد الآن ينصح فيطاع طاعة عمياء.

واجتمع القادة في السابع عشر من يولية (تموز) لمعالجة المسائل الإدارية العاجلة: فلابد من إخلاء الشوارع والمنازل من الجثث واتخاذ الترتيبات اللازمة للتخلص منها، ويتعين تخصيص بعض أحياء المدينة للجنود والحجاج، ولا بدّ من الاستعداد للتصدي للهجوم المصري المضاد. كما نوقشت مسألة ما إذا كان سيسمح لتانكريد بالاحتفاظ بكل الكنز الذي أخذه من قبة الصخرة والمشتمل على ثمانية مصابيح ضخمة من الفضة.[2] وأثار أحدهم مسألة انتخاب الملك فاعترض رجال الدين من فورهم، فلا بدّ من تقديم الضرورات الروحانية على غيرها، وقبل انتخاب الملك ينبغي تعيين البطريق الذي سوف يترأس عملية الانتخاب. وبعد ذلك بقرن من الزمان تقريبًا، وبعدما أصبحت الملكية مقبولة قبولاً تامًّا، كتب المؤرخ وليم الصوري ــ برغم أنه كان رئيس أساقفة ــ يتهم الكنيسة بأنّ ذلك كان محاولة مفضوحة تتجاوز فيها الكنيسة حقوقها، على أنّ تلك المحاولة لم يُعترض عليها آنذاك إلاّ لأنّ القائمين بها لم يكونوا على مستوى من الجدارة. لكنهم في حاجة إلى بطريق، ولو أنّ سيميون كان ما يزال على قيد الحياة للقيت حقوقه الاحترام اللائق، فقد كان مفضلاً لدىٰ أديمار، كما كان الصليبيون يذكرونه بمشاعر العرفان لهداياه التي كان يرسلها لهم في أنطاكية. غير أنه لم يكن هنالك

---

[1] وصل دايمبرت إلى اللازقية فى سبتمبر ١٠٩٩م . ولذا لابد وأن يكون قد غادر إيطاليا قبل الإستيلاء على القدس بوقت طويل . أنظر مايلى صفحة ٤٤٩-٤٥٠.

[2] Raymond of Aguilers, xx, pp. 300-1; *Gesta Francorum,* x, 39, p. 206; Fulcher of Chartres, 1, xxviii, 1-2, pp. 301-3.

رجل كنيسة آخر يلقى القبول يونانيًا كان أو سوريًا، وفي واقع الأمر لم يكن هناك من يطالب بذلك، فقد لحق أعلى القساوسة الأرثوذوكس في القدس بالبطريق في المنفى، فلا بدّ إذن من رفع أحد اللاتينيين إلى هذا الكرسي البابويّ، بيد أنه لم يكن بين القساوسة اللاتينيين قس واحد بارز آنذاك، فبعد موت أدهمار كان وليم أوف أورانج أكثر الأساقفة احترامًا، لكنه مات في معرّة النعمان. وكان أنشط القساوسة حينئذ هو أرنولف أسقف مارتورانا النورماندي الإيطالي الذي اقترح تعيين صديقه أرنولف ماليكورن أوف روه — وهو واعظ روبرت النورماندي — أسقفًا، على أن يُمنح نفسه أسقفية بيت لحم. و لم يكن أرنولف أوف روه يخلو من ميزة; إذ كان معلمًا لإبنة وليم الغازي، سيليشيا الراهبة التي استحثت أخاها روبرت على أن يستعين به ويعده بأسقفية، وكان خطيبًا بليغًا وأديبًا. لكن المعروف عنه أنه كان منغمسًا في دنيويته، وتذكروا عداوته لبطرس بارثولوميو، وفضلاً عن ذلك بدا الأمر كله وكأنه مؤامرة نورمانديّة; فلم يكن القساوسة الفرنسيون الجنوبيون الذين يؤيدهم ريموند أوف تولوز على استعداد للتعاون، ورُفض اقتراح انتخاب البطريق من قبل الملك. و لم تكن القصة بمثل ما أولاها المؤرخ وليم الصوري من أهمية، بيد أنّ تتمة القصة تُظهر أنّ الرأي العام كان ما يزال يُعضد الكنيسة ضد القوى العلمانية.(1)

---

(1) Raymond of Aguilers, xx-xxi, pp. 301-2; William of Tyre, ix, vol. 1, pt. 1, pp. 364-6. ويقول Fulcher of Chartres (i, xxx, 2, p. 308) إنه لم يتم إنتخاب أى بطريق إلا بعد الحصول على نصيحة البابا. وربما كان يشير إلى هذه المناقشة الأولى. وعن سيرة حياة Arnulf المبكرة أنظر David, *Robert Curthose*, pp. 217-20 ويطلق المؤرخ David عليه "Arnolf of Choques" ويعتبر أن الإسم "of Rohes" غير صحيح .

مؤامرات من أجل العرش

وفي الأيام التالية انشغل الأمراء بالدسائس حول شغل العرش. و لم يبق إلا أربعة من الأمراء الكبار الذين انطلقوا من القسطنطينية في الحملة الصليبية هم ريموند أوف تولوز، وجودفري أوف لورين، وروبرت أوف فلاندرز، وروبرت النورماندي. وأما إيوستاس أوف بولونيا فكان دائما يلعب الدور متواريا وراء أخية جودفري، وأما تانكريد، وبرغم كل حسارته، فكان أتباعه قليلين ولا يكاد يجاوز كونه من أقرباء بوهيموند الفقراء. ومن بين هؤلاء الأمراء كان ريموند أقواهم شكيمة لما يتصف به من خصائص لا تتوفر لغيره وهي عمره وثروته وخبرته وارتباطه الطويل بأديمار، لكنه لم يكن يحظى بإعجاب رفاقه؛ فهو مفرط في التعالي عليهم طوال الوقت، ودائما ما يظهر نفسه بمظهر القائد العلماني للحملة الصليبية. وكانت سياسة صداقته مع الإمبراطور منفرة للغاية حتى للكثيرين من أتباعه، و لم يثبت نجاحه خلال الأشهر القليلة التي كان فيها قائدا عاما بلا منازع؛ إذ أن خيبته في أرقا وإنكار الرمح المقدس حطما هيبته. ومع أن شجاعته الشخصية ونشاطه ليسا موضع شك إلا أنه كجندي لم يفلح في إحراز أي نصر كبير، فإذا ما أصبح ملكا فسوف ينقلب إلى الغطرسة والاستبداد، ولن توحي قيادته أو سياسته بالثقة. وأما عن الأمراء الآخرين، فكان روبرت أوف فلاندرز أكثرهم اقتدارا، لكن المعروف عنه أنه كان يرغب في العودة إلى وطنه فور إنقاذ القدس. وكان روبرت النورماندي محبوبا وله هيبته باعتباره رئيس النورمانديين، لكنه لم يكن شخصية قاهرة، كما كان هو الآخر يميل إلى العودة إلى أوروبا. ويبقى لدينا جودفري، فهو فيما مضى كان دوقا للورين الأسفل، وهو مركز أرفع من أي مركز آخر شغله أي من رفاقه، لكنه لم يكن الدوق الذي يتصف بالكفاءة العالية، وأظهر سلوكه في القسطنطينية أنه رجل ضعيف عنيد مرتاب يخلو من الذكاء. على أن قصوره كرجل دولة وإداري كان شيئا غير معروف للصليبيين الذين رأوا فيه رجلا شهما وتقيا

وخادمًا كرس نفسه لقضيتهم. وقيل إنه حينما استفسر الناخبون عن الحياة الخاصة لكل قائد لم تجد حاشية جودفري فيه أي نقص سوى شغفه بالممارسات الدينية.(1)

انتصار جودفري

ولا نعرف من هم الناخبون. وربما كانوا من كبار القساوسة والفرسان الذين كانوا بمثابة كبار مستأجري الأرض بالنسبة لأمراء الصليبيين. وفي بادئ الأمر عُرض التاج على ريموند، لكنه رفض رفضًا أدهش المؤرخين لما كان يعرف عنه من طموح واضح لقيادة الحملة الصليبية، ولكنه تحقق من أنّ ذلك العرض لم يحظ بتأييد مخلص من أغلب الصليبيين، وأنّ رفاقه لن يخضعوا لسلطانه أبدًا في واقع الأمر، بل إنّ جنوده التابعين له، الذين يتوقون إلى العودة إلى أوروبا، أعلنوا عدم رغبتهم في أن يقبل العرض. وهكذا أعلن أنه لا يرغب في أن يكون ملكًا في مدينة المسيح المقدسة، آملاً بذلك أن يجعل من المستحيل أن يصبح أيّ فرد آخر ملكًا. وتحول الناخبون في ارتياح إلى جودفري، الذي كان معروفًا أنّ كلا من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي يؤيدانه، فأظهر بعض التمنع ثم قبل سلطة الملك، لكنه طلب إعفاءه من لقب الملك، وأن يسمى بدلاً من ذلك أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري أيّ حامي القبر المقدس.(2)

وظنّ ريموند أنه راح ضحية خدعة. ومن المؤكد أنّ جودفري كان مخلصًا حينما رفض وضع تاج على رأسه في المدينة التي وُضع فيها على رأس المسيح تاج من الشوك.

---

(1) William of Tyre, IX, I, vol. 1, pt1, pp. 365-6 .

(2) يذكر Raymond of Aguilers, xx, p. 301 رفض ريموند للتاج ؛ ويقول صاحب تاريخ Gesta Francorum, x, 39, pp. 206-8 إن جودفرى قد إنتخب princeps civitatis (أمير مدن) لغرض قتال العرب ؛ ويستخدم Fulcher of Chartres, 1, XXX, 1 لقب "princeps (أمير)" ؛ كما أن Albert of Aix, VI, 33, pp. 485-6 يذكر رفض ريموند ؛ William of Tyre, IX, 2, vol. 1, pt 1, pp. 306-7 . وعن لقب جودفرى أنظر Moeller, 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-sépulcre', *passim* .

وكانت ميزته الرئيسية تتمثل في أن ورعه يتسق مع ورع سائر الصليبيين، ولم يفارق ذهنه أبدا اقتناعه بأن كنيسة المسيح ينبغي أن تكون هي الحاكم النهائي للأرض المقدسة. ولم يصبح في الإمكان تتويج ملك في القدس إلا بعد وفاته، وبعد عودة أغلب الحجاج إلى أوطانهم تاركين وراءهم مستعمرة تتألف من المغامرين من رجال الأعمال من ذوي النظرة العملية.(١)

وقابل ريموند انتصار جودفري بصورة سيئة للغاية; فرفض أن يسلم الحاكم الجديد برج داوود الذي كان في حوزته قائلا إنه ينوي البقاء في القدس للاحتفال بعيد الفصح التالي وسيكون البرج محل إقامته، لكنه بعد أن احتج عليه كل من روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وافق على أن يتركه في رعاية أسقف البرة إلى أن يعقد مجلس عام للحملة الصليبية لحسم الأمر. على أنه ما أن انتقل ريموند من البرج حتى سلمه الأسقف إلى جودفري دون انتظار لقرار تحكيمي. وأعذر الأسقف نفسه أمام ريموند بأنه كان أعزل من كل دفاع واضطر للرضوخ، غير أن ريموند أوف أجيليه شاهد بنفسه أكوام السلاح الهائلة التي نقلها المندوب البابوي عديم الإيمان إلى مترل قريب من القبر المقدس، وربما شجعه على تصرفه هذا رجال ريموند التواقون إلى دفع سيدهم إلى العودة إلى فرنسا. وثارت ثائرة ريموند وأعلن بادئ الأمر أنه عائد إلى وطنه فورا، وغادر القدس ولكن باتجاه الجنوب إلى وادي الأردن ومعه كل جنوده لتنفيذ تعليمات بطرس بارثولوميو له في أنطاكية، وقاد رجاله وكل منهم يحمل سعفة نخل وساروا من أريحا إلى النهر. وبعدما عاد من النهر نزل أصحابه كلهم ليستحموا في النهر المقدس وهم يرددون الصلوات والترانيم، ثم ارتدوا الملابس النظيفة. وعلق ريموند أوف أجيليه على ذلك بقوله: "ومع ذلك لم نعرف بعد لماذا طلب منا الرجل المقدس أن نفعل كل

---

(1) See Chalandon, *Histoire du la première Croisade*, pp. 290-2.

هذا". و لم يشأ ريموند العودة إلى القدس التي شهدت مذلته، فضرب معسكره في أريحا.[1]

جودفري ورفاقه

وأدى فشل ريموند في الحصول على التاج إلى أن أصبح أتباعه في موقف الضعف. فحينما اجتمع القساوسة في أول أغسطس (آب) لانتخاب بطريق لم تكـــن معارضـــة البروفنسال لـــآرنولف أوف روه معارضة فعّالة، ووجد أسقف مارتورانو تأييدًا مـــن أهل اللورين ونورمانديّي فرنسا وإيطاليا فتمكن من إقناع أغلب من بـــالمجلس بتعيـــين آرنولف. وعبثًا حاول ريموند أوف أجيليه وأصدقاؤه أن يؤكدوا أنّ انتخاب آرنولف لا يتفق وقوانين الكنيسة؛ فـــآرنولف لم يكن حتى مساعد شماس، كما كان الجيش يتخـــذ من أخلاقياته مادة يتغنى بها. ورحبت به جماهير الناس في منصبه البطريقي الجديـــد.[2] و كان آرنولف من الناحية السياسية يتصف بالاعتدال، وإذا كان رجال الدين قد توقعـــوا أن يملي سياسته على جودفري فقد خاب ظنهم، وربما كان يدرك أنه ليس أهـــلاً لأن يحكم القدس، ولذا حصر نطاق أنشطته في الشُؤُون الكنسية ووضع جُلّ اهتمامـــه في أن يجعل من الدائرة الأسقفية دائرة لاتينية. وبموافقة ودفري، عيّن عشرين كاهنًـــا لإقامـــة الخدمات الدينية اليومية في كنيسة القبر المقدس، وزوّد الكنيسة بالأجراس لدعوة النـــاس إلى الصلاة، و لم يكن المسلمون يسمحون للمسيحيين باســـتخدامها مطلقًـــا. ثم أبعـــد قساوسة الطقوس الشرقية القائمين بالخدمات الدينية في الكنيسة التي كانت آنذاك ـــ

---

(1) Raymond of Aguilers, xx, pp. 301-2; William of Tyre, ix, 3, Vol. 1, pt 1, pp. 367-8.

(2) Raymond of Aguilers, xxi, p. 30; *Gesta Francorum,* x, 39, p. 208, calling Arnulf 'sapientissimum et honorabilem virum'; William of Tyre, ix, 4, vol. 1, pt 1, p. 369.

كشأنها الآن ـــ تضم مذابح كنسية تنتمي إلى جميع طوائف العالم المسيحي الشـــرقي، ليس فقط اليونانية الأرثوذوكسية والجورجية[١]، وإنمـــا أيضـــا الطوائـــف الأرمينيـــة واليعقوبية والقبطية. وغداة الغزو اللاتيني بدأ السكان المسيحيون المحليـــون يعـــودون متلهفين إلى القدس، على أنهم بدأوا يشعرون بالأسى لتغير الحكام.فحينمـــا أخرجـــهم افتخار من المدينة أخذ بعض القساوسة الأرثوذوكس معهم أقدس آثار كنيسة القـــدس، ألا وهو القسم الرئيسي من الصليب الحقيقي، وتبددت رغبتـــهم الآن في تســـليمه إلى الحبر الذي تجاهل حقوقهم. ولم يستطع آرنولف معرفة مكان إخفائه إلا بعد تعذيـــب المحتفظين به. على أنه برغم تزايد استياء المسيحيين الأرثوذوكس من أبناء البلاد فلـــم يكن أمامهم خيار آخر سوى تقبل الهرمية اللاتينية. وأما كبار قساوستهم فقد تفرقـــوا وأحجموا عن تعيين أساقفة أو بطريق من بينهم في مواجهة اللاتينيين. وحـــتى ذلـــك الوقت لم يكن هناك صدع بين الأرثوذوكسية الشرقية والغربية في فلسطين، ورغـــم أن آرنولف قد اتخذ الخطوات الأولى التي تجعل من هذا الصدع حقيقة حتمية. وهكذا فـإن الكنائس الهرطيقية التي كانت تنعم بتسامح المسلمين وجدت في الغزو اللاتيـــني بدايـــة الخسوف.[٢]

---

[١] (المترجم): الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية : إحدى أقدم الطوائف المسيحية فى العالم ، وحاليا كنيسة مستقلة فى الملة الأرثوذكسية . وإعتنق الجورجيون المسيحية عن طريق أمرأة (القديسة "نينو") فى أوائـــل القرن الرابع الميلادى . ومنح الإمبراطور "زينو" (٤٧٤-٤٩١م) الكنيسة إستقلالها بموافقة بطريق أنطاكيا ، ومنذ ذلك الوقت يحمل رؤساء الكنيسة لقب "كاثوليكوس" . وفى ســـنة ١٨٠١م ضمـــت روســـيا جورجيا ، ففقدت البلاد إستقلالها السياسى والكنسى ، وأثناء الثورة الروسية سنة ١٩١٧م إســـتعادت الكنيسة إستقلالها ، لكنها عانت الإضطهاد فى العشرينات. على أنه فى عهد "جوزيف ستالين" — الـــذى كان طالبا فى معهد جورجيا اللاهوتى- تمتعت بمعاملة متميزة فيما يبدو . وبعد إنتخاب "كـــاثوليكوس إلياس" سنة ١٩٧٧م عين أساقفة جددا فى العديد من الكراسى الأسقفية.

[٢] *loc. cit.* Raymond of Aguilers, *loc. cit.* Fulcher of Chrtres, 1, xxx, 4, pp. 309-19; William of Tyre,

وبعد انتخاب جودفري تدهورت العلاقات بينه وبين رفاقه الذين كانوا يؤيدونه حتى ذلك الوقت. فسرعان ما أساء إلى روبرت النورماندي لسبب أو لآخر، وازداد فتور روبرت أوف فلاندرز حياله، وكان تانكريد وقتئذ قد رحل إلى نابلس بعد أن أرسل سكانها إلى القدس يعلنون استسلامهم للصليبيين، وصحبه أخو جودفري (إيوستاس أوف بولونيا)، ربما ليحول دون ما اعتاد عليه من استحواذه على الأسلاب كلها لنفسه، ولقيا استقبالاً حسنًا هناك ولكن يبدو أنهما لم يحصلا على غنائم.[١]

وبعد رحيلهما مباشرة وصلت سفارة مصرية إلى القدس لتوبيخ الفرنج على نقضهم العهد ولتأمرهم بمغادرة فلسطين. ووصلت في أعقاب السفارة أنباء بأن هناك جيشًا مصريًّا بقيادة الوزير الأفضل دخل فلسطين وأنه في طريقه إلى عسقلان. فأرسل جودفري إلى تانكريد وايوستاس طالبًا منهما النزول في السهل البحري وإطلاعه على تحركات العدو، فأسرعا باتجاه قيسارية ثم استدارا جنوبًا باتجاه الرملة، وفي طريقهما أمسكا بعدد من الكشافين الذين أرسلهم المصريون أمامهم، وانتزعا منهم معلومات تتصل بعدد قوات الوزير وأماكن تمركزها، وتوصلا إلى أنّ الأفضل ينتظر أسطوله ليلحق به حاملاً إمدادات إضافية، وأنه لا يتوقع هجومًا من الفرنج، فأرسلا إلى جودفري بذلك يحثانه على أن يأخذه بغتة، فحشد جودفري جيشه من فوره، وطلب من رفاقه أن يلحقوا به، فاستجاب روبرت أوف فلاندرز للنداء. وأمّا روبرت النورماندي وريموند ــ الذي كان ما يزال في وادي الأردن ــ فقد أجابا بأنهما سينتظران إلى أن تتأكد الأنباء، ولم يتحركا إلاّ بعد أن أرسلا الكشّافين التابعين لهما لمعرفة ما كان يحدث.[٢]

---

(١) *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 208-10

(٢) *Ibid.* pp. 209-10

الانتصار في عسقلان

وفي التاسع من أغسطس (آب) انطلق جودفري وروبرت أوف فلاندرز من القدس ومعهما رجالهما، وصاحبهما البطريق آرنولف. وعندما وصلوا إلى الرملة وقابلوا تانكريد وايوستاس صدرت الأوامر إلى أسقف مارتورانو بسرعة العودة إلى القدس ليعلن مدى خطورة الوضع، ولكي يستحث كل رجل قادر على القتال أن يلحق بالجيش. وهنا اقتنع ريموند وروبرت النورماندي وغادرا القدس في العاشر من أغسطس (آب)، وتخلفت حامية صغيرة في المدينة حيث كانت التعليمات تقضي بأن يقوم بطرس الناسك بإجراء الطقوس الدينية بين صلاة وقدّاس شفاعة يبتهل فيها اليونانيون واللاتينيون على السواء من أجل انتصار العالم المسيحي. وفي باكورة الحادي عشر تجمع حشد الصليبيين كله في إبلين الواقعة وراء الرملة بأميال قليلة، ثم تقدموا في الحال إلى داخل سهل أشدود حيث اكتشفوا ساعة الغسق قطعان الماشية التي أحضرها المصريون معهم لأطعام الجنود، فأحاطوا بها واستولوا عليها، واستراحوا لفترة قصيرة حتى الصباح، ثم برزوا في وادي المجدل الأخضر الخصيب شمالي عسقلان حيث معسكر جيش الوزير. وفي ضوء الفجر رتبوا وحداتهم المقاتلة بحيث اتخذ ريموند الميمنة ناحية البحر، وجودفري الميسرة، وروبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وتانكريد القلب. وما أن صدر أمر الهجوم حتى اندفع الجنود داخل الجيش المصري، وبغت الأفضل تماما، ويرجع ذلك إلى سوء الاستكشاف، فلم يتوقع أن يكون الفرنج على مثل هذه المسافة القريبة. ولم يبد رجاله مقاومة تذكر، وفي دقائق قليلة كانوا يفرون مذعورين، ولاذت جماعة كبيرة منهم بغابة صغيرة من أشجار الجميز حيث قتلوا فيها حرقا، وفي مسيرهم دفع ريموند بأعداد كبيرة إلى البحر، وفي الوسط توغل روبرت النورماندي وتانكريد إلى قلب المعسكر، واستولى حرس روبرت الخاص على راية الوزير والكثير من أمتعته الشخصية، وتمكن الوزير ومعه حفنة من الضباط من الهرب

إلى عسقلان حيث استقلوا سفينة عادت بهم إلى مصر، وفي ساعات قليلة اكتمل النصر وتأكد استيلاء الصليبيين على القدس.(١)

وغنم المنتصرون أسلابا هائلة. واشترى روبرت النورماندي راية الوزير بعشرين مثقالا فضيا من النورماندي الذي استولى عليها ثم قدمها إلى البطريق آرنولف، واشترى أمير آخر سيف الوزير بستين بيزنتة، وعثروا على سبائك ذهبية وأحجار كريمة بكميات هائلة ضمن أمتعة المصريين، ووقع في أيديهم من الأسلحة والدواب الشيء الكثير. وفي يوم السبت الثالث عشر من أغسطس (آب) عاد إلى القدس موكب منتصر محمل بالغنائم، وما استعصى عليهم حمله أشعلوا فيه النيران.(٢)

وتحقق للانتصار مغزاه الكامل. وإذا كان هذا الانتصار قد ضمن ألا يستعيد المصريون ما فقدوه من أراض، فلم يعن ذلك أن الفرنج سوف يحتلون فلسطين كلها. فالبحرية المصرية ما تزال تتحكم في الساحل وتوفر الحماية للثغور. وكان في مأمول جودفري مواصلة المعركة والاستيلاء على عسقلان خاصة وأن الحامية في عسقلان تدرك تمام الإدراك تعذر الصمود أمام القوات الصليبية المتحدة. ومذبحة القدس لم تذهب أدراج النسيان، ولا يرغب مسلمو عسقلان في أن يلقوا مصير إخوانهم في القدس، وهم يعلمون أن الذين بقوا أحياء في القدس من المسلمين هم فقط الذين استسلموا لريموند أوف تولوز مما رفع من سمعته في الفروسية؛ فأرسلوا إلى المعسكر الصليبي بأنهم على استعداد لتسليم المدينة له هو وحده، لكن جودفري — لارتيابه الشديد في ريموند منذ حادثة برج داوود — رفض الاعتراف بأية شروط لا تؤدي إلى

(١) 18; Albert-Ibid. pp. 210-16; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 302-4; Fulcher of Chrtres, 1, xxxi, 1-11, pp. 311. Of Aix, vi, 44 -50, pp. 493-7; Ibn Al-Athir, *op. cit.* p. 202

(٢) *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 216-18; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 304-5; Albert of Aix, vi, 47, p. 495; Fulcher of Chartres, 1, xxxi, 10, pp. 316-17.
وبمعركة عسقلان ينتهي تاريخ كل من Raymond of Aguilers وصاحب تاريخ *Gesta Francorum*.

تسليمه المدينة هو نفسه، فغضب ريموند وشعر بالمهانة، وبدأ لتوه في التحرك شمالاً ومعه كل رجاله. وأصيب روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز بصدمة شديدة من تفاهة جودفري حتى أنهما تركاه هما كذلك. وبدون مساعدتهما لا يجرؤ جودفري على المغامرة بمهاجمة عسقلان، وهكذا ضاعت عسقلان من الفرنج لأكثر من نصف قرن من الزمان.(1)

وعرضت مدينة أرصوف الصغيرة الاستسلام إلى ريموند، ورفض جودفري مرة أخرى الموافقة على أي اتفاق من هذا النوع، وانصرف ريموند غاضبًا مرة أخرى، وأعلن أصدقاء جودفري أنّ ريموند شجع حامية أرصوف على الصمود أمام جودفري وحرص على أن يؤكد لهم ضعفه.(2)

وبانتهاء أغسطس (آب) قرر ريموند، وروبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندر مغادرة فلسطين؛ فكل من دوق نورماندي وكونت فلاندرز يتلهف على العودة إلى الوطن، وكل منهما يعتبر أنه قام بواجبه المسيحي وبذا يكون قد أوفى بعهده. وبرغم المشاحنات التي حدثت مؤخرًا، شعر جودفري بقلبه يهبط إلى قدميه لرحيليهما، وفي مقابلة الوداع التي تمت بينهم توسل إليهما ألاّ يدخرا جهدًا لدى وصولهما إلى أوروبا في حث الجنود على الخروج إلى الشرق للحرب من أجل الصليب، وذكّرهما بمدى الخطورة التي تحدق بالباقين في الأرض المقدسة. وفي أوائل سبتمبر (أيلول) شرعا في رحلتهما شمالاً أعلى الساحل(3) وصاحبهما ريموند. غير أنّ رحيل ريموند لم يكن قاطعًا؛ إذ كان قد أقسم على البقاء في الشرق، ولقد خسر القدس، ولكن ليس هناك ما يمنعه من أن يحذو حذو بوهيموند وبالدوين ويؤسس إمارته الخاصة به. وكانت المنطقة التي

---

(1) Radulph of Caen, cxxxiii, p. 703; Albert of Aix, vi, 51, pp. 497-8.

(2) Albert of Aix, *loc. cit.*

(3) Albert of Aix, vi, 53, p. 499; Fulcher of Chartres, 1, xxxii, 1, pp. 318-20; Orderic Vitalis, x, ii, vol. iv, p. 69

تلائمه أكثر من غيرها هي أواسط سوريا حيث الأمان بعيدا عن الأتراك والمصريين، لا سيما وأن أغلبها في أيدي بني عمار المسالمين، كما كان يأمل في الحصول على تأييد من بيزنطة.(١)

وسار مع ريموند وروبرت أوف فلاندر وروبرت النورماندي أغلب رجالهم، وتخلف القليل من كل جيش للاستقرار في فلسطين، ولكي تتوازن القوات عادت أعداد من رجال جودفري — وفيهم بالدوين أوف لوبورج — باتجاه الشمال تحت راية كونت أوف فلاندر، وبقي تانكريد وأتباعه القليلون في فلسطين.(٢)

ديامبرت أوف بيزا

وتمت الرحلة إلى الشمال دون صعوبات. فقد سارع حكام المدن الساحلية المسلمون إلى إمداد الجيش بالمؤن أثناء مروره، وفي منتصف سبتمبر (أيلول) وصل الجيش إلى ميناء طرطوس الذي كان ما يزال في أيدي حامية من رجال ريموند، وواصل رحلته إلى جبلة حيث سمع القادة أنباء صدمتهم صدمة شديدة وأثارت قلقهم.(٣)

ذلك أن البابا إيربان كان قبل وفاته بوقت قصير قد عين مندوبا بابويا ليحل محل أديمار في فلسطين، ووقع اختياره على ديامبرت رئيس أساقفة بيزا. وكان البابا إيربان على دراية كاملة برفاقه الفرنسيين، ولكنه كان مخطئا بالنسبة للإيطاليين; وكان ديامبرت رئيس أساقفة نشطا، وعرف عنه اهتمامه بالحرب المقدسة، ولذلك أرسله البابا

---

(1) Albert of Aix, *loc. cit.* وليس يقينيا التاريخ الذى قرر فيه ريموند إنشاء إمارة فى وسط سوريا.

(2) *Ibid.* vi, 54, pp. 499-500.

سنة ١٠٩٨ ميلادية مندوبا بابويا لـــه إلى بـــلاط الملـــك ألفونســـو الســـادس (أوف كاستيل)[1] ، حيث أظهر حماسا بالغا واقتدارا في تنظيم الكنيســـة في الأراضـــي الـــتي انتزعت من عرب الأندلس، بيد أنه كانت هناك شائعات بأن إدارته لم تخل من فســـاد، لا سيما وأنه احتفظ لنفسه بجزء كبير من الأموال التي كان الملك ألفونسو قد أرســـلها إلى البابا. وعلى الرغم من نشاطه، كان من الواضح أنه مغرور وطموح وغير أمـــين. وأدى تعيين البابا إيربان له كمندوب بابوي في الشرق إلى تقويض سياســـته إلى حـــد بعيد.[2]

غادر ديامبرت إيطاليا قبل نهاية سنة ١٠٩٨ ميلادية يصحبه أسطول مـــن بـــيزا جهزته بلدية المدينة. ولا شك في أنه كان يأمل في استغلال أهل بيزا لترسيخ مكانته بمـــا له من نفوذ عليهم، بينما أدركوا هم جدوى مساعدتهم له كي يحصلوا على امتيـــازات خاصة. وكانوا عصبة تتصف بالفوضى؛ فقد استفادوا أثناء رحيلهم شرقا من الإغـــارة على جزر هبتانيز، وكورفو، وليوكاس، وسيفالونيا، وزانت، وســـرعان مـــا علمـــت القسطنطينية بتلك الانتهاكات، فسير إليهم الإمبراطور أسطولا بقيـــادة تاتيســـيوس ـــ العائد من أنطاكية مؤخرا بعد شهور كثيرة قضاها هناك ـــ وكذلك البحـــار الإيطـــالي المولد لاندولف. وحاول البيزنطيون اعتراض أبناء بيزا أثناء مرور سفنهم أمام ســـلموس، غير أنهم وصلوا هناك متأخرين، كما فشلوا في اللحاق بهم أمام شواطئ كوس. وأخـــيرا ظهر الأسطولان أمام رودس بحيث يري كل منهما الآخر، وحاول البيزنطيون الهجـــوم واستولوا على إحدى سفن بيزا وعلى ظهرها أحد أقارب بوهيموند، ولكـــن عاصفـــة

---

(1) (المترجم): كاستيل : إقليم فى أسبانيا.

(2) يورد Albert of Aix, vii, 7, pp. 51-2 رواية عدائية عن سابق حياة Diambert . أنظر أيضـــا *Pisani*, (ed. *Annales* Tronci .), vol. 1, pp. 178 ff. ويحتمل أنه انطلق قبل أن يعلم إيربـــان بموت أدميار ، وإما أن يكون قد عيّن مندوبا بابويا أثناء رحلته أو اتخذ لنفسه السلطة بإعتباره شـــخصية كنسية أعلى فى الشرق .

الساحل القبرصي، لكن الحاكم البيزنطي فيلوكاليس دحرهم وألحق بهم بعض الخسائر، فأبحروا باتجاه الساحل السوري، بينما دخل الأسطول البيزنطي قبرص.(1)

بوهيموند وديامبرت في اللاذقيَّة

ظل بوهيموند، منذ أن رحل رفاقه إلى القدس، مشغولاً بتوطيد مركزه في أنطاكية. و لم يكن هناك ما يخشاه من الأتراك آنذاك، وإنّما كان مشغولاً بالبيزنطيين في المقام الأول، فهو يعرف أنّ الإمبراطور لن يغفر له أبدًا. ولّما كان للإمبراطور أقوى أسطول في المياه الشرقية، بالإضافة إلى ميناء اللاذقيَّة الواقع جنوبه مباشرة، فلن يشعر بالأمان أبدًا، فقرر في نهاية أغسطس (آب) أن يحسم الأمر، وسار لمهاجمة اللاذقيَّة، لكنه كان فاقد الحيلة بدون القوة البحرية، فالتحصينات قوية وتستطيع الحامية الحصول على المؤن من قبرص. ووصل أسطول بيزا المعادي للبيزنطيين في الوقت المناسب تمامًا. وسارع بوهيموند إلى التوصل إلى اتفاق مع ديامبرت والقباطنة من أهل بيزا الذين وعدوه بتقديم كل ما يستطيعون من مساعدة.(2)

وكان الإمبراطور قد أمر أمير بحريته بمعاقبة من يأتون أعمال القرصنة من اللاتينيين، وإن كان يرغب في اجتناب الصدام العلني. و لم يعرف تاتيسيوس على وجه اليقين كيف يتعامل مع تلك التطورات الجديدة، وبعد التشاور مع حاكم قبرص طلب من الجنرال البيزنطي بوتوميتيس، الذي ربما جاء إلى قبرص ليكون سفيرًا فوق العادة في الشرق، أن يعبر البحر إلى أنطاكية وأن يقابل بوهيموند، ولكن بوهيموند رجل عنيد، فلم تحقق السفارة شيئًا. وعاد بوتوميتيس إلى قبرص وأبحر مع تاتيسيوس والأسطول إلى القسطنطينية لإطلاع الإمبراطور على ما حدث وتلقي تعليماته. وهبت عاصفة هوجاء

---

(1) Anna Comnena, xi, x, 1-6, vol. iii, pp. 41-4.

(2) Albert of Aix, vi, 45, pp. 500-1

أمام سيس على ساحل كيليكيا الغربي حيث تحطمت سفن بيزنطية كثيره، وتمكنت القطع البحرية التابعة لأمير البحار من مواصلة الرحلة. وبعد ذلك اتخذت سفن بيزا مواقعها لتغلق ميناء اللاذقية من البحر.[1]

وفي ذلك الوقت وصل ريموند وروبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى جبلة، وكان طبيعيا أن يترعج ريموند من أحداث اللاذقية; فهو يمقت كل ما يفعله بوهيموند، وسياسته هي سياسة التحالف مع بيزنطة، وكان شعور رفيقيه بالأسى لا يقل عن شعوره هو; وأيا ما كان شعورهما بالأسف لبعض أفعال الإمبراطور، فقد أدركا ضرورة وجود بعض التعاون بين مسيحيي الشرق والغرب، وكانا يواجهان مشكلة إعادة نقل جيشيهما إلى أوروبا، وهي مهمة تكاد أن تكون مستحيلة بدون مساعدة من بيزنطة. ومن غير اللائق أن يستهل المندوب البابوي سفارته في الشرق بعمل يثير استياء المسيحيين الشرقيين. واستدعي دايمبرت إلى المعسكر في جبلة حيث واجه اعتراضاتهم الغاضبة، فأدرك الخطأ الذي وقع فيه واستدعى أسطول بيزا. ولا يستطيع بوهيموند حصار اللاذقية في غيبة المساعدة البحرية، فضلا عن مشاعر الغضب التي أظهرها رفاقه، فاضطر إلى التخلي عن الحصار. وأظهر مواطنو اللاذقية كامل الرضا والترحيب بريموند، فدخلها بصحبة رفيقيه، ورفع رايته على القلعة لترفرف إلى جانب راية الإمبراطور. وعندما سمع حاكم قبرص بهذه التطورات أعلن عن موافقته وعرض تقديم وسائل النقل البحري دون مقابل لسفر روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى القسطنطينية في المرحلة الأولى من الرحلة إلى الوطن، فقبلا العرض بامتنان بالغ وأبحرا في أمان إلى القسطنطينية حيث استقبلهما الإمبراطور استقبالا حسنا. ورفضا اقتراحه بالبقاء في الشرق في خدمته. وبعد أن أتما زيارتهما القصيرة واصلا

---

[1] .Anna Comnena, xi, x, 7-8, vol. iii, p. 45; Albert of Aix, *loc. cit.*

رحلتهما إلى الغرب. ولا نعرف عدد الذين أبحروا معهما من رجالهما، وربما أبحر البعض على سفن جنوا للذهاب إلى إيطاليا مباشرة. وأما ريموند فقد بقي في اللاذقية.(١)

حج بوهيموند في القدس

وفي تلك الأثناء لحق دايمبرت ببوهيموند مرة أخرى في أنطاكية. وكان بوهيموند عليما بالرجل، وسرعان ما استعاد نفوذه عليه. وفي تلهف المندوب البابوي على الرحيل إلى القدس قرر بوهيموند أن يصحبه؛ فقد أقسم هو والصليبيون الآخرون على الصلاة في كنيسة القبر المقدس وعدم الوفاء بهذا القسم يعرض هيبته للدمار، ولا ينبغي أن تضيع هذه الفرصة الرائعة كي يحج مع دايمبرت وبذا يضمن تحالفه، كما يتعين النظر في مستقبل القدس، فليس هناك من يرث جودفري، وصحته معتلة، ومن المرجح أن يتحكم المندوب البابوي فيمن يأتي بعده، وعلى أية حال تقضي الحكمة بأن يلم بصفه شخصية بالوضع؛ فأعلن عن رحيل دايمبرت وبوهيموند إلى المدينة المقدسة في أواخر الخريف ليكونا هناك في أعياد الميلاد.(٢)

وعندما سمع بالدوين بتلك الأخبار أرسل من الرها بأنه سوف ينضم إليهما في الحج، فقد شعر هو الآخر بضرورة الوفاء بالقسم، وبمقدوره أن يترك الرها لفترة من الوقت. وكان واضحا أنه ينبغي للجماعة أن تقوى بقدر الاستطاعة من أجل الصالح العام، وكان هو الآخر مهتما بوراثة عرش القدس؛ فهو أخو جودفري ويليه من حيث القرابة في الشرق ـــ فربما غادر إيوستاس أوف بولونيا فلسطين في أعقاب روبرت أوف فلاندرز ـــ ولا يقل طموحه عن طموح بوهيموند. وربما شعر بوهيموند فيما بعد بالأسف لصحبته، فقد جاء مع بوهيموند وبالدوين كل رجالهما الزائدين عن

---

(1) Albert of Aix, vi, 56-60, pp. 501-5; Ordric Vitalis, vol. iv, pp. 70-2; Guibert of Nogent, p. 232.

(2) Fulcher of Chartres, 1, xxxiii, 1-6, pp. 322-6; Albert of Aix, vii, 6, p. 511.

احتياجات الدفاع في أراضيهما، وكذلك عدد غفير من النساء، واستنادا إلى مـــا أورده فولشر أوف تشارترز بلغ عددهم خمسة وعشرين ألف شخص.[١]

وانطلق الحجاج في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني)، وسلك بوهيمونـــد وديامـــبرت الطريق الساحلي يحرس جانبهما أسطول بيزا، وأثناء مرورهما باللاذقية رفـــض ريموند مساعدتهما بالمؤن، وتوقفا في بانياس الواقعة إلى الجنوب قليلا كي يتمكن بالدوين مـــن أن يلحق بهما، فقد وصل إلى أنطاكية بعد رحيل بوهيموند مباشرة، واستقبله ريموند في اللاذقية استقبالا حسنا. أما أهل بانياس وهم مسيحيون يونانيون يعـــترفون بســـلطان الإمبراطور فلم يرحبوا بالحجاج وأظهروا عزوفهم عن تقـــديم الإمـــدادات، فواصـــل الحجاج مسيرتهم لكنهم سرعان ما داهمهم الجوع. وكانت مدينة طرطوس التي مروا بها في نهاية الشهر قد عادت إلى أيدي المسلمين، وهاجمت حاميتها الراجلـــين في مؤخـــرة الحجاج وقتلتهم، ولم يستطيعوا الحصول على الطعام منها، أو علـــى الكثـــير منـــه في طرابلس، إذ كان الخبز باهظ الثمن ولم يستطع شراءه إلاّ الأغنياء. واستخرجوا بعـــض العصارة الغذائية من قصب السكر الذي كان ينمو في جوار طرابلس، ورغم اهتمـــام الحجاج بهذا النبات الجديد بالنسبة لهم، إلاّ أنه لم يكف لإشباع احتياجاتهم. وجاء شهر ديسمبر (كانون الأول) ببرد غير متوقع، وهطلت الأمطار بلا توقف، وارتفع معـــدل الوفيات بين المسنين والضعفاء، وهلك أغلب دواب الأحمال، لكنهم ثابروا وواصلـــوا تقدمهم، وفي منتصف ديسمبر (كانون الأول) وصلوا إلى قيساريّة حيث تمكنـــوا مـــن شراء الطعام، وفي الحادي والعشرين وصلوا إلى القدس.[٢]

---

[١] يقول Fulcher of Chartres (*loc. cit.*) إن بوهيمند دعا بلدوين لمصاحبته لأن الأعداد الأكـــبر توفر الأمان الأكبر . ويورد Fulcher عدد الحجاج، ولا شك أنه عدد مبالغ فيه (*ibid.* 8, p. 328) .

[٢] Fulcher of Chartres, *ibid.* 7-18, pp. 326-32 .

وابتهج جودفري برؤياهم؛ فهو في حاجة ملحة إلى القوة البشرية، وداعبه الأمـــل في إقناع الكثير منهم بالبقاء في فلسطين والاستقرار في الضياع التي يســـتطيع تقديمـــها إليهم. ولقد أصاب بعض النجاح؛ فعندما عاد بوهيموند وبالدوين إلى الشمال تخلـــف عدد من الفرسان برجالهم وبقوا معه. وكانت هزيمة المصريين في عسقلان تعني خـــروج يهودا والسامرة في داخل البلاد من نطاق سيطرتهم، برغم بقاء المدن الساحلية في أيـدي حكام فاطميين وتحت حماية الأسطول المصري باستثناء ميناء يافا. وكان أغلب ســكان القرى من صغار المزارعين المسيحيين السلبيين الذين حرموا من حمل السلاح لأجيـــال. وكان سادتهم المسلمون يستغلونهم عندما تكون الحكومة المركزية ضعيفة، ولقد رحبـوا في بادئ الأمر بتغير الأسياد. وبنهاية الصيف امتد سلطان جودفري إلى سهل جزريل[1] في الشمال وإلى ما وراء حبرون داخل النقب في الجنوب برغم عدم اكتمال ســـيطرته على جنوب يهودا؛ لأن أغلب السكان من المسلمين، وتسلل البدو مـــن الصحـــراء لا ينقطع. وكانت حبرون — التي أطلق عليها الصليبيون اسم (القديس إبراهام) — محصنـة تحصينا قويا حتى يمكن السيطرة على المنطقة. [٢]

وفي تلك الأثناء توغل تانكريد في الجليل ومعه مجموعة صغيرة مكونة من أربعـــة وعشرين فارسا ورجالهم. والجليل منطقة اختلف عليها مؤخـــرا الفـــاطميون ودقـــاق الدمشقي الذي لم يتسع الوقت أمامه لاحتلال تلك المقاطعة بعد هزيمـــة الفـــاطميين في عسقلان، ولذلك لم يقاوم مسلموها تانكريد، وعندما اقترب من عاصمتـــهم طبريـــة هربوا إلى الأراضي الدمشقية، واستقبلته الأقلية المسيحية في المدينة بمشاعر السعادة، أمـــا الجالية اليهودية الكبيرة فكان أفرادها في كرب شديد، إذ أن ذكرى مصير إخوانهـــم في

---

[1] (المترجم): سهل جزريل : يقع شمال فلسطين ويفصل بين منطقة تلال الجليل فى الشمال والسامرة فى الجنوب . وهو مذكور فى الكتاب المقدس ، العهد القديم ، بإسم " وادى يزرعيـــل " (ســـفر يشـــوع 17:16).

[2] إستنادا إلى William of Tyre ، لم يكن لدى جودفرى سوى ثلاثمائة فارس وألفين من المشـــاه . (ix, 19. Vol. 1, pt 1, p. 393)

القدس ما تزال ماثلة في أذهانهم. وقام تانكريد بتحصين طبرية، ثم واصل مسـيرته إلى مدينة الناصرة المسيحية وإلى جبل طابور[1]، ثم توج غزواته بالاستيلاء على قلعة بيسان الحصينة (سكيتوبوليس) التي تتحكم في الممر الواصل من سهل جزريل إلى الأردن. وسارع مسلمو الجليل بالرحيل عن المنطقة، وتابع تانكريد رحيلهم بسلسلة من الغارات الخاطفة الناجحة على الأراضي الإسلامية المحيطة جريا على أسلوب العرب. وأسفرت تلك الغارات لا عن حصوله هو وأتباعه على غنائم وفيرة وحسب، وإنما أكدت أيضا امتلاكه للجليل. وهكذا كبرت الدولة المسيحية وأصبحت كتلة متماسكة من الأراضي تفصل المدن الفاطمية الساحلية فصلا تاما عن الأردن وحوران في داخل البلاد. وها هم المصريون غير مستعدين بعد للثأر من هزيمة عسقلان، وها هو دقاق الدمشقي غارقا إلى أذنيه في مشاجرات عائلية بحيث لا يجرؤ على المخاطرة بحرب هجومية، وإذن فليس هناك من خطر عاجل يتهدد جودفري. وواقع الحال أنه لا يتحمل هجوما مضادا جديدا بما لديه من قوات محاربة يقدرها المؤرخ وليم الصوري بثلاثمائة فارس وألفي راجل.

إن تفرق العرب، دون غيره، هو الذي سمح للدولة الدخيلة الصغيرة بأن تقام داخل أراضيهم.[٢]

ديامبرت يصبح بطريقا

وخطط ديامبرت وبوهيموند سياستهما المقبلة أثناء ارتحالهما جنوبا. وكان جودفري في حاجة إلى مساعدتهما؛ فهو يفتقر إلى القوة البحرية المتمثلة في سفن بيزا التي يستحوذ ديامبرت على ولائها، كما كان في حاجة إلى أكبر عدد من الفرسان يستطيع بوهيموند الاستغناء عنهم. وأمضى الحجاج عيد الميلاد في بيت لحم، وما أن

---

[1] (المترجم) : جبل طابور أو الطور : الجبل الذى تحيا فيه ذكرى تجلى المسيح .

[2] Radulph of Caen, cxxxix, pp. 703-4; William of Tyre, ix, 13, vol. 1 pt 1, p.394

انتهت الاحتفالات حتى كشف الوافدان عن خططهما، فقد خُلع البطريـــق آرنولـــف، الذي كان أعداؤه كثيرين، تأسيسًا على أنّ انتخابه لم يكن طبقًـــا للقـــانون الكنســـي، وكان نصيره دوق نورماندي بعيدًا آنذاك. وبتحريض من بوهيموند انتُخب ديامـــبرت بطريقًا للقدس مكان آرنولف. وانتشرت شائعات تقول إنّ الهدايا التي أخذها كل مـــن بوهيموند وجودفري ساعدت على إنجاز المهمة. وفور الانتهاء من تتويجه بطريقًا ركـــع بوهيموند وجودفري أمامه حيث نصبّهما في أراضي القدس وأنطاكية.[1]

وكان احتفالاً له شأن كبير واتضح مغزاه بجلاء. إذ دائمًا ماكان الرأي العام بـــين الحجاج يعتبر أنّ الأراضي المقدسة ينبغي أن تكون وقفًا كنســـيًّا، بيـــد أنـــه لم يكـــن لـــآرنولف من السلطة أو الشخصية ما يمكنه من السيطرة على القوى الدنيوية، ثم جـــاء ديامبرت مندوبًا بابويًّا يتمتع بمهابة أضفاها عليه قرار البابا إيربان بتعيينه، وأحضر معـــه المساعدة الفعّالة المتمثلة في أسطول من السفن ومؤازرة مقتدرة من بوهيموند، ولـــذا لم يكن الصليبي العادي ينكر عليه مطالبه. وشارك جودفري في تقديم فـــروض الاحـــترام اللائق الأصيل للكنيسة، فهو رجل ضعيف لا يشعر بالأمان برغم ما ينتابه من نوبـــات عناد، وكان يأمل ـــ باعترافه بسيادة الكنيسة ـــ في أن يرتكز على ركـــيزة معنويـــة ملائمة في منصبه، وأن ينال من الكنيسة دعمًا كاملاً لحكومته الدنيوية في البلاد، لكنـــه لم يكن حتى ذلك الوقت يعرف ديامبرت حق المعرفة. وكان بوهيموند أشدّ مكرًا; فـــهو لم يخسر شيئًا باعترافه بسيادة ديامبرت الذي سيكون بعيدًا جـــدًا بحيـــث لا يســـتطيع التدخل في شؤون أنطاكية، وسره تجاهل حقوق بطريق أنطاكية اليوناني لا سيّما وأنـــه يرتاب في أنه عميل لبيزنطة. ولأنّ سلطانه الآن يرتكز من الناحية الرسمية علـــى رجـــل الكنيسة اللاتيني الرئيسي في الشرق، فإنه بذلك أجاب على مطالب الإمـــبراطور بـــرد عملي من شأنه أن يلقى الترحيب من جميع اللاتينيين، وبذا يمكنه أن يأمل في عونهـــم

---

[1] Albert of Aix, VII, 7, pp. 511-12; William of Tyre, IX, 15, vol. 1 pt, p. 387.

الصادق إذا ما حاول الإمبراطور مهاجمته. ولعله حصل في تلك المناسبة على لقب أمـــير أنطاكية. و لم يكن لقب (أمير) المرتبط بالأرض معروفًا في الغرب إلاّ فيما ندر، وباستثناء جنوب إيطاليا حيث سبق أن استخدمه بعض الحكام النورمانديين الذين تعاقبوا علـــى الأرض اللومباردية، و لم يعترفوا بأية سيادة دنيوية أعلى سوى كرسي القديس بطـــرس، وكان ذلك اللقب يناسب بوهيموند تمامًا. وفي ذات الوقت حصل إبن أخيه تـــانكريد على لقب أمير الجليل أيضًا، وربما أراد بذلك أن يظهر أنّ سيده لم يكن جودفري وإنّمـا البطريق. ولقد اغتبط ديامبرت بالولاء الذي أظهره له [1]، ولعل البابا إيربان كان ينـــوي أن تصبح الأراضي المقدسة وقفًا كنسيًّا رغم أنه لم يكن يرغب في إفســـاد الترتيبـــات الكنسية القائمة، ولا شكّ في أنه كان سيرحب باستحلاف أحد اللاتينيـــين في كـــل بطريارقيّة شرقية إذا ما تيسر ذلك بالطرق القانونية والسلمية، وربما يعنّ لنا أن نتســـاءل ما إذا كان يوافق على إجراء تنتحل بموجبه بطريارقية القدس لنفسها سلطانًا يعلو فـــوق سلطان بطريارقية أنطاكية الأقدم ذات الزعامة التاريخية. وكانت مطالب ديامبرت هـــي المطالب البطريارقية المتمثلة في سيادة دينية ودنيوية في الشرق تسمو بنفس قدر الســـيادة التي أتاحها البابا جريجوري السابع نفسه للبابويّة في الغرب. ولقد اختـــيرت اللحظـــة اختيارًا موفقًا؛ فقد مات البابا إيربان، ولابد أن تكون أنباء استخلاف باسكال الثاني ــ الذي رُفع إلى منصب البابويّة في الثالث عشر من أغسطس (آب) ــ قد وصلت القـــدس بحلول الشتاء، وربما كان ديامبرت على صلة وثيقة بالبابا الجديد الذي كان قد ســـبقه كمندوب بابويّ في إسبانيا وعرف أنه رجل عادي القدرات وليس بالشخصية القويـــة، ومن غير المحتمل أن يتسبب في وجود عراقيل طالما تم الاعتراف بسيادته الاسمية.[2]

---

(1) See Grousset, *Histoire dex Crousades*,vol. 1, pp. 194-6, and Moeller, *op. cit.*

(2) For Paschall II, see article 'Paschall II' by Amann in Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Cathorlique*.

ولم يقدم بالدوين صاحب الرها ولاءه للبطريق. وليس معروفا ما إذا كـــان قـــد طلب منه أن يفعل ذلك ورفض، أم أن المسألة لم يثرها أحد. ولكن يبـــدو أن علاقتـــه بـــديامبرت لم تكن علاقة ودودة.[١]

بوهيموند وبالدوين يعودان إلى الشمال

وبانتهاء الاحتفال رحل بوهيموند وبالدوين معا في يـــوم رأس الســـنة الجديـــدة ١١٠٠ ميلادية إلى أراضيهما. وعاد معهما أغلب أتباعهما، وتخلف عدد منهم منحـــهم جودفري إقطاعيات في فلسطين. وصاحب جودفري وديامـــبرت الحجـــاج إلى أريحـــا والأردن حيث أمضوا عيد الغطاس[٢]، ثم تحول بالدوين وبوهيموند شمالا أعلى الـــوادي إلى بيسان، ومنها إلى طبرية حيث قررا عدم السفر على الطريق الساحلي وإنما المضـــي قدما مرورا ببانياس ووادي الليطاني إلى داخل سوريا دون أن يعترض طريقهما أحد إلى أن أصبحا داخل سوريا بالقرب من معبد بعلبك حيث الولاء لـــدقاق الدمشقي الـــذي خطط لاعتراضهما هناك. وعندما هاجمت القوات الدمشقية كان الركـــب يســـير في طابور يتقدمه بوهيموند بينما كان بالدوين في المؤخرة، ولكن الدقاق كان حريصا على سرعة طردهم خارج أراضيه أكثر من حرصه على القضاء عليهم، فلم تكـــن غارتـــه عليهم كاسحة ولذا كان من اليسير ردها، وواصل الفرنج طريقهم هبوطا إلى البحـــر

---

[١] ليس هناك من دليل على أن بلدوين قدم الولاء لديامبارت بشأن الرها فى أى وقت. ويتضـــح مـــن الأحداث اللاحقة أن ديامبرت لم يكن يثق فيه .

[٢] (المترجم) : عيد الغطاس أو عيد الظهور الإلهى : عيد كنسى (٦ يناير) تخليدا لمجئ المجوس، بإعتبـــاره أول ظهور للمسيح لغير اليهود ؛ وفى الكنيسة الشرقية تخليدا لذكرى تعميد المسيح .

خلال البقاع ومن هناك اتخذوا الطريق الساحلي مرورًا بطرطوس واللاّذقيّة إلى أنطاكية، وقبل نهاية فبراير (شباط) كان بالدوين قد عاد إلى الرها.(3)

وتمكن جودفري من بسط سيطرته على سهول فلسطين الساحلية بعد أن زادت قواته المسلحة، وكانت أراضيه معزولة عن البحر باستثناء ممر يؤدي إلى يافا، وأثناء الخريف حاول توسيع هذا الممر بالاستيلاء على ميناء أرصوف الصغير الواقع شمال يافا. وكان أهل أرصوف قد عرضوا الاستسلام لريموند أوف تولوز، ولكن أحبط مسعاهم تدخل جودفري، والآن وقد غادر ريموند فلسطين رأوا أن من الحكمة التوصل إلى اتفاق مع جودفري، فأرسلوا إليه بعض الرهائن وفي المقابل سمحوا بأن يدخل مدينتهم أحد الفرسان من هينولت وهو جيرار أوفِ أفيسن ليقيم في المدينة من ناحية وليكون رهينة من ناحية أخرى، بيد أن جودفري كان يريد السيطرة المباشرة، فسار في أواخر الخريف ومعه قوة صغيرة لمهاجمة المدينة. وكان أول ضحاياه صديقه جيرار أوف أفيسن الذي قيده أهل أرصوف وعلقوه من فوق الأسوار بحيث أصبح معرضًا تمامًا لسهام المغيرين، وراح جيرار يصرخ دون جدوى متوسلاً إلى جودفري كي يبقي على حياته، ولكن رد عليه جودفري بأنه لو كان أخوه إيوستاس نفسه معلقًا في مكانه فلن يثنيه ذلك عن تشديد الهجوم، وسرعان ما سحب أهل أرصوف جسد جيرار بعد أن اخترقه اثنا عشر سهمًا من سهام رفاقه. على أنّ استشهاده ذهب هباء؛ إذ كان رجال جودفري فاقدي الحيلة أمام أسوار المدينة بعدما دمرت الحامية البرجين المتحركين اللذين شيدهما قذفًا بالنيران الإغريقية الواحد تلو الآخر. ورفع جودفري الحصار في الخامس عشر من ديسمبر (كانون الأول)، ولكنه ترك نصف جيشه في الرملة وأمره بتخريب الريف المحيط بأرصوف ليستحيل على مواطنيها أن يفلحوا أرضهم.(1)

(3) Fulcher of Chartres, 1, xxxiii, 19-21, pp. 332-4.

(1) Albert of Aix vii, 1-6, pp. 507-11.

وبوصول التعزيزات واصل جودفري سياسته تلك بصورة موسعة; فبدأ رجاله في الإغارة على الريف المحيط بكل المدن الفاطمية الساحلية: عسقلان وقيسارية وعكا فضلاً عن أرصوف، إلى أن عجزت كلها عن الحصول على أية إمدادات من داخل البلاد. وفي نفس الوقت استعان ببحارة بيزا في تحصين مدينة يافا، وإدخال التحسينات على مرفئها، وتدفقت السفن من جميع الموانى الإيطالية وموانى بروفانس الفرنسية لمشاركة أهل بيزا في تلك الفرصة السانحة تجذبها توقعات التجارة الرائجة مع الدولة الجديدة، وبمساعدتها تمكن جودفري من محاصرة الساحل الفلسطيني. وتزايدت الصعوبات أمام السفن الفاطمية في جلب الإمدادات بحرًا إلى الموانى الإسلامية. وكانت هناك أعمال قرصنة من الجانبين، لكن على وجه العموم كان مواطنو تلك الموانى هم الذين عانوا أسوأ المعاناة.(١)

وفي منتصف شهر مارس (آذار) استجاب المصريون لنداء عاجل من حامية أرصوف وأرسلوا لها فصيلة صغيرة بطريق البحر لتعزيزها، فتشجع رجال أرصوف ونظموا غارة مضادة على الفرنج، لكنهم وقعوا في كمين قُتل فيه الجزء الأعظم من جيشهم، فتملكهم اليأس وأرسلوا إلى جودفري سفارة وصلت القدس في الخامس والعشرين من مارس (آذار) حاملة إليه مفاتيح أبراج المدينة كهدية رمزية، على أن تدفع إتاوة سنوية، فقبل جودفري استسلامهم ومنح حق استلام الإتاوة لواحد من أهم فرسانه هو روبرت أوف أبوليا. وبعد ذلك بأيام قليلة فوجئ جودفري واغتبط لظهور جيرار أوف أفيسن في القدس وقد شفي من جراحه والآن أعادته سلطات أرصوف كعلامة على حسن النوايا. ودفعه تأنيب الضمير الذي كان يعاني منه إلى إهدائه إقطاعية القديس إبراهام، أي حبرون.(٢)

---

(١) *Ibid*, vii, 12, 14, pp. 515-16.

(٢) Ibid. vii, 13, 15, pp. 515-16.

جودفري وأمراء الساحل

ولم يمض وقت طويل حتى سارت مدن عسقلان وقيسارية وعكا على نفس الدرب الذي سارت عليه أرصوف. ففي أول إبريل (نيسان) اجتمع أمراء تلك المدن وأرسلوا المبعوثين إلى جودفري محملين بهدايا من الحبوب والفاكهة والزيتون والخيول العربية، وعرضوا عليه دفع إتاوة شهرية قدرها خمسة آلاف بيزنتة إذا سمح لهم بأن يفلّحوا أرضهم في سلام، فقبل جودفري عرضهم، وسرعان ما نشأت علاقات حميمة بين المدن الإسلامية وحاكمها المسيحي. وكان العديد من صغار مشايخ المسلمين في سفوح الجبال قد أعلنوا خضوعهم من قبل; فبينما كان جودفري في معسكره أمام أرصوف زاره وفد منهم بهدايا من الطعام، وتأثر الوفد بالبساطة التي يعيش فيها وابتهجوا لها ـــ وهي بساطة أملاها عليه فقره وذوقه، وتناسبت تلك البساطة مع تصورهم للمحارب العظيم المتواضع ويسّرت له الفوز بصداقتهم.(1)

وسار على دربهم شيوخ شرق الأردن وسعوا إلى التفاهم معه. إذ اعتادوا إرسال فائض إنتاجهم إلى مدن الساحل، والآن تعترض الدولة الفرنجية طرق تجارتهم، فطلبوا تمكينهم من إرسال قوافلهم عبر يهودا مرة أخرى فأذن لهم جودفري، لكنه حاول تحويل التجارة إلى ميناء يافا المسيحي بقدر الإمكان. وفي نفس الوقت شجع الإيطاليين على اعتراض أية تجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كي تصبح تلك المدن معتمدة على المسيحيين في تجارتها. وهكذا بدأت فلسطين كلها تتكامل في كيان اقتصادي واحد بعلاقات مع أوروبا فيما وراء البحار، وحققت السياسة الفرنجية عائداً سريعاً من الثروة والرخاء للدولة الصليبية.(2)

---

(1) *Ibid. loc. ct.*; William of Tyre, ix, 20, vol. 1 pt 1, pp. 395-6.

(2) Albert of Aix, vii, 14, p. 516.

غارات عبر الأردن

وشجع تزايد نفوذ جودفري بين جيرانه المسلمين على محاولة توسيع سيطرته لتشمل البلاد الواقعة عبر الأردن. وكان في أرض سوات الواقعة إلى الشرق من الجليل أمير أطلق عليه الصليبيون اسم "الفلاح السمين"، وكان تانكريد قد أغار على أراضيه ودفعه إلى الاعتراف بالسيادة الفرنجية، لكن "الفلاح السمين" سرعان ما تحلل من تلك التبعية فور رحيل تانكريد ولجأ إلى سيده الأعلى دقاق الدمشقي طلبا للمساعدة. ولذا طلب تانكريد بدوره المساعدة من جودفري، فإذا كان للفرنج موطئ قدم هناك فسوف يتمكنون من تحويل التجارة الرائجة في الجولان وحوران إلى الموانئ الفلسطينية، فضلا عن أن منطقة سوات تشتهر بخصب أراضيها. وتلهف جودفري على الاشتراك في غزوها، فجمع الجنود في وقت مبكر من شهر مايو (أيار) وألحقهم بقوات تانكريد في غارة أدت بهما عبر أراضي "الفلاح السمين" إلى قلب الجولان مباشرة. وأثناء عودتهما مثقلين بالغنائم انقض الدقاق على المؤخرة التي يقودها تانكريد، ومضى جودفري الذي كان في الطليعة وهو يجهل ما كان يحدث، و لم يتمكن تانكريد من تخليص نفسه إلا بعد أن فقد الكثير من رجاله وكل نصيبه من الأسلاب. على أن الدقاق لم يشعر بأنه من القوة بحيث يطارد الفرنج فعاد إلى دمشق بعد أن تأكد من مغادرتهم أراضيه. ومضى جودفري ومعه أسلابه إلى القدس. لكن تانكريد كان يتحرق شوقا للانتقام، فبعد أن استراح جيشه في طبرية وجمع التعزيزات قام بغارة أخرى في الأراضي الدمشقية كانت من الشراسة بحيث دفعت الدقاق إلى اقتراح هدنة. فكان رد تانكريد أن بعث بستة فرسان إلى دمشق ومعهم رسالة مؤداها أنه على الدقاق إما أن يصبح مسيحيا أو يغلدر دمشق، فتملكته سورة الغضب من تلك الإهانة، ورد على الرسل بالمثل وخيرهم بين أن يسلموا أو يقتلوا، وتخلى واحد منهم عن عقيدته وقتل الخمسة الآخرون. وفي الحال طلب تانكريد المساعدة من جودفري ليثأر لاستشهادهم، فخرج جودفري مرة أخرى ليشترك معه في غارة أكثر هولا من سابقتها; وظلوا أربعة عشر يوما يخربون الجولان بينما احتمى المسلمون وراء أسوار مدنهم. على أن الدقاق، الذي لم يكن ميالا بطبعه

للالتزام بحملات القتال، لم يحاول أن يتصدى لهم. ووجد "الفلاح السمين" نفسه وقد هجره سيده وأفقره الفرنج فوافق مرة أخرى على قبول سيادة تانكريد ودفع إتاوة منتظمة له.[1]

وبرغم قوة جودفري الصاعدة بين جيرانه المسلمين، كانت قوته الداخلية في نطاق أراضيه آخذة في الاضمحلال. فكانت علاقته بتانكريد، وهو أكبر أتباعه، علاقة ودودة، غير أنه يبدو أن تانكريد، برغم كل ما يطلبه من مساعدات جودفري، شكل سياسته وفقا لرغباته. وبينما كان تانكريد، وهو أمير الجليل، يتصرف كما لو كان عاهلا مستقلا، وجد جودفري أن سيده الأعلى الذي قبله دونما روية، وهو البطريق ديامبرت، يقيد من استقلاله أكثر فأكثر; فلم يكن ديامبرت يرضى بأن تكون سلطته مجرد سلطة اسميه نظرية، وإنما يريدها أن تستند إلى قوة إيجابية، ولم يكن جودفري يميل إلى رفض طلباته لشعوره الدائم بعدم الثقة في نفسه أمام الكنيسة، ولخشيته من أن يفقد مساعدة أهل بيزا. ففي عيد تطهير العذراء، الثاني من فبراير (شباط) سنة ١١٠٠ ميلادية، قام بتسليم ربع مدينة يافا إلى دائرة القدس الكنسية، وبعد ذلك طلب ديامبرت السيطرة لا على يافا كلها وحسب، وإنما أيضا على مدينة القدس نفسها وعلى قلعتها (برج داوود) وأذعن جودفري مرة أخرى لكنه أصر على التأخير الذي ربما دفعه إليه فرسانه الحانقون; ففي قداس وقور أقيم يوم عيد الفصح أول إبريل (نيسان) وهب المدينتين للبطريارقية، لكنه أعلن استمرار امتلاكه لهما حتى توافيه المنية أو إلى أن يستولي من الكفار على مدينتين كبيرتين بدلا منهما. ولم يكن هذا حلا مرضيا; إذ ليس من اليسير بناء مملكة منظمة حول عاصمة مؤقتة، ويبدو أنه لم يكن لدى جودفري هيئة حكومية بخلاف جماعته هو نفسه، كما لم يكن بوسعه أن يأمل الآن في تأسيس حكومة في القدس. ولو كان ديامبرت إداريا متمرسا، أو رجل دولة يتصف بالحكمة مثل أديمار، لقدر لنظام الحكم الهرمي الذي تصوره أن يبقى، لكن

---

(1) *Ibid.* VII, 16-17, pp. 517-18.

محاولته غير المتبصرة أن يطرد من العاصمة حماتها الدنيويين الذي يعتمد عليهم أمن الدولة المسيحية، لهي محاولة من شأنها أن تؤدي إلى كارثة، وحتى المهلة التي حصل عليها جودفري جعلت المستقبل غير معروف. لكن العناية الإلهية أظهرت الرحمة للقدس.(١)

فلدى عودة جودفري إلى الجليل في الثامن عشر من يونية (حزيران) بعد غارته في الجولان علم بوصول أسطول قوي إلى يافا قادما من البندقية، فهرع جنوبا لتحيته وهو يدرك الفائدة الكبيرة لهذا الأسطول في السيطرة على السواحل، وانطلق من طبرية مرورا بعكا وحيفا إلى قيسارية. وكان أميرها تواقا إلى إظهار احتراماته لسيده،فدعاه إلى مأدبة عومل فيها بأسمى مظاهر التشريف. ومن قيسارية انطلق جودفري مباشرة إلى يافا، فوصلها وهو يعاني من المرض، وانهار فور وصوله النزل الذي كان قد شيده بنفسه لكبار الزوار. وتذكر أصدقاؤه كل ألوان الفاكهة التي تناولها على مائدة الأمير وتهامسوا بكلمة السم، والحقيقة أن مرضه ربما كان التيفود. وفي اليوم التالي استرد من قوته ما يكفي لاستقبال آمر الأسطول البندقي والأسقف الذي كان بصحبته، وناقش معهما الشروط التي بموجبها يقدم الأسطول المساعدة للصليبيين. على أن الجهد الذي بذله في المقابلة كان فوق طاقته الصحية، فطلب من جماعته نقله إلى القدس حيث تحسن تحسنا طفيفا في هوائها المنعش، لكنه كان بالغ الضعف بحيث لم يقدر على العمل.(٢)

جودفري في مرضه الأخير

وتحلق السياسيون حول فراش مرضه يتشاحنون. فهذا ديامبرت قد عيل صبره انتظارا للحظة يستولي فيها على المدينة، وها هم البنادقة متلهفون على اتخاذ الخطوات

---

(1) William of Tyre, ix, 16-17, vol. 1, pt 1, pp. 388-90.

(2) Albert of Aix, vii, 18, p. 519. ويقول المؤرخ ماثيو الأورفي Matthew of Edessa، ويفترض أنه إعتمد على شائعات مسيحية محلية ، إن الأمير دس السم لجودفرى (ii, clxv, p. 299).

اللازمة للمضي في ترتيباهم، وقد جاءوا إلى القدس في جماعتين للعبادة في الأماكن المقدسة: الأولى في الحادي والعشرين من يونية (حزيران)، والثانية في الرابع والعشرين، لكن ربما تخلف آمرهم وأسقفهم لفترة أطول لمواصلة المفاوضات. وما أن سمع تانكريد بوصولهم وبمرض جودفري حتى ترك الجليل متجهاً إلى الجنوب على عجل. ومن فراش المرض أناب جودفري إبن عمه الكونت البرحندي وارنر أوف جراي للقيام بأعماله، وأعطى موافقة على الشروط التي اشترطها البنادقة والتي تتمثل في أن يُسمح لهم بحرّية التجارة في سائر أنحاء الدولة الفرنجية، وأن يكون لهم سوق وكنيسة في كل مدينة من مدن الدولة، وأن يحصلوا على ثلث كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها، وعلى مدينة طرابلس كلها شريطة دفع إتاوة لجودفري، وفي مقابل ذلك يقدمون مساعدهم للصليبيين حتى منتصف أغسطس (آب).[1] ثم نوقشت المدن التي سوف تتم مهاجمتها في الصيف، وتقرر أن تكون عكا الهدف الرئيسي على الرغم من المعاهدة المعقودة بين أميرها وجودفري، ولابد من الاستيلاء على حيفا كذلك. وكان تانكريد يأمل في ضمان عكا لنفسه وضمها لإمارته، على أنّ جودفري شخصيًا وعد صديقه جلدمار كاربنيل بإعطائه حيفا.[2]

وخلال النصف الأول من يولية (تموز) بدا جودفري أقوى قليلاً، وكان يُظن أنه سوف يشفى. وبدأ الاستعداد لتنفيذ مخططات تسيير الحملة إلى عكا، فلحق جنود تانكريد بقائدهم في العاصمة، وعُيّن وارنر أوف جراي قائدًا لجنود جودفري. وعندئذ قرر البطريق ديامبرت مصاحبة الحملة كي يُظهر أنه السلطة الرئيسية في البلاد، ولكي يكون له رأي عند أيّ توزيع للأراضي؛ فهو لا يثق في وارنر، وظنّ أنه من المأمون أن

---

(1) *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam R.H.C.Occ* vol. v, pt 1, vii, 19, p. 519; Albert of Aix. pp. 272-3.

(2) *Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.*; Albert of Aix vii, 20, p. 520.

يغادر القدس فـــجوفري يعاني المرض الشديد ولا يقوى على اتخـــاذ أيّ إجـــراء، وجنوده كلهم بعيدون عنه في الحملة. و لم يحدث قطّ أن أخطأ في حساباته على هـــــذا النحو.

وفي الثالث عشر من يولية (تموز) غادر القدس كل من البطريق وتانكريد ووارنـــو وجميع رجالهم، وساروا جنوبًا إلى يافا للاتصال بالبنادقة. وأثناء اقترابهم من يافا ســـقط وارنر مريضًا فجأة، وكان واضحًا أنّ حالته لا تسمح له بمواصلة الحملة، فبقي أربعـــة أيام في يافا ثم عادوا به إلى القدس محمولاً على محفّة. بينما أسرع الجيش شمـــالاً علـــى الساحل وتجهزت سفن البندقية للإبحار شمالاً إلى جانبة، لكن الرياح الشمالية أوقفتـــها و لم تحرز تقدمًا يذكر.[1]

و لم يكد وارنر أن يصل إلى القدس حتى توقف قلب جودفري المرهق. وفي يـــوم الأربعاء الثامن عشر من يولية (تموز)، كان جودفري ـــ كونت اللورين وحامي القـــبر المقدس ـــ يرقد في هدوء ليستريح راحته الأخيرة بعد أن تقوى بآخر طقوس الكنيســـة. لقد كان حاكمًا ضعيفًا يفتقر إلى الحكمة، لكنه نال احترام الرجال مـــن كـــل الأمـــم لشجاعته وتواضعه وإيمانه. وفي القدس قوبل نبأ موته بالحداد، وظل مســـجّى في نعـــش مكشوف خمسة أيام، ثم دُفن في كنيسة القبر المقدس.[2]

---

(1) *Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.*

(2) Albert of Aix, VII 21, pp. 520-1; William of Tyre, IX, 23, vol. 1 pt 1, p. 399.

الفصل الرابع

(مملكـــــة أورشليـــــــم)

مملكة أورُشَليم

"لاَ بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ"

(صَمُوئِيلَ الْأَوَّلُ : ٨ — ١٩)

أملى جودفري وصيته وهو على فراش المرض، وأوفى بوعده الذي وعد به في عيد الفصح ووهب مدينة القدس للبطريق. وعندما مات لم يكن في القدس من يتمتع بأيـــة سلطة فيما عدا وارنر أوف جراي، فقد رحل البطريق وزعماء الفرسان كلهم في الحملة

إلى عكا. وكان وارنر نفسه يحتضر، لكنه أدرك ما ينبغي عمله; فنهض من فراش مرضه واحتل من فوره برج داوود ووضع فيه رجالاً من حرس جودفري الشخصي، وبعد أن تشاور مع بعض الضباط في مترل جودفري وهم ماثيو وكيل الإقطاعيات، وجودفري (الياور)، ومع روبرت أسقف الرملة وآرنولف الأسقف السابق، أرسل أسقف الرملة مع فارسين للانطلاق بغاية السرعة إلى الرها ليخبروا بالدوين بوفاة أخيه، ويستدعوه ليتولى التركة; فلا طاعة عليهم إلاّ لواحد من أقاربه. وهو أمر دُبر من قبل; إذ شملت الدعوة الموجهة إلى بالدوين أسماء جماعة من الفرسان كانوا عند إرسالها مع الجيش مثل جلدمار كارنبل وفيشر الألماني. وتتألف هذه الجماعة من أبناء اللورين والفرنسيين الشماليين الذين جاءوا إلى الحملة الصليبية مع جودفري أو لحقوا به، وكانوا يعارضون النورمانديين والإيطاليين معارضة مريرة لا سيّما وأنّ جودفري كان واقعًا تحت نفوذهم. وأفلحوا في كتمان سرهم وظنوا أنّ الحكمة تقضي بإبقائه طي الكتمان، فلم تصل أنباء موت جودفري إلى الجيش.(١)

وبينما كانت سفن البنادقة ما تزال بالقرب من يافا انتظارا لهدوء الرياح الشمالية جاءهم من لقدس رسول ينعي إليهم موت جودفري، فساءل آمر البنادقة نفسه عن مدى تأثير ذلك على الحملة، وأرسل لتوه أسرع ثلاث سفن لديه شمالا بمحاذاة الساحل لتلحق بتانكريد والبطريق وتستفسر عما ينويانه الآن. ووقع النبأ على الجيش وقعا سيئا لما كان يكنه لجودفري من محبة، ويبدو أن ديامبرت قد تردد. لقد كان قلقا على ميراثه، لكنه كان مطمئنا إلى ما أوصى به جودفري، وظن أن أهل اللورين بلا قيادة، ووافق على ما أصر عليه تانكريد من ضرورة انتهاز فرصة وجود الأسطول

(١) Albert of Aix, vii, 30, p. 526; William of Tyre, x, 3, vol. 1, pt 1, pp. 403-4.
يتضح أن قادة الجيش لم يعلموا بموت جودفرى إلا عن طريق البنادقة

البندقي للاستيلاء على حيفا على الأقل وتأجيل الهجوم على عكا. لكنــه أرســل مبعوثا إلى القدس للاستيلاء على برج داوود باسمه.[1]

وواصل الجيش زحفه إلى حيفا وعسكر على منحدرات جبل الكرمل، وسرعان ما ابحر الأسطول البندقي داخلاً إلى خليج حيفا التي كان أغلب سكانها من اليــهود مــع وجود حامية مصرية صغيرة. وتذكر اليهود مصير ذويهم التعس في القــدس والجليــل، فأظهروا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم إلى النهاية، وزودهم المسلمون بالسلاح، فحاربوا بكل ما أوتي من جنسهم من عناد. وفي معركة دارت في المرفأ فقد البنادقة سفينة، فثبّط ذلك من عزيمتهم وانسحبوا إلى الخليج، وفي نفس الوقت علم تانكريد فجــأة بــالوعد الذي وعده جودفري بمنح جلدمار كاربنل ميناء حيفا فتملكه الحنق، واستدعى رجالــه وتقهقر إلى خيمته حيث ظل متجهمًا مقطب الجبين. واستخدم ديامبرت كــل لباقتــه لإقناعه باستئناف الهجوم، وتبين له أنّ البنادقة يعدون العدة بالفعل للانصراف، ووعــده بأنه سيعمل على منح حيفا للرجل الأفضل، فوافق تانكريد على التعاون مــرة أخــرى وشنّ هجومًا جديدًا. وبعد كفاح يائس انهالت القذائف على البرج الرئيسي للدفاعــات فأحدثت ثغرة. وهرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود إلى عكــا أو إلى قيسارية، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان.[2]

وسقطت حيفا في الخامس والعشرين من يولية (تموز). وفي الحال اجتمــع قــادة الجيش لتعيين من سيأخذها، وكان لــتانكريد أكثر القوات عــددًا إلى جــانب تــأييد ديامبرت، فلم يستطع جلدمار كاربنل أن يفعل شيئًا ضده وطردوه من المدينــة، فاتجــه ومعه أبناء اللورين إلى حبرون جنوب فلسطين حيث اتخذها مقرًا له. وأمــا حاكمــها

---

(1) *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, pp. 275-6; William of Tyre, *loc. cit.*.

(2) Albert of Aix, vii, 22-5, pp. 521-3; *Translatio Sancti Nicolai*, pp. 276-8.

جيرار أوف أفيسن فربما كان ما يزال مع تانكريد.[1] وبعد ذلـــك اجتمـــع ديامـــبرت وتانكريد لمناقشة القضية الأكبر ألا وهي حكومة القدس المقبلة، وبلغت ديامـــبرت الآن أخبار القدس; فقد وجد مبعوثه أن وارنر أوف جراي قد استولى علـــى بـــرج داوود ورفض تسليمه إلى ممثلي البطريق، كما علم باستدعاء بالدوين إلى الجنوب. ومات وارنر في الثالث والعشرين من يولية (تموز) من جرّاء الإرهاق الذي بذله في مجهوده الأخـــير; غير أنه على الرغم من تفسير أصدقاء البطريق لموته هذا بأنّ يد الرب قد امتدت لمعاقبتـه على عدم تقواه، فإنّ ذلك لم يُجدهم فتيلا; فقد بقي الـــبرج آمنًـــا في حيـــازة أبنـــاء اللورين.[2] وليس بمقدور ديامبرت أن يأمل في تحقيق مطالبه دون أن يُعان على ذلـــك ومن ثم أصبح التحالف مع تانكريد أمرًا أساسيًّا، فإمارته تمتد الآن من شرق الجليـــل إلى البحر المتوسط وتفصل القدس عن الشمال. وأما تانكريد فكان يمقت بالدوين منـــذ أن تشاجرا في كيليكيا قبل ذلك بثلاث سنوات. ولذلك قرر ديامبرت، بموافقـــة تـــانكريد التامة، أنه ينبغي أن يعرض حكم فلسطين على بوهيموند، وأمر أمين سرّه موريللـــوس بالتوجه فورًا إلى أنطاكية ومعه رسالة إلى أميرها.

ديامبرت يلجأ إلى بوهيموند

و لم يكن ديامبرت يقصد أن ينخدع بوهيموند بأية أوهام حـــول طبيعـــة توليـــه للسيادة مستقبلاً. وافتتح خطابه بالتذكير بمساعدة بوهيموند له في انتخابه بطريقًا للدائرة الكنسية التي ووصفها بأنها أم الكنائس جميعاً وسيدة الأمم، متجاهلاً بذلك مطالب روما تجاهلا بينًا. ثم ذكر التنازلات التي انتزعها من جودفري، واشتكى من محاولات حاشيته الحيلولة دون ذلك، وأعاد التأكيد على بنود المنحة التي تمت يوم عيد

---

(1) Albert of Aix, vii, 6, pp. 523-4. وليس هناك تسجيل يدل على أن جيرارد Gerard إعترض على تصرف جلدمار Geldemar .

(2) William of Tyre, *loc. cit.*.

الفصح والتركيز على أنه بموجبها ينبغي للقدس أن تؤول إليه بموت جودفري. غـــير أن وارنر أوف جراي قد جانبه الصواب باحتلاله برج داوود، وعـــــرض المـــيراث علـــى بالدوين. ومن أجل ذلك طلب من بوهيموند أن يخف لمساعدته. تماما كما فعل والـــد بوهيموند حينما ساعد البابا جريجوري السابع وقت أن ظلمه الأباطرة الألمان، وهـــي ذكرى لم تكن تتصف بسماحة نفس إزاء الكنيسة كما يبدو من تخيل دايمبرت. وعلـى بوهيموند أن يكتب إلى بالدوين لمنعه من الحضور إلى فلسطين دون إذن البطريــق، وإذا ما عصى فلا بد من أن يستخدم بوهيموند القوة لكبح جماحه، أي أنه مـــن أجـــل أن يحكم البطريق فلسطين متحديا بذلك رغبة الفرسان الذين يقع على كاهلهم أمر الدفاع عن البلاد، ينبغي لأمير أنطاكية المسيحي أن يعلـــن الحـــرب علـــى كونـــت الرهـــا المسيحي.[1]

وليس من الممكن أن نعرف ما كان يمكن أن يكون عليه رد بوهيموند على تلـــك الرسالة، لو أنها وصلته! فلم يكن من المحتمل أن يندفع ويخاطر بالدخول في صراع مـــع بالدوين; ولو أنه جاء إلى فلسطين لما بقى طويلا خاضعا للبطريق دايمبرت. علــــى أن تلك الدعوة لم تصل إلى بوهيموند على الإطلاق، وتخلى الحظ عن دايمبرت.

ريموند في زيارة القسطنطينية

وحدثت تطورات في شمالي سوريا خلال الأشهر القليلة المنصرمة نتجـــت عنـــها بعض تغيرات. فقد أمضى ريموند أوف تولوز أشـــهر الشـــتاء في اللاذقيـــة يحكمـــها بالاشتراك مع ممثلي الإمبراطور، وكان على علاقة ممتازة بحاكم قبرص الذي كان يـزوده بالإمدادات. وفي وقت ما من الربيع التالي تلقى رسالة من الإمبراطور ألكسيوس يشكره فيها على مساعدته ويطلب منه تسليم اللاذقية إلى السلطات البيزنطية، ويدعوه لزيـــارة

---

(1) Albert of Aix, vii, 27, p. 524 . ويرد نص خطاب دايمبرت عند William of Tyre, x, 4, 1, pp. 405-6 .

البلاط الإمبراطوري. وربما حمل الرسالة من القسطنطينية إيوستاثيوس الخصيّ الذي نال مؤخرًا ترقية وأصبح أمير البحار للأسطول الإمبراطوري، وخرج بأسطول قوي وشرع في الحال في الاستيلاء على موانئ غرب كيليكيا، وسيليوسيا، وكوريكوس، ثم وسع سيطرته لتشمل أراضي كيليكيا الأبعد إلى الشرق التابعة لبوهيموند، فاحتل طرسوس، وأدنا، ومامیسترا. وقبل ريموند الدعوة وأبحر إلى القسطنطينية في أول يونية (حزيران)، وفي قبرص قابل الأسطول البندقي الذي كان في طريقه إلى يافا، ووصل إلى العاصمة الإمبراطورية في نهاية الشهر تقريبًا. وأمّا زوجته الكونتيسة إلفيرا أوف أراجون التي بقيت بجانبه في جميع رحلاته، فقد تخلفت في اللاذقيَّة تحت حماية السلطات البيزنطية مع من تبقي من جيوش تولوز وبروفانس.(1)

وكان أمين سر ديامبرت قد وصل إلى اللاذقيَّة في نهاية يولية (تموز) وهو في طريقه إلى أنطاكية، واحتجزته السلطات لفحص أوراقه، واكتشفت الرسالة المرسلة إلى بوهيموند. وأرسلت الرسالة إلى رجال ريموند لترجمتها، فصدموا صدمة شديدة وأبقوها في طي الكتمان واعتقلوا موريللوس.(2)

ولو أنّ بوهيموند تسلم الرسالة لغدا مستقبله كله أكثر إشراقًا. ففي بداية أغسطس (آب) غادر أنطاكية وهو يجهل أحداث فلسطين متوجهًا إلى أعلى الفرات تلبية لنداء الأرمن في ملطية. وكان قد تمكن في باكورة الصيف من تعزيز حدوده الجنوبية الشرقية وراء نهر العاصي بانتصاره على هجوم مضاد شنّه رضوان الحلبي الذي انسحب واتجه إلى حمص يطلب مساعدة أميرها.(3) وكانت العلاقات بين حمص وحلب

---

(1) Anna Comnena, xi, vii, 4, x, 9-10, vol. iii, pp. 345-6; Fulcher of Chartres, 1, xxxii, 1, pp. 320-1; *Translatio Sancti Nicolai,* p. 271. والتتابع التاريخي الذى تورده أنا كومنينا ليس واضحا ، وإن كان التاريخ يمكن تأكيده من المصادر الغربية .

(2) Albert of Aix, *loc. cit.*

(3) Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 588-9.

في غاية الاضطراب بحيث لا تشكل خطرا على بوهيموند حتى وإن كـــان المســلمون قادرين على استرداد تل مناس التي تركها ريموند بيليت دون حماية كافية ورحل جنوبــا مع كونت تولوز. وشعر بوهيموند بقدرته على توسيع سلطانه باتجـــاه الشـــمال، ولم يستطع منع البيزنطيين من استعادة كيليكيا لافتقاره إلى القوة البحرية، لكنه كان متلهفا على السيطرة على ممرات جبال طوروسالمقابلة التي ربما تخترقها أيـــة حملـــة بيزنطيـــة تستهدف أنطاكية. وسعد بوهيموند لتلبية جبرييل صاحب ملطية نداء الاستغاثة الـــذي كان يتوقع هجوما من مالك غازي جوموشتكين الأمير الدانشمندي صاحب ســـيواس الذي دأب على الإغارة على أراضي جبرييل لثلاث سنوات في الصيف، ويخشـــى الآن من أن يتقدم إلى المدينة نفسها. ولم يشأ جبرييل الاستغاثة بـــبالدوين، مع أنه أقـــرب، بعد التجربة التي مر بها زوج ابنه ثوروس صاحب الرها. لكن بوهيموند أظهر مراعاتـــه لمشاعر الأرمن. وكان من بين أصدقاء جبرييل أسقف أنطاكيـــة الأرميـــني ســـيبريان، وأسقف مرعش جريجوري، واستغل جبرييل وساطتهم وعـــرض تســـليم المدينـــة إلى بوهيموند شريطة وضع نهاية للتهديد التركي.(١)

وقبيل أن يتوجه بوهيموند إلى أنطاكية استجابة للنداء تصـــرف تصرفـــا أدى إلى انفصاله عن اليونانيين إلى الأبد. وترتب عليه أول صـــدع لا ســـبيل إلى رتقـــه بـــين الكنيستين اليونانية واللاتينية. ذلك أن جون الرابع، الذي أعاد أدېمار تنصيبـــه بطريقـــا لأنطاكية، استمر في منصبه منذ ذلك الوقت. لكنه يوناني، وبوهيموند يشـــك في أنـــه متعاطف مع بيزنطة وفي أنه يشجع الأرثوذوكس التابعين لدائرته البطريارقية على التطلـــع إلى الخلاص على يد الإمبراطور. والآن طرده بوهيموند من المدينة، وعين مكانه واحـــدا من اللاتينيين هو برنارد أوف فالنس، الذي كان قسيســـا تابعـــا لـــأدېمار، وجعلـــه بوهيموند مؤخرا أسقفا لمدينة أرطة، وأخذه معه إلى القدس لرسامته. وكان اللاتينيـــون

---

(1) Albert of Aix, *loc. cit.*; Matthew of Edessa, II, clxvii, pp. 230-1; Michael the Syrian (ed. Chabot), III, iii, p. 187; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 203-4.

المتأخرون، مثل وليم الصوري شديدي الرغبة في ترسيخ شــــرعية تعــاقب البطارقـــة اللاتينيين في أنطاكية، فأعلنوا أن جون الرابع استقال بالفعل من كرســـيه الأســـقفي، ولكن الحقيقة هي أن جون لم يعلن عن استقالته إلا بعد وصولة إلى القسطنطينية كـــي يفسح الطريق ليخلفه يوناني. واستقر في أحد الأديرة في أكسيا حيث كتب بحثا ينكـــر فيه الأعراف اللاتينية ويتحدث بمرارة عن الاضطهاد اللاتيني، وآلت حقوقه إلى البطريـــق الجديد الذي انتخبه القساوسة المبعدون. وهكذا تأسس خطان متنافسان من البطارقـــة، الخط اليوناني والخط اللاتيني، لا يتنازل أحدهما للآخر. وبات الصدع بين الكنيستين في أنطاكية واضحا لا لبس فيه بسبب بوهيموند، أما الإمبراطور الذي يتطلع إلى اســـتعادة أنطاكية إلى إمبراطوريته، فقد أضاف إلى تطلعه هذا تصميمه على إعادة الخط الشـــرعي إلى العرش البطريقي.(١)

بوهيموند في الأسر

وانطلق بوهيموند إلى ملطية بعد أن أزاح مصدر الخيانـــة الرئيســـي المحتمـــل في أنطاكية. ولم يشأ أن يترك عاصمته بحامية غير كافية، فلم يصطحب معه سوى إبن عمه ريتشارد أوف سالرنو وثلاثمائة فارس وتكملة من المشاه، وصحبه الأساقفة الأرمن مـــن أنطاكية ومرعش، وربما كان بعض فرسانه من الأرمن كذلك. وامتلأت نفسه بالثقة من أنه سوف ينتصر على الأتراك حتى بمثل هذه القوة الصغيرة، فسار دون أن يأخذ جـلنب

---

(١) William of Tyre, vi, 23, vol. 1, pt 1, pp. 273-5; Orderic Vitalis, vol. iv, p. 141. ويفترض Orderic Vitalis دونما منطق أن التغيير حدث أثناء أسر بوهيمند ، ومع ذلك عيـــن بوهيمند مـــن يخلفـــه ؛ Radulph of Caen, cxi, p. 704. See Leib, *Deux Indédits Byzantins*, pp. 59-69 . ويرد هروب جون المؤرخ فى أكتوبر ١١٠٠م فى مخطوطة فى سيناء ترد فى Benechewitch, *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum*, p. 279 . أنظـر Grumel, 'Les Patriarches D'Antioche du nom de Jean', *in Echos d'Orient*, vol. xxxii, pp. 286-98.

الحذر في التلال التي تفصل ملطية عن وادي اكسو. وهناك كان الأمـــير الدانشـــمندي ينتظر متربصا في كمين، وانقض عليه فجأة، فبوغت الفرنج وأحيط بهم، وأبيد جيشـهم بعد صراع خاطف مرير، وقتل الأساقفة الأرمن. واقتيد بوهيموند ومعه ريتشـلرد أوف سالرنو إلى الأسر المذل، وهو الذي طالما أخاف الكفرة.(١)

وكان بالدوين هو الذي خلص شمال سوريا للعالم المسيحي. فلما وجد بوهيموند نفسه أسيرا قص خصلة من شعره الأصفر وعهد بها لجندي انسل مـــن بـــين الأتـــراك المحيطين، وأسرع إلى الرها حيث أبلغ بالدوين رسالة من بوهيموند مظهرا خصلة الشعر الأصفر دليلا على صدقه، وقد توسل بوهيموند في رسالته إلى بالدوين أن يعمل علـــى إنقاذه قبل أن ينقله الأتراك إلى أعماق الأناضول. على أنـــه كـــان مـــهتما بســـلامة الدويلات الفرنجية أكثر من اهتمامه بصديقه وغريمه القديم، فانطلق في الحـــال بقـــوة صغيرة لا تضم سوى مائة وأربعين فارسا وكان استطلاعه رائعـــا، فســـبقته شـــائعات تضخم من حجم جيشه. وكان مالك غازي جوموشتيكين قد سار في الصباح التـــالي لانتصاره إلى أسوار ملطية وأخذ يلوح للحامية برءوس ضحاياه من الفرنج والأرمـــن، لكنه عندما سمع باقتراب بالدوين رأى من الأفضل العودة إلى أراضيـــه ومعـــه أســـلابه وأسراه، وتبعه بالدوين داخل الجبال ولكنه خشي التوغل في أعمال البلاد لئلا يقـــع في كمين، فضلا عن عدم ثقته في السكان المحليين، فعاد إلى ملطية بعد ثلاثة أيام. ونقـــل

(1) Albert of Aix, vii, 27-8, pp. 524-5; Fulcher of Chartres, 1, xxxv, 1-4, pp. 343-7; Radulph of Caen, Cxli, pp. 704-5; Matthew of Edessa, *loc. cit.*; Michael the Syrian (ed. Chabot), m,iii, pp. 188-9 (talking of Armenian treachery); Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp. 49-50; Ibn al-Athir, *op. cit.* p. 203; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 589

بوهيموند وريتشارد أوف سالرنو مقيدين بالسلاسل ليقضيا سجنًا طويلاً في قلعة نكسار البعيدة في جبال بنطش.[1]

ورحب جبريل صاحب ملطية ببالدوين باعتباره مخلصه، وسارع بوضع نفسه تحت سيادته. وفي المقابل ترك بالدوين خمسين فارسًا لتدبير الدفاع عن المدينة، وبعد ذلك بأشهر قليلة استطاع جبريل بمساعدة الفرسان ردّ هجوم دانشمندي قام به الأتراك بعدما علموا بنبأ رحيل بالدوين عن الشمال.[2]

رحلة بالدوين إلى القدس

أمّا مبعوثو القدس الذين جاءوا ليخبروا بالدوين بموت أخيه، فلم يستطيعوا المثول بين يديه سوى بعد عودته إلى الرها من حملته في نهاية أغسطس (آب). وأمضى شهر سبتمبر (أيلول) في الترتيب لرحلته والإعداد لحكومة الرها. وكان إبن عمه بالدوين أوف لوبورج في أنطاكية حيث يبدو أنه كان نائبًا عن بوهيموند، وربما كان يعمل ضابط اتصال بين القائدين الكبيرين، واستدعى إلى الرها حيث خلع عليه بالدوين الكونتية تحت سيادته. وانطلق بالدوين إلى القدس في الثاني من أكتوبر (تشرين الأول) ومعه عائلته والحرس الخاص المؤلف من مائتي فارس وسبعمائة راجل. وكما يخبرنا قسيسه فولشر أوف تشارترز، انطلق لا يستشعر إلاّ قليلاً من الحزن لموت أخيه، وغاية السرور بما سيرثه.[3]

---

[1] (المترجم): منطقة جبال بنطش Puntos : تقع شرقي البحر الأسود ، والإسم مأخوذ من الإسم القديم للبحر الأسود وهو (بحر بنطش) . Albert of Aix, vii, 29, pp. 525-6 ، والمراجع في الحواشي السابقة

[2] . Albert of Aix, *loc. cit.*

[3] .Fulcher of Chartres, ii, i, 1, pp. 352-4; Albert of Aix, vii, 31, p. 527

وتبددت آمال ديامبرت في خروج بوهيموند لإيقاف بالدوين، فقد ضاع بوهيموند الآن في السر. وبمشاعر البهجة استقبل الفرنج في أنطاكية الرجل الذي أنقذهم بتدخله مما كان سيترتب على الكارثة. وبعد أن أمضى ثلاثة أيام في أنطاكية أرسل زوجته ومن صحبها من السيدات ليرحلن بحرًا إلى يافا خشية ما قد يواجهه من مصاعب في الرحلة. وفي اللاذِقِيَّة، حيث استقبلته السلطات استقبالاً حسنًا، أمضى ليلتين وانضم إليه جنود آخرون كثيرون، لكن سرعان ما تبدد حماسهم على أثر الأنباء التي تقول إنّ أتراك دمشق عاقدون العزم على القضاء عليه أثناء رحيله جنوب الساحل. وبوصوله إلى جبله كانت قواته قد تضاءلت إلى مائة وستين فارسا وخمسمائة راجل، ولم يصل سالما إلى طرابلس إلا بالإسراع في السير. وكانت علاقة أمير طرابلس الجديد، فخر الملك، بدقاق الدمشقي في أسوأ أحوالها لأنه كان يحاول التعدي تدريجيا على المنطقة اللبنانية الساحلية; ولذلك سره أن يقدم إلى بالدوين ليس فقط جميع المواد الغذائية التي يحتاجها، وإنما أيضا المعلومات حول تحركات ومخططات الدقاق.

وبينما يقترب الطريق الساحلي من بيروت قادما من طرابلس، وعند ممر نهر الكلب، يقع الطريق في ممر ضيق بين الجبال والبحر. ولهذا الممر شهرته منذ أقدم العصور; إذ قام كل الغزاة الذين اقتحموه، منذ الفرعون رمسيس، باحتفاء بانتصاراتهم بتسجيل ذلك في عبارة على واجهة الصخرة. وهنا كان الدمشقيون ينتظرون مجيئ بالدوين الذي كان ما يزال يذكر تحذير أمير طرابلس ولذا كان يتقدم بحذر شديد ليجد نفسه في مواجهة جيش الدقاق كله ومعه جيش أمير حمص. بينما يقف أسطول عربي قادم من بيروت على استعداد لقطع طريق الانسحاب، وفشل بالدوين في عبور النهر في مواجهة تلك القوات المتفوقة، وشعر بالامتنان لهبوط الليل، فتمكن من الانسحاب تحت جنح الظلام. وحث أمير حمص الدمشقيين على مهاجمته في الظلام، لكن مستشاري الدقاق فضلوا الانتظار حتى الفجر ليتمكن الأسطول الإسلامي من العمل معهم، واكتفوا بإطلاق سيل من السهام أثناء الليل على صفوف الفرنج. ويصف فولشر أوف تشارترز المعركة قائلا: "كم كنت أود لو عدت إلى وطني في تشارترز أو أورليانز!

وكم شعر آخرون بمثل شعوري!" ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة بالدوين، ففي الصباح التالي تظاهر بمواصلة الانسحاب، لكنه راعى أن يكون أفضل رجاله المسلحين في المؤخرة، وتبعه الدمشقيون يطاردونه متلهفين، وعندما وصل إلى الجزء الضيق من الطريق مرة أخرى عبر جونيا الواقعة على مسافة خمسة أميال إلى الشمال، واستدار فجأة واندفع فرسانه المدرعون في قوة وسرعة وبكل ثقل نحو مطارديه الذين بوغتوا وتداعوا إلى الوراء على حشود الجنود من خلفهم. وسرعان ما عم الاضطراب في الطريق الضيق وشدد بالدوين هجماته، ولم تتمكن السفن العربية من الاقتراب من الشاطئ لمساعدة حلفائها الذين دب الذعر بينهم. وبهبوط الليل كان الجيش الإسلامي كله قد هرب إلى الجبال أو وراء أسوار بيروت. وعسكر بالدوين تلك الليلة في جونيك وفي الصباح التالي عبر جيشه المحمل بالغنائم نهر الكلب دون مقاومة.

ومن تلك المرحلة حتى نهاية الرحلة لم يتعرض له المسلمون. ومر بسلام على بيروت وصيدا، وفي صور أرسل له حاكمها المصري المؤن عن طيب خاطر، وفي اليوم الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) وصل إلى ميناء حيفا المسيحي. وكانت حيفا تابعة لتانكريد الذي كان آنذاك في القدس يساعد ديامبرت في محاولة يائسة لأخذ برج داوود من أبناء اللورين قبل مجيئ بالدوين. وأثناء غياب تانكريد عرض الفرنج في حيفا فتح بوابات المدينة لبالدوين ولكن الريب ساورته وفضل أن يعسكر خارج الأسوار. وبعد أن استراح جنوده هناك عدة أيام واصل سيره جنوبا على الساحل إلى يافا. ولدى سماع تانكريد أنباء اقترابه أسرع إلى يافا ليحاول تزعم المدينة ضده، لكن مواطنيها طردوه، ودخل بالدوين يافا وسط حماس سكانها، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً. وفي التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) سار أعلى التلال ودخل القدس.[1]

---

(1) Fulcher of Chartres, ii, i, 2-iii, 9, pp. 354-66 ، وهى عبارة عن رواية شاهد عيان تنبض بالحيوية عن الرحلة ؛ Albert of Aix, vii, 32-5, pp. 527-31.

الملك بالدوين

وبينما هو يقترب من المدينة شيئا فشيئا خرج سكانها للترحيب به بأروع مظاهر البهجة. و لم تكن حشود المستقبلين تتألف من الفرنج جميعا وحسب، وإنما من اليونانيين والسوريين والأرمن كذلك، الذين قابلوه جميعا خارج الأسوار ونقلوه بمظاهر التشريف إلى كنيسة القبر المقدس. وتبعثر أعداؤه؛ فانسحب دايمبرت من القصر البطريقي إلى دير على جبل صهيون وقضى الوقت في الصلاة والممارسات الورعة. ورحل تانكريد شمالا إلى أراضيه في الجليل، وانتهت الفوضى التي سادت فلسطين منذ موت جودفري. وفي يوم ذكرى القديس مارتين، الأحد الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، وافق الجميع بسرور على أن يحمل بالدوين لقب ملك القدس.[١]

وكان بالدوين بالغ الحصافة بحيث لم يلجأ إلى الانتقام. وتطلع أعداء دايمبرت — ومنهم البطريق السابق آرنولف — إلى مشاهدة خذلانه السريع، لكن بالدوين لم يتخذ أي إجراء ضده، وإنما تركه يتمتع بكامل حقوقه وذهب في حملة ضد العرب. وتحقق دايمبرت من أنه سوف يحسن صنعا بقبول الهزيمة ومحاولة الإفادة منها قدر الإمكان. وعندما عاد بالدوين إلى القدس في منتصف ديسمبر (كانون الأول) وجد دايمبرت على استعداد للصلح بعد أن تلاشت آماله في إنشاء حكومة ثيوقراطية فعالة. على أنه ربما يظل محتفظا بسيادته الاسمية وما له من نفوذ كبير على المملكة. كما أن بالدوين — الذي لم يفته ما لدايمبرت من سيطرة على المساعدة التي تقدمها بيزا — عفى عنه عن طيب خاطر وثبته في دائرته البطريارقية.[٢] أما تانكريد فكان أكثر ضراوة؛ إذ استدعاه بالدوين إلى القدس ليبين أسباب عصيانه لرغبات جودفري المعروفة حيال تسليم حيفا، و لم يمتثل تانكريد للاستدعاء مرتين، ثم وافق أخيرا على مقابلة بالدوين على ضفاف نهر

---

(١) Fulcher of Chartres, ii,iii, 13-14, pp. 368-9; Albert of Aix, vii, 36, pp. 531-2; William of Tyre, x, 7, 1, pp. 410-11.

(٢) Fulcher of Chartres, ii, iii, 15, pp. 369-70; William of Tyre, x, 9, i, p.413.

العوجاء الصغير بين يافا وأرصوف، لكنه لم يأت في الموعد وطلب أن تتم المقابلة في حيفا. وكان هناك حل أيسر، فلا يوجد قائد لفرنج أنطاكية منذ وقوع بوهيموند في الأسر ورحيل بالدوين أوف لوبورج ليحكم الرها، فاقترحوا مجيئ تانكريد إليهم ليكون وصيا مكان خاله. فوجد تانكريد في هذا الاقتراح متسعا لا يطغى عليه فيه ظل بالدوين، بينما شعر بالدوين بالغبطة لتخلصه دون مشقة من تابع له لا يثق فيه ولا يحبه، وتمت المقابلة في حيفا في أوائل مارس (آذار) سنة ١١٠١ ميلادية في جو من الود، وأعاد تانكريد إلى بالدوين إقطاعية الجليل مع تمنياته الطيبة ورحل إلى أنطاكية.(١)

وكان قد سبق في يوم عيد الميلاد في سنة ١١٠٠ ميلادية، في كنيسة الميلاد في بيت لحم، أن قدم بالدوين تبجيله إلى البطريق ديامبرت الذي قام بدوره بتتويجه ملكا.(٢)

وهكذا تأسست مملكة أورشليم بعد أكثر من أربع سنوات على رحيل أمراء الغرب الأوروبي من أوطانهم في الحملة الصليبية. وكان الفائز الوحيد من بين جميع قادتها هو بالدوين، الابن الأصغر المفلس لكونت بولونيا، وسقط أنداده الواحد تلو الآخر؛ إذ عاد الكثير منهم إلى الغرب: روبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندرز، وهيو أوف فرمندوا، وستيفن أوف بلوا، حتى أخوه إيوستاس أوف بولونيا ـــ الذي ربما كان يأمل في أن يرث أخاه جودفري ـــ فضل أراضيه على شاطئ القنال الإنجليزي. أما منافسوه الرئيسيون في الشرق، فهذا بوهيموند يرقد يائسا في سجنه التركي، وذاك ريموند ـــ الذي ما يزال بلا أرض ـــ بعيد في القسطنطينية عميل للإمبراطور. لكن بالدوين ترقب الزمن واغتنم الفرص المتاحة. وهو الوحيد من بينهم جميعا الذي أثبت أنه

---

(1) Fulcher of Chartres, II, vii, 1, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8

(2) Fulcher of Chartres, II, vi, 1, pp. 384-5; Albert of Aix, VII, 43, pp. 536-7; William of Tyre, *loc. cit.*

أكثرهم اقتدارا وأشدهم صبرا وأعمقهم بصيرة فنال مكافأته، وأظهر المستقبل أنه أهـــل لها، وكان تتويجه تتويجا رائعا، ونهاية تحدوها الآمال للحملة الصليبية الأولى.



المرفقـــــات

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

المرفق الثانى: (قوة الصليبيين العدديّة)

الملحق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

غطت المصادر المعاصرة أو شبيه المعاصرة على وجه التقريب قصة الحملة الصليبية الأولى . وقد تناولت فى الحواشى النقاط التى أثارتها المصادر الأقل أهمية أو الثانوية ؛ بيد أن أهم المصادر الرئيسية التى نعتمد عليها دوما ، والتى لا تتفق دائما مع بعضها البعض، فى حاجة إلى تقييم نقدى كى نقدم قيمتها النسبية .

(١) المصادر اليونانية

المصدر الوحيد ذو الأهمية الرئيسية هو Alexiad الذى كتبته Anna Comnena ، وهو يتناول حياة الإمبراطور ألكسيوس الذى كتبته إبنته الأثيرة التى كتبت تاريخها بعد أربعين سنة من أحداث الحملة الصليبية ، بعدما أصبحت عجوزا . وربما خانتها ذاكرتها أحيانا ، وينصرف ذلك خاصة إلى أن تأريخها يتسم بشئ من التشوش ؛ فضلا عن إنها عالجت الأحداث بعد إنقضائها ، كما أنها كانت إبنة بارة أرادت أن تظهر والدها

ألكسيوس فى كل حال بمظهر الرجل الطيب الحكيم ذى الضمير الحى ؛ ومن ثم كانت تميل إلى إخفاء ما قد يُفسَّر فى رأيها على أنه يسئ إليه أو إلى أصدقائه . فهى بصراحة لايعتمد عليها عندما تتناول الأحداث التى تقع خارج حدود الإمبراطورية إذ تطلق العنان لتحاملاتها ، مثل ما جاء فى روايتها عن سيرة حياة البابا جريجورى السابع . على أن المؤرخين المحدثين يتجهون إلى التقليل من شأنها . ولقد كانت إمرأة ذكية ذات ثقافة عالية تُعمل ضميرها وتحاول التحقق من مصادرها . وعلى الرغم من أنها كتبت فى شيخوختها فقد كان فى نيتها لزمن طويل أن تكون مترجمة حياة أبيها ولابد أن تكون قد جمعت الكثير من مادتها أثناء حياته عندما كانت تواتيها الفرصة الكاملة للحصول على أوراقه الرسمية . وكانت تتحكم فى إنحيازها عندما تستند إلى معلومات لها مصداقيتها ، كروايتها عن مسيرة الصليبيين عبر الأناضول ، ومن الواضح أنها إستفادت من تقارير تاتيسيوس ؛ وعلى الرغم من أنها قد أخطأت فى حذف بعض الأشياء ، فليس من الممكن إتهامها بأنها قد ارتكبت أى حذف فى وصفها للأحداث التى حدثت فى القسطنطينية أو داخل الإمبراطورية . وكانت تتمتع بثقة والدها كما كان لها معرفة شخصية بالكثير من الشخصيات والأحداث التى تصفها . ومن اليسير التجاوز عن ورعها وإنحيازها ، ومن ثمّ فإن شهادتها على كافة الشؤون المتصلة مباشرة ببيزنطة ينبغى تفضيلها على أية شهادة أخرى لأى مؤرخ آخر .[1]

أما أعمال المؤرخين Zonaras and Glycas [2] ، والتاريخ العام الموجز المعروف بإسم the *Synopsis Sathas*[3] ، فلا تضيف سوى القليل جدا إلى معلوماتنا . وليست هناك وثائق بيزنطية رسمية باقية تتصل بالحملة الصليبية عدا الرسائل التى كتبها

---

(1) نُشرت آخر طبعة عن أنا كومنينا فى The *Collection Budé* ، وحررها Leib بمقدمة كاملة وحواشى . وترد فى *Anna Comnena*, by Mrs Buckler دراسة نقدية تفصيلية عن *Alexiad* . وهناك ترجمة إنجليزية لـ *Alexiad* (London, 1928) by E. A. S. Dawes .

(2) كلاهما نشر فى . the Bonn *Corpus Scriptorun Historiae Byzantinea*.

(3) Ed. In Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, vol. VII .

ألكسيوس للأمراء والمسؤلين على إختلاف رتبهم وهى مترجمة إلى اللاتينية ومن ثم تفتقر يقينا إلى الدقة . كما أن خطابات أسقف بلغاريا Theophylact ، التى لم تنشـــر علـــى الوجه الملائم حتى الآن فلا تضيف سوى القليل من المعلومات .[1]

(٢) المصادر اللاتينية

المصادر اللاتينية أكثر عددا ، وهى تمدنا بأغلب معلوماتنا .

إنضم Raymond of Aguilers (أو Aighuilhe فى دائرة اللوار الأعلى Department of Haute Loire) إلى الحملة الصليبية فى صحبة Adhemar of Le Puy ، وســـرعان مـــا أصبح واعظا لريموند التولوزى Raymond of Toulouse . وبدأ يكتب تاريخـــه *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem* أثناء حصار أنطاكية وأنهاه فى نهاية ســـنة ١٠٩٩م . وقد ركّز على حملة الكونت ريموند ؛ على أنه وإن كان فرنسيا جنوبيا مخلصا ، فإنـــه يقينا لم يكن بمنأى عن أن ينتقد رئيسه ، فقد عارض تأخر الكونت عن مواصلة الســـير من أنطاكية ، ولم يتعاطف معه فى تبنيه للسياسة البيزنطية . ولم يكـــف عـــن توجيـــه التعليقات غير الودودة لليونانيين إلا فى مناسبة واحدة (أنظر ما سبق صفحـــة ٣٢٦) . وكان دوره فى قصة الرمح المقدس سببا فى إرتياب النقاد فى مصداقيته ، على أنه مـــن الواضح أنه كان مخلصا فى نطاق حدوده وعلى دراية واسعة ، وســـرعان مـــا إنتشـــر تاريخه إنتشارا واسعا . وبالرغم من أن بعض المخطوطات المبكرة تحتوى على تلفيقـــات معينة فلم يعاد نشرها مطلقا.[2]

وكان Fulcher of Chartres حاضرا فى مجمع كليرمونت ، ثم ذهب إلى الشـــرق فى صحبة سيده الأعلى Stephen of Blois ، وفى شهر يونيو ١٠٩٧م أصبح واعظا لـــدى

---

[1] ترد رسائل Theophylact فى *M. P. G.* vol. cxxvi .

[2] Ed. In the *Recueil des Historiens des Croisade* ، وهناك متسع لنشرة نقدية جيدة .

Baldwin of Boulogne ، وبقى فى حاشيته منذ ذلك الوقت قُدُما . وقد كتب تاريخــه *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* علـى ثـلاث مراحـل فى ١١٠١و ١١٠٦ و ١١٢٤ – ١١٢٧م . وكان فولشر أكثر المؤرخين اللاتينيين ثقافة وأكـثرهم مصداقية . وبرغم إخلاصه التام لبلدوين إلا أن نظرته العامة كانت موضوعية بصـورة ملفتة . ولا تظهر أية لمحة عدائية للبيزانطيين إلا فى مرحلته الثالثة فقط ؛ كما أن نظرتـه العامة إلى المسيحيين الشرقيين عادلة وودودة . وقد استعان المؤرخون اللاحقون كثـيرا بتاريخه.[١] وفى حوالى ١١٠٨م، نشر Bartolf of Nangis، وربما كان يكتب فى سوريا ، طبعة تضم الفصول المبكرة مع إضافات قليلة تعالج الوصف البيئى بصورة أساسـية . [٢] وهناك موجز مقتضب للفصول اللاحقة ينسب إلى Losiard of Tours .[٣] وقد إستخدم William of Malmesbury و Richard of Poitiers و Sicard of Cremona تاريخ فولشـر كله كمصدر رئيسى عندما كانوا يكتبون عن الحملة الصليبية . [٤]

وأكثر الروايات المعاصرة إنتشارا عن الحملة الصليبية هو العمل الـذى لايعـرف صاحبه والمعروف بإسم *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* ، الذى ربمـا كتبه كمذكرا ت يومية أحد أتباع بوهيمند ممن ذهبوا إلى القدس مع تانكريد . وينتـهى هذا التاريخ بقصة معركة عسقلان فى عام ١٠٩٩م ، ونشر للمرة الأولى سـنة ١١٠٠م أو أوائل ١١٠١م ؛ وقد قرأه Ekkehard فى القـدس سـنة ١١٠١م . وتـضم أقـدم مخطوطة باقية تلفيقات مثل الوصف " الحرفى " لأنطاكية ، وفقرة تشوه أعمال بوهيمنـد فى القسطنطينية (أنظر ما سبق ص ٢٠٩ الحاشية ١) أوحى بها بوهيمند نفسه فى حوالى

---

[١] الطبعة التى نشرها Hagenmeyer ، وهى مشروحة بالكامل ، حلت محـل الطبعـة المنشـورة فى *Recueil* .

[٢] Ed. In the *Recueil*. See Cahen, *La Syrie du Nord*. P. 11 n1 .

[٣] Ed. In the *Recueil*. .

[٤] أنظر Cahen *loc. cit.* . ولم يعد تاريخ Sicard موجودا .

سنة ١١٠٥م ، وكذلك فقرة أقتبست من Raymond Of Aguilers . وكـــان الكـــاتب جنديا بسيطا ، ومخلصا بقدر إسهامه ، غير أنه كان ساذجا ومتحيزا وشديد الإعجـــاب ببوهيمند . ويعزى النجاح الواسع الذى حققه تاريخ *Gesta* بصورة أساسية إلى الجـــهود التى قام بها بوهيمند نفسه . وقد إعتبر أنها بمثابة دفاع عـــن نفســـه "*apologia*" وراح يعرضها للنشر فى شمال فرنسا أثناء زيارته هناك سنة ١١٠٦م .[١] وأعيد نشره فى تاريخ مبكر بطريقة تكاد أن تكون كلمة بكلمة ، وقام على نشره قس من بوتو الفرنســـية ، وكان صليبيا ، يدعى Tudebod . وتحتـــوى نســـخته the *De Hiersolymitano Itinere* على إضافات قليلة من ذكريات شخصية.[٢] وفى حوالى سنة ١١٣٠م ظـــهر *Historia Belli Sacri* ، وهو عبارة عن تجميع أهوج جمعه راهب من مونت كاسينو يرتكز علـــى *Gesta* وبه فقرات قليلة مأخوذة من Radulph of Caen ، ومن مصدر آخر مفقود الآن ، ومن مأثورات التقاليد الجارية.[٣] وأعيد كتابة *Gesta* عدة مـــرات، فى حـــوالى ســـنة ١١٠٩م بواسطة Guibert of Nogent الذى أضاف معلومات شخصية وإســـتعار مـــن Fulcher، والذى كان ينشد المزيد من النغمة النقدية الأخلاقية فى الأســـلوب [٤]؛ وفى حوالى سنة ١١١٠م بواسطة Baudri of Bourgueil رئيس أساقفة Dol، الذى كان يسعى إلى تحسين الأسلوب اللفظى[٥]؛ وبواسطة Robert of Reims الذى ظهرت نســـخته – وهـــى شعبية رومانسيـــة نوعا مـــا *Historia Hierosolymitana*– فى حـــوالى ســـنة

---

(١) نشر Bréhier آخر نشرة بعنوان *Histoire Anonyme de la première Croisade* . ومـــا تزال هناك فائدة ترتجى من الحواشى الموجودة فى نشرة Hagenmeyer المعروفـــة بإســـم *Anonymi Gesta Francorum* (Heidelberg, 1890) .

(٢) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*. pp. 8-9

(٣) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

(٤) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

(٥) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

١١٢٢م .[١] كما أنها ألهمت التاريخ *Expeditio contra Turcos* الذى لايعرف كاتبه، والفصول الخاصة بالحملة الصليبية فى تاريخى Hugh of Fleury and Huntingdon of Henry.[٢]

وهناك ثلاثة مؤرخين للحملة الصليبية الأولى على جانب من الأهمية لم يشتركوا فيها هم أنفسم. فقد جاء Ekkehard رئيس دير Aura إلى فلسطين مع الصليبيين الألمان فى الحملات الصليبية لعام ١١٠١م. وبعد عودته إلى ألمانيا فى حوالى عام ١١١٥م كتب عملا يسمى Hierosolymita انتوى أن يكون جزءا من تاريخ للعالم كان يفكر فى وضعه. وهو يتألف من ذكريات شخصية قليلة وقصص حكاها له أو لصديقه Frutholf of St Nichelsberg أعضاء عاملون فى الحملة الصليبية، واستكمله بمعلومات مأخوذة من تواريخ نشرت بالفعل. ودائما ما كان يذكر مصادره، ولكنه كان ساذجا سريع التصديق.[٣]

وقد جاء Radulph of Caen إلى سوريا سنة ١١٠٨م؛ واشترك مع بوهيمند بالفعل فى حملة Epirot سنة ١١٠٧م ثم ألحق نفسه بتانكريد. وبعد موت تانكريد فى حوالى سنة ١١١٣م، كتب *Gesta Tancredi Siciliae in Expeditione Hierosolymitana*؛ وهو كتاب لايوجد إلا فى مخطوطة و لم يستكمل قط. ويدل أسلوبه على جهل كاتبه وإدعائه الكبير، ويضم القليل من فضلات شاملة من المعلومات حول بطلها، وبخلاف ذلك يسير

Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.* [6]

.Extracts of Hugh and Henry are published in the fifth volume of the *Recueil* [2]
The *Expedition Cotra Turcos* is publish with Tudebod in the third volume.

[3] النسخة الواردة فى المجلد الخامس من *Recueil* أفضل بكثير من نسخة Hagenmeyer
. (*Ekkehard von Aura*, Leipzing, 1888)

على نهج أعمال أخرى منشورة بالفعل؛ ومع ذلك، لايبدو أن الكاتب قد قرأ *Gesta Francorum* .[4]

وترد أكثر الروايات المعاصرة إكتمالا للحملة الصليبية الأولى فى *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae* of Albert of Aix (Aachen)، وهو التاريخ الذى كتب فى وقت ما فى حوالى سنة 1130م. ولا نعرف شيئا عن Albert سوى أنه لم يذهب إلى الشرق مطلقا. وحتى منتصف القرن الماضى كان يعتبر أكثر المصادر أصالة لتاريخ الحملة الصليبية؛ وأولاه مؤرخون عظام مثل جيبون Gibbon ثقتهم الكاملة. على أنه منذ أن نقده von Sybel نقدا هداما أصبح الإتجاه الحديث التقليل من شأنه على نحو لا يتصف بالعدل. وتاريخه عبارة عن تجميع لأساطير وروايات شهود العيان، جمعها بقدر ضئيل جدا من الحس النقدى وبدون الإستشهاد بالمصادر. ومن الواضح أن روايته عن حياة بطرس الناسك المبكرة لا يعتمد عليها؛ بيد أن سرده لحملة بطرس أمده بها يقينا أحد الذين اشتركوا فيها؛ فهناك تفصيلات مقنعة إجمالا مثل الوقت المستغرق فى الإنتقال من مرحلة إلى أخرى فى المسيرة. ولابد من أنه اعتمد فى قصة رحلة جودفرى إلى القسطنطينية والمسير عبر الأناضول على مارواه له جندى فى جيش جودفرى. وربما كان من عادته قبل أن يبدأ فى جمع كتابه تدوين المعلومات التى يدلى له بها الجنود والحجاج العائدون. ومن اليسير بصورة معقولة التعرف على ما يحويه كتابه من أساطير؛ على أنه فى سرده لأحداث الحملة الصليبية ذاتها يتعين أن يعامل بما يستحقه من إحترام.[1]

---

(4) Ed. In the *Recueil*.

(1) Ed. In the *Recueil*. وهناك كم كبير من الكتابات عن Albert، من أهمها ما كتبه Kres, von Syble, وانظر أيضا Kügler, Kühne and Beaumont (see Bibliography) Hagenmeyer, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite* (المقدمة)، و *Geschichte des ersten Kreuzzuges*, 2nd ed.، وخاصة صفحة 9 وما بعدها .

أما William of Tyre، وهو أعظم المؤرخين، الصليبيين، فقد كتب بعـــد الحملــة الصليبية بحوالى سبعين سنة. وإلى أن وطّد الصليبيون أنفسهم فى فلسكين إعتمد فى كتابة تاريخه على Albert of Aix بصورة تكاد تكون مانعة؛ على أنه بعد الإستيلاء على القدس إستند تاريخه كذلك على ما بقى فى مملكة الصليبين من سجلات وتراث. ولم يصبـــح تاريخه الرائع *Historia Rerum in Partibus Transmairnis Gestarum* مصدرا هاما إلا بعد إستخلاف بالدوين. وأرجو أن أناقشه بصورة أكثر إكتمالا فى جزء تـــالٍ مـــن هـــذا الكتاب. (1)

وهناك وجهة نظر مختلفة إختلافا بسيطا تغطى الســـنوات مـــن 1100 إلى 1163م أوردها Caffaro الجنوى مؤلف The Annals of Genoa و *De Liberatione Civitatum Orientis* وهو العمل المكتوب سنة 1155م والذى أكتُشِف ضمن بعض الأوراق القديمــة بعد قرن من الزمان، ويحتمل أن يكون قد حدث فيه تغيير طفيف قبل نشـــره. وكـــان Caffaro من أسرة جنوية جاءت إلى فلسطين سنة 1100م وتصطبغ روايته بالصبغة الوطنية وإن كانت معتدلة ويعتمد عليها.(2)

وجميع المؤرخين المعاصرين فى أوربا الغربية يذكرون الحملـــة الصليبيـــة، لكنـــهم يعتمدون إعتماداً كليا على مصدر أو آخر من المصادر التى ذكرناهـــا، باســـتثناء the *Chronicle* of Zimmern الذى يقدم معلومات عن الصليبيين الألمان.(3)

ولقد نتج عن الحملة الصليبية ملاحم حماسية باللاتينية وبلهجات فرنسا العصـــور الوسيطة شمالا وجنوبا. ومع ذلك، كان لمثيراتها الأدبية من الأهمية ما يفـــوق جدارتهـــا

---

(1) Ed. In the *Recueil*. See Prutz, *Wilhelm von Tyrus*, and Cahen, *op. cit.* pp. 17-18.

(2) Ed. In the fifth volume of the *Recueil*.

(3) Extrcts are published by Hagenmayer in vol. ɪɪ of the *Archives de l'Orient Latin*.

التاريخية؛ ذلك أن الشعراء اللاتـــين Gregory the Lombard, Joseph of Exeter and Gunther of Basle ليست لهم قيمة من الناحية التاريخية. أما "أنشودة أنطاكية البروفنسـية *Provençal Chanson d'Antioche*" التي تنسب إلى Gregory Bechada فهى أكثر إثـــارة وتستحق مزيدا من الدراسة. وفى لهجات شمال فرنسا العصـــور الوسـيطة توجـد — بالإضافة إلى أنشودة Baudry الشعرية أنشودة أنطاكيـة *Chanson d'Antioche* a الـتى نظمها Graindor of Douai، وهى ترتكز جزئيا على Robert the Monk وجزئيـا علـى أنشودة سابقة نظمها Richard the Pilgrin الذى شارك فى الحملة الصليبية على ما يـبدو فى جيش Ropert of Flanders. وكان رجلا بسيطا جاهلا نوعا ما وإنما كانت له وجهـة نظره الخاصة به. فمثلا، وبرغم رغبته فى أن يستولى الصليبيون على القسطنطينية، وكـان ودودا إزاء تاتيسيوس. كما توجد قصيدة شعرية بالفرنسية نظمها Ginon مـع بعـض التلفيقات التى حشرها من يدعى Fulcher تقوم على أساس نفـس المـادة، وأخـرى بالأسبانية *Gran Conquista d'Utramar*، فى تاريخ لاحـق، تسـتخدم Bechada and William of Tyre and Graindor. وليست الدائرة سوى تاريخ أسطورى بطلها Godfrey of Lorraine، مثل *Chevalier eu Gygne*.[1]

والمتبقى لدينا من المراسلات المعاصرة للحملة الصليبية قليل جدا؛ وإن كان ذا أهمية عظمى. فهناك رسائل قليلة من وإلى البابا إيربان الثانى وباسكال الثانى؛ ومناشدتان مـن رجال الدين فى الشرق؛ ورسالتان مثيرتان ، وإن كان هما الكثير من المراءاة، مرسـلتان من زعماء صليبيين؛ والأكثر قيمة رسالتان من كل من صليبيين بـــارزين Stephen of Blois و Anselm أسقف Ribemont. وقد كتب ستيفن ثلاث رسائل لزوجته؛ ضـاعت الأولى التى كتبها لدى وصوله القسطنطينية. والثانية من معسكر فى نيقية والثالثـة مـن معسكر فى أنطاكية. وعلى الرغم من أن ستيفن كان رجلا ضعيفا إلا أنه كان مخلصـا ومتحمسا؛ ورسالتاه هما الأكثر إنسانية من بين وثائق الحملة الصليبية. وكتـب Anselm

---

(1) عن الملاحم الحماسية أنظر Hatem, *les Poèmes Epiques des Croisades* ، الذى يدافـع عن الأصل السورى للقصائد، والموجز الموجود فى Cahen, *op. cit*. pp. 12-16.

رسالتيه من أنطاكية ووجههما إلى رئيسه Manases رئيس أساقفة Reims، ويحتويان على معلومات ولكنهما يخلوان من نوعية الكتابة الشخصية التي يتصف بها خطابا ستيفن.[1]

وليس هناك من شك في الأهمية الكبيرة للقرارات البابوية القليلة التي تنظم الحملة الصليبية ، والمواثيق المتصلة بإنشاء المملكة الصليبية. وتضم محفوظات جنوا والبندقية مادة تتزايد أهميتها بتزايد إهتمام المدن الإيطالية بشؤون الصليبيين.

(3) المصادر العربية

على الرغم من كثرة المصادر العربية وأهميتها البالغة للحملات الصليبية المتأخرة فهى لاتعطينا سوى القليل فيما يتصل بالحملة الصليبية الأولى. ولم تبقَ أية مواثيق أو مستندات رسمية عن تلك الفترة. إن ما يشتهر به العرب من دوائر المعارف العظيمة والمؤلفات الجغرافية الكبيرة لاتكاد تهتم بسنوات الحملة الصليبية الأولى، باستثناء واحد، وهو أن أعمال المؤرخين الذين يعرف أنهم عاشوا فى ذلك الوقت لم تصل إلينا إلا على هيئة مقتبسات قصيرة متفرقة فى أعمال الكتاب المتأخرين. وليس هناك سوى تواريخ ثلاثة لها أهمية حقيقية.

فى الفترة من 1140 إلى 1160م كتب إبن القلانيسى الدمشقى Ibn al-Qalanisi of Damascus تاريخا عن مدينته فى وقت الغزوات التركية حتى عصره. ويظهر من عنوان تاريخه "مذيَّل تاريخ دمشق *Mudhayyal Tarikh Dimashq* " أن المقصود به أن يكون تذييلا لتاريخ المؤرخ هلال Hilal الذى كان يستهدف كتابة تاريخ عن العالم بينما لم

---

[1] يرد أفضل نشر لهذه الرسائل فى Hgenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe* . وهناك مجموعة مكتملة على نحو أكبر ترد فى Riant, *Inventaire des Lettres historiques*.

يهتم إبن القلانيسى إلا بدمشق وحكامها. وقد أمضى حياته فى ديوان الإنشاء بـــالبلاط الدمشقى وتدرج فيه إلى أن أصبح رئيسا له، ومن ثم كان على دراية جيدة؛ ويبدو أنـــه كان يتوخى الدقة والموضوعية إلا عندما كانت تتعرض سمعة رؤسائه للخطر.[1]

وفى بداية القرن الثالث عشر كتب إبن الأثير الموصلى Ibn al-Athir of Mosul كتابه "كامل التواريخ Kamil et-Tawarikh" وقد كان لإستخدامه المعتنى ونقـــده للمصـــادر السابقة أن جعل منه حجة لها أهمية بالغة رغم أن رواياته تتســـم عـــادة بالإقتضـــاب الشديد.[2]

وبعد ذلك بنصف قرن كتب كمال الدين الحلبى Kemal ad-Din of Aleppo تاريخه، الذى لم يستكمل حتى الآن، عن حلب وموسوعته؛ على أنه إستعان هو الآخر بما ســبقه من مصادر واستشهد فى موسوعته بأسماء تلك المصادر، التى من بينها ما يثير ضياعه غاية الأسف، ألا وهو تاريخ الغزو الفرنجى لكاتبه حمدان بن عبد الرحيم الأثاربى، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة حتى فى عصر كمال الدين نفسه.وتر ك إبن زريق المعرى، من معرة النعمان المولود سنة 1051م، والذى لعب دورا فى أحداث الحملة الصليبية، تاريخا لعصـــره لم يعرف هو الآخر إلا من مقتطفات قليلة؛ وترك إبن زريق الحلـــبى المولـــود فى 1090م تاريخا لشمال سوريا فى وقت الحملة الصليبية، ما يزال موجودا منه الآن عدد أكبر بقليل من المقتطفات.[3]

---

[1] عن إبن القلانيسى أنظر مقدمة Gibb لترجمة فقرات تاريخ دمشق *Damascus Chronicle* الـــتى تشير إلى الحملات الصليبية (أنظر ثبت المراجع). والنص العربى الكامل نشره Amedorz (Leyden, 1908).

[2] نشر Tornberg (Leyden, 195-76) الأعمال الكاملة لإبن الأثير باللغة العربية فى أربعة عشـــر مجلدا، والفقرات ذات الصلة منشورة فى *R. H. G. Occ.*

[3] ليست هناك طبعة جيدة لتاريخ كمال الدين. ويرد فى *Recueil* فقرات كاملـــة تتصـــل بالحملـــة الصليبية من 1097 إلى 1146م .

(4) المصادر الأرمينية

هناك مصدر أرميني لايقدر بثمن يغطى فترة الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو: تاريخ ماثيو الأورفى *Chronicle* of Matthew of Edessa الذى يتناول تاريخ سوريا من سنة 952 إلى 1136م ولابد أنه كُتب قبل سنة 1140م. وكان ماثيو رجلا ساذجا يحمل الكراهية لليونانيين ولايشعر بكبير حب لأبناء جلدته من الأرثوذكس. ولابد أنه إستقى الكثير من معلوماته عن الحملة الصليبية من بعض جنود الفرنج الجهلة؛ أما عن الأحداث التى حدثت فى مدينته وما جاورها فكان على دراية كاملة.[1]

ويتناول الحملة الصليبية باقتضاب المؤرخون الأرمن اللاحقون مثل Samuel of Ani and Mekheta of Airavanq، الذين كتبا فى نهاية القرن الثانى عشر، وKirakos of Ganzag and Vartan the Great فى القرن الثالث عشر ويبدو أنهم إستفادوا من Matthew ومن تاريخ مفقود كتبه من يدعى Hohn the Deacon الذى يثنى على صموئيل ثناءً كبيرا، والذى أظهر عداءً معينا لا إزاء الإمبراطور ألكسيوس فحسب، وإنما أيضا إزاء أمه أنا دلاسينا Anna Dalassena.[2]

---

[1] نشر Dulaurier سنة 1858م ترجمة فرنسية من المخطوطات، ومقتطفات من النص الأرمينى مع ترجمة فرنسية فى *R. H. C. Arm.*، ونُشر النص الأرمينى بكامله فى القدس سنة 1868م ، ولم أتمكن من الحصول عليه، ولذا إستخدمت ترجمة Dulaurier، مع مطابقتها بقدر الإمكان بالمقتطفات الأرمينية المنشورة فى *Recueil*.

[2] ترد فى *Recueil* مقتطفات عن هؤلاء المؤرخين .

(5) المصادر السورية

العمل الوحيد الباقى الذى يتناول الحملة الصليبية الأولى هـــو تـــاريخ ميخـــائيل السورى Michaeal the Syrian، بطريـــق أنطاكية اليعقوبى من 1166 إلى 1199م، وهو يمر مر الكرام بالفترة السابقة على سنة 1107م. ولقد استعان بالتواريخ السورية الأقدم الـــتى ضاعت الآن، كما استعان بالمصادر العربية. ومعلوماته ضئيلة القيمة إلى أن يصـــل إلى عصره.[1]

وعلى الرغم من أن التواريخ الرئيسية للحملة الصليبية قد نشرت كل على حـــدة فإن التجميع الكبير الوحيد للمصادر هـــو *Recueil des Historiens des Croisades*، الذى نشر فى باريس من سنة 1844م قُدُما. وهو يتضمن نصوصا لاتينية وفرنسية قديمـــة وعربية ويونانية وأرمينية مع ترجمات إلى الفرنسية للكتاب الغربيين واليونانيين. ولســـوء الحظ شاب الإهمال طبعات المخطوطات فيما عدا المجلد الأخير (الخامس) من النصـــوص اللاتينية المنشورة بعد عدة سنوات من نشر باقى *Recueil*. كما أن هناك الكثـــير مـــن الفراغات العشوائية فى النصوص، وليست الترجمة دقيقة دائما. ومع ذلك، تبقى المجموعة شيئا لاغنى عنه لدارس الحملات الصليبية.

---

(1) ترجمها Chabot ونشرها.

الملحق الثانى

قوة الصليبيين العددية

يتورط أى مؤرخ من مؤرخى العصور الوسيطة، مهما كان جنسه، بدرجات متفاوتة فى مبالغات تشوبها الكتابات التصويرية الفظّة كلما اضطر إلى تقدير الأعداد التى لا سبيل إلى حصرها؛ ولذا يستحيل علينا اليوم إثبات الحجم الحقيقى الذى كانت عليه الجيوش الصليبية. فعندما يخبرنا Fulcher of Chartres and Albert of Aix أن مقاتلى الحملة الصليبية الأولى بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، بينما يخبرنا Ekkehard لأنهم كانوا ثلاثمائة ألف، ويورد Raymond of Aguilers رقما متواضعا قدره مائة ألف، أو عندما تعلن أنا كومنينا أن جودفرى اللوريني Godfrey of Lorraine أحضر معه عشرة آلاف فارس وسبعين ألف من المشاه، فمن الواضح أن هذه الأرقام لاتعنى سوى الدلالة على ضخامة العدد الكبيرة جدا فى الواقع.[1] على أنه عندما يتناول المؤرخون أعدادا أصغر، فلا حاجة هناك إلى إنعدام الثقة الكاملة فى هؤلاء المؤرخين، على الرغم من أنهم يفضلون ذكر رقم تقريبى. ومن الأدلة التى يسوقونها نستطيع أن نجرى تخفيضات معيَّنة.

ولاسبيل إلى تقدير نسب أعداد غير المقاتلين فى الجيوش، إذ كانت أعدادهم مرتفعة يقينا. ولقد أحضر عدد كبير من الفرسان عقيلاتهم معهم؛ وقد إصطحب ريموند التولوزى Raymond of Toulouse زوجته، واصطحب بالدوين البولونى Baldwin of Boulogna زوجته وأولاده وكان مع بوهيمند أخت واحدة على الأقل. ونحن نعرف أسماء عدد من السيدات اللاتى اشتركن فى حملة روبرت النورمندى Robert of

---

(1) Anna Comnena, x, ix, 1, vol. 11, p. 220; Fulcher of Chartres, 1, x, 4, p. 183.; Ekkehard, *Hierosolymite*, xiii, p. 21; Raymond of Aguilers, v, p. 242.
ويذكر تاريخ *Chronicle of Zimmern*, p. 27 أن جيش Godfrey كان قوامه ٣٠٠٠٠٠ رجل.

Normandy، وأحيانا تظهر سيدات أخريات فى القصة. وقد جلبت كل هؤلاء السيدات معهن وصيفات، ويقينا كان مع الجيش عدد كبير من السيدات الأقل شأنا، من الفضليات ومن اللاتى يفتقدن الفضل والإحترام. وما نفتأ نسمع عن ذكور غير مقاتلين مثل بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ومخدومه. وكان عدد رجال الدين المصاحبين للجيش كبيرا، على أنه من الأرجح أن أغلب الذكور من غير المقاتلين كانوا يُدفعون دفعا إلى الخدمة فى أوقات الخطر. وليس من الممكن أن تجاوز نسبة غير المقاتلين الدائمين من النساء وكبار السن والأطفال ربع القوة كلها.

كما يُرجَّح أن معدل الوفيات كان مرتفعا بصورة خاصة بين غير المقاتلين، ولاسيما كبار السن والأطفال. أما معدل الوفيات بين المشاه المقاتلين بسبب الأمراض والمشاق فلابد أنه قد جاوز معدله بين الفرسان والسيدات، ممن كانت تتوفر لهم خدمات أفضل ومقدرة أكبر على شراء الطعام. وكان دور الفرسان فى المعارك أكثر تعرضا للقتال من المشاه ومن ثم كانت خسائرهم أكبر.

ويبدو أن نسبة الفرسان إلى المشاه حوالى واحد إلى سبعة مع الأخذ فى الإعتبار أن المشاه يشملون جميع القادرين على القتال. وربما كانت تقديرات أنا كومنينا صحيحة فيما يتعلق بالقوة النسبية لقوات جودفرى صحيحة، وإن تعين قسمة أرقامها على عشرة على الأقل. وفى معركة عسقلان التى إشترك فيها كل رجل متاح فى فلسطين، كان عدد الفرسان ألف وماءتين فارس وعدد المشاه تسعة آلاف راجل، وهى نسبة واحد إلى سبعة ونصف.[1] وفى حصار القدس، وإستنادا إلى Raymond of Aguilers، كان هناك ما بين ألف ومائتين إلى ألف وثلاثمائة فارس من جيش قوامه أثنى عشر ألف رجل، كان يضم – مع ذلك – أبناء جنوا وإنجليز وبحارة.[2] ويتعين أن يؤخذ المصطلح "فارس" على أنه يعنى خيَّال مسلَّح وليس بأى معنى آخر من معانى الفروسية، بينما كان الكثير من رجال

---

(١) William of Tyre, ix, 12, vol. 1, pt. 1, p.380.

(٢) Raymond of Aguilers, xix, p. 292.

المشاه غير مسلحين تسليحا كاملا. وربما كانت نسبة رماة السهام وحملة الحراب بمجرد نسبة ضئيلة بصورة معقولة من المجموع الإجمالى.

وعن الجيوش كل على حده، فمن اليقين تقريبا أن جيش ريموند كان هو الأضخم، وإن لم يتوفر لدينا سوى دلالة واحدة على حجمه. ذلك أنه عندما سمع الشائعات الكاذبة فى كوكسون Coxon بأن الأتراك قد أخلوا أنطاكية أرسل قوة فرسان من خمسمائة فارس بمن فيهم بعض فرسانه البارزين، لإحتلال المدينة.[١] ويتواتر ذكر الرقم خمسمائة تواترا تشوبه الريبة، بيد أنه ربما كان ذلك الرقم يعتبر الوحدة الملائمة لغلوة أو حملة من هذا النوع. ومن غير المحتمل أن يكون ريموند قد حجز نصف قوة فرسانه فى هذه المرحلة. وإذا ما قابلنا هذا الرقم (٥٠٠) على أنه صحيح بوجه التقريب، فلابد وأن كانت قوة فرسانه كلها قد بلغت ألف ومائتى فارس أو أكثر، وإجمالى جيشه قد بلغ عشرة آلاف رجل عدا كبار السن والنساء والأطفال.[٢]

ويرد فى تاريخ لوقا Chronicle of Lucca أن بوهيمند ذهب إلى الشرق ومعه من الفرسان ٥٠٠ فارس.[٣] وتلاحظ أنا كومنينا أن جيشه لم يكن جيشا ضخما، ومن ثم ربما كان هذا الرقم صحيحا تماما.[٤] وقد سمح لتانكريد بأن يأخذ معه فى حملته على

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣٠٣.

[٢] من الواضح أن جيش ريموند كان مازال جيشا هائلا عندما غادر فلسطين كما أظهرت الحملات اللاحقة .

[٣] من إقتباس .Chalandon, *Histoire de la Premiére Croisade*, p. 133. و لم أتمكن من إكتشاف التاريخ الذى يشير إليه.

[٤] Anna Comnena, x, ix, 1 vol. 11, p. 230 : "بوهيمند ... لم يكن لديه جيش كبير لأنه كان يفتقر إلى المال ... " .

كيليكيا مائة فارس ومائتي راجل. رغم أنه أرسل له لاحقا ثلاثمائة راجل آخرين. وتتفق هذه الأرقام مع بعضها البعض بصورة معقولة.[١]

والدليل الوحيد المتوفر لدينا على الأحجام النسبية للجيوش الأخرى يتمثل في تصرف ريموند في روجيا Rugia عندما حاول أن يرشو أنداده ليقبلوا زعامته، إذ عرض على جودفرى وروبرت النورمندى عشرة آلاف سو لكل منهما[٢] وعلى روبرت الفلاندرزى ستة آلاف سو، وتنكريد خمسة آلاف سو ومبالغ أقل للقادة الأقل شأنا. ولابد أن المبالغ قد حُددت في علاقتها بالقوة التي يستطيع كل أمير تقديمها آنذاك. رغم أنه من المحتمل أن يكون ريموند قد عرض على تنكريد مبلغا أكبر بصورة تفاوتية كي يُبعده هو وأكبر عدد ممكن من النورمنديين عن بوهيمند.[٣]

ودليلنا الوحيد على حجم جيش جودفرى، بعيدا عن الرقم الخيالى الذى أوردته أنا كومنينا، يتمثل في إستعداده لأن يتخلى عن خمسمائة فارس وألفى راجل لأخيه بلدوين من أجل حملته على كيليكيا. ولايحتمل في الأغلب الأعم أن يكون قد تخلى عن نصف قوة فرسانه، حتى وإن كان في نيته أن تعود هذه القوة للإنضمام إليه قبل الوصول إلى أنطاكية. والأمر يغرينا إلى أن نفترض أن العرض الذى عرضه ريموند في روجيا Rugia كان يقوم على أساس دفع عشر عملات سو عن كل فارس. وفي ذات الوقت، لو أننا قسَّمنا الرقم الذى ساقته أنا كومنينا على عشرة فقد نضيف إلى رصيد جودفرى حوالى ألف فارس وسبعة آلاف راجل وقت وصوله إلى القسطنطينية. ولابد أن خسائره كانت كبيرة قبل تاريخ الإجتماع المعقود في روجيا، وذلك باستبعاد الفرسان الذين صحبوا بلدوين إلى الرها؛ على أن هناك من إنضم إليه من الباقين على قيد الحياة من حملة بطرس الناسك الصليبية والحملات الصليبية الألمانية التي لم يكتب لها النجاح، فضلا عن بعض

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣١٤.

[٢] (المترجم) : سو Sou عملة فرنسية قديمة مختلفة القيمة.

[٣] أنظر ماسبق ص ٣٩٦.

بحارة جوليمار Guynerer الذين كان سيدهم بولون، ومن الطبيعى لذلك أن ينضموا إلى كونت بولينيا وإخوته.[١]

وفى روجيا كان روبرت نورماندى يتساوى فى المرتبة مع جودفرى فإذا كان تحت إمرة جودفرى ألف فارس فلابد وأن روبرت كان على نفس القدر من القوة. وبعد قرن من الزمان اضطرت نورماندى إلى تزويد دوقها بعدد من الفرسان يقل قليلا عن ستة آلاف فارس.[٢] وربما كان روبرت قادرا على أن يجمع بسهولة للحملة الصليبية أكبر عدد من الفرسان، ربما ستمائة وخمسين فارسا، وقد إنضم إليه جنود من بريتانى ومن وراء القناة الإنجليزية الأمر الذى ربما أضاف إليه مائة أو مائة وخمسين فارسا. وزيادة على ذلك، وبعد عودة ستيفن أوف بلوا وهيو أوف فيرمندوا إلى أوربا، فإنه قد تولى زمام قيادة قواتهما التى بقيت بعد رحيلهما . فأما ستيفن، الذى لم تكن أراضيه شاسعة وإنما كانت غنية، فربما قدم مائتين وخمسين أو ثلاثمائة فارس. وأما هيو، فيرجح أنه لم يحضر معه الكثير مما يزيد على مائة فارس. وإجمالا، يرجح بصورة معقولة أن روبرت كان لديه ما يقترب من ألف فارس تحت قيادته فى وقت روجيا.

وبنفس القاعدة، لابد وأن كان لدى روبرت أوف فلاندرز ستمائة فارس أتى بعضهم من أراضى جاره كونت هينولت Count of Hainault. وكان روبرت مدين قانونا لمليكه، ملك فرنسا، بمجرد عشرين فارسا كاملى التسليح؛ غير أنه فى سنة

---

(١) أنظر ما سبق الصفحات ٢٥٠-٢٥١و٣١٩.

(٢) *Milites Regni franciea*, in Bouquet, R. H. F. vol. xxii, pp. 684-5. وذلك يعطى نورمادى ٦٠ صاحب راية (المترجم : صاحب الراية هو فارس له أتباع تحت رايته فى الميدان.) وذلك فى زمن فيليب أوغسطس. وربما كان لكل صاحب راية عشرة من الخيّالة . أنظر أيضا قائمة المرجع السابق vol. xxiii, p. 698 n. 2، التى تذكر ٥٨١ فارسا لدوقية نورماندى.

١١٠٣م عرض فى معاهدة تزويد هنرى الأول ملك إنجلترا بألف فارس.[١] ولـــذا مـــن اليسير عليه أن يجمع ستمائة فارس للحملة الصليبية.

وتتناسب مع هذه الأرقام قوة بوهيمند المؤلفة من خمسمائة فارس الـــتى ذكرهـــا تاريخ لوكا .the Chronicle of Lucca . وإذا إفترضنا أن جيوش اللوردات الأقل شأنــــا تحتسب فى الجيوش الأكبر، وأن المبالغ التى عرضها عليهم ريموند فى روجيـــا شـــخصية خالصة، فإننا نصل إلى العدد الإجمالى للحملة كلها وهو تقريبا أربعة آلاف ومـــائتين إلى أربعة آلاف وخمسمائة فارس وثلاثين ألف راجل، بما فى ذلك المدنيين الذيـــن يمكـــن إجبارهم على الخدمة القتالية. ويرد فى الخطاب الذى كتبه ديامبرت للبابا قوة الجيـــش بخمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل. وربما كان هذا العدد الأخـــير للجيـــش يتضمن المقاتلين المسلحين فقط، أما الرقم الأول ففيه مبالغة عن رقم أربعة آلاف يمكـــن التغاض ى عنها.[٢]

ويبدو هذا الجيش صغيرا بما فيه الكفاية من الصغر. ومع ذلك، وعندما نتعـــرض للأرقام التى يذكرها المؤرخون لكل معركة على حده، نجد الأرقام أصغر من ذلك؛ ففى معركة بحيرة أنطاكية، وعندما قيل لنا إن جميع الفرسان دخلوا المعركة، لم يكن هنـــاك سوى سبعمائة فارس فى المعركة؛ على أن الكثير من الفرسان كانوا مرضـــى فى ذلـــك الوقت؛ ويتضح من رسالة أرسلها Anselm of Ribemont أن النقص الحقيقى كـــان فى الجياد، يقدر بأن لم يكن متاحا سوى ٧٠٠ فى وقت حصار أنطاكية، ولذا هلك الكثـير من الجوع ومن البرد؛ ويعلن أنه لم يكن هناك نقص فى عدد الرجال.[٣] وفضـــلا عـــن ذلك، يحتمل فى هذه المناسبة أن بقى فرسان ريموند معه لحراسة المعســـكر. وقيـــل إن

---

(١) *Actes des C ômtes de Flandres*, ed. by Vercauteren, nos. 30, 41، ومقتبســة بتعليقات فى Lot, *L'Artmilitaire et les Armées du Moyen Age*, vol. 1, p. 130 n. 2.

(٢) Letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, p. 172.

(٣) أنظر ما سبق ص ٣٤٣.

الحملة المغيرة التي قادها بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز فى الشهر التالى كانت تتــألف من ألفى فارس وخمسة عشر ألف راجل، وذلك قطعا باستبعاد جيش ريموند.[١] ولكن، مرة أخرى لم يكن حاضرا فى حصار القدس سوى ألف ونائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وأزيد قليلا من عشرة آلاف راجل؛ وكانت قوة الجيش فى عسقلان مماثلـــة جـــدا.[٢] وعلى الرغم من أن الكثير من الجنود قد لاقوا حتفهم أو قتلوا وأن كثيرين قد عــادوا إلى أوطانهم، فمن الممكن أن تكون قوة الجيش قد تقلصت بمقدار الثلثين فى الفترة ما بـــين إجتماع روجيا وحصار القدس.

ولذلك، ليس بوسعنا إلا أن نعيد التاكيد على أن أى تقديـــر ينبغـــى أن يؤخـــذ بتحفظ. وأنا أعتقد أن قوام الجيش كله وقت أن غادر القسطنطينية قد بلغ على وجـــه التقريب العدد الإجمالى الذى سبق أن أقترحته أعلاه. وعلى مدى العامين التاليين تضاءل الجيش بصورة كبيرة جدا؛ وأما فى روجيا فقد كان حسابات ريموند عتيقـــة ويشـــوبها الكثير من التفاؤل إستخدمها ليبنى عليها عروضه. وفى إعتقادى أنه يمكن قبول الأرقـــام الصغيرة نسبيا، المذكورة فى تاريخ إنجازات بلدوين الجسورة، على أنها صحيحة علـــى الجملة.

ومن المحال بنفس القدر إحتساب حجم حملة بطرس الناسك الأصلى. فمن الواضح أن الرقم الذى أورده المؤرخ ألبرت أوف آيكس وهو أربعين ألف مبالغ فيه، وإن كـــان من المحتمل أن يصل عدد أتباعه إلى عشرين ألف شخص، وكان غير المقاتلين من هـــذا لرقم يمثل الأكثرية الساحقة.[٣]

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣٤١.

[٢] أنظر ما سبق ص ٥٠٤ الحاشيتين ١و٢.

[٣] يقدر المؤرخ Chalandon, *op. cit.* p. 59 أن ١٥٠٠٠ شخصا غادروا فرنسا مع بطرس؛ ومـــن المحال التحقق من هذا العدد وهو معقول فيما يبدو. ويقول تاريخ *Chronicla of Zimmern*, pp. 27-8 إن بطرس كان معه ٢٩٠٠٠ شخصا فى سيفيتوت بعد أن قتل ٣٢٠٠ ألمان (فى كســـريجوردون Xerigordon).

ولإغراض المقارنة، تجدر ملاحظة أن الجيش البيزنطى كله فى القرن التاسع قد أحتسب على أنه يبلغ مائة وعشرين ألف رجل. ولابد أن ضياع مقاطعات الأناضول قد نتج عن خفض القوات المتاحة بحلول نهاية القرن الحادى عشر؛ على أنه ربما كان بإمكان ألكسيوس الإستغناء عن سبعين ألف رجل إقتضت الحاجة إلى إستخدام أغلبهم فى شغل حاميات حدوده المترامية الأطراف، بينما كانت نسبة كبيرة يجرى تسريحها فى كل شتاء لأسباب إقتصادية. ومن غير المحتمل أن يكون أكبر جيش دافع به البيزانطيون فى المعارك فى هذه الفترة يزيد على عشرين ألف رجل من الجنود المجهزين والمدربين على نحو جيد. ومن المحال تقدير أحجام الجيوش الإسلامية؛ وربما بلغ جيش كيربوقا حوالى ثلاثين ألف رجل، ولكن ليس هناك من دليل فعلى على ذلك. وكان قادرا على الإضطلاع بحصار أنطاكية أكثر فاعلية مما كان يستطيعه الجيش الصليبى. ومن المؤكد أن جيش المصريين فى عسقلان كان أكبر من جيش الصليبيين، وإن لم يكن هناك من سبيل لمعرفة حجمه الفعلى سوى بالتخمين. ومن المشكوك فيه ما إذا كان الجيش التركى فى دوريليوم على نفس القدر من ضخامة جيش الصليبيين؛ إذ كان الأتراك يعتمدون على هجومهم المفاجئ وعلى حركتهم لتعويض أى نقص فى أعدادهم .

(ثبـــت المـــراجـع)

BIBLIOGRAPHY

I. ORIGINAL SOURCES

1. Collections of Sources

[*Note*. The abbreviations at the end of certain items are used to refer to these items in the footnotes and the following sections of the bibliography.]

Achéry, L. d'. *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, 13 vols. Paris, 1655–77. 2nd ed. (ed. L. F. J. de la Barre), 3 vols. Paris, 1723.

Acta Sanctorum (*Bollandiana*). Antwerp-Paris-Rome-Brussels, 1643– (in progress). [*Aa. Ss.*]

Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti (ed. J. Mabillon and L. d'Achéry), 9 vols. Paris, 1668–1701.

Amedroz, H. F. and Margoliouth, D. S. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate: Original Chronicles of the Fourth Islamic Century*, 6 vols. and Index. Oxford, 1920–1.

Archives de l'Orient Latin, pub. Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881–4.

Assemani, J. S. *Bibliotheca Orientalis*, 3 vols. Rome, 1719–28.

Benechewitch, V. *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum qui in Monasterio Sanctae Catharinae in Monte Sinai Asservantur.* St Petersburg, 1911.

Bouquet, M. and others. *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 23 vols. Paris, 1738–1876. New series, Paris, 1899– (in progress). [*R.H.F.*]

Brosset, M. F. *Collection d'Historiens Arméniens*, 2 vols. St Petersburg, 1874–6.

Caetani, L. See Bibliography, p. 352.

Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium (ed. J. B. Chabot and others). Paris, 1903– (in progress). [*C.S.C.O.*]

Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum. Vienna, 1866– (in progress).

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1828–97. [*C.S.H.B.*]

Dölger, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, 3 vols. Munich-Berlin, 1924–32.

Fonti per la Storia d'Italia, Istituto Storico Italiano. Rome, 1887– (in progress).

Hagenmeyer, H. *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088–1100.* Innsbruck, 1902.

Holtzmann, W. See Bibliography, p. 355.

Jaffé, P. *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, 6 vols. Berlin, 1864–73.

Jaffé, P. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2nd ed. (ed. W. Wattenbach, S. Loewenfeld, and others), 2 vols. Leipzig, 1885–8.

Leib, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites au début du XIIme Siècle.* Rome, n.d. (1924).

Bibliography

Liber Pontificalis (ed. L. Duchesne), 2 vols. Paris, 1884–92.
MABILLON, J. *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, 6 vols. Paris, 1703–39.
MABILLON, J. *De Re Diplomatica Libri VI*. Paris, 1681.
MANSI, J. D. *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols. Florence, Venice, 1759–98. *Continuation* (ed. J. B. Martin and L. Petit). Paris, 190– (in progress).
MIGNE, J. P. *Patrologiae Cursus Completus*.
I, *Patrologia Latina*, 221 vols. Paris, 1844–55. [*M.P.L.*]
II, *Patrologia Graeco-Latina*, 161 vols. in 166. Paris, 1857–66. [*M.P.G.*]
MONTFAUCON, B. DE. *Bibliotheca Coisliniana*. Paris, 1715.
Monumenta Germaniae Historica (ed. G. H. Pertz, T. Mommsen, and others). Hanover, 1826– (in progress). [*M.G.H.*]
MURATORI, L. A. *Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols. Milan, 1723–51. [*R.I.Ss.*]
NEUBAUER, A. and STERN, M. *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, 2 vols. Berlin, 1892.
Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and Index. London, 1896–7. [*P.P.T.S.*]
Patrologia Orientalis (ed. R. Graffin and F. Nau). Paris, 1907– (in progress). [P.O.]
Recueil des Historiens des Croisades. Publ. Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841–1906.
Documents Arméniens, 2 vols. 1869–1906. [*R.H.C.Arm.*]
Historiens Grecs, 2 vols. 1875–81. [*R.H.C.G.*]
Historiens Occidentaux, 5 vols. 1844–95. [*R.H.C.Occ.*]
Historiens Orientaux, 5 vols. 1872–1906. [*R.H.C.Or.*]
RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.
RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2 vols. Innsbrück, 1893–1904.
ROZIÈRE, E. DE. *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vme au Xme Siècle*, 2 vols. Paris, 1859.
SATHAS, K. N. Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, 7 vols. Venice-Paris, 1872–9.
TOBLER, T. and MOLINIER, A. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, 2 vols. Geneva, 1879.
UGHELLI, F. *Italia Sacra*, 9 vols. Rome, 1644–62.
VAISSÈTE, DOM. See Bibliography, p. 359.

2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

Adamnan. *Arculf's Narrative about the Holy Places* (trans. J. R. Macpherson). *P.P.T.S.* vol. III.
Aetheria. See *Pilgrimage of Saint Silvia*.

Bibliography

Aimé of Monte Cassino. *Chronicon, L'Ystoire de li Normant* (ed. O. Delarcq). Rouen, 1892.

Albert of Aix (Albertus Aquensis). *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Alexius I Comnenus. Letters nos. I, V and XI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Ambrose, St, Archbishop of Milan. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XVI.

Annales Altahenses Majores, in *M.G.H. Scriptores*, vol. XX.

Annales Pisani (ed. P. Tronci), 4 vols. Pisa, 1828–9.

Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum (ed. L. Bréhier as *Histoire Anonyme de la Première Croisade*). Paris, 1924. (Also ed. H. Hagenmeyer. Heidelberg, 1890.)

Anselm of Ribemont. Letters nos. VIII and XV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Augustine, St, of Hippo. *Contra Faustum*, in *M.P.L.* vol. XLII.

Augustine, St, of Hippo. *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. XLI.

Augustine, St, of Hippo. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXXIII.

Bartolf of Nangis. *Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Baudri of Dol. *Historia Jerosolimitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Baudri of Dol. *Vita di Roberti de Arbrisello*, in *Aa. Ss.* (23 February), vol. III.

Bechada, Gregory. *Chanson d'Antioche en provençal* (ed. P. Meyer) in 'Fragment d'une Chanson d'Antioche en provençal', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Benedict of Accolti. *Historia Gotefridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Berno. *Libellus de Officio Missae*, in *M.P.L.* vol. CXLII.

Bernold of Constance (Saint-Blaise). *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. V.

Bohemond. Charter no. X, and letters (with other princes) nos. XII and XVI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Caffaro de Caschifelone. *Annales Ianuenses*, in *Fonti per la Storia d'Italia*, vols. I and II.

Caffaro de Caschifelone. *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Cartulaire de Saint-Chaffre (ed. U. Chevalier). Paris, 1881.

Chanson du Chevalier au Cygne (Belgian version, ed. Reiffenberg and Borgnet), 3 vols. Brussels, 1846–59.

Chanson du Chevalier au Cygne (ed. Hippeau), 2 vols. Paris, 1874–7.

Chronicon Barense, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.

Chronique de Zimmern (German text with French trans., ed. Hagenmeyer), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Clementia, Countess of Flanders. Charter no. VII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Clergy of Lucca. Letter no. XVII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

Commemoratorium de Casis Dei vel Monasteriis, in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana*, vol. I.
Cosmas of Prague. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VII.
Daimbert (Dagobert), Archbishop of Pisa and Patriarch of Jerusalem. Letters nos. XVIII and XXI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
De Sancto Wlphlagio, in *Aa. Ss.* (7 June), June, vol. II.
Ekkehard of Aura. *Chronicon Universale*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VI.
Ekkehard of Aura. *Hierosolymita*, in R.H.C.Occ. vol. V, pt. I.
Ennodius. *Libellum pro Synodo*, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. VI. Vienna, 1882.
Expeditio Contra Turcos (ed. at base of Tudebod), in *R.H.C.Occ.* vol. III.
Fulbert of Chartres. *Epistolae*, in *R.H.F.* vol. X.
Fulcher of Chartres. *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.
Genoese citizens. Pact with Bohemond no. XIV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
Gesta Adhemari Episcopi Podiensis Hierosolymitana, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Gesta Francorum. See *Anonymi Gesta Francorum*.
Gilon. *De Via Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Glaber. See Radulph.
Graindor of Douai. See Richard the Pilgrim.
Gregory VII, Pope. *Epistolae*, in *Monumenta Gregoriana*, vol. II of Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*.
Gregory VII, Pope. *Registra* (ed. E. Caspar), in *M.G.H. Epistolae*, vol. II.
Gregory of Tours. *De Gloria Martyrum*, in *M.P.L.* vol. LXXI.
Guibert of Nogent. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.
Gunther of Basle. *Solymarius*, in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I.
Henry of Huntingdon. *De Captione Antiochiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Historia Belli Sacri (*Tudebodus Continuatus*), in *R.H.C.Occ.* vol. III.
Historia et Gesta Ducis Gotfridi, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Hugh of Fleury. *Itineris Hierosolymitani Compendium*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Hugh of Lerchenfeld. *Breviarium Passagii in Terram Sanctam*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Itinerary of Bernard the Wise (trans. J. H. Bernard), in *P.P.T.S.* vol. III.
Itinerary of the Bordeaux Pilgrim (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. I.
Jerome, St. *De Viris Illustribus*, in *M.P.L.* vol. XXIII.
Jerome, St. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXII.
Jerome, St. *Liber Paralipumenon*, in *M.P.L.* vol. XXVIII.
John VIII, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. CXXVI.
Joseph of Exeter. *Poemata* (ed. J. Jusserand), *De Josepho Exoniensi*. Paris, 1877.
Joseph the Historiographer. *Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Bibliography

Lambert of Arras. Canons of the Council of Clermont, in Mansi, *Concilia*, vol. xx.

Leo IX, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. cxliii.

Leo of Ostia. *Chronicon Monasterii Casinensis*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vii.

Lisiard of Tours. *Historiae Hierosolimitanae Secunda Pars*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.

Liudprand of Cremona. *Opera* (ed. J. Becker). Hanover-Leipzig, 1925.

Malaterra, Gaufredus. *Historia Sicula*, in *M.P.L.* vol. cxlix.

Martin I, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. lxxxvii.

Milites Regni Franciae, in *R.H.F.* vol. xxii.

Miracles de Saint-Benoît (ed. E. de Certain). Paris, 1856.

Miracula Sancti Wolframni Senonensis, in *Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, ser. iii, pt. ii.

Monitum in Balduini III Historiae Nicenae vel Antiochenae Prologum, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.

Nicholas I, Pope. *Epistolae*, in *M.G.H. Epistolae*, vol. vi.

Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.

Orderic Vitalis. *Historia Ecclesiastica* (ed. A. Le Prevost and L. Delisle) in Société de l'Histoire de France, 5 vols. Paris, 1838–55.

Paschal II, Pope. Letters nos. xix and xxii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Peregrinatio Frotmundi, in *Aa. Ss.* (24 October), Oct., vol. x.

Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. i.

Prudentius. *Carmina* (ed. J. Bergman), in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. lxi.

Radulph of Caen. *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*. in *R.H.C.Occ.* vol. iii.

Radulph Glaber. *Historiarum Sui Temporis Libri V*, in *R.H.F.* vol. x.

Raymond of Aguilers. *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.

Richard the Pilgrim. *La Chanson d'Antioche*, in *Roman des Douze Pairs: La Chanson d'Antioche composée au Commencement du XIIme Siècle par le Pélérin Richard, renouvelée sous le Règne de Philippe Auguste par Graindor de Douai et publiée pour la première fois par Paulin Paris*, 2 vols. Paris, 1848.

Robert the Monk. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.

Sigebert of Gembloux. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vi.

Stephen of Blois. Letters nos. iv and x, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Symeon, Patriarch of Jerusalem (with others). Letters nos. vi and ix, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Tolomeo. *Annales Lucchenses*, in *M.G.H. Scriptores* (new ser.), vol. viii.

Translatio Sancti Nicolai in Venetiam, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.

Tudebod. *De Hierosolymitano Itinere*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.

Urban II, Pope. Letters nos. ii and iii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

Victor II, Pope. Letter no. 1 (wrongly attributed to Victor III), in *M.P.L.* vol. CXLIX.

Victricius, St. *Liber de Laude Sanctorum*, in *M.P.L.* vol. XX.

Vita Genovefae Virginis Parisiensis, in *M.G.H. Scriptores Rerum Merovingiarum*, vol. III.

Vita Lietberti, in d'Achéry, *Spicilegium*, vol. IX.

Vita Urbani II, in *Liber Pontificalis*, vol. II.

William of Malmesbury. *Gesta Regum* (ed. W. Stubbs), Rolls Series, 2 vols. London, 1887–9.

William of Tyre. *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in *R.H.C. Occ.* vol. I, pts. I and II. Old French version, *L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ibid.*

Willibald. *Hodoeporicon* (trans. W. R. Brownlow), in *P.P.T.S.* vol. III.

3. Greek Sources

Anna Comnena. *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 3 vols. Paris, 1937–45. (Also ed. Ducange, in *R.H.C.G.* vol. I.)

Attaliates, Michael. *Historia* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1853.

Basil, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XXIX–XXXII.

Bryennius, Nicephorus. *Historia* (ed. A. Meineke), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Cedrenus, Georgius. *Synopsis Historiarum* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1839.

Cerularius, Michael, Patriarch. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXX.

Chronicon Paschale (ed. L. Dindorf), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1832.

Constantine Porphyrogennetus. *De Ceremoniis Aulae Byzantinae* (ed. J. J. Rieske), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1829–30. (Also ed. A. Vogt, in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 4 vols. Paris, 1935–40.)

Doctrina Jacobi nuper Baptizati (ed. N. Bonwetsch), in *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaft zu Göttingen, Phil.-Hist. Klasse*, Neue Folge, vol. XII, no. 3. Berlin, 1910.

Eastern Patriarchs. Letter to Theophilus, in *M.P.G.* vol. XCV.

Eusebius of Caesarea. *Ecclesiastical History* (trans. H. J. Lawlor and J. E. L. Oughton), 2 vols. London, 1928.

Glycas, Michael. *Chronicon* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Gregory Nazianzene, St. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. XLVI.

John VI Cantacuzenus. *Historia* (ed. L. Schopen), in *C.S.H.B.* 3 vols. Bonn, 1828–32.

John Chrysostom, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XLVII–LXIV.

John the Oxite, Patriarch of Antioch. Περὶ τῶν Ἀζύμων, in Leib, *Deux Inédits Byzantins*.

Bibliography

Nicephorus Callistus. *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. CXLVI.
Nicephorus, Patriarch. *Opuscula Historica* (ed. C. de Boor), in *Bibliotheca Teubneriana*. Leipzig, 1880.
Origen. *In Joannem*, in *M.P.G.* vol. XIV.
Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani (ed. H. Delehaye), in *Analecta Bollandiana*, vol. XXIII. Brussels, 1903.
Peter, Patriarch of Antioch. Letter to Michael Cerularius, in *M.P.G.* vol. CXX.
Synopsis Chronicon, in Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, vol. VII.
Theodosius, Patriarch of Jerusalem. Letter to Ignatius of Constantinople, in Mansi, *Concilia*, vol. XVI.
Theophanes Confessor. *Chronographia* (ed. C. de Boor), 2 vols. Leipzig, 1883–5.
Theophylact, Archbishop of Bulgaria. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXXVI.
Zonaras, Joannes. *Epitome Historiarum*, vol. III (ed. T. Büttner-Wörst), in *C.S.H.B.* Bonn, 1897.

4. Arabic and Persian Sources

[*Note*. The titles of the works are translated into English.]

Abu'l Feda. *Moslem Annals* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. I. (Full text with Latin trans. ed. J. Reiske. Copenhagen, 1789–94.)
Abu'l Mahāsin. MS. passages quoted with Russian trans. in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar-slayer*.
Agapius of Maboug. *Universal Chronicle* (ed. with French trans. by A. A. Vasiliev), in *P.O.* vols. V, VII and VIII.
Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, Arabic version (ed. with French trans. by A. Couret), in *Revue de l'Orient Chrétien*. Paris, 1897. See Bibliography, p. 350.
Balādhuri. *The Conquest of the Nations*, Arabic text. Cairo, A.H. 1319. (English trans. by P. K. Hitti and F. C. Murgotten, 2 vols. New York, 1916–24.)
Chronicle of Seert (ed. with French trans. by A. Scher), in *P.O.* vols. IV, V, VII and XIII.
Eutychius, Patriarch of Alexandria. *Annals* (Latin trans. in *M.P.G.* vol. CXI).
Ibn al-Athir. *History of Atabegs of Mosul* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. II, pt. II.
Ibn al-Athir. *Sum of World History* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Occ.* vol. I. (Full Arabic text ed. C. J. Tornberg, 14 vols. Leyden-Upsala, 1851–76.)
Ibn Khaldūn. *Universal History*, Arabic text, 7 vols. Bulaq, A.H. 1287. (Partial Latin trans. by C. J. Tornberg. Upsala, 1840.)

Bibliography

Ibn al-Qalānisī. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades* (selected and trans. into English by H. A. R. Gibb). London, 1932. (Full Arabic text ed. H. F. Amedroz. Leyden, 1908.)

al-Jahiz. *Three Essays* (ed. J. Finkel). Cairo, 1926.

Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. III.

Miskawaihi. *The Experiences of the Nations* (concluding portions with English trans. by D. S. Margoliouth), in Amedroz and Margoliouth, *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vols. I and II (Arabic text); vols. IV and V (English text).

Mukaddasi. *Description of Syria* (English trans. by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. III.

Nasir-i-Khusrau. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (English trans. from the Persian by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. IV.

Severus of Aschmounein. *History of the Patriarchs of Alexandria* (ed. with English trans. by B. Evetts), in *P.O.* vols. I and V.

5. Armenian Sources

Aristaces of Lastivert. *History* (Armenian text). Venice, 1844.

Kirakos of Gantzag (Guiragos of Kantzak). *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Matthew of Edessa. *Chronicle* (French trans. by E. Dulaurier). Paris, 1858. (Extracts with French trans., in *R.H.C.Arm.* vol. I.)

Mekhitar of Airavanq. *History* (Armenian text). St Petersburg, 1867.

Samuel of Ani. *Chronological Tables* (French trans.), in Brosset, *Collection d'Historiens Arméniens*, vol. II.

Sebeos. *History of Heraclius* (Armenian text). Constantinople, 1851.

Sembat, Constable of Armenia. *Chronicle* (Armenian text). Paris, 1859.

Vahram Rabuni. *History of the Rupenian Dynasty* (rhyming chronicle, Armenian text with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Vartan the Great. *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

6. Syriac Sources

Anonymous Chronicle (ed. A. S. Tritton with English trans.) in 'First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle', in *Journal of the Royal Asiatic Society*. London, 1933.

Anonymous Chronicle (ed. with Latin trans. by I. Guidi), in *C.S.C.O Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV. (Quoted as *Anon. Guidi.*)

Bar Hebraeus, Gregory, called Abu'l Faraj. *Chronography*. Part I, *Political History* (ed. with English trans. by E. A. W. Budge), 2 vols. Oxford, 1932. Parts II and III, *Ecclesiastical History* (ed. with Latin trans. by

Bibliography

J. B. Abbeloos and T. J. Lamy), 2 vols. Louvain, 1872–7. (Extracts in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. II.)

Elias of Nisibin. *Chronicle* (ed. with French trans. by E. W. Brooks and J. B. Chabot), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vols. VII and VIII.

Michael the Syrian. *Chronicle* (ed. with French trans. by J. B. Chabot), 4 vols. Paris, 1899–1910.

'Thomas the Priest.' *Book of the Caliphs* (ed. as *Chronicon Miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens* with Latin trans. by E. W. Brooks), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV.

7. Hebrew Sources

Anonymous of Mainz-Darmstadt. *Memorial* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Eliezer bar Nathan. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Ephraim bar Jacob. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Martyrology of Nuremberg, Das Martyrologium des Nürnberger Memorbuches (ed. with German trans.), in Safeld, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. III. Berlin, 1898.

Salomon bar Simeon. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

8. Various Sources

Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, in Georgian (ed. with Russian trans. by A. Marr), in *Textes et Recherches rélatifs à la Philologie Arménienne*, vol. IX. St Petersburg, 1909. (This work was probably originally written in Greek. The Georgian version is derived from a lost Arabic version, of which the work mentioned in Bibliography, p. 348, is an abridgement. A second Georgian and a slightly fuller Arabic version have since been discovered. See P. Peeters in *Analecta Bollandiana*, vols. XXXI and XXXVIII.)

John of Nikiu. *Chronicle* (trans. from the Ethiopic by R. H. Charles). London, 1916. (This work was originally written in Greek and translated into Arabic and from Arabic into Ethiopic. Both the Greek and Arabic versions are lost.)

II. MODERN WORKS

Amann, E. and Dumas, A. *L'Eglise au pouvoir des Laïques*, vol. VII of A. Fliche and V. Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1940.

Amantos, K. Ἱστορία τοῦ Βυζαντινοῦ Κράτους, 2 vols. Athens, 1939–48.

Amari, M. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 9 vols. Florence, 1854–72.

Bibliography

AMÉLINEAU, E. 'La Conquête de l'Egypte par les Arabes', in *Revue Historique*, vol. CXIX. Paris, 1915.

ANDERSON, J. G. C. 'The Road-System of Eastern Asia Minor', in *Journal of Hellenic Studies*, vol. XVII. London, 1897.

ARCHER, T. A. and KINGSFORD, C. L. *The Crusades*. London, 1894.

ARNOLD, T. and GUILLAUME, A. *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.

BALLESTEROS Y BERETTA, A. *Historia de España*, vol. II. Barcelona, 1908.

BARKER, E. Article 'The Crusades', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.

BARTHOLD, W. Article 'Turks', in *Encyclopaedia of Islam*.

BARTHOLD, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Gibb Memorial Series. Oxford, 1928.

BAUDRILLART, A., VOGT, A. and ROUZIÈS, M. *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*. Paris, 1912– (in progress).

BEAUMONT, A. A. 'Albert of Aachen and the County of Edessa', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

BECKER, C. H. Article 'Djizya', in *Encyclopaedia of Islam*.

BERCHEM, M. VAN. 'The Mosaics of the Dome of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus', ch. V in Creswell, *Early Muslim Architecture*.

BLEYE, A. *Manual de Historia de España*, 2 vols. Bilbao, 1927–8.

BOGIATZIDES, I. 'Ιστορικαὶ Μελέται. Thessalonica, 1932.

BOISSONNADE, P. 'Cluny, la Papauté et la première grande Croisade internationale contre les Sarrasins d'Espagne', in *Revue des Questions Historiques*, vol. CXVII. Paris, 1932.

BOISSONNADE, P. *Du nouveau sur la Chanson de Roland*. Paris, 1923.

BRÉHIER, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades*. Paris, 1928.

BRÉHIER, L. and AIGRAN, A. *Grégoire le Grand, les Etats barbares et la Conquête Arabe*, vol. V of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*.

BREYSIG, T. 'Gottfried von Bouillon vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte*, vol. XVII. Trier, 1898.

BROWNE, L. E. *The Eclipse of Christianity in Asia*. Cambridge, 1933.

BUCKLER, G. *Anna Comnena*. Oxford, 1929.

BUHL, F. Articles 'Al Kuds' and 'Muhammed', in *Encyclopaedia of Islam*.

BURKITT, F. C. *Early Eastern Christianity*. London, 1904.

BURY, J. B. *History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene*, 2 vols. London, 1889.

BURY, J. B. *Selected Essays* (ed. Temperley). Cambridge, 1930.

BURY, J. B. 'The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos', in *English Historical Review*, vol. XXII. London, 1907.

BUTLER, A. J. *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford, 1902.

BYRNE, E. H. 'Genoese Colonies in Syria', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

Bibliography

CABROL, F. and LECLERCQ, H. *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie.* Paris, 1907– (in progress).

CAETANI, L. C. *Annali dell' Islam*, 7 vols. Milan, 1905–14.

CAHEN, C. 'Diyar Bakr au temps des premiers Artuqides', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXVII. Paris, 1935.

CAHEN, C. 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. IX. Brussels, 1934.

CAHEN, C. 'La première Pénétration turque en Asie Mineure', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.

CAHEN, C. *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades.* Paris, 1940.

CAHEN, C. 'La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXIV. Paris, 1943–5.

Cambridge Medieval History (planned by J. B. Bury), 8 vols. Cambridge, 1911–36.

CAUWENBERGH, E. VAN. *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires dans le droit communal de la Belgique au Moyen Age.* Louvain, 1922.

CAVAIGNAC, E. *Histoire du Monde.* See Gaudefroy-Demombynes.

CHALANDON, F. *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène Ier.* Paris, 1900.

CHALANDON, F. *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vols. Paris, 1907.

CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade.* Paris, 1925.

CHALANDON, F. *Les Comnènes*, t. II: *Jean II Comnène et Manuel Comnène.* Paris, 1913.

CHAMICH, M. *History of Armenia* (trans. J. Avdall), 2 vols. Calcutta, 1827.

CHEVALIER, U. *Cartulaire de Saint-Chaffre.* See Bibliography, p. 344.

CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides.* Paris–Copenhagen, 1936.

COGNASSO, F. *La Genesi delle Crociate.* Turin, 1934.

COURET, A. *La Palestine sous les Empereurs grecs.* Grenoble, 1869.

COURET, A. *La Prise de Jérusalem par les Perses en 614.* Orléans, 1896.

CRESWELL, K. A. C. *Early Muslim Architecture*, 2 vols. Oxford, 1932–40.

CROZET, R. 'Le Voyage d'Urbain II et ses arrangements avec le Clergé de France', in *Revue Historique*, vol. CLXXIX. Paris, 1937.

DAVID, C. W. *Robert Curthose.* Cambridge, Mass., 1920.

DELBRÜCK, H. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte*, 3 vols. Berlin, 1907.

DELEHAYE, H. *Les Origines du Culte des Martyres*, in *Analecta Bollandiana*, vol. XLIV. Brussels, 1925.

DELEHAYE, H. *Sanctus: Essai sur le Culte des Saints.* Brussels, 1927.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire.* Cambridge, Mass., 1945.

DESCHAMPS, P. *Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte*: vol. I, *Le Crac des Chevaliers.* Paris, 1934; vol. II, *La Défense du Royaume de Jérusalem.* Paris, 1939.

Bibliography

DEVREESSE, R. *Le Patriarchat d'Antioche*. Paris, 1945.

DIEHL, C. and MARÇAIS, G. *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, vol. III of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1936.

DIEHL, C., MARÇAIS, G., OECONOMOS, L., GUILLAUD, R. and GROUSSET, R. *L'Europe Orientale de 1081 à 1453*, *ibid*. vol. IX. Paris, 1945.

DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.

DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, vol. II. Munich-Berlin, 1925.

DOZY, R. *Histoire des Musulmans d'Espagne* (new ed.), 3 vols. Leyden, 1932.

DUCANGE, C. DU F. *Les Familles d'Outremer* (ed. E. G. Rey). Paris, 1869.

DUCHESNE, L. *Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical*. Paris, 1898.

DUNCALF, F. 'The Pope's Plan for the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

DUVAL, R. *Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse*. Paris, 1892.

DUSSAUD, R. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris, 1927.

DVORNIK, F. *The Photian Schism*. Cambridge, 1948.

EBERSOLT, J. *Les Sanctuaires de Byzance*. Paris, 1921.

EBERSOLT, J. *Orient et Occident*, 2 vols. Paris, 1928–9.

Encyclopaedia of Islam, 4 vols. Leyden-London, 1908–34.

ENLART, C. *Les Monuments des Croisés*, 2 vols. (with albums). Paris, 1925–8.

ERDMANN, C. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*. Stuttgart, 1935.

EVERY, G. *The Byzantine Patriarchate*. London, 1947.

FLICHE, A. *Le Règne de Philippe Ier, Roi de France*. Paris, 1912.

FLICHE, A. *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, vol. II of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1930.

FLICHE, A. 'Urbain II et la Croisade', in *Revue de l'Histoire de l'Eglise de France*, vol. XIII. Paris, 1927.

FLICHE, A. and MARTIN, E. V. *Histoire de l'Eglise*. See Amann and Bréhier.

FRITSCHE, E. *Islam und Christentum im Mittelalter*. Breslau, 1930.

FRYE, R. and SAYILI, A. 'Selcuklardan evvel Ontasarkta Türkler', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1946.

GAUDEFROY-DEMOMBYNES, J. and PLATONOV, S. F. *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*, in E. Cavaignac, *Histoire de Monde*, vol. VII[1]. Paris, 1931.

GAY, J. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*. Paris, 1904.

GAY, J. *Les Papes du XIe siècle et la Chrétienté*. Paris, 1926.

GIBBON, E. *Decline and Fall of the Roman Empire* (ed. J. B. Bury), 7 vols. London, 1896.

GINDLER, P. *Graf Balduin I von Edessa*. Halle, 1901.

GOEJE, M. J. DE. *Mémoire sur la Conquête de la Syrie par les Arabes*. Leyden, 1900.

GORDLEVSKY, A. *Seldjuk Empire in Asia Minor* (in Russian). Moscow, 1941.

Bibliography

GRAEFE, E. Article 'Hakim', in *Encyclopaedia of Islam.*

GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, 11 vols. Leipzig, 1866–78.

GRAF, G. *Geschichte der Christlichen Arabischen Litteratur*, 2 vols. Vatican City, 1944–7.

GRANDCLAUDE, M. *Etude Critique sur les Livres des Assises de Jérusalem.* Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Mahomet et le Monophysisme', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Notes sur Anne Comnène', in *Byzantion*, vol. III. Brussels, 1926.

GROUSSET, R. *Histoire de l'Arménie des Origines à 1071.* Paris, 1947.

GROUSSET, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*, 3 vols. Paris, 1934–6.

GROUSSET, R. *L'Empire du Levant.* Paris, 1946.

GRUMEL, V. 'Jérusalem entre Rome et Byzance', in *Echos d'Orient*, vol. XXXVIII. Paris, 1939.

GRUMEL, V. 'Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol. XXXII. Paris, 1933.

GRUNEBAUM, G. E. V. *Medieval Islam* (2nd imp.). Chicago, 1947.

GÜTERBOCK, C. *Der Islam im Lichte der byzantinischen Polemik.* Berlin, 1912.

HAGENMEYER, H. *Chronologie de la Première Croisade.* Paris, 1902.

HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe.* See Bibliography, p. 342.

HAGENMEYER, H. *Peter der Eremite.* Leipzig, 1879. French trans. (without appendices) by Furcy Raynaud, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite.* Paris, 1883.

HALPHEN, L. *L'Essor de l'Europe*, vol. VI of *Peuples et Civilisations* (ed. I. Halphen and P. Sagnac), 2nd ed. Paris, 1940.

HANSEN, W. *Das Problem des Kirchenstaates in Jerusalem.* Fribourg, 1928.

HATEM, A. *Les Poèmes Epiques des Croisades.* Paris, 1932.

HEERMANN, O. *Die Gefechtsführung der abendländischen Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzuges.* Marburg, 1887.

HEFELE, C. J. *Histoire des Conciles* (trans. and ed. H. Leclercq). Paris, 1907– (in progress).

HERGENRÖTHER, J. *Photius, Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols. Regensburg, 1887–9.

HEYD, W. *Histoire du Commerce du Levant* (trans. Furcy Raynaud; 2nd reimp.), 2 vols. Leipzig, 1936.

HILL, G. *A History of Cyprus*, vol. I. Cambridge, 1940.

HOGARTH, D. G. and MUNRO, J. A. R. *Modern and Ancient Roads in Eastern Asia Minor. Royal Geographical Society, Supplementary Papers* (new ser.), vol. III. London, 1893.

Bibliography

HOLTZMANN, W. 'Die Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXVIII. Leipzig, 1928.

HONIGMANN, E. *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. III. Brussels, 1935.

HONIGMANN, E. Articles 'al Lâdhiqiya', 'Izniq', 'Macarrat al Numan', 'Malatya', 'Marash', 'Missis', 'Orfa', 'Ortoqids' and 'Shaizar', in *Encyclopaedia of Islam*.

HOUTSMA, M. T. Article 'Seljuks', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.; articles 'Menguchek' and 'Tutush', in *Encyclopaedia of Islam*.

HUART, C. *Histoire des Arabes*, 2 vols. Paris, 1911-12.

HUBERTI, L. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach, 1892.

HUSSEY, J. M. *Church and Learning in the Byzantine Empire*. Oxford, 1937.

IORGA, N. *Histoire de la Vie Byzantine*, 3 vols. Paris, 1934.

IORGA, N. *Histoire des Croisades*. Paris, 1924.

IORGA, N. *Les Narrateurs de la Première Croisade*. Paris, 1928.

Islam Ansiklopedisi. Istanbul, 1940- (in progress).

JIREČEK, C. *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe*. Prague, 1877.

JORANSON, E. 'The Great German Pilgrimage of 1064-65', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

JUGIE, M. *Le Schisme Byzantin*. Paris, 1941.

JUGIE, M. 'Le Schisme de Michel Cérulaire', in *Echos d'Orient*, vol. XXXV. Paris, 1937.

JUYNBOLL, T. W. Article 'Kharadj', in *Encyclopaedia of Islam*.

KLEIN, C. *Raimund von Aguilers: Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Berlin, 1892.

KNAPPEN, M. M. 'Robert II of Flanders in the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

KÖPRÜLÜ, M. F. 'Anadolun Selcuklarî Tarihi'nin Yerli Kaynaklari', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1943.

KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.

KRAUSS, S. *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichten*. Leipzig, 1914.

KREBS, F. *Zur Kritik Alberts von Aachen*. Münster, 1881.

KREY, A. C. 'A Neglected Passage in the *Gesta*', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

KREY, A. C. 'Urban's Crusade, Success or Failure?', in *American Historical Review*, vol. LIII. New York, 1918.

KRUMBACHER, K. *Geschichte der byzantinischen Litteratur*. Munich, 1897.

KÜGLER, B. *Albert von Aachen*. Stuttgart, 1885.

KÜGLER, B. *Bohemund und Tankred*. Tübingen, 1862.

Bibliography

KÜGLER, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1891.

KÜGLER, B. 'Peter der Eremite und Albert von Aachen', in *Historische Zeitschrift*, vol. XLIV. Berlin-Munich, 1880.

KÜHNE, E. *Zur Geschichte des Fürstentums Antiochien, 1098–1130*. Berlin, 1897.

KULAKOVSKY, Y. 'Criticism of evidence in Theophanes' (in Russian), in *Vizantiiski Vremennik*, vol. XXI. St Petersburg, 1915.

KULAKOVSKY, Y. *History of Byzantium* (in Russian), 3 vols. Kiev, 1913–15.

KURAT, A. N. *Peçenek Tarihi*. Istanbul, 1937.

Kuseir Amra. Published by Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 2 vols. Vienna, 1907.

LABOURT, J. *De Timotheo I, Nestorianorum Patriarcha*. Paris, 1904.

LABOURT, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse*. Paris, 1904.

LAMMENS, H. *Etudes sur le Siècle des Ommayades*. Beirut, 1930.

LAMMENS, H. *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*. Beirut, 1928.

LAMMENS, H. *La Syrie: Précis Historique*, 2 vols. Beirut, 1921.

LA MONTE, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge, Mass., 1932.

LANE POOLE, S. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1925.

LANE POOLE, S. *The Mohammedan Dynasties*. Paris, 1925.

LANGLOIS, V. *Numismatique de l'Arménie au Moyen Age*. Paris, 1855.

LAURENT, J. *Byzance et les Turcs Seldjoucides jusqu'en 1081*. Nancy, 1913.

LAURENT, J. 'Byzance et les Origines du Sultanat de Roum', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

LAURENT, J. 'Des Grecs aux Croisés: Etude sur l'histoire d'Edesse', in *Byzantion*, vol. I. Brussels, 1924.

LAURENT, J. *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*. Paris, 1919.

LAURENT, J. 'Le Duc d'Antioche Katchatour', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXX. Leipzig, 1929–30.

LAURENT, J. 'Les Arméniens de Cilicie', in *Mélanges Schlumberger*, vol. I. Paris, 1924.

LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*. See Bibliography, p. 343.

LEIB, B. *Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIème siècle*. Paris, 1924.

LE STRANGE, G. *Lands of the Eastern Caliphate*. Cambridge, 1905.

LE STRANGE, G. *Palestine under the Moslems*. London, 1890.

LOEWE, H. M. J. 'The Seljuks', in *Cambridge Medieval History*, vol. IV, ch. X, B. Cambridge, 1923.

LONGNON, J. *Les Français d'Outremer au Moyen Age*. Paris, 1929.

LOT, F. *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, 2 vols. Paris, 1946.

LUCHAIRE, A. 'Les premiers Capétiens', in E. Lavisse, *Histoire de France*, vol. II, 2. Paris, 1901.

MANSELLI, R. 'Normanni d'Italia alla Prima Crociata: Boemondo d'Altavilla', in *Japigia*, vol. IX. Naples, 1940.

Bibliography

MANTEYER, G. DE. *La Provence du Ier au XIIe Siècle*. Paris, 1908.
MARICQ, A. 'Un "Comte de Brabant" et des "Brabançons" dans deux textes byzantins', in *Académie Royale de Belgique, Bulletin de la Classe des Lettres*, 5ème série, vol. XXXIV. Brussels, 1948.
MÉLY, F. DE. 'La Croix des premiers Croisés', in supplementary vol. to Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*. Paris, 1904.
MICHAUD, J. F. *Histoire des Croisades*, 5 vols. Paris, 1817–22.
MICHEL, A. *Amalfi und Jerusalem im griechischen Kirchenstreit*. *Orientalia Christiana Analecta*, no. 121. Rome, 1939.
MICHEL, A. *Humbert und Kerularios*, 2 vols. Paderborn, 1924–30.
MOELLER, C. 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-Sépulcre', in *Mélanges Godfried Kurth*, vol. I. Liège, 1908.
MORAVCSIK, G. *Byzantinoturcica*, 2 vols. Budapest, 1942–3.
MORDTMANN, J. H. Articles 'Izmir' and 'Eskişehir', in *Encyclopaedia of Islam*.
MUIR, W. *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (rev. ed.). Edinburgh, 1915.
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). Article 'Danişmend', in *Islam Ansiklopedisi*.
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). *Türkiye Tarihi, Selcuklu Dairi*, vol. I, *Anadolun Fethi*. Istanbul, 1934.
MUNRO, D. C. 'Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?', in *American Historical Review*, vol. XXVII. New York, 1922.
MUNRO, D. C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York, 1936.
MUNRO, D. C. 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in *American Historical Review*, vol. XI. New York, 1906.
NAU, F. *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIème au VIIIème siècle*. Paris, 1933.
NICHOLSON, R. H. *Tancred*. Chicago, 1940.
NORDEN, W. *Das Papsttum und Byzanz*. Berlin, 1903.
OECONOMOS, L. *La Vie Religieuse dans l'Empire Byzantin*. Paris, 1918.
O'LEARY, DE L. *Arabia before Mohammed*. London, 1927.
O'LEARY, DE L. *A short History of the Fatimid Khaliphate*. London, 1923.
O'LEARY, DE L. *How Greek Science passed to the Arabs*. London, 1948.
OMAN, C. W. C. *A History of the Art of War in the Middle Ages* (2nd ed.), 2 vols. London, 1924.
ORMANIAN, M. *L'Eglise Arménienne*. Paris, 1910.
OSTROGORSKY, G. 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *Cambridge Economic History of Europe*, vol. I. Cambridge, 1942.
OSTROGORSKY, G. *Geschichte des byzantinischen Staates*. Munich, 1940.
PARIS, G. 'La Chanson d'Antioche provençale et la Grande Conquista de Ultramar', in *Romania*, vols. XVII, XIX and XXII. Paris, 1888, 1890, 1893.
PAULOT, L. *Un Pape Français: Urbain II*. Paris, 1903.
PERNICE, A. *L'Imperatore Eraclio*. Florence, 1905.
PFISTER, C. *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*. Paris, 1885.

PIGEONNEAU, H. *Le Cycle de la Croisade et la Famille du Bouillon*. Saint-Cloud, 1877.
PIGNOT, J. H. *Histoire de l'Ordre de Cluny*, 3 vols. Autun, 1868.
PIGULEVSKAYA, N. V. *Byzantium and Iran in the Sixth and Seventh Centuries* (in Russian). Moscow, 1946.
PONTIERI, E. *Tra i Normanni nell' Italia meridionale*. Naples, 1948.
POUPARDIN, R. *Le Royaume de Bourgogne*. Paris, 1907.
PRUTZ, H. G. *Wilhelm von Tyrus*. Munich, 1883.
RAMSAY, W. M. *The Historical Geography of Asia Minor*. *Royal Geographical Society, Supplementary Papers*, vol. IV. London, 1890.
RAMSAY, W. M. 'The Intermixture of Races in Asia Minor', in *Proceedings of the British Academy*, vol. VII. London, 1917.
RASOVSKY, D. 'The Polovtsians' (in Russian), in *Seminarium Kondakovianum*, vols. VI–X. Prague-Belgrade, 1935–9.
REY, E. G. *Les Colonies Franques de Syrie*. Paris, 1883.
REY, E. G. 'Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII. Paris, 1900–1.
RIANT, P. *Donation de Hugues, Marquis de Toscane*. *Académie d'Inscriptions et de Lettres, Histoires et Mémoires*, vol. XXXI. Paris, 1884.
RIANT, P. *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte*. Paris, 1865.
RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.
RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades*. See Bibliography, p. 343.
RICHMOND, E. T. *The Dome of the Rock in Jerusalem*. Oxford, 1924.
RÖHRICHT, R. 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in Raumer, *Historisches Taschenbuch*, vol. V, Folge 5. Leipzig, 1875.
RÖHRICHT, R. *Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Innsbruck, 1901.
RÖHRICHT, R. *Geschichte des Königreichs Jerusalem*. Innsbruck, 1898.
RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*. See Bibliography, p. 343.
ROSEN, V. R. *Emperor Basil the Bulgar-slayer* (in Russian). St Petersburg, 1883.
ROUSSET, P. *Les Origines et les Caractères de la première Croisade*. Neuchâtel, 1945.
RUNCIMAN, S. 'Charlemagne and Palestine', in *English Historical Review*, vol. L. London, 1935.
RUNCIMAN, S. 'The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.
RUNCIMAN, S. *The Emperor Romanus Lecapenus*. Cambridge, 1929.
RUNCIMAN, S. 'The Holy Lance found at Antioch', in *Analecta Bollandiana*, vol. LXVIII. Brussels, 1950.
SACKUR, E. *Die Cluniacenser*, 2 vols. Halle, 1892–4.
SCHLUMBERGER, G. 'Deux Chefs normands des Armées byzantines', in *Revue Historique*, vol. XVI. Paris, 1881.

Bibliography

SCHLUMBERGER, G. *L'Epopée Byzantine*, 3 vols. Paris, 1896–1905.

SCHLUMBERGER, G. *Numismatique de l'Orient Latin*, 2 vols. Paris, 1878–82.

SCHLUMBERGER, G. *Récits de Byzance et des Croisades*, 2 vols. Paris, 1917–22.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Empire Byzantin*. Paris, 1884.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Orient Latin* (continued by F. Chalandon and completed by A. Blanchard). Paris, 1943.

SCHLUMBERGER, G. *Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas*. Paris, 1890.

SIMON, G. *Der Islam und die Christliche Verkündigung*. Gütersloh, 1920.

SOBERNHEIM, M. Article 'Ibn Ammar', in *Encyclopaedia of Islam*.

STARR, J. 'Byzantine Jewry on the eve of the Arab Conquest', in *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. XV. Jerusalem, 1935.

STARR, J. *The Jews in the Byzantine Empire, 641–1204*. Athens, 1939.

STEVENSON, W. B. 'Islam in Syria and Egypt' and 'The First Crusade', in *Cambridge Medieval History*, vol. V, chs. VI and VII. Cambridge, 1926.

STEVENSON, W. B. *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.

SYBEL, H. VON. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* (2nd ed.). Leipzig, 1881.

TER MIKELIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zur Byzantinischen Kirche*. Leipzig, 1892.

TER MINASSIANTZ, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zu den Syrischen Kirchen*. Leipzig, 1904.

THIBAUDET, A. *Cluny*. Paris, 1928.

THUROT, C. 'Etudes Critiques sur les Historiens de la Première Croisade', in *Revue Historique*, vol. I. Paris, 1876.

TOMASCHEK, W. *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter. Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philos.-hist. Classe*, vol. CXXIV. Vienna, 1891.

TOURNEBIZE, F. *Histoire politique et religieuse de l'Arménie*. Paris, 1910.

TRITTON, A. S. *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*. Oxford, 1930.

USENER, H. *Der Heilige Tychon, Sonderbare Heilige*, no. I. Leipzig-Berlin, 1907.

USPENSKY, F. I. *History of the Crusades* (in Russian). St Petersburg, 1900.

VACANT, A. and MANGENOT, E. *Dictionnaire de Théologie Catholique*. Paris, 1899– (in progress).

VAILHÉ, S. 'La Prise de Jérusalem par les Perses en 614', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. VI. Paris, 1901.

VAILHÉ, S. 'Les Juifs et la Prise de Jérusalem en 614', in *Echos d'Orient*, vol. XII. Paris, 1907.

VAISSÈTE, DOM. *Histoire de Languedoc* (ed. A. Molinier), 10 vols. Toulouse, 1874.

VASILIEV, A. A. *Byzantium and the Arabs* (in Russian), 2 vols. St Petersburg, 1900–2. Vol. I trans. H. Grégoire and E. M. Canard as *Byzance et les Arabes*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. I. Brussels, 1935.

Bibliography

VASILIEV, A. A. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols. Paris, 1932.

VASILIEV, A. A. 'The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. IX. Prague-Belgrade, 1937.

VASILIEVSKY, V. G. *Works* (in Russian), vol. I, containing *Byzantium and the Petchenegs*, and *The Varango-Russian and the Varango-English Company in Constantinople*. St Petersburg, 1908.

VERLINDEN, C. 'Robert Ier, Le Frison, Comte de Flandre', in *Werken mitgegeven door de Faculteit der Wijsbegeerde en Letteren te Gent*. Ghent, 1935.

VILLEY, M. *La Croisade: Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, vol. VI of H. X. Aquillière, *L'Eglise et l'Etat au Moyen Age*. Paris, 1942.

VINCENT, H. and ABEL, R. *Jérusalem*, vol. II, *Jérusalem Nouvelle* (2 fasc.). Paris, 1914–26.

WELLHAUSEN, J. *Das Arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902.

WIET, G. *L'Egypte Arabe*, vol. IV of C. Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*. Paris, 1937.

WILKEN, F. *Geschichte der Kreuzzüge*, 7 vols. Leipzig, 1807–32.

WITTEK, P. 'Byzantinisch-seldschukische Beziehungen', in *Ostersche Genootschap in Nederland, Verlag van het achste Congress*. Leyden, 1936.

WITTEK, P. 'Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. XI. Brussels, 1936.

WITTEK, P. 'Le Sultan de Rum', in *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves*, vol. VI. Brussels, 1938.

WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1938.

WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096: ein Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Tübingen, 1891.

YAKUBOVSKY, A. 'The Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *Proceedings of the Academy of Science of the U.S.S.R.* Moscow, 1936.

YEWDALE, R. B. *Bohemund the First*. New York, 1917.

YINANÇ. See Mukrimin Halil.

ZETTERSTEEN, K. V. Articles 'Sukman ibn Ortok' and 'Suleiman ben Qutulmush', in *Encyclopaedia of Islam*.

ZLATARSKY, V. N. *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), 3 vols. in 4. Sofia, 1918–40.